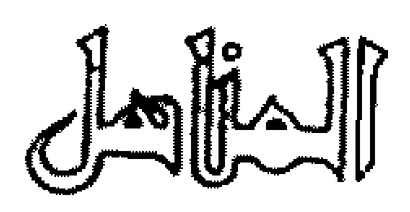
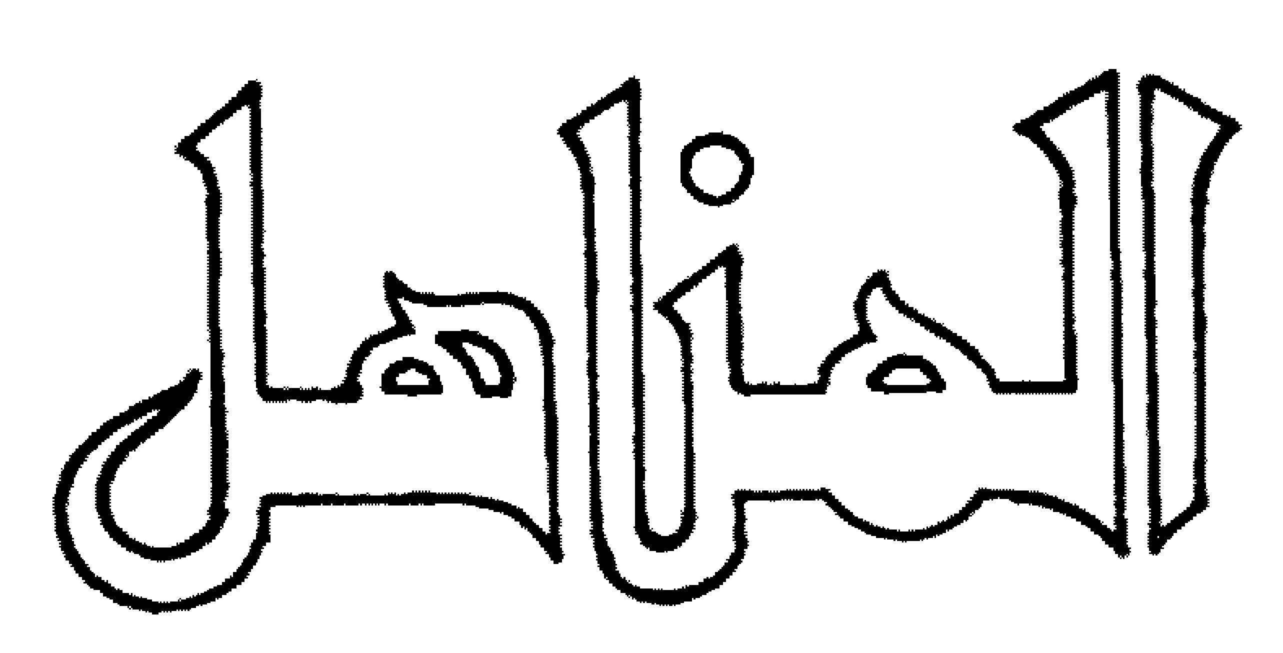
المناهل



2





تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثاني
السنة الثانية

صفر الخير 1395
مــارس 1975

تهنئة "المناهل" بعيد العرش

و"المناهل" إذ تطل في حلة من السناء والبهاء، ريانة متدفقة بعصارة تاريخ أمجاد عريقة خصيبة تمتد زهاء ثلاثة قرون ونصف، كلها مجللة ميمونة موسومة بالبطولات والفتوحات، يسعدها أن ترفع آيات :

وهي مقدرة مدركة بابتهاج، جميل أياديه، وصادق حدبه، وعميق رعايته، معتزة فخورة بما خلعه جلالته عليها من كريم العبارات، ونبيل المشاعر: حلة ملكية حسنية فضفاضة فاخرة، تزينت بها هي وأسرتها وكتابها وقراؤها في عددها الأول الحسني.

وإذ ترفع "المناهل" هذه العواطف الجياشة إلى مقامه العالي، تضرع إلى الله القدير، أن ينعم جلالته بهذا العيد السعيد، هو وأسرته الكريمة، وشعبه الوفي، وأن يقر عينيه بسمو ولي العهد المحبوب سيدي محمد، وصنوه مولاي رشيد، ويسدد خطاه، ويقوي عزمته في نضاله الحاسم البطولي، لاسترجاع اراضينا المغتصبة، واستكمال وحدة ترابنا، وان يبقيه لهذا الشعب قائدا ملهما حكيما تحفه الرعاية الإلهية.

المناهل

افتتاحية*

تمجيداً للغة العربية في عهد صاحب الجلالة

- الاحتفال بالذكرى الألفية للشاعر ابن زيدون
- احداث المجمع العلمي بالمغرب لبحوث الشريعة

محمد اباحنيني
وزير الدولة
المكلف بالشؤون الثقافية

لو كان لقاؤنا هذا يوم حط الرحال ، وأراح الركاب ، فوق تراب هذه الديار ، اخواننا العرب الوافدون علينا من المشرق العزيز ، أو يوم اجتمعوا لافتتاح أعمالهم لنطقت كلمتي هذه جاهرة بالترحيب ، صادعة بشكر الوفادة ، وتمجيد القصد منها والغاية ، ولكنهم حلوا بمغرب وطنهم ، فتلقاهم بصادق المشاعر وحفي الترحاب وحياهم باسم المغرب ملكه وشعبه ، تحية

(*) نص الخطاب الذي القاه معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية في الحفل التكريمي الذي اقامه على شرف اعضاء اللجنة الاستشارية للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي .

القريب لقريبه والشقيق لشقيقه ، اخوان لهم اتصلت بين الزائر منهم والمزور ، أسباب التعارف والتعاطف ، والمودة والصفاء

فلم تبق لهذه الكلمة التى أجشمكم سماعها وقد أزف وقت الوداع ، وأجم الرحيل ، الا أن تأسف للفراق ، وتأسى على تجرم أيام الزيارة والمقام ، وتتجه الى الله سائلة للوافدين الكرام ، سلامة العودة والاياب ، ولجميع الاخوة الاشقاء الذين انتظمهم سعى جامع ، وعمل نافع ، لقاء جديدا غير بعيد واتصالا مديدا تتلاحق مواعده وتتعاقب على الايام فوائده وعوائده .

على أن حظى وقد ترك لى من هذا الامر ما ترك ، ليس بالحظ الذى أعده طفيفا مبخوسا ، ولا نصيبى من حلول اخواننا بالمغرب ، بالنصيب الذى أراه مخسورا موكوسا فقد شاءت الاقدار أن تتوثق الصلات بينى وبين فطاحل المؤتمرين وأعلامهم ، بعد أن أشرفت أعمالهم على الانتهاء ، وكادت نفوسهم أن تفىء الى الدعة ، وقاربت أن تستريح الى ما أوضعوا فى سبيله من جميل الاهداف والغايات .

وها هم أولاء ، وقد أفرخ روعهم ، وخلا ذرعهم ، واطمأن بالهم يشرفون ويزينون هذا الاحتفاء ، بالطلعة المرموقة ،

والحضرة المشهودة ، ليس لعباد عليهم امارة ، قــد استراحوا بعض الراحة من عناء ما أدهم من أعباء المطارحــة والمناظرة ، ونجوا الى حين من مكاره المطالبة والمتابعة ، فلنا منهم لحظات الهشاشة والطلاقــة وساعة من ساعــات الخلــو والفــراغ ، والاسترواح والانشراح ، وهو حظ خالص ، وسعد شاخص ، وبرهة لا يجود بأمثالها الزمان ، الا فى الاوان بعد الاوان وغب الفترات المتواصلة والاحقاب المتباعدة .

* * *

كثيرا ما يساق المتقلدون لاعباء الدولة ، القائمــون بأمر من أمور السلطان فى مناسبات مختلفة ، الى الادلاء راغبين أو غير راغبين ، برأى من الآراء ، والى الافضاء راضين أو كــارهين ، بوجه من وجوه الاخذ والرد فيمــا هو معهود اليهــم ، معقــود باجتهادهم ، مفروض على الاداة التى يقاسمونها تكاليف الحكم ، ويشاطرونها تبعات المزاولة والتصريف ، واذا كــان سرورى عظيما بهذه المناسبة التى تتيح لنا فرصة الاجتماع مــرة أخرى باخوان لنا جلة أكابر ، أصفياء أعزاء تفضلوا بالزيارة ، وتكرموا بصلة رحم ماسة ، فليس لى من رأى أفضى اليهم بــه ، يعزب عما هم اليه منقطعون ويند عن دائرة ما هم فيه متقلبون مــلء

قلوبهم وعقولهم ، ذلك أنهم على التربية دائبون عاكفون ، وعلى اتساع رحاب الثقافة قائمون ، وللعلوم باسطون وناشرون ، ليس لهم عن المعرفة بما ينداح له مدلول هذه الكلمة ، من أصناف وأنماط محيد ولا محيص وليس لهم عن اللغة العربية واثرائها وتثبيت أركانها وارساخ بنيانها مصرف ولا متحول ، قد أخلصوا الى العرفان جهد اخلاصهم وعبأوا لصالح العلم كتائب أذهانهم الثاقبة ، وبصائرهم النافذة فما أكثر ما كسبوا من رهان ، وأوفر ما أصابوا من خصل ، وما أغلى ما نثروه بين الناس من فرائد وأنفس ما جادوا به من عطاء وأجزلوا من فوائد .

فأى مجال بعد هذا يستطيع أن يلجه الوزير المكلف بالشؤون الثقافية فى هذه البلاد ، دون أن تسام بضاعته برد واقصاء وتمنى بصد وهجران ، ودون أن يسدى اليه النصح والارشاد أن ينتجع من بلاد الله لتمره أرضا يشط المزار بينها وبين أرض هجر ، وما مثله وقد أوصدت دونه الابواب وسدت عليه المسالك وعميت المذاهب الا كمثل من وصفه الشاعر بقوله :

كان بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

ومع هذا ، فان المنافذ لم تضرب على جميعها الاسداد ، فقد بقى من الوجوه ما هو ميسر للخلاص مبذول للنجاة ، فاذا

كان الابتكار قد أشتط وعز ، وانخذلت المفاجأة وقل النصير من الجديد والطريف مما يتصل بما تعنى بـه المجامع والجامعات ، والمنظمات الثقافية والمؤسسات فليس هناك أيسر من الاعتصام بما يفيد التذكير ، ويدل على الاسترسال وينـم عن المواظبـة ولا أسلم من الاستواء على جودى الطريق المرسوم ، والخطـة التى عجمت عودها الايام وجلا محاسنها التجريب والاختبار .

* * *

ان هذا البلد الذى تألق فيه نور الاسلام ولمـا يمض على استتباب الدعوة المحمدية الغراء واستحكام أمر المسلمين وارتفاع شأنهم بين الامم والشعوب ، الا حقبة وجيزة ، قد أقبـل على لغة القرآن اقبال المعتز بايمانه ، الشغوف بأسرار الذكر الحكيم ، واللسان العربى المبين ، وما لبث أن استفاضت اللغة العربية فى أرجائه ، وانتشر بيانها فى سهوله وانجاده ، وعمل أبناؤه بدافع من سلطان الدين والكتاب فى نفوسهم ، على اعـلاء كلمـة الله وابتناء المجد ، وتيسير الاسباب لاشراق حضارة أخذ العالـم منذ حين ، يشيد بثرائها ، ويلهج ببهائها وروائها ، وخلت القرون والعصور وتوالت السراء والضراء واختلفت الظروف والملابسات وابتلى العالم الاسلامى بشر الادواء والعاهات وسيـم التمزيق والتفريق ، وحيل بين الاخ وأخيه وأقصى القريب عن قريبـه ،

وحاول الشر النفاذ الى قرار نفسه والتسرب الى مكمن القــوة فيه وجد فى تقويض دعائم كيانه ومصادرة ذخائر وجدانه

ولكن الله لطيف بعباده حفى بأوليائه ، ما تمسكوا بحبــله واعتصموا بهديه فدلهم على طــرق الانتــفاض ، وأضـــرم فى نفوسهم لهب الحفاظ والذياد ، وأكرمهم بالانعتاق والانطلاق بعد كرب السدود والقيود ، وطرح* الخمول والركود ، وهاهم يلتمسون أسباب العز من جديد ، وينشدون بالعزم الوطيد ، اجتماع الكلمة والتئام الشمل رائدهم الرغبة فى الاتحاد وهاديهم حب الوئــام والانسجــام .

وان المغرب الذى يشاطر اشقاءه اصناف عنايتهم بمختلف الشؤون والوان حرصهم على ما يؤمن المسيرة المظفرة لجميــع الشعوب التى تدين بالاسلام ليولى اللغة العربية ، من دائــب اهتمامه وشامل رعايته ، ما يؤمل معهما اطراد انتشارها واتصال ازدهارها فهى لغته التى لا يبغى بها بديلا ، ولا يرتضى عنهــا تحريفا ولا تحويلا . وستظل كما كانت بالامس البعيد والقريب قوام حياته الروحية والفكرية ، وعماد كيانه الاصح الاوثق على مر العصور والازمان .

(*) بل وترح

ولئن دل على شيء وجود اشقائنا العرب بين أهليهم وذويهم فى هذه البلاد فانما يدل على تظافر جهود أبنـــاء العروبة كافـــة ، وتآزر مساعيهم لجعل لغة ءابائهم واجدادهم لغـــة لا تعطل من فضل ولا تعوزها سمة من سمات المثالة والكمال .

وتمجيدا للغة العربية وتكريما لهـــا كأداة وسعت العلــوم والفنـــون ، على اختلافها ، ورحبت بالاحاسيس والافــكار على غزارتها ودقتها وانشعابها ، قرر صاحب الجلالة الحسن الثانى الملك الاديب والقائد الحكيم ، أن يخلد المغرب خلال هذه السنة ذكرى مرور ألف عام على مولد الشاعــر الاندلسى الكبــير أبى الوليد أحمد ابن زيدون الذى أغنى اللغة العربية وأثراها بالمرهف من الشعور والبديع من التعبير .

وسيستمر المغرب ان شاء الله ، سائرا على هذا النهــــج وعلى غيره من أسباب التقريب والتعريف ، والتمجيد والتخليد، للغة القرآن فيما بقى صامدا شامخا من آثار علماء المسلمين وشعرائهم وأدبائهم ، وتمادى متألقا مشرقا من آيـــات عبقريتهم ، وغـــرر بيـــانهـــم .

وليس هذا الجانب بالوجه الوحيد الذى يستأثـــر باهتمام المغرب ورعايته ، وينفرد برغائبه ومطامحه ، ذلك أن بلادنا التى

تحرص شديـد الحرص على أن تتحـد المصطلحات ، وتتفـق المفاهيم لتحس بالحاجة احساسا ملحاحا الى احتكـام الاقطار الاسلامية الى احكام متماثلـة وشرائـع متوافقـة وقـوانين متجانسة ، واذا كان الشعور بهذه الحاجة شعورا مشاعـا بين المغرب وغيره من الاقطار الاسلامية فان صاحب الجلالة الحسن الثانى مد الله فى عمره أصدر أوامره بأن تلبى الرغبة ، وتقضى الحاجة وذلك باحداث مجمع بالمغرب ، يلتقى فيه علماء الشريعة الاسلاميـة على اختـلاف مذاهبهـم ، واصحـاب المعرفـة والاختصاص ، من رجال القوانين العصرية والاحكام الوضعية ، للتباحث والتدارس والافضاء بالجهود المتصلة المتلاحقة ، الى اتخاذ قاعدة واحدة لا تختلف فيها الدول الاسلامية ولا تتباين معها الشرائع والمدونات .

* * *

تلك كانت وسيلتى الى الخلاص وسبيلى الى النجاة فمعذرة اليكم من الاسهاب وشكرا لكم على التكرم بالانصات .

وفق الله الامة العربية الى تبوأ ما تتـوق اليه من أسـنى المقامات ، وأرفع الدرجات ، وأثاب الله نضال المخلصين وجهـاد المجاهدين ، بالفوز المبين والنصر المكين .

محمد اباحنيني

أحمد بن شعيب الجزنائي

عبد الله كنون

هو ابو العباس احمد بن محمد بن شعيب ، وبه عــرف ، التازي دارا ، الفاسي قرارا ، الجزنائي اصلا ونجارا ، نسبة الى قبيلة جزناية المعروفة من قبائل الريف ، وهو بالجيم المصرية ، ولذلك تكتب احيانـــا بالكاف والكاتب الشاعر الفيلسوف الطبيب الكيماوي المجرب :

عرف به ابن الاحمر في كتابيه نثير الجمـان ونثر فرائـد الجمان ، وابن الخطيب في كتاب الاحاطة وغيرهما وذكره ابن خلدون في تاريخـه وفي كتاب التعريف ، واثنى عليه كثيرا ، وننقل ترجمة ابن الاحمر له في كتاب نثر فرائد الجمان اذ كانت اوســع من غيرهـــا ونعقـــب عليهـــا بما يقتضيه الحال .

قال ابن الاحمر : (سابق ركض في ميدان الشعر فجلى ، وما هم طلع في سماء الاجادة فتجلى ، له في الطب قدم في صحته وعلته رسخت، وفي احكام النجوم ءاية باعجازها سور ((1)) الكلدانيين نسخت ، وبرع في الحساب واحكامه ، واصاب في الفقه واحكامه ، ولديه من الاصول حـظ وافر ، كما وجه النحو له سافر ، والانشاء اجرى في لوح الاحسان قلمه، واطلع بين جبال تنميقه علمه، ومدينة تازا مسقط راسه، ومتوقد نبراسه، وطرا على فاس فحمدت مسراه ، وقالت ما اجل سراه ، وصميم منتسبه في البربر جزنايه ، حيث الاعتزال عمت به الجناية ، ولو كان من الاعراب لشمل في شعرائها ، وحمل راية الكلام في امرائها .. والعجب من بربري الاصل يدرك مدارك الاعراب ، وياتي من الفصاحة العربية بالاعراب)) .

عبقـريتــــــه

اول دلالة هذا الكلام ان المترجـــم كان ذا عبقرية محيطة بجملـــة من المعارف والفنون تجعل منه شخصية علمية وادبية مرموقة ، وقلما اجتمع العلم والادب بمعناهما الكامل الا للنوابغ الافـذاذ واهـل الكفايـات النادرة .. وكان من واجب ابن الاحمر ان يذكر لنا اين درس ، وممن اخذ من الشيوخ والاساتيذ ، فان هذه الحصيلة الوافرة من العلوم لا تتاتـــى بدون سعي واجتهاد وتلقين وتفهيم ، وقد اشار الى شيء من ذلك لسان الدين في الاحاطة حين قال :

شــيــوخـــــه

((قرا في بلده فاس على كثير من شيوخها كالاستـــاذ ابي عبـــد الله بن آجروم ، والاستاذ ابي عبد الله بن رشيد ، ووصل الى تونـــس فاخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن الــدراس)) .

فهذا النص يلقي بعض الضوء على بدايتــه ومكان دراسته وان لـم يستوعب الكلام في ذلك كما يجب . ثم ان قوله قرا في بلده فاس لا يصح مع ما ذكره ابن الاحمر من أنه ولد بتازا وفيها نشا وانه طاريء على فاس وليس من اهلها ، فالغالب ان قول ابن الخطيب في بلده محـرف عن بلدة بالتاء ، وان كان وصف فاس ببلدة غريبا . ويشير ابن الاحمر الى قبيلـة

المترجم جزناية ويصمها بجناية الاعتزال ، وهو يطلق هذا الوصف بمعنى عام ، اذ الذي نعلم من حال هذه القبيلة هي انها كانت ما تزال متمسكة ببعض تعاليم المهدي بن تومرت التي بثها في القبائل البربرية ، وقد كان منها بعض عقائد الشيعة ، والشيعة يميلون الى الاعتزال ، فلعله انما وصفها به لذلك .

بدعة جزناية

وفي المعيار سؤال مرفوع الى فقيه تازا ومفتيها الفقيه ابي عبد الله محمد بن عبد المومن رحمه الله عن طائفة جزناية من اخماس تازا هذا نصه : (الحمد لله ، سيدي رضي الله عنكم ، جوابكم في قوم فارقوا الجماعة ويكفرون المسلمين ولا ياكلون ذبائحهم ولا يصلون خلفهم ويقولون من لم يؤمن بالمهدي بن تومرت فهو كافر ويفضلونه على ابى بكر وعمر رضي الله عنهما ويقولون من لم يعلم اثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر ، وينقضون الوضوء بلمس ذوات المحارم ، ويقولون من حلق ما تحت اللحية فهو مجوسي ، بينوا لنا الرد عليهم في ذلك وما يلزمهم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته)) . وقد أجاب الفقيه المذكور عن جميع فصول السؤال بما تقتضيه ادلة الشرع ، وما يهمنا هنا هو النحلة التي كانت عليها قبيلة جزناية والتي نعتها ابن الاحمر بالاعتزال وما هي منه بالمعنى الدقيق للكلمة

على كل ما نظن ان صاحبنا ابن شعيب كان من المنتمين لهذا المذهب الزائغ ، ولا نعتقد ان في جزناية اليوم من يرفع به راسا ، فقد قضى علماؤنا رضي الله عنهم على امثال هذه الانحرافات في غير ما قبيلة وبلد ، ودلوا الناس على الجادة ونوروهم بالعلم وهدي السنة والكتاب ، فلم يبق في ناحية من نواحي المغرب من يعتقد شيئا من هذه المذاهب والاراء الباطلة .

واخيرا يتعجب ابن الاحمر من نبوغ المترجم في اللغة العربية والادب ومزاحمته بالمنكب لشعراء العرب وامراء الكلام فيهم، مع انه بربري الاصل ، وهو تعجب في غير محله ، فالناس لا تتفاضل بالاصول وانما تتفاضل بالجد والعمل ، فكم من عربي أصيل لا يحسن تركيب جملة عربية ولا يعرف من قواعد لغته مسالة واحدة ، وعلى العكس كم من عجمي الاصل برع في الادب واللغة والشعر بحيث فاق الكثير من العرب

في ذلك ، وناهيك بأن الكتاب الاول في نحو العربية هـو لعجمي وليـس لعربي ، والشعراء الذين يرجع أصلهم الى غير العرب ولا سيما المولـدون لا يحصون ولا يعدون ، وقد ألمعنا الى هذا المعنى بكلمة مشابهة في ترجمة الشاعر الجراوي فلتنظر هناك .

تنويه ابن خلدون بـه

ويؤكد ابن خلدون تنوع كفايات مترجمنا وينوه به اكبر تنويه فيقول في كتاب التعريف عنه : (بـرع في اللســان والادب والعلوم العقلية مـن الفلسفة والتعاليم والطب وغيرهـا ونظمـه السلطان ابو سعيد في جملـة الكتاب واجرى عليه رزق الاطباء لتقدمه فيه فكان كاتبه وطبيبه ، وكـذا مع السلطان ابي الحسن بعده) .

ونلاحظ بكل اسف ان هذه الناحية العلمية مـن المترجم قد دخلـت في ذمة التاريخ ، فليس بيدنا ما يكشف لنا عنها الا ان نقف علـى اثر مـن ءاثاره فيها ومن اين لنا ذلك ؟

انما الذي نتحققه انه كان فيها قويا متينا بالنسبة لوقته وظرفه طبعا، فالطبيب الذي يخدم السلاطين أمثال ابي سعيد وأبي الحســن المرينيين لا يكون طبيبا مزيفا ولا ممن يترامى على الصناعة وليس له فيها يد ، ناهيك بشهادة ابن الخطيب له وقد كان يتعاطى شيئا من هذه المهنـة ، اذ قـال فيه : (من اهل المعرفة بصناعة الطب وتدقيق النظر فيها ، وقـد اضـاف الى ذلك الاشتغال بالكيمياء ، ولها بالطـب اكبر علاقة ، ومـن قول ابـن الخطيب عنه في هذا الصدد : (وتهتك في علم الكيمياء وخلع عليه العذار فلم يحصل على طائل الا انه كان يتفوه بالوصول ، شنشنة المفتونين بهـا على مدى الدهر)) .

وهذا الكلام وان كان المراد به الكيمياء القديمة ، الا انه يفيد تضلعه في هذا العلم بعامة ، وهو مما يدل على رسوخ قدمه في الطب ولا يعنينـا من كلام ابن الخطيب غير هذا القـدر ، وما زاد عليـه فهو من شقشقتـه المعروفة . وكذا قوله بعد ان ذكر نبوغه في الادب : (والغالب عليه العـلوم

الفلسفية وقد مقت لذلك) فليت شعري من الذي مقته ، وقد كان بحيث يتنافس فيه الملوك ويخدم في خاصة رجال البلاط كاتبا وطبيبا ، ولم يستغن عنه ابو الحسن حتى صحبه في حركته الى افريقية ، وهلك بمعيته هناك .

رد كلام ابن الخطيب فيه

على أن العلامة ابن مرزوق يشير الى نفرة السلطان ابي الحسن منه ولكنه لا يجعل سبب ذلك اشتغاله بالعلم والفلسفة ، وهو يبرئه مما عسى ان يظن به لذلك . وهذا كلامه في كتابه المسند الصحيح الحسن : (وكان مولانا رضي الله عنه ينفر منه لموجب الله اعلم بحقيقته ، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد . ولقد خبرته وذاكرته وباحثته ــ علم الله غير مرة ــ فما اطلعت والله منه الا على ما يرضي) فبان بهذا ان احدا لم يمقت ابن شعيب لنزعته الفلسفية واشتغاله الحكمة . والسلطان نفسه وان كان ينفر عنه لسبب لا نعرفه ، لم يستغن عنه حتى آخر نفس ، وحسبه ذلك عزا وشرفا .

والمقصود ان لا يتقول متقول على عصر التقدم في الحضارة والعرفان بالمغرب ، وهو عصر بني مرين ، فينسب اليه استنادا الى قول ابن الخطيب ان الاشتغال بالعلم والفلسفة فيه كان من أسباب المقت ، ويسجل عار ذلك على رجال الدولة والشعب وربما نسبه الى التعصب الديني ، مع ان المعروف في التاريخ ان هذا العصر كان من اكثر العصور تسامحا ، ولذلك تقدمت فيه العلوم وكثر المشتغلون بها بين المغاربة أنفسهم بشكل لم يسبق له مثيل ولم ينقل عنه ولا حادث صغير في باب الاضطهاد الفكري من الدولة او من الشعب ، لا ظاهرا ولا مستورا بستر من سياسة او دين كما وقع في غيره والغريب اننا نجد ابن الخطيب في ريحانة الكتاب يحليه تحلية منصفة فلا ينبزه بشيء من هذه القالة السوء ، ويتاسف على كونه لم يلقه حين قدومه لغرناطة ، ودونك قوله بالنص الكامل :

مورد تـرده الهيم فـتروى   وتهوى اليه النفوس فتجد عنده ما تهوى

وصدر لا يخفى مكانه ، وذخر اضاعه زمانه ، حاز من كل فن نصيبا، ورمى الى كل غرض سهما مصيبا ، واستمطر كل عارض وديمة ، من العلوم الحديثة والقديمة . فبرع في فنونها وبهر ، وحذق الطب منها ومهر، وبلغ في صنعة النبات ، درجة الاثبات ، ورضي بالانتماء الى العلم والاكتساب . عن الاكتساب . فما اهمه الدهر بالوانه ، ولا ثناه عن شأنه . وعانى في حركته وانتقاله ، مشقة اعتقاله ، وخلص خلوص الحسام بعد صقاله ، وهو الان من كتاب ملوك المغرب تطوى عليه الخناصر اذا عدوا ، وتذخر له قصب السبق اذا حضروا في المحاضرة واشتدوا .. ورد علي الحضرة (2) في خدمة لبعض الولاة ، فرأيته رؤية لم تنهض الى المحاورة والكلام ، والمخاطبة بما يجب لمثله من الاعلام ، لخمود هذا الباعث عندي في العهد المتقدم ، ولم البث أن عضضت يد المتندم ، اسفا على ما ضاع من لقائه ، واجتلاء الفوائد من تلقائه ، وله شعر تهوى الشعرى ان تتخذه شنفا ، ونثر تود النثرة لو تتحلى به وان شمخت انفا» .

ففي هذه النبذة من كلام ابن الخطيب انصاف كبير للرجل الذي لمزه في كلامه السابق ، واعتراف بسبقه وفضله في الوقت الذي كان قائله لم ينتبه بعد الى العناية بهذه الشؤون حتى انه لم يسعه الا التأسف على ما فاته من مداخلته والاستفادة منه .

ومما نستلخصه من هذه النبذة ان المترجم امتحن بالاعتقال ، وهو امر لم يذكره احد ممن وقفنا على كلامه فيه ، وانه لما قدم الى غرناطة كان كاتبا لاحد الولاة ، فذلك يعني انه سبق ان عمل كاتبا خصوصيا قبل أن يصل الى البلاط الملكي .

ترفعه عن التكسب بالشعر

والفائدة المهمة التي تحتويها هذه النبذة من كلام ابن الخطيب ، ان مترجمنا كان يتحلى بسمة اهل العلم ويترفع عن حشر نفسه في زمرة الادباء المتكسبين بادبهم ، ولذلك لا نرى له امداحا في رجال الدولة ، وناهيك بها .

رئاسته لديوان الكتــاب

واذا كانت الناحية العلمية منه قد عميت علينا أنباؤها ، فالناحية الادبية يمكن ان نتتبع آثارها ، ونستخرج اخبارها من بعض عبارات كبــار الادباء فيه ، وبعض اقواله الواصلة الينا برغم قلتها ، فانها تدل على كبر نفسه ، وعلو نفسه ، وما ظنك بمن تراس ديوان الكتاب فى عهد بنى مرين فى أيام النخبة الصالحة من ملوكهم ، وقد كانوا محاطين بكبار رجال العلم والادبمن اهل الاندلس وافريقية والمغرب ؟ وابن الخطيب على نيله منــه فى الاحاطة، لم يستطع ان يتجاهل مكانته الادبية، فاعترف انه كان مشاركا فى الفنون ، وخصوصا فى علم الادب حافظا للشعــر ذاكرا له ، وان لــه شعرا رائقا وكتابة حسنة وخطا ظريفا واما فى الريحانة فقد وفاه حقه. ولم يملك الا ان يظهر غاية الاعجاب به .

ويقول ابن خلدون فى التعريف بعد العبارة السابقة له عــن معارف هذا الاديب : وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتاخريــن ، وكانت له الامامة فى نقد الشعر والبصر به ، ويكفينا هذا دليلا على ما ننسبه لادبائنا ، والمترجم منهم ، من التفوق على كثير من ادباء الاقطار التى ربما ينكر اهلها الادب على اهل المغرب ، فان شهادة ابن خلدون هذه لفرد من افراد ادباء المغرب لها قيمتها العظيمة ، لا سيما وهو لا يتحفظ فى شــيء كتحفظه فى هذا الباب .

ادبه وشعره

على انه ما يمنع ان يكون الجزنائي اماما في نقد الشعر ، وقد كــان يحفظ منه عشرين الف بيت للمحدثين فقط ، كما في الاحاطة ، فلا جرم اننا بازاء اديب كبير ونقادة امــام ، وانما حــوادث الايام والظروف التي لاقى فيها حتفه بالطاعون العام في تونس مغربا عن اهلــه وبلده هي التــي قضت على ءاثاره بالضياع ، ولم يبق منها الا ما افلت من التلف برغم انف الدهر .

وهذا مثال من نقده ، تعرف به سلامة ذوقه ، ومتانة اسلوبه ، قال ابو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية ، فيما حكاه عنه ابن خلدون في المقدمة :

«ذاكرت يوما صاحبنا ابا العباس بن شعيب كاتب السلطان المريني وكان المقدم في البصر باللسان لعهده ، فانشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم انسبها اليه ، وهو هذا :

لم ادر حين وقفت بالاطلال   ما الفرق بين قديمها والبالي

فقال لي على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له ومن اين لك ذلك؟

قال : من قوله ما الفرق ، اذ هي من عبارات الفقهاء وليست من اساليب كلام العرب .

ومما يدل على اريحيته الادبية انه كان تسرى جارية رومية اسمها صبح من اجمل الجواري واحسنهن ، فادبها حتى لقنت حظا من العربية ونظمت الشعر ، وكان شديد الغرام بها فهلكت اشد ما كان حبالها وامتداد امل فيها ، فكان بعد وفاتها لا يرى الا في تاوه دائم واسف متماد كما يقول ابن الخطيب ، ففتحت له هذه الحادثة باب القول العاطفي ، فصدرت عنه بدائع في رثاء محبوبته ومناجاتها وصفة محاسنها، تثير بلابل الصدور وتهيج اشجان القلوب ، فمن ذلك قوله :

يا قبر صبح حل فيك لمهـ   ـجتي اسنى الاماني
وغدوت بعد عيانها   اشهى البقاع الى العيان
اخشى المنية انها   تنئي مكانك عن مكاني
كم بين مقبور بفا   س وقابر بالقيروان

وقوله :

يا صاحب القبر الذي اعلامه   درست ولكن حبه لم يدرس

ماالياس منك على التصبر حاملي ... اياستنــــي فكانتــــي لم ايــاس

لما ذهبت بكل حسن اصبحــت ... نفسي تعاني شجو كل الانفس

يا صبـــح ايامــي ليال كلهــــا ... لا تنجلي عن صبحك المتنفس

وله فيها ايضــا :

يا نازحا في الضمير ما برحــا ... داني محل الهوى وان نزحــا

لم تضمر الصبر عنك جارحة ... ولا فـــؤادي لسلــوة جنــحــا

مستعبر المــزن فيــك ادمعــه ... يظـل يبكيــك كلمــا سفحــــا

ولا ارى البرق عادة مبتسمــا ... بعدك بل زند شوقـــه قدحــــا

وما تغني الحمــام من طــرب ... بل يعلن النوح كلمــا صدحــــا

وفي هذه الابيات خيال جميل اضفى عليها جوا من الشاعرية التــي اشركت الطبيعة ومظاهرها في الاحساس بعواطف الشاعر والتاثر بمواجده فالسحاب انما تهمي ادمعه بكاء على هذا الحبيب المفارق ، والبرق ولمعانه ليس كما يحسبه غيره من الشعراء ابتساما وتنويرا ، وانما هو اشتعـــــال زند شوقه عند القدح وانبعاث شرارته ، وكذلك الحمام وهديله انما هو نواح على فقد الحبيب لا غناء كما يظن . واذا بلغت الرؤية الشعرية هــذا الحد من التطلع والاستشراف الذي وصفه شاعرنــا ، فانها تكون قـــد خرقت الحجب والاستار ونفذت الى آفاق الشاعرية ومجالاتها اللا محدودة ومن قوله الذي جارى به الفحول في موضوع النسيب :

اعلمــت ما صنــــع الفــــراق ... غــداة جـــد بـــه الرفــــاق

ووقفـــت منهـــم حيث لــ ... نظـرات والدمـــع انســـاق

سبقـــت مطـــاياهـــم فمــــا ... ابطا بنفسك فـــي السبـــاق

اطقت حمـــل صدورهـــم ... البيـــن خـطــب لا يـطــاق

عــن ذات عــرق اصــعـدوا ... اتــقـــول دارهـــم العـــراق

مــا ضرهــم وهــم المنـــى	لو وافقــوا بعـض الوفــاق
وتيــامنــوا عســفــان ان	يقفو ـ المجتمــع الرفــاق
قــالــوا تفــرقــنــا غــدا	فشغلــت عــن وعد التــلاق
عمــدا راوا قــتــل العمـ	ـيد فكان عيشك فـي نفاق
اولــى بجســمــك ان يــر	ق ودمــع عينيـك ان يــراق
امــا الــفــؤاد فعــنــدهــم	دعــه ودعــوى الاشتيــاق
اعــتــاد حــب محــلهــم	فرحيــب صـدرك عنه ضــاق
واهــا لســالفــة الشــبــا	ب مضــت باياـمـي الرقــاق
ابــقــت حــرارة لــوعــة	بيــن التــرائب والــتــراقــي
لا تــنــطــفــي وورودهــا	مــن ادمعــي كــاس دهــاق

وقال ايضا :

يا موحشي والبعد دون لقائه	ادعوك عن شحط وان لم تسمع
يدنيك مني الشوق حتى انني	لأراك راي العين لولا ادمعـــي
واحن شوقا للنسيم اذا سرى	بحديثكم واصيخ كالمستطلـع
كان اللقاء فكان حظي ناظري	وسطا الفراق فصار حظي مسمعي
فابعث خيالك تهده نار الحشا	ان كان يجهل من مقامي موضعي

وهذه القطعة لا تقل عن القطع السابقة في غرابــة معانيها وبــداعة صورها ومنزعها الفلسفي فهي مثلها من الشعر الفريد في هذا الباب ومن شعره ايضا في النسيبّ :

دار الهــوى نجــد وساكنهــا	اقصى اماني النفس من نجــد

هل باكر المسمي ساحتها — واستن في قيعانها الجرد
او بات معتل النسيم بها — مستشفيا بالبان والرند
يتلو احاديث الذين هم — قصدى وان جاروا عن القصد
ايام سمر ظلالها وطني — منها وزرق مياهها وردي
ومطارح النظرات في رشا — احوى المدامع اهيف القد
يرنو اليك بعين جازية — قتل المحب بها على عمد
حتى اجد بهم على عجل — ريب الخطوب وعاثر الجد
فقدوا فما وابيك بعدهم — عيشي شفا الا على الفقد
وغدوا دفينا قد تضمنه — بطن الثرى وقرارة اللحد
ومشردا من دون رؤيته — قذف النوى وتنوفة البعد
اجرى علي العيش بعدهم — اني جرعت حميمهم وحدي
لا تلحني يا صاح فى شجن — اخفيت منه فوق ما ابدي
بالقرب لي سكن يؤوبني — من ذكره سهد على سهد
فرخان قد تركا بمضيعة — زويت عن الرفداء والرفد

وهذه القصيدة مما خاطب به الفقيه العالم ابا جعفر بن رضوان يسأله عن شيء من علم صناعة الكيمياء ، ولم يذكر ابن خلدون منها الا هذا القدر واما ابن الخطيب فقد اقتصر منها على البيت الاول .

وخاطبه ايضا وقد نشأت بينهما فيما يقول ابن الخطيب صداقة اوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المرموزة يتشوق الى جهة كانوا يحلون بها للشيخ فيها ضيعة بخارج مالقة :

رعى الله وادي شنبانة — وتلك الغدايا وتلك الليال
ومسرحنا بين خضر الغصون — ودفق المياه وسحر الظلال

ومـرتعنـا تـحـت أدواحـه	ومكرعنـا في النميـر الزلال
نشاهد منها كعرض الحسـام	اذا ما انثنت فوقه كالعـوال
ولله مـن در حصبائـه	لال واحـسـن بها مـن لال
وبلبله فى ستـور الغصـون	كخود ترنـم فـوق الجبـال
واسماره كيف رقـت شـذا	وصح النسيم بها في اعتلال
ولـه منـك ابـا جعـفـر	عميد الجلال حميد الخصـال
تطـارحنـي برمـوز الكنـوز	وتسفر لي عن معاني المعـال
فالقط من فيك سحر البيـان	مجيبا به عن عويص السـؤال

وله وهو مليح الاشارة والتلميح :

ايجمع هذا الشمل بعد شتاته	ويوصل هذا الحبل بعد انبتاته
اما لليالي آية « عيسويـة »	فتنشر ميت الانسى بعد مماته
وتورد عينى بعد ملح مدامعي	برؤيته ، فى عذبه وفراتـه

وله واستعمل فيه انواعا من البديع : فهو من شعر الصناعة لا غير :

يارب ظبي شعاره نسـك	الحاظه فى الورى لها فتـك
يترك من هام فيـه مكتئبـا	لا تعجبوا ان قومه التـرك
اشكو له ما لقيت من حـرق	فينثني لاهيا اذا اشكـوا
صبرت حتى اطلل عارضـه	فكان صبح ختامه مسـك

ولـه مـن هـذا المنـزع :

يا من توعدني بحادث هجـره	ان السلو لدون ما تتـوعـد

هذا عذارك وهو موعد سلوتي ... فاكففقد سبق الوعيد الموعد
واظن سلوتنا غـدا او بعـــده ... (وبذاك خبرنا الغراب الاسود)

وقـــال فى ضـــده :

قال العذول تنقصا لجمالـــه ... هذا حبيبك قد اطل عـــذاره
لا بل بدا فصل الربيع بخـده ... فلذا تساوى ليله ونهــــاره

وله فى التورية باسمـــاء الكتــب :

ومولع بالكتــب يبتاعهــــا ... بارخص الســوم وأغــــلاه
فى نصف (الاستذكار) أعطيته ... (ملخص العيــن) فارضـــاه

ومن شعره هذه القصيدة الاعرابية المعنى والاسلـــوب ، يشكـــو الزمان ويصف ربه ويفتخر ، وهو مما انشده له ابن الاحمر ، فى نثر فرائد الجمان ، وقد دخلها كثير من التصحيف صححنا غالبه .

احار سل العتبى فلســت بعاتـــب ... حنانيك ان الدهر اخبث صاحـــب
عجبت من الايام انى الفتهـــــا (3) ... مسالمة الايام احـــدى العجائـــب
عرفت الليالي قبل عرفاني النهـــى ... وقد اخلدت قلدا وما طر شاربـــي
ولابست حاليها مع الكره والرضـــى ... وقد شاب راسي وهي سود الذوائب
ومارست أبناء الزمان فلـــم اجـــد ... اخا ثقة يا حار ؛ غيـــر التجـــارب
مليـــون بالبغضـــاء الا تملقـــــا ... وما هو الا مثل ابساس حالـــــب
يضيق بها رحب الفضاء وانهـــــا ... لجاثمة بين الحشـــا والترائـــب
اذا ذكرت ملقى عصاها من الآلى (4) ... ترامت اليه ذون ذكر العواقـــــب
فان تسالوا صعب الشكيمة ماضيـــا ... فحيهلا بي او بسعد بن ناشـــب (5)

وسمت الليالي عفـــة وقناعـــــة | وقد ضقن ذرعا عن تسني مآربـــي
وقضيتها خمسا وعشريـن حجـــة | اصدق ظني بالاماني الكــــواذب
فما لي وللاوطان هل يطلب الجـــدا | من القطر الا كاننا فى السحائـــب
وما كنت أرضى ان اقيم بذلــــة | فكيف وما سدت على مذاهبـــــى
وما يطبيني اين نيطـــت تمائمـــي | على فاوطاني ظهـــور الركائـــب
فان مح (6) من فودى جون شبيبتي | فلا مح (6) عن عطفي جون الغياهب
ستالف منى البيد طلاع انجــــد | قليل هموم النفس جم المطالـــب
وشيحان (7) لا تثنى المهابة عزمـه | يخوض غمارات الردى غير هائـــب
حليف سرى لا يسام البيد والسرى | طوال الليالي فى عراض السباسب
ازجي بها من عزمتـى متوقـــدا | فاحسبني بعض النجوم الثواقـــب
حثينا ونزعـــان النجوم كانمـــا | تسابقنى من خشيـة للمغـــارب
تقدمنى حتى اقـول شمائلــــي | واقدمها حتى اقــول جنائبــــى
بمنخرق يثنـــي العيـــون كليلـــة | طروح النوى جم السرى غير لاحب
كان جنى الظلماء فيه ابن دايـــة | لأمن فراق البيد ليس بناعـــب (8)
تخال به زهر الكواكـب جثمـــا | وتحسب فيه البرق نار الحباحـب
فلا جهورى (9) الرعد فيه بنابـس | من الرعب الا مثل صر الجنـــادب
ولا ناجـــم الا قتـــاد كانـــه | براثن اسد او حمـات عقـــارب
وفى شعب الاكوار شعـث كاننـــي | بهم فى ذرى دو سليـك المناكـب
اذا اعتكر الليل البهيـــم تنـــوروا | اضاءة مشقوق العقيقة قاضـــب
الا علمت سبل المعالـي باننـــي | سريت اليها حين كـل مصاحبـــي

مع الليل الا بارقا (10) متنـــــورا	كطرفة(11)جفن او كومأة(12)حاجب
وبين جفوني والكـرى فيه جـــازم	بهم على خفض من العيش ناصـــب
فان ناب نجوى موهنا قمقمت لـــه	خطى من شنان (13) كالقسى لوافب
قد اصطلمتها (14) البيد الا بقيـــة	وكانت منيفات الذرى والغـــوارب
الا يا اسلمى ياناق ثـم تقدمـــــي	بنا تصدري بالرفد ملاى الحقائـــب
فلي أمل في ءال فهر (15) بن مالك	خلا ان حبي في لؤى بن غالـــــب

وما أظنني بحاجة الى التنبيه على ما في هذه القصيدة من معـــان واخلية تعكس قوة نفس صاحبها وشدة أسره حتى ليبدو لنا كانه احد شعراء العرب وفرسانها المتقدمين ، جزالة لفظ ومتانة اسلوب ، وشجاعة واقداما وباوا وفخرا ، وقد كان نظمه لها وهو ابن 25 سنة اعني في فورة الشباب وشرة الطموح ، فلا غرابة ان قال ابن الاحمر عنه انه لو كان من الاعراب لعد في شعرائها وامراء كلامها ، وقال ابن خلدون فيه وله شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتاخرين . ولكن يا للاسف مما دخل هذه القصيدة من التحريف في اصلها الوحيد الموجود بيدنا حتى الآن ، ولئن كنا قد قومنا اكثره فقد بقي منها بعض الابيات قلق العبارة غامض المعنى ، على ان روائع ابياتها وهي كثيرة تغطي على هذا البعض الذي لم نهتد الى صوابه .

نـــثـــــــــره

هذا ما وقفنا عليه من شعر المترجـــم وجملـــة الراي فيـــه .
واما نثره وهو كاتب الملوك بل رئيس الكتاب في البلاط المريني ، فاننا لم نقف منه الا على رسالة من قبيل الاخوانيات اوردها ابن الاحمر مصدرة بالابيات العينية السابقة الذكر ، ويظهر انه كتبها الى احد خلصائه مـــن اهل الادب وهي محررة بطريقة السجع وفيها بعض التكلف مما يجعلنـــا نظن انه في الشعر اطبع منه في النثر ، ولكن الحكم على نثره باطلاق من رسالة واحدة لا يصح ، لا سيما واصلها الوحيد الذي بايدينـــا ملـــيء بالتصحيف ، ونحن نذكرها على ما بها مستظهرين ما نعتقده صوابـــا في بعـــض عباراتهـــا .

قال ابن الاحمر : « ومن كتبه البارع »

ياموحشي والبعد دون لقائه ... أدعوك عن شحط وان لم تسمع

يدنيك مني الشوق حتى انني ... لأراك راى العين لولا ادمعي

واحن شوقا للنسيم اذا سرى ... بحديثكم واصيخ كالمستطلع

كان اللقاء فكان حظي ناظري ... واتى الفراق فصار حظي مسمعي

فابعث خيالك تهده نار الحشا ... ان كان يجهل من مقامي موضعي

واصحبه من نومي بتحفة قادم ... فمذ استقل ركابكم (16) لم اهجع

كيما اطارحه حديث صبابتي ... وتصدق البلوى مقال المدعي

موقوف ءامال ومسند لوعة ... وبلاغ اشواق ومرسل ادمع (17)

قد كان حنيني الى سيدي اطال الله بقاءه ، وسنى لقاءه ، موصولا مع الاتصال ، دائما مع البكر والآصال ، لا تلحقه فترة فاضل فيها عن هديه (18) الواضح الامم ، واظل (19) فيها من سواه عاكفا على صنم ، ومنظر العيش آنيق ، وغصن الشبيبة وريق ، والدهر جمع ولم يحسن التفريق ، ومسك العذار تحت ختامه ، وماء الشباب فى عوده لم تفض العين بانسجامه ، والدار حرية بما تهوى الانفس ، واليد ملية بنضان العقار تصرفه فى لجين الاكؤس ، وشملنا المنتظم عقد على لبة الزمان وليالينا فى مقلته كحل وفى وجنتيه خيلان ، فكيف وقد عاد الدهر بجوره وسطاه ، فشت عقد شملنا واذهب وسطاه ، وارانا من حدثانه عجبا ، فبرد (20) الشباب مزيقيا ، وشمل الاحباب ايدى سبا ، فهل كان الامثل ظل القناة (21) طولا ، هزته اريحية الشباب فالتقى طرفاه ، وكصفح الحسام صقيلا ، فانقلب بصفحه حرفاه ، ورمانا الفراق مراميا ، وسرنا شآما (22) فانفردت يمانيا ، حتى لا نلتقي الا بالفكر (23) ولا نجتمع الا فى الذكر ، اللهم الا طيف الخيال كالبدر المتوهم ـ والليل فى شية الجواد الادهم ، قد نظم الكواكب بجيده عقدا ، والتحف الظلماء بردا ،

فكتمت منه صبحا مسفرا ، وسرى عرفه في سوادها فكانـــت مسكـــا ادفراه واعتسف المسافة الزيزاء ، والافق متشح بصارم الفجر ، والجو معتقل عصا الجوزاء ، والرامح قد اشرع سنانه فخفق قلب الاسد ذعرا ، وجرى دمع الغميصاء على العبور فكانت به المجرة نهرا ، وذهبت تستبق الكواكب للمغارب ، فجاء الفجر على قميص الليل بدم كذب فقيل فجـــر كاذب ، وافى فكان من تباشير الصباح ، والنوم متخبط في حبائل الاجفان يجاذبها وقد علق الجناح ، اعتيادا لطروقه مثواه ، لا عياذا لمشوقه مـــن بلواه ، وقد طبع في طينة القلب ، واعتورته نار الحب ، فاقام ماثلا بين الجوانح ، لا تطفيه (24) الانفاس العواصف ولا الدموع السوانح ، لا ينزل به طارق السلو وان كان محل كريم ، ولا يقوم فيه رسول العذل وان كان فترة به طوفان نوح ونار ابراهيم ، ولو شاء لكان بردا وسلاما ، بـــرد السلام ، او هبة شمال ، وبرود الليل لسمال ، بليلة الجناح ، عليلة تنعش الارواح ، كليلة المسرى ، قد تطوفت معاهد حسان بين جلق وبصرى ، وبثت (25) لبثينة حال جميل ، وجالت بالحمـــى فاذكـــرت اذخـــرا وجليل (26) وقضت لقيس من لبناه لبانة ، فخلع عليها لقد كان فيهـــا للامانة ، والمت بالخمائل الماما ، فمنحت الغصون اعتناقا والازهـــار التثاما ، واطارت السجف عن الخدور ، بل السدف عن البدور ، فالتمس الصحب تلك الغرة ، فاختلس فيها نظرة ، حتى خلصت الى مثواى، وما تخلصت من بلواى ، فظننتني من خوافيها نسالا ، فقلبتني في الشمال يمينا وشمالا ، فلما تنسمت نشرك في طيها ، وتوسمت بشرك من حليها ، قلت اسعيدية فاسعدي ، الي لاجد ريحه لولا ان تفندي ، والا فما عطر شذاك ، اصدقي ، فقالت هو ذاك ، فقلت لها بعد الترحيب والتحية ، ما حال تلك الشيم المرضية ، التي لو كانت نسيما لكانت الصبا ، او عصرا لكانت ايام الصبا ، قالت كالزهر اشرقه الندى بمائه ، والاقحوان غداة غب سمائه ، قلت فالهمم العالية لا تبصر العلياء اختلاســـا (27) ، ولا تدركها التماسا (27) قالت ما كنت اقفو ما ليس لي به علـــم ، فما لـــي ولاخيات النجم ؟ فمن لي بالمجرة اوافيها ، فاعلم من فيها ، فاســـال الكواكب عن عدادها ، فانت حاف سدادها ، قلتفمال حال ذلـــك (28) الكمال والسيادة ، قالت الحسن (29) والزيادة ، قلت جعلت فداك ، انك

خالطت صقيما (30 فاعداك ، فجئت سموما وستعودين نسيما ، لمن اهداك ، فينكر سماك (31) ، ويقول ما وراك ، واين خلعت رداءك ، فقولي على يعقوب هواك ، الذي لا يفتر عن ذكراك المستشعر مع ياس السلو عنك ، رجاء الدنو منك ، والسلام الكريم ، يخص ذلك الحسب الصميم ، ورحمة الله تعالى وبركاته » .

انتهت وما كادت وهي كما ترى من النثر المسجوع او الفني كما سمي حديثا ، تشتمل على فقر عالية في الحسن والرونق والرصف والتنسيق ، وفيها فقر أخرى يظهر عليها التكلف وتحتاج الى بعض التوجيه ، على ان نصها الكامل ، بعد التقويم الشامل ، لا يستغني عن الشرح والبيان . وخاصة للشداة من اهل الطلب ، وناشئة الادب ، وهي على كل حال ان دلت على براعته فلن تكون وحدها نموذج انشائه واسلوبه في الكتابة الذي يحكم به عليه ، كيف ونحن لم نطلع على شيء من كتابته الديوانية التي كانت اكثر اعماله ؟

هذا وبعد ان ذكر ابن الخطيب دخوله الى غرناطة في ايام السابع من ملوكها ، لقرب من ولايته ، في بعض شؤونه كما قال ، وحقق بها بعض الاغراض التي تتعلق بمهنته الطبية ، ذكر انه توفي رحمه الله بتونس في يوم عيد الاضحى من سنة تسع واربعين وسبعمائة . وسبقت الاشارة الى انه كان في صحبة السلطان ابى الحسن المريني وان وفاته كانت بالطاعون الجارف الذي عم البلادفي تلك المدة .

ومن الحكاية المروية عن ابن شاطر الجمحي المراكشي المعروف بنكته ونوادره انه دخل الاندلس ومر يوما بابي العباس بن شعيب الكاتب صاحبنا وهو جالس في جامع الجزيرة ، وقد ذهب به الفكر ، فصاح به : انظر الى مركب عزرائيل قد رفع شراعه ، يعني بعزرائيل ملك الموت على ما هو شائع بين الناس ، ولله في خلقه شؤون .

طنجة : عبد الله كنون

المصـــادر والمراجـــع

(1) بالاصل : صدور الكلدانيين ، ونظن ان الصواب ما اثبتناه ، وفى اصل المخطوط الوحيد من نثر الفرائد الموجود بدار الكتب المصرية تصحيف كثير حاولنا جهدنا ان نصحـح ما ننقلـه منه .

(2) يعنـي غـرنـاطـة .

(3) فى الاصـل : انـى الفتهـا لنـا .

(4) فى الاصـل : الحلـى .

(5) من شعراء الحماسـة الشجعـان الفتـاك .

(6) مـح : زال ودثر وفى الاصل : صـح .

(7) فى الاصـل : وشنحـان .

(8) فى الاصـل : بناهـب .

(9) فى الاصـل : جـوهـري .

(10) فى الاصـل : فـارقـا .

(11) فى الاصـل : لطـرفـة .

(12) فى الاصـل : كمـوءاة .

(13) فى الاصـل : شـان

(14) فى الاصـل : اصطلبتهـا .

(15) فى الاصـل : فهـم

(16) فى الاصـل : فمدا استقل ردى بكـم .

(17) يلاحظ اقتباس القاب الحديث فى هذا البيت ، والقطعة بعـد البيـت الخامـس دخلتها الصنعة فلذلك اقتصر ابن الخطيب على ايراد ما قبل هذا البيت فقط .

(18) فى الاصـل : عـن هـذه .

(19) فى الاصـل : واصـل .

(20) فى الاصـل : بـرد .

(21) فى الاصـل : الفتـاة .

(22) فى الاصـل : وصرنـا سيامـا .

(23) فى الاصـل : بالكفـر .

(24) فى الاصـل : لا تعفيـه .

(25) فى الاصـل : وتبتـت .

(26) تلميح لقول بلال : الا ليت شعري هل ابيتن ليلة ، بواد وحولى اذخر وجليل البيتين

(27) اختلاسهـا ، التماسهـا .

(28) فى الاصـل : حـالـك الكمـال .

(29) فى الاصـل : بالحسـن .

(30) فى الاصـل : مستقيمـا .

(31) فى الاصـل : سماءك وهـي سمـاك بالضم كما نرجـح .

لوحة حياة

الدرب والسائح

محمد العربي الخطابي

الاولى شجرة نارنـــج ،

والثانية تينة تبعثرت حواليها الظلال ،

والثالثة زيتونة عتيقة دائمة السهر تحرس ماء العين .

وهناك ، على مرمى الظل الرطب خربة كانت فى غابر الزمن ضريحا مبنيا بالحجارة والطين فتهدمت سواريه وتقشرت جدرانه فلم تمسسه يد بالترميم الا ان اغصان الريحان ما فتئت تغطي ساحته يندبها الفجـــر الطالع ويملأ الاصيل الغارب أعطافها بقطرات الضوء .

دفين الضريح مجهول ... انه ولي صالح ... هذا كل ما يعرفه عنه الناس من سكان هذه القرية المفروسة فى سفح الجبل .

وكان من رواد الضريح شيخ وقور تشرق عليه الشمس هناك كل يوم ، ينقطع فيه للخلوة والتدبر . لا يراه الناس الا مداعبا سبحته ، باسما متألقا ، صامتا ، يقضي يومه هناك ويقفل راجعا الى القرية فى المساء حيث يختفي فى بيت منعزل من بيوتها ، بيت مجلل ببياض الجير.

ومع طول تردد الشيخ على الضريح المهدوم صار عند سكان القرية اعتقاد غامض بأن للشيخ صلة عضوية بدفين الضريح ، وربما كانا شخصا واحدا .

* * *

كان للشيخ حفيد يحبه كأنه ذوب عينيه ، اخذ يصطحبه معه الى الضريح حينما بلغ العاشرة من عمره ، ويتركه يمرح بين الخمائل .

وكان الصبي ، كجده بشوشا حسن الصورة ، الا انه كان مرحا كثير الحركة ، لا تكاد الدهشة تفارق عينيه المتألقتين .

سقوط الاوراق يشغل عقله الصغير . شقشقة الطيور تثير العجب فى نفسه . طيران الفراشة يملك عليه فؤاده . رتابة السكون توقظ فضوله ، فهو لا يلبث يصيخ سمعه ، ويجيل بصره ، ويوجه حواسه نحو كل شيء . يرى فى صغر حجم النملة معنى الحركة ، وفى بقع الضوء المترائية من خلال الاشجار تسلسل الحوادث ، وفى جريان ماء العين تألق النجوم ، وفى الظلام يرى انقطاع الاشياء وتلاشيها .

وكان طفلنا يحس ان كل ما يحدث حوله يؤلف انغاما متناسقة او متنافرة تعبر تعبيرا مبهما عن الحياة وعما وراء الحياة . ومن هنا أحب النغم ، وعشق الموسيقى ، وهام بالاصوات الجميلة ، وتفتح قلبه الصغير

على ذلك فاستبد بأحلامه وغدت الالحان عنده نوعا من التعبد يصلـــه بالمطلـــق .

نشأ الفتى على الدهشة الدائمة والحيرة المصحوبة بالسؤال حتى اذا ما كبر واشتد عوده امتزج وجدانه بالاشياء المبهمة واندمجت جوارحه المتفتحة بالمنظور والخفي من الاشياء .

* * *

جلس الفتى يوما قرب ينبوع ينحدر ماؤه فيتفتت عند صخرة صلبة ويتطاير منه رشاش يبدو مع نور الشمس كأنه الشرار . تساءل الصبي فيما بينه وبين نفسه : أين يذهب رشاش الماء المتطاير وأين يستقر فى نهاية الامر ؟ وبينما هو كذلك اخذته سنة . فما هو الا ان وقف على راسه حارس المياه بازاره الابيض ورجليه الحافيتين النقيتيـــن وقـــال : ان الرشاش المتطاير من الماء يصعد الى السماء كما يصعد الدعاء المقبول فيصبح سديما . وفى السماء كل شيء : الفراغ والنجوم واللانهايـــة ، وفيها المزن والغمام ايضا ، وفيها تلتقي أصوات الارض فتحتك وتتصادم فيحدث عن ذلك البرق والرعد والنيازك .

لم يقتنع الصبي بهذا التفسير المبهم ، ذلك انه كان غافيا سادرا .

وفي هذه الاثناء كان اهل القرية يرعون ماشيتهم او يبذرون الحب فى الارض او يقومون المعوج من الشجيرات فى بساتينهم لا يبالـــون ان كانت الارض متحركة او ساكنة أو كانت قطرات الماء المنفلقة عن السيل المصطدم بالصخور تصعد الى السماء او تنـــزل الى اعمـــاق الارض . الحكمة عندهم وجود الماء لا تغير احواله ، ونمو الزرع لا تفتق بذوره ، وطلوع النهار لا مصادر ضوئه .

وحينما صحا الفتى من غفوته راى الامور لحظة كما يراها اهـــل القرية الا انه سرعان ما احس بأن للاشياء ظاهرا وباطنا وان بنفسه ميلا

جبليا الى استكناه بواطن الاشياء وخفاياها . ومن هنا كان يعتبر الموسيقى من الاسرار التي لا يدرك كنهها الا ذوو المشاعر المرهفة والوجدان المتفتح . وكان الفتى يرى فى تألق النجوم ولا نهاية الفضاء سر الاسرار يربط بين ذلك وبين مطالع النغم ومصادره أيا كانت . هذا عنده هو التناسق والتكامل والتعاقب .

* * *

جلس الفتى مرة يتأمل فراشة تلهو بمغازلة زهرة صفراء يفيض على أكمامها الرحيق ، تحاذي الفراشة الزهرة تارة بجناحها الايمن وتارة اخرى بالايسر ومرة بقرنها الرفيع . وكانت الزهرة الصفراء تبدو وكأنها تريد ان تمتص عصارة النور من أعطاف الاشعة . وقريبا من هذه المغازلة كانت قبرة غبراء تدرج مرحة وهي تنقر التراب لا تبالي بما يحدث بين الفراشة لوسنانة والزهرة الصفراء ، كل ذلك والماء يجري فى الساقية رقيقا خفيفا متأنيا كأنه لا يخاف ان يدركه المساء .

قال الفتى فى نفسه : ما أعجب هذا الايقاع المتناغم وما اعجزني عن ان أستشف مطالعه ومساريه ! واذ كان الفتى يجيد العزف على الناي بدا له أن يترجم على ثقوبه ما يختلج فى أعماق نفسه من انفعالات يثيرها انتشاء الفراشة وتفنج الزهرة وتموج الماء فى الساقية .. ولما عجز عن ذلك ادرك أن تفتح اكمام الزهور وارتواء الزرع الطالع وانعكاس الضوء على الصخرة وتحرك الدودة الصغيرة فى باطن التربة تنطوي كلها على مغزى احدى وان اختلف منها المظهر والفعل ، وبدا له أن ثقوب الناي وتجويفه قاصر عن اداء هذه الانشودة العلوية التي لا تعرف تقطعا او نشازا .

وهكذا هجر الفتى العزف على الناي وصمم على أن يقوم بسياحة طويلة يفتح خلالها سمعه وبصره وحواسه ليتعلم . وكذلك فعل .

* * *

مر الفتى ذات يوم بمدشر صغير أنتصبت دوره البيضاء وامتدت على سهل خصيب فراى صبيانا يمرحون ويحومون حول غدير هناك . تفتح قلبه لهذا الجذل البريء الذي يزيد الخضـــرة اخضرارا والمـــاء شفوفا ، فلذ له ان يقتعد ظل تينة مغبرة ليستريح من عناء السفر ويشاهد الصبيان يمرحون ويلعبون .

وسرعان ما أخذته ، كدأبه ، سنة فغفا . ولما كانت عيناه مفتحتين على الغدير والصبية والبيوت المترائية من وراء الاشجار ، رمق فتاة تقترب من الماء متأنية متهادية فى مشيتها ، يزداد وجهها نضارة واشراقا كلما مشت خطوة ويسمع للحصى تحت اقدامها ايقاع مهموس .

استيقظ قلب الفتى لما رأى رغم غفوته الظاهرة ، وراعه هــــذا الجمال الوئيد المتأني المقبل نحوه فخف وجيب فؤاده واحس ان كـــل جارحة فيه قد استحالت الى عين متفتحة تبصر فلا تكل .

حينما وصلت الفتاة الى حافة الغدير كان الفتى قد استنفد او كاد كل ما فى نفسه من طاقات الاحتمال والتجلد ؛ ولما كان العفاف والزهد مما ورثه عن جده الشيخ راعه أن يقوم بينه وبين هذه القروية الحسناء حجاب سندسي يظهر المفاتن والمحاسن أكثر مما يخفيها ، ويذكي النار اكثر مما يخمدها ، فقرر أن يسترد حريته وان ينطلق نحو النور الملتحف بـــرداء الجمـــال .

قال الفتى فى نفسه : ان الظمأ جفف حنجرتي وقد ارد ماء الغدير فأرتوي لولا غفوتي وهذه الحسناء التي غزت بوجودها المكان فانعكس على صفحة الغدير حياؤها وخفرها ووضاءتها .

وبتبادل النظرات الاولى أحست القروية بظمأ الفتـــى يحـــرق حنجرتها ، فأسرعت تملأ جرتها من ماء الغدير ثم خطت ، حييته متهيبة، نحوه مقدمة له الجرة فشرب حتى ارتوى ، وانتعشت نفسه بالتملـــي

وانحفرت فى قلبه أخاديد وتراءت له شقاوة السعادة المأمولة وذاب فى لسانه طعم حلوها المر .

تناولت القروية الجرة من الفتى بعد أن أروى ظمأه فأحست انهـــا عاجزة عن اطفاء الابتسامة التي اضاءت خديها وشفيتها وطرفا من عينيها الكبيرتين ، وأحست كما لو كانت الحياة قد انبعثت فى عروة الجـــرة فأصبح ملمسها نابضا يدغدغ اناملها ويبعث فى راحة يدها راحة تسري فى شرايين البدن كلـــه .

وهكذا تخاطب القلبان بتواطؤ الاعين وانعكاسات الصور على مـــاء الغدير ، قال الفتى :

ــ ضيـــف الله يطلـــب القـــرى !

فقـالـــت الفتـــاة :

ــ بيتنا هناك فى أعلى التلة وسط بستان اللوز وأبي فى الحقل يراقب الحصاد ، فانطلق اليه .

وكذلك فعل الفتى . وحيث كان اسم أسرته معروفا بين سكـــان القرى الجبلية ، وكان من بيت شريف يوقره الناس فقد استقبله والد الفتاة بالبشاشة والترحيب ، واستضافه .

شعرت الفتاة أن البيت بوجود الفتى ، لم يعد مجرد مأوى يحجب ساكنيه بين جدرانه ، بل مرتعا تسرح فيه العيون ناظرة من خلال شقوق الابواب وثنايا الستائر ، ويخفق تحت سقفه قلبان فتيان يردد احدهمـا نبـــض الآخـــر .

اعدت « رحمة » الفطائر والشواء مع أمها للعشاء ، وكانت تغنـــي بصوت خفيض ترتجل الكلمات وتطابقها بألحان معروفة يتغنى بها اهـــل الجبل حينما يكونون فى طريقهم الى موسم أو سوق .

وفتح الفتى مسامع قلبه يستقبل بها جمال الصوت ويستشف، محاسن الصورة التي ملأت نفسه وفجرت فيها ينابيع الحب والرغبة . ولقد استبدت به نشوة حيرى لم يعرف مثلها من قبل وتنازعت نفسه ضراوة الفريزة الملتهبة ونوازع النسك والتبتل الغالبة على فطرته لشبابة ، فضاع ، لحظة ، فى متاهات النفس والمادة غير انه ما لبث أن استفاق من غفوته وعادت اليه سكينة الروح فراى الاشياء كما تعود أن يراها : مضيئة شديدة الشفوف ، فقرر متابعة الرحلة فاتحا بصره وقلبه كي يرى ويتعلم .

* * *

واصل الفتى سيره فقطع وهادا ونجادا وأودية ، ومر بمدن ومداشر ، واخترق غابات وشعاب جبال ؛ وتحمل لفحات الشمس وشراسة البرد والعواصف ، وعرف الجوع والظمأ والسهر تحت شموع السماء .

شاهد قوافل النمل تسير جادة فى نظام بديع محكم تحمل القوت أو تحفر فى الارض مساكنها . وسمع ذئابا تعوي فى الفلوات وغربان تنعق فى الخرائب ويمامات عاشقة تنوح ، وثعابين تزحف كارهة . ورأى فى الجو أسراب اللقالق المهاجرة تتحسس بأجنحتها ومناقيرها طريق العودة المحتومة .

وفى منعرجات الدروب مر الفتى بأناس يستعبد بعضهم بعضا ، يجتمعون ويتفرقون ، يتجالفون أو يتقاتلون ؛ ورأى ثعالب تفتك بأرانب ، وعصافير تلتهم ديدانا ؛ كل ذلك وأمطار السماء تروي الارض فتحييها أو تتجمع مياهها فتنحدر من الجبل سيولا تجرف الاشجار والبيوت والبهائم .

وكان الفتى يذكر حبه فى كل منزل يحط به رحال السير ، يذكر « رحمة » فينتفض فؤاده ويرفع بصره الى السماء فتنفلق فى نفسه ذرات

حب اكبر واشمل يصله بالمطلق ويرتفع به عن تراب الارض فيرحب قلبه وتتبوا فيه « رحمة » مكانها الصغير فى بؤرة الاشراق الكامل ، فيصبح « الكل » « واحدا » أزليا لا اول لبدايته ولا آخر لنهايته .

***

انتهى المطاف بفتانا الى خلوة فى قمة الجبل غير بعيد من الضريح المهجور ، وكان الشيب قد جلل شعره فألقى بنظرة الى السهل المنبسط تحته ثم رفع بصره الكليل الى السماء وكانه يتساءل : الى اين توصل كل هذه الدروب اذا كان السائح لا قصد له ولا سمت ؟ واخذته كدابه سنة فنـــام .

الربـاط : محمد العربي الخطابي

عَرُوض الموشّح

محمد الفاسي

ان اضافة لفظة العروض للموشح تظهر لاول وهلة كانها تناقض ، لان هذه اللفظة توحي فى انفسنا القواعد التي اسسها الخليل بن احمد لضبط نظام الشعر العربي فى الجاهلية وصدر الاسلام فى حين ان اختراع الموشح كان ثورة على هذه القواعد وعلى ذلك النطاق الضيق الذي حصرت فيه مواهب شعراء العرب . وهذا صحيح اذا فهمنا من العروض فقط البحور الستة عشر التي كان ولا يزال فى الاكثر ينظم فيها الشعراء شعرهم ولكنها فى معناها الاعم تشمل كل الاساليب التي ينتهجها كل شاعر ايا كانت لغته او طريقته للتعبير بكيفية منتظمة عن مشاعره واحساساته . فللشعر اللاتيني عروضه وللشعر الفارسي عروضه وللشعر فى الآداب الشعبية عروضه كذلك . وبناء على هذا فللموشح ايضا عروضه الخاص

وهو ما سعى الى اكتشافه الكثيرون منذ حاول ذلك ابن سناء الملك فى القرن السادس فى كتابه « دار الطراز » (1) الى محاولات المعاصرين من عرب ومستشرقين . ولقد اهتممت بهذا الموضوع منذ سنين اذ نبهتني دراساتي المتعددة فى الشعر الملحون وهو اسم الزجل فى اصطلاح اهل المغرب الى الشبه بين الطريقتين ، وقد كنت توصلت الى وضع قواعد عروض الملحون ونشرت نتيجة هذه الابحاث فى مجلة الثقافة المغربية تباعا في خمسة اعداد (2) حيث قدم لها رئيس التحرير بقوله : « يسر مجلة الثقافة المغربية ان تستهل عددها الاول ببحث مبتكر يعلن عن اكتشاف الاستاذ الفاسي لعروض الملحون المغربي ويعرف بقواعده لاول مرة على غرار اكتشاف الخليل لعروض الشعر العربي الفصيح » .

والذي اريد ان اعرضه عليكم اليوم هو ما توصلت اليه كذلك من وضع اسس الموشح وقواعده وبحوره المتعددة . وقد قلت ان محاولات قام بها بحاثون من قبل ، واول من فعل ذلك ابن سناء الملك ولكنه اعترف بفشله فى هذه المحاولة حيث قال بعد ان ذكر ما سماه القسم الاول وهو الذي يسير حسب نظره على اوزان البحور الخليلية :

« والقسم الثاني من الموشحات هو (ما) لا مدخل لشيء منه فى شيء من اوزان العرب وهذا القسم منها هو الكثير ، والجم الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط ، وكنت اردت ان اقيم لها عروضا يكون دفترا لحسابها ، وميزانا لاوتادها واسبابها فعز ذلك واعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف ، وما لها عروض الا التلحين ، ولا ضرب الا الضرب ، ولا اوتاد الا الملاوي (3) ولا اسباب الا الاوتار ، بهذا العروض يعرف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف » (4) .

كما انه لم يهتد احد الى ضبط المصطلحات المستعملة فى الكلام على تركيب الموشحات ، وكل من حاول ذلك يقلد سابقا له ، وهكذا فالبلبلة شاملة والتخليط عام . فلا احد يعطي تعريفا واضحا للغصن وللسمط وللمركز وللمذهب وللقفل وللبيت وللقسم وحتى للخرجة التي

تلتبس بالمركز الخ . ويقولون عن بعض هذه المصطلحات أجزاء وفقر . كل ذلك لانهم لم يعتمدوا منهجية فى البحث تؤدي بهم الى وضـــع أسس عروض الموشح ومبادئه العامة . وهذا لا يتاتى الا باستقصاء أكثر ما يمكن من الموشحات وتقطيعها ومقارنتها . وعوض هذا وحيث انهم لم ينتبهوا الى أن من أسس هذا الفن الحرية المطلقة المتروكة للوشاح لاختراع مـــا يشاء من البحور داخل قواعد عامة ، وحيث انهم راوا موشحـــات ذات مراكز أو اسماط تتركب من عدة أغصان ، اكتفوا بان يقولوا ويتركب من جزاين ومن ثلاثة اجزاء ومن أربعة الخ .

واكثر الذين يكتبون عن الموشح يعتمدون اقوال ابن سناء الملك فى « دار الطراز » وهو من أهل المشرق وان كان امام الموشحيـــن فى الاقطار المشرقية فهو مع ذلك بعيد عن منبع هـــذا الفن الاصلـــي اي المغرب ، على ان المغاربة انفسهم لم يهتدوا لذلك ولكنهم لـــم يحاولوه لان نظم الموشح اصبح عندهم سليقة كعرب الجاهليـــة الذين كانـــوا ينظمون شعرهم عفويا حسب اساليب ورثوها عن الواضعين الاولين ولم يحتاجوا الى البحث عن قواعدها لينسجوا على منوالها .

ثم ان كل الذين يكتبون عن فن التوشيح يهتمون اهتمامـــا بالغـــا باسباب اختراعه وباقدم من فعل ذلك . والمستشرقون اهتموا بالخرجات اهتماما زائدا لانهم راوا انها غالبا ما تحتوي على الفاظ وجمل باللغـــة الاسبانية القديمة ، ومن ثم راحوا يبحثون للموشح عن أصول اسبانية الى غير ذلك من التمحلات . ولكن لم يقصد احد للبحث عن أسس عـــروض الموشح وابراز خصائص بحوره . وقد حاول ذلك منهم الاستاذ هارتمان فى كتابه « الموشح » (5) ولكنه بنى ايضا بحثه على البحور الخليليـــة محاولا ارجاع كل الموشحات الى اوزان مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر . وقد قال الدكتور جودة الركابي فى مقدمتـــه لكتـــاب « دار الطراز » : « ولكن لا يمكننا ان نرى فى هذه المحاولة الا التكلـــف والتصنع اذ هناك موشحات تشذ عن الاوزان التي ذكرها هارتمـــان فى كتابه ولا تخضع لها » (6) .

والسر في فشل هذه المحاولات هو ان أصحابها ساروا على مبدا البحث عن الاوتاد والاسباب والتفاعيل وميازين البحور العروضية مع ان الموشح كما يعرفه الجميع وكما قدمناه كان السبب في اختراعه التخلص من هذه الطريقة والخروج عن هذا الضنك وذلك السياج الضيق الـــذي ثار عليه أهل الاندلس والمغرب .

وبعد هذه الملاحظات العامة وانا لا اريد في هذا التقديم ان اتعرض لكل القضايا التاريخية والادبية التي تثار عادة حول الموشح فقد تكفل بذلك الكثيرون ممن بحثوا هذا الموضوع وانما الذي يهمني ان أطلعكـم على النتيجة التي توصلت اليها في تحديد القواعد التي يسير عليها نظم الموشـــح .

وكما قلت أولا فان الخيط الذي قادني في هذه المسيرة هو الشبه البين الواضح بين قصيدة الملحون والموشح . وذلك ان المبدأ الـــذي تبنى عليه قصيدة الملحون هو عدد التقاطيع في كل شطر . وحيـــث ان الموشح في مظهره الخارجي يشبه تماما قصيدة الملحون ، فقد عمدت أولا الى عدة موشحات من أزمنة مختلفة وذات مظاهر متنوعة أي مـــن متساوية الاجزاء في الظاهر ومن مختلفتها كأن يكون شطرا قصيرا جدا بالنسبة لشطر او اشطار اخرى من البيت واخذت أحسب عدد التقاطيع في كل أقسامها فتبين لي ان منها ما تتساوى فيها الاجزاء (7) تمـــام المساواة . وهكذا قررت وذلك منذ سنين ان أقوم بتقطيع اكثر ما يمكن من الموشحات لاستخرج من هذا العمل قواعد ثابتة لعروض الموشح . فتم لي بعد الرجوع الى عشرات المؤلفات المخطوطة والمطبوعة جمـــع خمسة وعشرين وخمسمائة موشح قطعت كل واحد منها وجعلـــت لـــه جذاذة خاصة سجلت فيها مطلعه واسم صاحبه ان كان معروفا وفي أي كتاب مخطوط او مطبوع يوجد وذكر اعداد تقاطيع كل جزء من اجزائه مع قافية مركزة واسماطه . وجعلت جذاذة اخرى لكل واحـــد من هـــذه الموشحات أسجل فيها فقط رقمه الترتيبي في الجذاذة الاولى مع الرقم الذي جعلته لبحره .

وقبل الشروع في بيان قواعد هذا العروض يحسن بنا ان نشـــرح بكيفية مجملة ما هو الموشح وما هي الاسماء التي يعبر بها عن اجزائـه : الموشح كلام منظوم له ميزان خـــاص يرتكز على عــــدد التقاطيـــع في اجزائه (8) . وللشاعر الحرية المطلقة في اختراع ما يشاء من الأوزان . وهو يتركب من وحدات تتكرر حسب قواعد ثابتة .

فاول ما يبتدأ به هو وحدة تسمى المركز ويسمونه ايضا القفل وهو في الحقيقة عند الوشاحين المغاربة المركز الاخير المسمى في الاكثـــر خرجة ويسمى المركز الاول المطلع ويقولون له ايضا المذهب وانا أكتفي باسم المطلع . ويتركب المركز من جزأين فان كانا متساويين في عـــدد التقاطيع اسمي هذا النوع من الموشح المبيت لانه اشبه شيء بالبيـــت الخليلي ويمكن ان يخرج على بحر من البحور الخليلية ولكنه يختلف عنها دائما في خلوه من أية علة من علل العروض الخليلي وذلك ان الموشح كان في أول وضعه يلحن ويغنى به وهو في هذا مثل الملحون تماما الــذي اشتق اسمه من التلحين لا من اللحن اي الخطا كما يتوهمه البعض .ولذلك لا يمكن ان يحتمل نقصا او زيادة في عدد التقاطيع والا اختـــل ميزانـــه الموسيقي . وهكذا نرى ان فن التوشيح حتى في المبيت منه مخالف كل المخالفة لبحور الشعر القديمة .

واسمي جزاي هذا المركز من القسم المبيت شطرين . واذا تركب المركز من جزأين مختلفين عدد التقاطيع او من ثلاثة فاكثر من الاجـــزاء فاسميه المغصن ، وكل جزء منه اسميه غصنا .

وهذا المركز يتكرر في كل الموشح بقوافيه وعدد ابياته او اغصانه وبعدد تقاطيعها ثم يلي المركز وحدة ثانية أسميها السمط وتكـــون تارة مبيتة وتارة مغصنة . فاذا كان المركز والسمط مبيتين اطلق على هـــذا القسم اسم المبيت التام .

واذا كان المركز والسمط مغصنين أسمي هذا القسم المغصـــن التام . واذا كان المركز مغصنا والسمط مبيتا اسمي هذا القسم المغصن المزيج . واذا كان المركز مبيتا والسمط مغصنا اسميه المبيت المزيج .

فهذه اقسام أربعة وهي المفصن التام والمغصن المزيج والمبيت التام والمبيت المزيج . واكتفى بتسمية الاول مفصنا بدون نعت والثالث مبيتا مطلقا لانه لا يمكن ان يقع التباس حيث أسمي القسم الثاني مغصنا مزيجا والرابع مبيتا مزيجا .

ولنضرب مثلا لكل واحد من هذه الاقسام .
اولا :المغصن
ولناخذ مثلا موشحا لابن بقي (9)

5	5	3	5	5	3
بدر الجيوب	عن اصطباري	فسلوا	غير النحيب	صبر يعين	ما لدي

فهذا المركز يتركب من ستة اغصان : الاول فيه ثلاثة مقاطع والثاني خمسة والرابع ثلاثة والخامس والسادس خمسة . ولكل واحد قافية خاصة . وهذا النظام ملتزم فى كل مراكز الموشح من حيث عدد الاغصان وعدد مقاطع كل غصن ومن حيث قافيته .

ويلي المركز السمط الاول وهو :

4	5	3
ثوب السقام	يغدو لباسي	كيف لا
سر الغرام	ظبي الكناس	وطلا
ان يستهام	مثلي من باس	ما على

فهو يتركب من ثلاثة اغصان فى ثلاثة ابيات (10) يحتوي الغصن الاول على ثلاثة مقاطع والثاني على خمسة والثالث على أربعة . وهذا النظام ملتزم فى كل اسماط الموشح من حيث عدد الاغصان وعدد مقاطع كل غصن وعدد الابيات . لا فى القافية فانها تتغير فى كل سمط . فهي فى السمط الثاني مثلا : ل ـ ر ـ ل .

ونلاحظ من الآن أن ما يقع من الاغلاط فى طبع الموشحات يرجع لعدم معرفة هذه القواعد . فكثيرا ما يطبع غصن مربوطا بالذي يليه ، وفى الموشحات ذات الاغصان الطويلة لا يعرف اين تنتهي فتنقسم في الطبع ويجعل من غصن غصنين ، ثم اذا ضبطت الكلمات فيقع فى ذلك تخليط لانه حيث لا يعلم ان الفصن الاول مثلا فى المركز يتركب من ثلاثة مقاطع فقط فانه يمكن أن يرد مفتوح الياء والغصن الثالث من السمط يمكن أن يرد مكسورا والميزان يقتضي أن يكون مسكنا . والامثلة فى الكتب المطبوعة التي فيها موشحات لا تكاد تحصى .

ثانيا : المفصن المزيج

ولناخذ مثلا موشحا للاعمى التطيلي (11) :

11	11	7
صبرت والصبر شيمة العاني	ولم اقل لمطيل هجراني	معذبي كفاني

فهذا المركز يتركب من ثلاثة اغصان يحتوي الاول والثاني منها على احد عشر مقطعا والثالث على سبعة مقاطع ولها ثلاثتها قافية واحدة .

ويليه السمط الاول وهو :

11	11
هل كان غيري يعتز بالذله	عشقته ينتمي الى الطه
ملالة الناس عنده مله	لم يحصر الشعر وصفه كله

فهو يتركب من بيتين متساويي اعداد المقاطع بين الصدر والعجز ولهما قافية واحدة فهو اذن مبيت وهكذا فى الموشح .

ووجه تسمية هذا القسم بالمفصن المزيج انه مزج بين التفصين فى المركز والتبييت فى السمط .

ثـالثـا : المبيـت

ولناخذ مثلا موشحا لابن الخطيب (12) :

11	11
جادك الغيث اذا الغيث هما	يا زمان الوصل بالاندلـس
لم يكن وصلك الا حلمـا	فى الكرى أو خلسة المختلس

وهذا المركز يتركب من بيتين عدد مقاطع أشطارهما احد عشـر مقطعا بقافية متحدة فى الصدرين والعجزين .

ويليه السمط الاول وهو :

اذ يقود الدهر اشتات المنى	ننقل الخطو على ما ترسـم
زمرا بين فـرادى وثنـى	مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا	فثغور الزهر فيه تبتسـم

فهو يتركب من ثلاثة ابيات ذات احد عشر مقطعا فى كل شطر منها ، وقوافي الصدور متحدة مع بعضها وكذلك قوافي الاعجاز . ولكنها طبعـا تتغير فى كل سمط بخلاف قافيتي المركز فانهما لا تتغيـران فى كـل الموشح على ما قدمنا .

رابعـا : المبيت المزيج . وهذا القسم لا يحتوي الا على احـد عشر موشحا من جملة الـ 525 موشح التي قطعتها . ثم ان جلها لمتاخرين ولم اثبته الا لان البحث والمنهاج أنتجاه .

ولناخذ مثلا موشحا لابن زمرك (13) :

8	8
وجه هذا اليوم باسم	وشذا الازهار ناسـم

وهو بيت واحد فى كل شطر منه ثمانية مقاطع بقافية واحدة فهو مبيت ويليه السمـط وهـو :

8	7
هاتها صاح كؤوســـا	جالبات للســـــــرور
وارتقب منها شموســا	طالعــات فى بـــدور
ما ترى الروض عروسا	فى حلى نور ونور (14)

وهو يتركب من غصنين فى ثلاثة ابيات ، الغصن الاول فيه ثمانيــة مقاطع والثاني سبعة ولكل غصن قافية خاصة فهو اذن مغصن .

هذه هي الاقسام الاربعة التي تدخل تحتها كل الموشحات التــي وقفت عليها وفى كل قسم انواع تختلف حسب أعداد الاغصان فى المغصن والابيات فى المبيت . وبيان ذلك ان المغصن وفيه اربعة عشر ومائتان من الموشحات يتركب من ثمانية انواع :

النــوع الاول ـ يحتوي المركز على غصنين وفيه ثمانية وتسعون من الموشحـــات

النــوع الثاني ـ يحتوي المركز على ثلاثة اغصان وفيه ثلاثون موشحا
النــوع الثالث ـ يحتوي على اربعة أغصان وفيه خمسة وستون موشحا
النــوع الرابع ـ فيه خمسة اغصان ويحتوي على ثلاثة موشحات فقط
النوع الخامس ـ فيه ستة أغصان ويحتوي على خمسة عشر موشحــا
النوعالسادس ـ فيه ثمانية اغصان ويحتوي على موشـــح واحـــد
النوع السابع ـ فيه تسعة اغصان ويحتوي على موشـــح واحـــد
النــوع الثامن ـ يحتوي على احد عشر غصنا وفيه موشح واحـــد .

والملاحظ ان القدماء كانوا لا يسرفون فى تجزيىء المراكز ، وهذه بدعة للمتاخرين حتى ان ابن سناء الملك نظم موشحا فيه احد عشر غصنا وهو الذي جعلته فى النوع الثامن ولا يخفى ما فى ذلك من التكلف والصنعة التي ابعدت التوشيح عن بساطته النسبية والزيادة فى الشيء نقصان .

واذا اعتبرنا عدد الموشحات فى كل نوع نرى ان اكثره استعمالا هو النوع الاول الذي يتركب مركزه من غصنين فقط . فانه يحتوي تقريبا على خمسين فى المائة من موشحات المفصن .

اما القسم الثاني وهو المفصن المزيج . وفيه ثلاثة وستون ومائة موشح فانه يحتوي على سبعة أنواع :

النـوع الاول : المركز فيه غصنان . ومعلوم ان الفرق بينه وبين مقابله من المفصن ، ان سمط المفصن المزيج من المبيت . وأنا لا اعتبر فى كل هذه الترتيبات سوى عدد اغصـان المركز كما فعلت فى عروض الملحون حيث ركزته على الحربة وهي اللازمة التي تعاد بين كل قسم من اقسام القصيدة وتختم بها كما يعاد المركز بين كل سمط مـن اسماط الموشـح ويختـم بـه .

وفى هذا النوع الاول 60 موشحا :

النـوع الثاني : المركز فيه ثلاثة اغصان ويحتوي على اربعين موشحا .

النوع الثالـث : المركز فيه اربعة اغصان ويحتوي على ثمانية واربعيـن مـوشحـا .

النوع الرابـع : المركز فيه خمسة اغصان ويحتوي على اربعة موشحات
النوع الخامس : المركز فيه ستة اغصان ويحتوي على ستة موشحات
النوع السادس : المركز فيه ثمانية اغصان ويحتوي على موشحيـن .
النوع السابـع : المركز فيه عشرة اغصان ويحتوي على موشح واحد .

ويلاحظ ان لا وجود لموشح مركزه يتركب من سبعة او من تسعـة اغصان ، وان التصنع ظاهر فى الانواع الاخيرة من الرابع الى الاخير وان القدماء كانوا ينظمون موشحات هذا القسم فى البحور ذات الغصنيـن والثلاثة والاربعة فقط .

اما القسم الثالث وهو المبيت فيحتوي على سبعة وثلاثين ومائـة موشح وفيه ثلاثة أنواع :

النـوع الاول : المركز يحتوي على بيت واحد ، وفيه ستة وثمانون مـوشحـا .

النـوع الثاني : المركز يحتوي على بيتين وفيه اثنان وخمسون موشحا

النـوع الثالث : المركز يحتوي على ثلاثة ابيات وفيه موشح واحد وهو كذلك من تكلفات ابن سناء الملك ولولا أن البحـث ابرزه لما جعلته نوعا ثالثا اذ القدماء لم ينظموا الموشح المبيت الا في النوعين المذكورين .

اما القسم الرابع وهو المبيت المزيج فقد قدمت انه لا يحتوي الا على احد عشر موشحا أقدمها موشح لابن المنيشي (15) ويليه موشحان لصفي الدين الحلي من رجال القرن السابع ، وموشح لشاعر مشرفي آخر وهو سراج الدين المحار المتوفى سنة 700 ثم موشح للصلاح الصفدي المتوفى سنة 764 عارض به موشح السراج المحار المذكور ثم موشح للشاعر الاندلسي الوزير ابن زمرك المتوفى سنة 793 ثم موشحان لجدنا ابى مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي المتوفى سنـة 1214 هـ . ثم موشح للصوفي المغربي سيدي محمد الحراق المتوفى اواخـر القرن الماضي ويليه موشح لشاعر الملحون المغربي الحاج ادريس الحنـش المتوفى اول هذا القرن والموشح الحادي عشر لشاعر مغربي معاصـر توفي في عنفوان الشباب وهو عبد الكريم بن ثابت . فهؤلاء تسعـة من الشعراء المائة الذين وقفت على موشحاتهم انفردوا بالنظم في هذا الشكل من العـروض التوشيحي .

وهذا القسم يحتوي على نوع واحد اي الذي مركزه فيه بيت واحد كما تقدم في الكلام على المبيت .

اما البحور داخل هذه الانواع فى كل من الاقسام الاربعة فهي كثيرة تبعا للحرية المتروكة للشاعر أن يركب موشحه كيف ما ظهر له من حيث عدد المقاطع فى اشطار المبيت ومن حيث عدد الاغصان وعدد مقاطعها فى المفصـــــن .

وكيفية تحديد البحر ترجع لعدد اغصانه ولعدد المقاطع فى كـــل غصن . ولناخذ مثلا موشح الاعمى التطيلي الذي مطلعه :

4	6	4	4	6	4
الى متى	بوصلنا تبخل	ولا تلين	ولا تفي	فيشمت العذل	بالعاشقين

وهو من المفصن اذ سمطه كذلك مفصن وهو من النوع الخامـــس لان فى هذا المركز ستة أغصان . الاول فيه اربعة مقاطع والثاني ستـــة والثالث اربعة . والرابع اربعة والخامس ستة والسادس اربعة . فهو من البحر الرابع من النوع الخامس . ولا عبرة بالقوافي فى تحديد البحر لانها تارة تتحد وتارة تختلف .

وقد اعتمدت فى ترتيب البحور على الاقل عدد المقاطع فالاكثر .

وقد قمت بعملية حسابية لكل موشح وتلخص من ذلك أن المفصن وقد قدمنا أنه يشتمل على أربعة عشر ومائتي موشح فيه عشرون ومائة بحر موزعة هكذا على انواعه الثمانية :

النـــوع الاول ـ غصنان فى المركز : أربعة وثلاثون بحرا. (ثمانية وتسعون مـــوشحـــا) .

النـــوع الثاني ـ ثلاثة اغصان فى المركز : اثنان وعشرون بحرا (ثلاثون مـــوشحـــا) .

النوع الثالث ـ أربعة اغصان فى المركز : سبعة واربعون بحرا (خمسة وستون موشحا .)

النـوع الرابع ـ خمسة اغصان فى المركز : ثلاثة بحور (ثلاثة موشحات)

النوع الخامس ـ ستة اغصان فىالمركز : احد عشر بحرا (خمسة عشر موشحـا) .

النوع السادس ـ ثمانية اغصان فى المركز: بحر واحد (موشح واحد) .

النـوع السابع ـ تسعة اغصان فى المركز : بحر واحد (موشح واحد).

النـوع الثامن ـ احد عشر غصنا فى المركز : بحر واحد (موشح واحد).

والسر فى كثرة اعداد البحور يرجع الى ما قلناه من قبـل وهـو الحرية التي للشاعر فى اختراع ما يشاء من البحور داخل القواعد العامة للموشح التي شرحناها . لذلك نجد عددا من البحور ليس فيها الا موشح واحد . وهذا كما هو الشان فى الملحون فان بحورا كثيرة لا توجد فيها الا قصيدة واحدة وتسمى فى اصطلاحهم قصيدة غريزة ، واما رجـال التوشيح فانهم لم يجعلوا للموشح الفريد اسما وذلك لانه وان كان يغنى فلا يقع ذلك دائما بخلاف الملحون فان اصحابه لكثرة ما يغنون من انواع القصائد يحسون بالميزان اكثر من غيرهم فاذا نظم احد منهم قصيدة فى بحر جديد اخترعه ولم يقلده بعد احد فيه بقيت القصيدة كالبئر التـي يغرز ماؤها وينضب لذلك اسمى الموشحات الفريدة فى بحرها غريـزة اقتباسا من اصطلاح اصحاب الملحون .

وبحور النوع الاول من المفصن الاربعة والثلاثون تتراوح اعـداد الموشحات فيها ما بين موشح واحد واربعة موشحات فى ثلاثين منها ، واما الاربعة الباقية ففي واحد منها وهو البحر السادس عشـر ستـة موشحات ، وفى البحر الرابع عشر سبعـة ، وفى البحـر السادس والعشرين ثلاثة عشر موشحا ، وفى البحر الثالث والثلاثين عشـرون موشحا لاثني عشر وشاحـا وهو البحر الذي نظم فيه اكبـر عـدد من الموشحات فى هذا النوع الاول الذي يتركب مركزه من غصنيـن ، الاول فيه عشرة مقاطع والثاني تسعة . ويتركب مركزه من غصنيـن ،

الاول فيه عشرة مقاطع والثاني تسعة . ويتركب المركز من غصنين في بيتين والسمط وهو مثله من غصنين في ثلاثة ابيات في جميع هذه الموشحات سواء نظمت بغرناطة او بفاس او بالقاهرة ، وسواء كان ذلك في القرن الخامس أو في القرن الرابع عشر ، ولاعطائكم فكرة عن الوشاحين الذين نظموا في هذا البحر اذكر لكم اسماءهم :

اقدمهم وشاح اندلسي اسمه ابو عامر محمد بن يحي يعرف بابن ينق ولد سنة اثنتين وثمانين واربعمائة من اهل شاطبة وتوفي سنة سبع واربعين وخمسمائة ، ثم يليه الوشاح المغربي المعروف بابن غرلة من رجال القرن السادس ، ثم وشاح ينسب الى الموصل وهو الشاعر محمد ابن دانيال الموصلي المتوفى سنة 708 ، ثم الشاعر المصري صاحب الموشحات المشهورة شهاب الدين العزازي المتوفى سنة 710 ، ثم شاعر مشرقي آخر هو تقي الدين السروجي من رجال القرن السابع ــ الثامن ، ثم شاعر غرناطة واديبها بعد لسان الدين ابن الخطيب الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك المتوفى سنة 793 كما تقدم . وله في هذا البحر سبعة موشحات .

وينقطع النظم في هذا البحر الى القرن الثالث عشر حيث نجد اربعة وشاحين كلهم ينظمون فيه وهم على التوالي :

الكاتب الشاعر ابو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس العمروي والاديب الطيب بسيرو وله موشحان في هذا البحر ، وشاعر الملحون المتقدم الذكر الحاج ادريس الحنش ، والعلامة الاديب الشهير ابو العباس احمد بن المامون البلغيثي ، والكاتب الشاعر محمد بن المفضل غريط . والموشح العشرون لشاعر لم يذكر من نقلته عنه اسمه .

ذكرت لكم تاريخ هذا البحر وان كان من ابسط البحور في المفصن ليتضح ان القواعد التي يسير عليها نظم الموشح قوانين مضبوطة ثابتة لا يشذ عنها شيء لا في عدد الاغصان ولا في ترتيبها ولا في عدد مقاطع كل غصن ، وذلك في اي بلد نظم الموشح وفي اي زمان تم ذلك . وهذا يتحقق

فى كل البحور التي تعدد فيها نظم الموشحات وسواء كان ذلك فى هذا النوع الاول من المفصن او فى الانواع الاخرى وكذلك الشأن فى بقية الاقسام التي شرحنا مميزاتها من قبل .

ولا افصل الكلام على عدد الموشحات فى كل نوع من انواع الاقسام الثلاثة الاخرى وانما اشير اليه اجمالا .

ففي القسم الثاني وقد قدمنا انه يشتمل على ثلاثة وستين ومائة موشح ، فيه خمسة وثمانون بحرا .

والقسم الثالث وقد قدمنا انه يشتمل على سبعة وثلاثين ومائة موشح ، فيه خمسة عشر بحرا فقط بمعنى ان متوسط الموشحات فى كل بحر يقرب من العشرة ، فى حين أن متوسط بحور القسمين الاولين لا يتعدى الموشحين فى كل بحر . وسبب ذلك ان المبيت هو اسهل هذه الاقسام وهو ابعدها عن نظام الموشح الحقيقي الاصيل . والذين نظموا فى المبيت اكثرهم من المتاخرين .

والقسم الرابع وفيه كما قدمنا احد عشر موشحا فقط ومع ذلك حيث اسماطه مفصنة ففيه ستة بحور موشحان لكل بحر على غرار القسمين الاولين المفصنين عموما .

وبالجملة فان مجموع اقسام عروض الموشح اربعة ومجموع الانواع فيها تسعة عشر نوعا ومجموع البحور كلها تسعة وعشرون ومائتا بحر وكل هذا فى خمسة وعشرين وخمسمائة موشح مما توصلت الى جمعه . ولا اظن انه بقي علي عدد كبير منها الا ما كان من الموشحات التي ينشدها اصحاب الطرق الصوفية وكثير منها قريب من الزجل احيانا لاستعمالهم اللغة العامية فى بعض اجزائها ، وكذلك موشحات تغنى فى الموسيقى المغربية الكلاسيكية التي نسميها فى المغرب الآلة مقابلة للموسيقى التي تؤدى بدون آلات وتسمى السماع ويسمي المنشدون لها مسمعين وهذه الموسيقى هي التي صار يطلق عليها اسم الموسيقى الاندلسية تبعا

لاستعمال الفرنسيين ، وكلا النوعين لا يخرج عن الاقسام والانواع والبحور التي استخرجتها فى هذه الدراسة وسأضمها من بعد الى هذه المجموعة الكبيرة التي تحصلت لدي وانوي ان شاء الله نشر ذلك كله فى كتاب أسميه موسوعة الموشح ، أتعرض فيه بتفصيل لكل قضايا الموشح ولتاريخه ولتراجم الوشاحين المغاربة والمشارقة مع نشر كل الموشحات ليكون مرجعا لدارسي هذا الفن والباحثين فيه من أدباء ولغويين ودارسي الاحوال الاجتماعية خصوصا فى الاندلس مع الكلام على الناحية الموسيقية التي لها ارتباط متين بالموشح .

وهناك نواح اخرى لا ترجع لصميم العروض يتعرض لها الكاتبون فى موضوع الموشح وهي قضايا شكلية منها مسألة عدد الاسماط فى الموشحات وذلك ان الموشحات تبتدىء وتنتهي عادة بالمركز ، وبما أن كل مركز يتلوه سمط باستثناء الخرجة يكون عدد المراكز والاسماط فردا فاذا كان الموشح يتركب من خمسة أسماط وهو الاكثر يكون عدد المراكز ستة ومجموع أجزاء الموشح احد عشر جزءا . وهذا ما يسمى بالموشح التام . ولكن هناك وشاحون يستهلون الموشح بسمطه فيكون عدد المراكز موافقا لعدد الاسماط ، وهذا ما سماه ابن سناء الملك بالاقرع وتبعه فى ذلك من جاء بعده مع ان هذه التسمية يمجها الذوق السليم ولا تتناسب مع حلاوة الشعر وبالاخص شعر الموشحات ، لذلك رأيت أن اسميه بلفظ أقل بشاعة وهو الاصلع وهو أوفق لان المقصود أن الموشح المسمى هكذا ينقصه شيء فى راسه والاصلع ينقصه شعره ، أما القرع فهو مرض يبقى معه الشعر ويعالج . اما الاصلع فهيهات وقد حارت الاطباء فى ارجاع شعره .

والموشح الاصلع اقل بكثير من الموشح التام فنسبته من المجموع 16 ٪ واكثرها فى المغصن بأقسامه الثلاثة . ففي المغصن سبعة وأربعين موشحا أصلع (22 فى المائة) . وفى المغصن المزيج ستة وعشرون (19 ٪) وفى المبيت المزيج وهو الذي سمطه مغصن 3 موشحات (27 ٪) ماا المبيت فليس فيه الا اثني عشر موشحا . (8 ٪)

وهذا ونحوه من عدد الاسماط والمراكز فى كل موشح ومن انواع القوافي ومن لغة الخرجة التي ينبغي أن تكون الفاظها اقرب الى العامية كل هذا لا يمس بجوهر العروض الذي يرتكز قبل كل شـــيء على عــــدد الاغصان وعلى عدد المقاطع فيها وفى ابيات المبيت كما حاولت شرحه فى هذه العجالـــة .

ولكم الشكر على انتباهكم والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد الفاســـي

---

(1) ولد ابن سناء الملك سنة 550 هـ (1155 م) وتوفي سنة 608 هـ (1211 م) . وكتابه «دار الطراز» طبع بتحقيق الدكتور جودة الركابي بدمشق سنة 1368 (1949م).

(2) من الاول الى الخامس (يناير 1970 ـ دجنبر 1971 م) .

(3) المـــلاوي المفاتيـــح التـــي تشـــد بهـــا الاوتـــار .

(4) دار الطـــراز ص . 35 .

(5) Hartmann, Das Muwassah

(6) « مقدمـــة دار الطـــراز » ص . 14

(7) استعمل فى اول هذا البحث الفاظا عادية لا الالفاظ الاصطلاحية التي ساذكرها واحدد تعاريفهـــا مـــن بعـــد .

(8) وقد تنبه لهذا الصفدي فى كتابه توشيع التوشيح (بيروت 1966) حيث قال معرفا للموشح هو « كلام منظوم على قدر مخصوص » وهذا القدر المخصوص هـو الـذي توصلت لتحديده . وزاد قوله : « بقواف مختلفة » . وهذا ليس دائما صحيحا .

(9) وهو شاعر اندلسي كان ايام المرابطين ، من اقدم الوشاحين الذين حفظ لنـا على بعض موشحاتـه وتوفي حوالي سنـــة 540 ، والموشـــح فى جيـــش التوشيـــح لابن الخطيـــب ، ص . 7

(10) البيت هنا بمعناه الاعم لا بيت الموشح المبيت على ما حددنا معناه من قبل .

(11) وهو من أشهر الوشاحين وأكثرهم اجادة وهو من شعراء الدولة المرابطية وقد عاصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (500 ـ 537) . والموشـــح فى جيـــش التوشيح لابن الخطيب ص . 31 .

(12) وابن الخطيب غني عن التعريف . توفي بفاس سنة 776 وموشحه هذا من اشهـــر الموشحات وقد عارضه جماعة من الشعراء ، كما انه عارض هو موشح ابن سهـــل الاسرائيلي « هل درى ظبي الحمى أن قد حمى » . والموشـــح فى نفـــح الطيـــب للمقـــري ج 4 ، ص . 198 .

(13) من أشهر ادباء غرناطة فى القرن الثامن توفي سنة 793 هـ .

(14) أزهار الرياض للمقري ج 2 ص . 200 .

(15) كان معاصر الاعمى التطيلي وكان يدعى عصا الاعمى لانه كان يقوده . ولم يبـق مـــن موشحاته سوى ما اثبته ابن الخطيب فى جيشه .

ياألف ابن زيدون

محمد الصباغ

تمت التسمية فى المغرب ، كما تتم فيه — دوما — وعلى معراج التاريخ ، تسمية « القمة » ، و « الزلاقة » و « الجولان » وما الى ذلك من اسماء الرماح ، والسنان ، وزهرة المداد .

بمرور الخارقة ، يمتلىء الزمن بالضوء ، حتى الفيضان ياللألف : تجويفة فراغ كانت ستبقى كمثيلاتها الآلاف المجوفة المبعثرة بين أطلال الضياع ، لا تقول شروق الشمس ، ولا استدارة القمر ، مر بها خطفا « زيدون » يومنا ، وعتيق أمسنا المؤندلس ، حاملا على جبينه هيولى الأبد تألقات وشعاليل ، مبللا بثمالة عطر التاريخ ، فامتلا بهدير الازل .

(*) بمناسبة الذكري الالفية لولادة الشاعر ابن زيدون ، التي قررت وزارة الثقافة ، الاحتفال بها فى بحر هذه السنة .

الكلمة زمن مضىء ، بها وحدها يكتسب ديمومة وجــوده ، وزخرفــة حضورد فى تفريشة الالق ، فيدخل فى جهارة الحساب ، حتى يحسب به ، حالما يشرع فى تعداد أشياء الجمال ، والبهاء ، والفتون : رائعة قافية ، أو طرفة ازميــل ، أو « طروادة » أدب ، او قطرة نغم منزلجة على تنهيدة آه اعجاب شاردة ، تحرق .

وبدون كلمــة السر هذه ، فالزمن تعلات فــراغ ، ينقــب بمؤشرات ساعاته عــن أصحاب الخارقات ، ليخرجوه من حصــار اللازمن الغفل ، ليملأوه بالضوء ، ليمهروه باسم ريق حميــم ، ليزمنوه فى الاســم .

تمت التسمية فى المغرب ، كما تتم فيه ـــ دومـــا ـــ وعلـــى معراج التاريــخ ، تسميــة : « القمــة » ، و « الزلاقــة » ، و « الجولان » ، وما الى ذلك من أسماء الرماح ، والسنان ، وزهــرة المــــداد .

هكذا تمت التسمية ، فاحتشدت الألف بالشارقات .

هاهى السنوات الألف مجمعة ملونـــة فى خريطة تأريــخ ، تضمها ، فتنفيض « أندلس ابن زيدون » منثنايا أنا ملك ، وتسيل قصائد حفيف ، وأنات وله ، ودفق تباريح وصبابات .

فهذه « الاندلس » المبرحة ، المقفاة ، المغناة ، أينما انزلجت وانعطفت علـــى شهامة مشارفها ، وتعدد مسالك أرجها ، تنديـــك الملاحـــة ، وتحرقك البارقة ، وتحمك النخوة المشوقة المؤنقـــة : سروة كرامة ، ورفعة كرمة على عريش مريش مبجل .

كيفما التفت اليه ، تلقاه فى ومضة الشروق ، وخطفة الدهشة ، ودفء الرحب والشوق الى لقياك فى ترنيمة قوافيه ،حتى تكـــاد تطـــل عليك أصابع يمناه العشرة ، من نعومة بديعـــه ، وتمتـــد نحوك ملهوفة فى صورة عناق أليف ، فلا تملك الا أن تضمه اليـــك وتضمه . . . حتى تبحر فى ضمة اللهفة ، سابحا فى لألائها ، وان أدى بك الموقف الازرق ، الى الغرق الشعرى . ما أحلى !

— * —

أن تكون قارئا مبحرا فى « ابن زيدون » ، عليـــك أن تخلـــق لنفسك مناخا مشحونا بأحاسيس البحر ، وانفعـــالات النســـور والعنادل ، وهينمات النسائم الرقاق ، وهزات القلاع .

عليك أن تمتزج حالا بنغوات الاطفال ، وغنج القيان ، وأن تتصهـــر فى صلصلة الحديد السجين ، وتبحث فى قاموس الموبقـــة فى « قرطبة » ، عن اثم اسمـــه : « جهور » .

عليك أن تتهيأ لا قتحام كوارث الجمال ، ودواهـــى اللوعـــة والنوح ، والأسى ، وأن تكون على أتم الاستعداد لتسلق قمـــــة الصبابات ، بخفة فتوة ، لتتشرف على كلية « زيدوننا » ومجمعه ، وهـــو متربع فى حدقـــة نزواته الغيبية الجمالية ، بجوار قمريته : « ولادة » — بحيرة أشواقه ، وذوب وجدانه وسقسقته .

كثيرة هى الريشات التى احتشدت بحبر الاندلس ، علهـــا تستطيع أن تسبر حقائق وجوهر : « ابن زيدون » ، وتلملمهـــا بفطنة استيعاب وشمول ، ودوما ، تحس بالنقص كامنا فى زياده الاسم ، وتفخيمه وتبجيله ، ومبالغة فى حمولته الكبيرة ، بزيادة « واو » و « نون » — شهابين ثاقبين .

والاســـم فى مجرى المداد أو اللهـــاة ، لـــه وزن مرصوص ، وزيـــــــــادة .

هذه الزيادة فى « ابـــن زيدون » ، هى غور ســـره ، كامـــا اقتربت منها الاقلام حارت وارتكبت لصعوبة ومشقة التوغـــل فى مجاهله النفسية والوجدانية السحيقة المبحرة بقلاعها الهائجة فـــى كونيـــة عالمـــه .

فقطرة واحدة من قوافيه ، تتذوق فيها ندواة جميع السواقى

والجداول المترقرقة فى أدق وأرق عروق الانسان ، كيفما تلون ، وأينما سكن ، وحيثما ارتحلت به رياح الصبابـــة ، ومجاديــف الشوق ، وتنقلات الزمن وتقلباته المزمنة .

مسكون بسواد الانسان ، مأهول بهمومه ومزقـــه ، الـــى حـــد فيضانها من مسامه ، طوفانا انسانيا كونيا .

فى نمنمة الرياش وشميمها عاش حالما ، كما عاش مؤرقـــا متشنجـــا فى رعدة الصقيع وراء وحش الحديد .

وبين الرياش والحديد ، منزلقات ، ومستنقعات ، تلتقــــى فيها أصناف مغامرات ، وسعايات ، وأرضيات ، شقها « زيدوننا » بشمم صقر ، وسمو سماء .

مترقرق ، شاسع ، فضفاض ، هفهاف ، مقتحم ، نبيل مـــن نبلاء قمم وشاهقات الاباء ، والنخوة ، والكرامة ، كبير من كبراء النبض ، والهجس ، والخدر ، ودفق الهوى .

— * —

كالرسم بالوهم ، كالنقش بالهاجس والغيب المحال .

كمن يقرأ النزهـــة فى جناح نحلة ، والدأب والعناد فى دبيب نملة ، والهيجان الازرق فى موار موجة .

على طريقة الهجس الغنائى ، والهذيان بالجمـــال ، يجـــب أن تحفظ « أندلس ابن زيدون » ، أن تغنى بالجهر ، ولا أقول : تقرأ ، بل تتذوق ، حتى التلمظ ، لتحـــدث قشعريرة الانفعـــال وضجته . فالقراءة عملية رتابة حيادية مألوفة هينـــة فى كثير من الاحيان ، يعوزها تغـــور التـــذوق لحظـــات اشـــراق وومـــض ماردت ، لتصبح مرآة تعكس بصدق وعمق ــ وبالاحرى فـــى هذه الحالة ــ عملقة « ابـــن زيدون » ، وتسريحـــة جذوره فـــى مكنونات الوهم ، الصب ، المغنى .

— * —

هكذا تكونت الخارقـــة فى « قرطبة » سنة 394 ، فاستيقظ الزمن ــ من اللازمن ــ مع يقظة هذا الميلاد .

وهكذا تمت تسميته فى المغرب ، سنة 1394 بالضبط .

وبين التأريخين :

يا للألفية : ذكرى رجل تتشعل له فى بلاد « القمة » ، وأرزة المداد ، ألف شمعة ، والزمن المؤلف : شمعدانها المذهب .

ياألف ابـــن زيدون .

الرباط **محمـــد الصبـــاغ**

في الاتحاد السوفييتي

مع ابن بطوطــة
من البحر الأسود إلى نهر جيحون


ابن بطوطـة

د. عبد الهادي التازي

يظل ابن بطوطة علما يعتز به تاريخ المغرب الدولي على طول الاحقاب والسنين ، ويكفي أن نعرف ان جل البلاد التي تتمتع بكيانها اليوم داخل الامم المتحدة تنشد تاريخها البعيد وجغرافيتها القديمة عن طريق ما كتبه الرحالة العملاق الذي استطاع أن يفرض تهجي اسمه على مختلف البلاد سواء في افريقيا او أوربا او آسيـــا .

ان الرجل ولو انه بدأ مغامرته الناجحة في مقتبل عمره ، وبالتأكيد دون هدف سياسي ، لكنه لم يلبث ان امسى شبه سفير متنقـــل يعرف ببلاده في مختلف الآفاق التي زارها ، وبشتى نواحي الحياة فيها ، بروح سمحة بعيدة عن الحقد والتعصب ، بل انه غدا خاضعـــا في تنقلاتـــه ،

لتعليمات العاهل المغربي كما تدل عليه بعض المقاطع من رحلته ، وبخاصة منها الفقرات التي تذكر أنه تلقى ((أمرا كريما)) بالالتحاق ببلاط فاس العاصمة (1) .

ومهما قيل عن المعلومات التي ضمنها ((تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار)) من سائر الذين كتبوا عنها عربا وعجما ، على اختلاف مشاربهم ، فانها ــ أي تلك المعلومات ــ تكون مادة خصبة في تاريخ الممالك والمسالك على ذلك العهد ، وان بعض ما يواخذ عليه فيها لا يرجع عند المنصفين من المعلقين والملاحظين الا لسبب واحد وهو ان الرجل ــ وقد فقد مذكراته المكتوبة اثناء عملية السطو التي تعرض لها ــ خانته ذاكراته عندما كان يملي مشاهداته ــ بعد أزيد من عشرين سنة على تدوين رحلته ، علاوة على ما يمكن ان يقع فيه من تضليل أو جهل بعض التراجمة ممن كان يعتمد عليهم في نقل معلوماته ...

ويدل على المكانة التي احتلتها رحلة ابن بطوطة هذا التهافت الذي يشاهد منذ أزيد من قرن ، على رحلته من طرف الذين يهتمون بالتاريخ والجغرافية في العصر الوسيط علاوة على الذين تطوعوا للتعليق عليه وتتبع خطواته هنا وهناك .

لقد تصدى فريق الى الحديث عنه وهو في بلاد السودان (2) وبعضهم تحدث عنه في جزيرة مالديف وسيلان (3) ... وآخرون تحدثوا عنه وهو يجوب بلاد أفغانستان (4) ، وطائفة اهتمت به وهو في جهات اخرى (5) ...

وقد صحبت ابن بطوطة منذ زمن وهو يقطع مراحله في ايران ، وفي ليبيا ، وفي امارات الخليج (6) ووجدتني اليوم مدفوعا للسير في ركبه وهو يقطع البحر الاسود الى بلاد قفجق أو روسيا الجنوبية ، وآسيا الوسطى وما وراء النهر ، اعني بعض ما يسميه العالم اليوم بالاتحاد السوفياتي .

وقد علمت أثناء رحلتي الاخيرة لسمرقند ، احياء لذكرى الامـــام البخاري ، أن بعض رجال البحث هناك ينهمكون اليوم في اعداد رسائل لهم عن رحالة العصر الذي خصص جزءا كبيرا من كتابه للحديث عـــن ممالكهم القديمة وآثارهم العظيمة ، فيهم فريق من المؤرخين الناشئين من جمهورية أوزبيكيستان ، وفيهم عالمان محققان بمعهد الاستشراق في لينينغراد يشرفان الآن ـ كما أكد لي الاستاذ انس خالدوف ـ على مراجعة ترجمة باللغة الروسية ، كتبت قبل مائة سنة ، خاصة بالجانب المتعلق من الرحلة بآسيا الوسطى ، على أن هناك آخرين يهتمون ايضا بموضوع ابن بطوطة في الاكاديمية العلمية ...

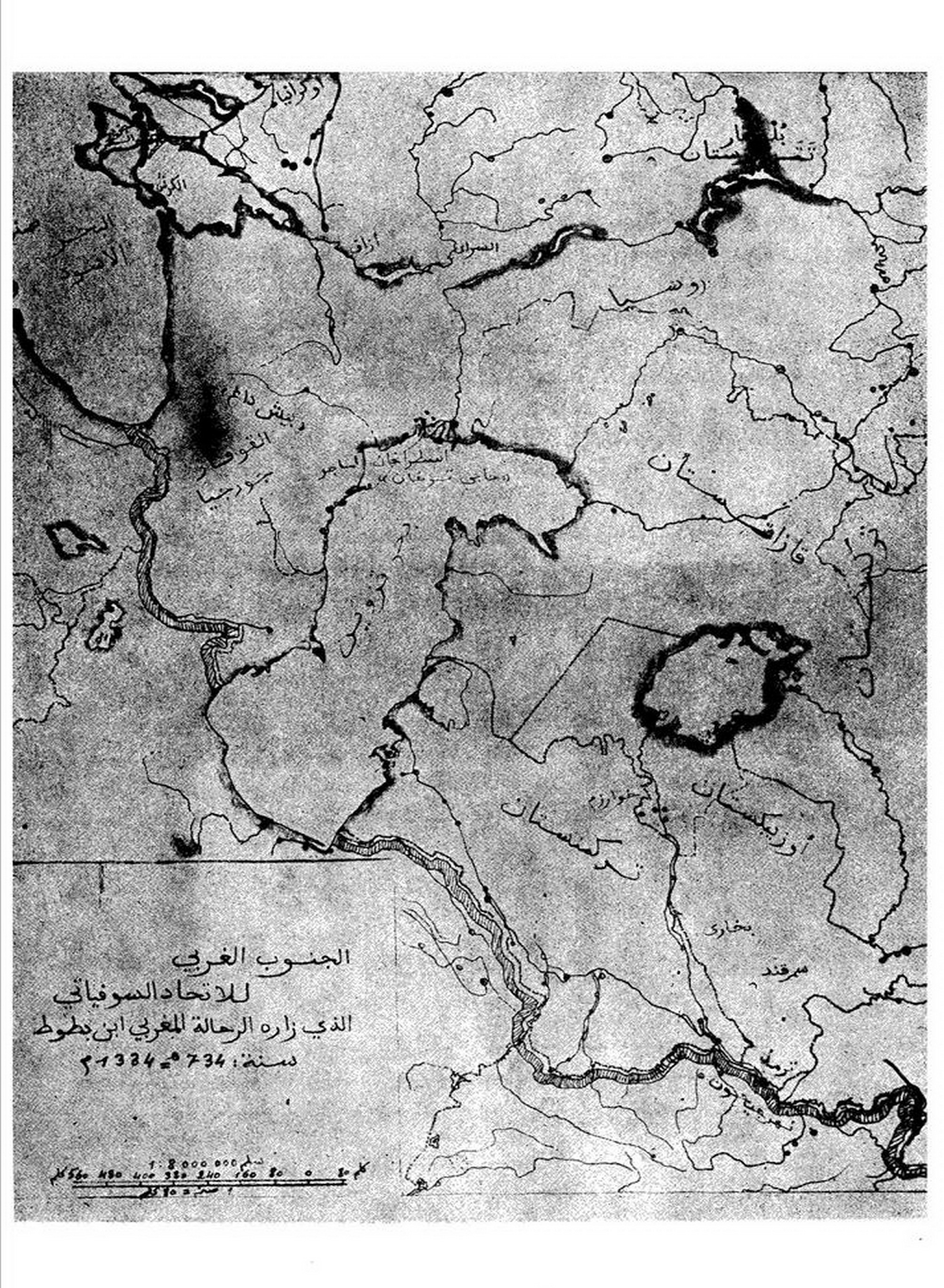
وكل هذا يؤكد ما المعت اليه من أن رحالـــة العرب يعتبـــر من اقوى الجسور التي ربطت المغرب بالبلاد الشرقية في ذلك العصر وأننا سنظل مدينين له في الحديث عن علاقاتنا الاولى بالعالم الخارجي .

* * *

ومن غير ان نسوق النصوص الحرفية ((لتحفة النظار)) فانـنــــا سنكتفي بتلخيص لما ورد فيها عن هذه المنطقة مركزين على المواقع التي زارها وعلى بعض المشاهدات والملاحظات التي اثارت اهتمامه معلقين بما تجمع لدينا من ملاحظات او تلقيناه من سكان تلك الجهات او شاهدناه رؤيـــا عيـــن .

* * *

ودع الرحالة المغربي آسيا الصغرى من مدينة صنوب (Sinope) الساحلية اواخر جمادى الثانية 734 هـ ـ اوائل مارس 1334 م عبر البحر الاسود قاصدا جنوب روسيا المعروف آنئذ تحت اسم قفجق (Kiptchak) وكـــان تحـــت حكـــم دولـــة منحـــدرة اصالـــــة مـــن الولـــد الاكبـــر لجنكيرخـــان ... وقـــد نـــزل في شبـــه



أوكرانيا
أزاق
روسيا
القوقاز
جورجيا
كازاخستان
خوارزم
تركمنستان
أوزبكستان
بخارى
سمرقند
الجنوب الغربي
للاتحاد السوفياتي
الذي زاره الرحالة المغربي ابن بطوط
سنة: 734 هـ = 1334 م
1 : 8 000 000

جزيرة القرم (7) بعد ان تعرض مركبه للخطر واشتد به الامر ورأى الهلاك عيانا ودهمه من الهول ما لم يعهد مثله بعد أن أكد له أبو بكر المغربي عما شاهده من اعلى المركب عن هياج البحر .. !

وقد نزل في مرسى يحمل الى الان في الخرائـــط السوفياتيـــة اســـم الكـــرش (KERTCH) عند مدخل بحيـــرة أزوف (AZOV) ومن هناك وبمساعدة طائفة من المغول تابعة لما كان يسمى « القبيلـــة الذهبيـــة »: LA HORDE D'or وصل ركـــب ابن بطوطة الى المينـــاء الرئيسي للجنويين في شبه الجزيرة الذي كان يحمل اسم الكفا وهـــو بالذات المرسى الذي يعرف اليوم باسم (FEODOSIA) والـــذي كـــان يتوفر على عدد من المراكب الحربية والتجارية .

ومن هذا المرسى انتقل الى مدينة القرم التي استعارت منها الجزيرة كلها هذا الاسم والمعروفة في الروسية هكذا (KRYM) .

وكانت المنطقة المذكورة معدودة من الامبراطوريـــة الواسعـــة للسلطان العظيم محمد اوزبيك خان الذي تملك زهاء ثلاثيـــن سنـــة (712 – 741 = 1312 – 1341) والذي يقترن اليوم اسم احـــدى الجمهوريات « التركستانية » السوفياتية (أوزبيكستان (8)) باسمه ...

وبعد ان اقام ابن بطوطة في ضيافة حاكم مدينة القـــرم الاميـــر تولوكتمور (TOLOCTOMOUR) متعرفا على مختلف المعالم الاسلامية التي تزخر بها المدينة ... حرص على السير صحبة الامير المذكـــور الى عاصمة السلطان (اوزبك) التي سماها ابن بطوطة (السرا) يعني السراي،

وقد استعد للسفر من مدينة القرم الى العاصمة المذكورة بتحضير العربات اللازمة لقطع مثل هذه المسافات وكانت فرصة للرحالة المغربي لتقديم وصف طريف لوسائل التنقل عند التتر القدامى (9) .

وقبل ان يستمر في طريقه يقدم الينا عن المنطقة بعض المعلومات التي ما تزال الى الان طرية بتلك الجهات ، فقد تحدث عن عادة الاتـــراك والتتر فى تناول لبن الخيل ، وقال انهم يسمونـــه القمـــز (KUMYS) والامر ما يزال كذلك حيث يقدم الى الضيوف فى بعـــض الحفـــلات ، كما حدث بالنسبة الينا فى (اوفا) عاصمة جمهورية باشقردستان حيث وضعت امام الوفود كؤوس من المشروب المذكور ، وهو فى منتهـــى الحموضة والخفة ايضا ، وبالرغم من أن ابن بطوطـــة لم يستسغـــه على الاطلاق مرددا انه ((لا خير فيه !)) فان الناس هناك مطبقون على ان له مفعولا لا يقل عما عهد فى المشروبات المنبهة الاخرى !

وتحدث ابن بطوطة عن تناوله لاكلة تسمى الرشتـــة (Resthe) وهي نفس التي تناولها المؤرخ المغربي ابن خلدون مع تيمورلنـــك فى دمشق الشام (10) : ضرب من الشعرية مطبوخة ومضافا اليها شيء من اللبن احيانا وكثيرا ما تقدم فى المآدب والحفلات ، على أنها اي الرشتة ما تزال معروفة ايضا فى عدد من البلاد العربية لبنان ومصر وحتى فى بعض بلاد المغرب الشرقية كما تحدث ابن بطوطة عن نوع من النبيد يتناولونه يحمل اسم البوظة او البوزة ، واللفظ معروف كذلك اليوم والكلمة داخلة فى اللغة الصقلبية (Cyrilique) ، وتكتب هكـذ BODA

ومن المطرف فى حكايات ابن بطوطة عن المنطقة انه كان يجد نفسه أحيانا فى مآزق من حيث جهله للغة اهل البلاد ، تماما على نحو ما يجري لاي عابر اليوم بهذه الناحية ، ونستفيد من خلال هذا ان اللغة العربيـــة كانت تعيش فى محنة منذ هاتيك العصور ... وقد مرت بابن بطوطـــة متاعب من جهة الترجمة نقشت على ذاكرته فلم ينسها بمرور الاعوام ... وهكذا فبعد ان يذكر تورطه فى بعض جهات آسيا الصغـــرى حيـــث استحضروا فقيها من مكان بعيد ادعى أنه يعرف العربيـــة ليقـــوم بدور الترجمة ولما طلبوا اليه تادية ما قاله الرحالة ، اعتذر بان ابن بطوطـــة يتكلم باللغة العربية القديمة بينما هو (اي الترجمان) لا يعرف الا اللسان

العربي الجديد (11) ، وبعد ان يذكر خيبته كذلك وقد قدم اليه ترجمان كشف الغيب انه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة (نعم) خاصة ! وبعد أن يذكر قصته وقد بعث ليشتري سمنا فاحضر له بدل السمن تبنا ، وتبين ان للسمن اسما آخرا غير ما يعتاده الرحالة ... بعد ذلك يذكر انه ايضا في آسيا الوسطى سال الامير عن شراب قدم اليه فاجابه : ((هذا ماء الدهن)) فتناوله منه رحالتنا قبل ان يتضح انه نبيذ (البوزة) الذي يتناولونه بكثرة وان المجيب عوض أن يقول (ماء الدخن) بالخاء ، تحرف النطق ، على نحو ما يحصل عند المتلقنين للسان آخر !

لقد قطع ابن بطوطة زهاء عشرين منزلا ليصل الى المدينة المعروفة بأزاق ، والتي تقع على مصب نهر ضون (DON) المعروف اليوم أيضا باسم نهر ازوف (AZOV) المتصل بالبحيرة التي تحمل نفس الاســـم ، وكانت المدينة AZAQ ملتقى مشهورا للتجار الجنويين وغيرهم .

وقد وجد ابن بطوطة في استقباله بأزاق أمير المدينة محمد خواجة الخوارزمي الذي كان قد تلقى اشارة سابقة من أمير مدينة القرم تخبــره بوجهة الرحالة المغربي نحو السلطان (أوزبيك) كما وجد في استقباله حركة (الأخية الفتيان) التي كان لابن بطوطة فضل الاهتمام بها والحديث عنها طيلة تنقلاته في هذه الجهات (12) ، وقد حضر الرحالة المغربــي مادبة فاخرة أقيمت على شرفه قدمت فيها كذلك ألبان الخيــل والبوزة وتليت فيها الخطب باللغة العربية والتركية وصدح فيها بالغاء العربــي والفارســـي والتركـــي .

ومن مدينة ازاف اتجه نحو مدينة (الماجر) التي وصلها يوم 23 شعبان 734 = 29 ابريل 1334 وهذه المدينة هي المعروفـــة حاليـــا بـ (موركوماندجري) (Murgomandjary) على نهر لاكاما (Lakama) الى الجنوب الغربي من استراخان (ASTRAKHAN)

وفي هذه المدينة التقى الرحالة المغربي بيهودي ورد من الاندلس على هذه الديار برا من غير ان يسلك طريقا للبحر وصلهـــا عن طريـــق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم (او الترك) وبلاد الجركس .

وقد لذ للرحالة المغربي أن يتحدث باسهاب عن المركز المرموق للمرأة التترية وكيف تعامل باحترام من قبل المجتمع من أعلى شخصية في البلاد الى أولها ، وهو يفرد مقاطع للحديث عن الخواتين يعني الاميرات زوجات السلطان ، وتقاليدهن داخل البيوت مع الامراء على نحو ما كانوا عليه في وطنهم البعيد من حب واخلاص وتفان في سبيل راحة أزواجهن (13) .

ومن مدينة الماجر تجهز ليقصد مصطاف السلطان أوزبك الموجود على بعد مسيرة أربعة ايام في حمة هناك ، بالمنطقة المعروفة باسم (بيش داغ) احدى مرتفعات القوقاز وهي اليوم (Reshtau) التي تقع على مقربة من (Pyatigorsk) المعروفة بعيونها الكبريتية الشهيرة وقد وصل ابن بطوطة المعسكر أول رمضان 743 = 6 ماي 1334 .

كانت مناسبة للرحالة ان يتعرف على نظام البلاط الاوزبيكي وتشريفاته ويتحدث عن الامبراطور محمد اوزبيك الذي كان يبسط نفوذه على رقعة واسعة الارجاء وكان الى جانب هذا ــ وبالرغم من المصاهرة بينه وبين ملك الروم ــ يقظا حذرا من قسطنطينية العظمى التي كانت تحاول بسط نفوذها على اطراف البلاد الاسلامية المجاورة .

ولم ينس ابن بطوطة ــ وهو يرتب الملوك السبعة الذين يحكمون الدنيا ــ ذكر العاهل المغربي السلطان ابا عنان الى جانب سلطان مصر والشام ، وسلطان العراقين العرب والعجم ، والسلطان أوزبك وسلطان بلاد تركستان (14) وما وراء النهر ، وسلطان الهند وسلطان الصين .

لقد استقبل الضيف المغربي من قبل السلطان أوزبك في اليوم الموالي لوصوله في عصرية حافلة ، شهدها المشايخ والقضاة والشرفاء ، واستمر الحديث الى حلول وقت الافطار حيث نصبت مختلف أنواع المشروبات واصناف الطعام .

ويظهر ان ابن بطوطة نال في القصر الاوزبكي خطوة كبرى مكنته من التعرف كذلك على مركز الخواتين ودرجاتهن من الكفاءة والجاه بل انه كلف

نفسه عناء البحث عن خطوة الخاتون الكبرى طايطوغلي (Thai Thoghly) وأن مرد ذلك لسبب فسيولوجي ، فان رحمها شبيه بالخاتم خلقة ، ولذلك يجدها السلطان كل ليلة كانها بكر !

وقد نقل لابن بطوطة ان الخاتون المذكورة من سلالة السيدة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ، ولما عاد اليه ملكه امر بوضعها بعراء لا عمارة فيه فوضعت بصحراء قفجق .

وبما عهد فى الرحالة المغربي الشاب من اقدامه على تعدد النساء وتغييرهن وتبديلهن فانه اهتم بموضوع بقايا السيدة المنبوذة بالعراء ، وظل يسال اهل صحراء قفجق بل انه اخذ يسال اهل الصين الذين أخبروه أن هناك صنفا من النساء على تلك الصورة ، ويظهر ان ابن بطوطة جرب حظه فى التعريس ببعض التتريات لكنه « لم يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة » على حد تغييره !!

* * *

وقد كان من بين الاميرات التي سلم عليهن وتحدث عنهن الخاتون بايلون (Bayalûn) بنت سلطان الروم تكفور (TAKVOR) امبراطور القسطنطينية العظمى وبيزنطة (15) ، وكانت تحيط بها زهاء مائة جارية ما بين رومية وتركية ونوبية اضافة الى حجابها من رجال الروم وقد لاحظ ابن بطوطة انه عندما اخبرها عن وطنه البعيد بكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها حنينا منها ورقة !

* * *

وبينما ابن بطوطة فى هذا الجو الحافل بالتكريمات والتشريفات ، لذ له ــ وقد سمع بمدينة بلغار او قرا عنها شيئا من امثال ما في رحلة فضلان (16) ــ ان يقوم بالتوجه اليها ليرى رؤيا عين ما ذكر له عن قصر الليل بها فى ايام الصيف ، وقصر النهار بها كذلك ايام الشتاء .

ويقول الرحالة المغربي انه طلب الى السلطان مساعدته لتحقيق هذه الرغبة ، فبعث فى صحبته أميرا أوصله الى (بلغار) ورافقه فى العودة ، ويتذكر ابن بطوطة أنه وصل الى هذا الموقع فى رمضان وانه لما صلى المغرب افطر وتم اذان العشاء وهو فى اثناء الافطار فصلاها وادى تراويح رمضان والشفع والوتر وطلع الفجر فى أعقاب ذلك ، وقد استمع برؤية هذه الظاهرة الطبيعية خلال فترة ثلاثة أيام قضاها فى تلك الديار الى أن كان رجوعه يوم الاربعاء 28 رمضان 734 = 1 يونيه 1334 .

واذا كانت حكاية ابن بطوطة عن هذه الظاهرة ، عادية لأن موقع بلغار الجغرافي - وهي على خط عرض 54 - 54 شمالا لا يختلف كثيرا عن موقع الدانمارك الذي يعيش هذه الظاهرة ، فان بعض الملاحظين علقوا على تقدير ابن بطوطة أن بين مصطاف السلطان فى « بش داغ » وبين مدينة « بلغار » مسيرة عشرة ايام ، علقوا عليه بما يقتضي تخطئة ادعائه قطع مسافة تناهز الفا وثلاثمائة كيلوميتر - من القوقاز الى قازان - فى ظرف عشرة ايام .

والحقيقة ان هذه أولى المواخذات التي أحصيت على الرحالة المغربي وهو فى هذه الناحية .

* * *

لقد تحدث ابن فضلان فى رحلته عن طريق الوصول الى بلغار بتفصيل ، وقد اعتمد ياقوت الحموي على وصف ابن فضلان وتعيين موضعها وحدودها عندما قال فى جملة ما قال :

« بلغار مدينة الصقالبة ضاربة فى الشمال لا يكاد الثلج يقلع عن ارضها صيفا ولا شتاء ، وبين (اتل) مدينة الخزر وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد اليها فى نهر اتل (فولغا) نحو شهرين وفى الحدود نحو عشرين يوما ومن بلغار الى بشجر (باشقردستان) خمس وعشرون مرحلة » .

ومن الواضح ان موقع مدينة البلغار المذكورة لا علاقة له ببــلاد البلغار الحديثة التي تقع على الضفة الغربية للبحر الاسود .

ان آثار مدينة البلغار تقع على الضفة اليسرى لنهر (الفولكا) تحت التقائه بنهر لاكاما (LAKAMA) ، ويضاف الى ذلك ان هذه المدنية كانت عاصمة لمملكة بلغاريا الكبرى ، وانها كانت مركزا رئيسيا لتبادل تجـــارة روسيا وسيبيريا وقد استولى عليها التتر فى القرن الثالث عشر .

فاذا اضفنا الى هذا أن ابن بطوطة ـ على خلاف عادته ـ لم يقف بنا طويلا عند هذه المدينة ولم يتحدث عن أثر من آثارها ، ولا شخصية من شخصياتها استخلصنا من كل ذلك ان الرحالة المغربي لم يزر مدينـــة بلغار بنفسه ولكنه روى ما تناهى اليه من معلومات عنها ولو ان اسلوبـــه يقتضي عكس ذلك .

والحقيقة ان لابن بطوطة عذرا بارزا فان السطو على مذكراته الاصلية على ما أسلفنا واعتماده ـ بعد فترة طويلة من الزمن ـ على ذاكرته التـــي رجع فيها الى ما كان يتلقفه بواسطة الترجمة ، كل ذلك يبرز عدم التدقيق فى الموضوع .

واذا علمنا ان البلغار أو الصقالبة كما تسميهم الرواية الاسلامية ـ توزعوا أوائل القرن السابع الميلادي فى اعقاب حملة الخزر عليهم حيث ذهبت طائفة منهم بقيادة اسبروخ (ASPAROUKH) الى الدانوب حيث كونت دولة ، واتجه قسم منهم الى جنوب ايطاليا حيث امسوا بالاندلس فى خدمة الدولة الاسلامية منذ أيام الحكم 180 ـ 206 = 796 ـ 822 فان قبائل منهم استقروا ببلغار فولكا (17) حيث انتشر فيهم الاسلام منذ القرن الثاني للهجرة وكانت لهم علاقات سياسية مع الخلافة ببغداد الامر الذي يفسره وصول سفارة هامة الى بلغار برئاسة ابن فضلان يـــوم 12 محرم 310 = 11 ماي 922 وهو التاريخ الذي ما يزال الى الان محفوظـا لدى سكان المنطقة ...

وقد استولى التتر على بلغار هذه حوالي عام 635 = 1237 واتوا على معالمها وكان مما زاد فى اندراس آثارها حملـــة تيمورلنك عـــام 797 = 1395 ثم اتخاذ السلطان أولغ بـــك قازان عـــام 850 = 1446 عاصمة جديدة للدولة (Novy Bulgar) حيث اصبحت بلغار القديمة ضمن لائحة المواقع الاثرية التي ينقب فيها !

* * *

وبعد حديث ابن بطوطة عن بلغار قدم لنا وصفا عن أرض الظلمة(سيبيريا) التي كان يعتزم الدخول اليها لولا التكاليف التي وقفت دون تحقيق غرضه وهكذا ذكر عادة اعتماد الناس على الكلاب لجر العربات الصغار وانها هي وحدها التي تستطيع أن تغزو تلك المفازات باظافرها الناشبة ، وهي عادة ما تزال الى الان ماثلة ، شاهدنا فيها صورا فى مدينة (اوفا) عاصمـــة باشقردستان التي كانت خاضعة لبلغار فى قديم الزمان .

وعلى نحو ما ذكره الرحالة المغربي فان قيمة الكلاب هناك مرتفعة ومركزها ايضا فى المجتمع رفيع حيث يقدمونها على الانسان فى الاكل ولا تضرب ولا تنهر .

ويتعرض ابن بطوطة للتجارة هناك فى اصناف الفرو التي ما تزال المنطقة معروفة بها عبر السنين فيذكر اوصافها والوانها وخاصياتهـــا واثمانها على اختلاف العملات بين الهند والمغرب وكانما امسى ابن بطوطة من هواة الفرو !

وقد تحدث عن الطريقة المتبعة انذاك فى بيع الفراء : طريقة التبادل المباشرة والتجارة الصامتة التي استبدلت اليوم بالمزاد العلني الـــذي يعقد سنويا فى لينيغراد !

ويصف ابن بطوطة التجارة الصامتة بان التجار عندما يـــردون على البلاد يتركون ما جاءوا به من البضاعة هناك ويعودون الى حيث يقيمون

فاذا كان من الغد عادو لتفقد متاعهم فيجـــدون بازائـــه فرو السمـــور والسنجاب والقاقم فان رضي صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعــه اخذه وانصرف وان لم يرضه تركه ، فيزيدونه ، وربما رفع أهل بلاد الظلمـــة متاعهم وتركوا بضاعة التجار وهكذا يتم البيع والشراء .

ومع ان وصف ابن بطوطة لطريقة التجارة فى تلك البلاد يبدو غريبا الا أنه لا يخلو من جذور واقعية ، فقد تضافرت نصوص التاريخ على أن الاوربيين عرفوا هذا الاسلوب من التجارة مع الهنود الحمر فى أمريكا ، كما عرفه القرطاجنيون مع بعض الامم فى العصور القديمة ، وعرفـــه الاحباش مع بعض القبائل الافريقية فى القرن السادس الميلادي ، ومن المعروف أيضا أن الاقزام الافريقيين كانوا يتبادلون التجارة مع جيرانهم الزنوج على هذا التحديد الذي يطلق عليه اسم (التجارة الصامتة (8 1) .

وليس صحيحا ما قاله كراتشكوفسكي من ان ابن بطوطة اعتمد فى وصف بلاد الظلمة على مصدر أدبي فان أهم الرحالة الذين زاروا منطقة الفولغا هم ابن فضلان ، وابو حامد الغرناطي ، ورحلة كل من هذيـــن الرجلين خلو من المعلومات التي قدمها ابن بطوطة (19) .

* * *

وبعد عودة ابن بطوطة من (بلغار) حضر عيد الفطر 734 = يونيه 1334 مع السلطان أوزبك الذي وجده ما يزال بمصطافه الذي تركه فيه فى بيش داغ .

* * *

وقد اتى بوصف ممتع للتشريفات السلطانية المتبعة من قبل البلاط الاوزبيكي بمناسبة العيد الذي صادف يوم الجمعة (20) بما فى ذلـــك

الجلوس لتقديم الخلع التي يتقبلها المحظوظون بالعادة التـــي تسمـــى « الخذمة (21) » وبما فى ذلك تخصيص كل شخص بمائدة له معينة له ، وتناول اللحوم المسلوقة وأكواب النبيذ والقمز مما لا يزال معروفـــا فى عادة المنطقة الى اليوم .

وبعد قضاء أيام العيد انتقل الركب السلطاني بمحطته فى اتجـــاه مدينة الحاج ترخان وهي بالذات مدينة اصطراخـــان (ASTRAKHAN) التي تقع على نهر فولكا .

وبعد أن يقدم وصفا لنهر (اتل = فولغا) الذي يعتبر ـ كما قال ـ من أنهار الدنيا الكبار ، والذي يقضي السلطان على ضفافه أيام المصيف، يؤكد مما عرف من ان مياه النهر تجمد حينما يشتد البرد . وهنا وفى هذه المدينة حدث ان اعربت الخاتون بيلون (Beïaloûn) ابنة ملك الروم عن رغبتها للسلطان محمد أوزبك أن يأذن لها فى زيارة والدها بالقسطنطينية لتضع حملها عنده واضافت الى طلبها هذا اقتراح مرافقـــة الرحالـــة المغربي ابن بطوطة لركبها لمشاهدة عاصمة البيزنطيين .

وبالرغم من أن السلطان أشعر ابن بطوطة بأنه يشفق عليه أن ينالـه ما قد يقلق فى بلاد الروم ، لكنه لم يلبث أن عاد ليمنحه شرف مرافقـــة زوجته الاميرة بنت الامبراطور .

وهكذا نجد ابن بطوطة يحظى بمركز سام فى القصر ، ويمسى من أثرياء الناس بما تجمع لديه من صلة السلطان أوزبك وعطاءات الخواتين حيث توفرت لديه جملة من الدنانير والسبائك والثياب والخيل وفروات السنجاب والسمور .

وقد اخذ طريقه نحو القسطنطينية يوم العاشر من شوال 434 = 14 يونيه 1334 حيث خرج العاهل بنفسه لتوديع الاميرة يصحبه القصر بما يضمه من امراء وأميرات .

لقد سافر صحبتها آلاف الجند فيهم المالك والروم والترك والهنود ومئات من الجواري الروميات وغيرهن ، كما صحبتها أربعمائة عربـة وزهاء ألف فرس وثلاثمائة من البقر ومائتان من الجمال .

وتحركت المدينة المتنقلة نحو بلاد الروم (تركيا اليوم) ويذكر ابن بطوطة انهم نزلوا مدينة تحمل اسم (كك OCAC التي يعتقد أن القصد بها الى الموقع الذي يحمل اليوم اسم لوكاشي (Locachi) الذي يقـع على نهر أزوف .

وبعد هذا يصل الى مدينة سورداق التي تعرف اليوم باسم (Sudak) بجزيرة القرم ، وقد كانت بها مستودعات لتجار فينيسيا ثم جنوة وقد وصفها رحالتنا بأنها تقع فعلا على ساحل البحر وان مرساها من أعظـم المـراسـي .

ولنا وقفة اخرى هنا مع ابن بطوطة ! فان كل الدلائل تشير الى انه سلك طريق البر الى بلاد الروم حيث انه لم يتعرض اطلاقا لمراكب بحرية وبناء على ذلك فانه من غير الواضح ان يقوم ركب الخاتون بتلك الجولة في بلاد القرم ، ولعله قد خلط في خطوط سيره ، وربما كانت زيارته لسورداق أثناء مروره الاول بجزيرة القرم وليس خلال هذه الرحلة .

هذا وقد ذكر ابن بطوطة انه من سورداق قصد الى بلدة بابا سلطوق آخر بلاد الترك وقد كان بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة دخلها الركب الاميري في منتصف ذي القعدة من عـام 734 = 18 يونيه 1334 .

ومن بابا سلطوق الى حصن مهتولي (Mahtoûly) الذي كان اول بلاد الروم حيث بقيت العربات هنا واعتمدوا على الخيل والبغال لوعورة الجبال ثم حصن مسلمة بن عبد الملك الذي يقع على سفح جبل على نهر زخار يدعى اصطافيلي (Asthafly) ثم الى مدينة كبيرة ذات انهار واشجار على ساحل البحر كانت المدينة التي توجد قبل الوصـول الى

القسطنطينية التي نودعه ليتجول في معالمها بعد ان حظى بخلعة ومظلـه ملكية وعينت لمراقبة بعثة شرف ... على ان نستقبله من جديد فـي حصن مهتولي حيث يعود الى العربات التي تركها هناك وياخذ نفس الطريق التي ورد منها والوقت برد ...

ولما وصل الي مدينة الحاج ترخان (اصطراخـــان) حيـــث ودع السلطان ، وجد ان الملك أوزبك عاد الى قاعدة ملكه الســـراى (22) . فاخذ الطريق اذن الى العاصمة فى جو قارس (نونبر 1334) اضطر معه ان يلبس ثلاث فروات وسروالين وان يجعل فى رجله خفا من صـــوف فوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف ثالث بلغاري ظاهره جلـد فرس وباطنـــه جلد ذيب .

واذا كانت الاقدار قد شاءت ان تصرف ابن بطوطة فى المرة الاولى عن الوصول الى مدينة السراى حيث وجد الملك يستحم فى مصطافـــه ويستحم ، فركن اليه الى أن سافر الى (بلغار) وعاد ليرافق الاميرة الى والدها ، فان الظروف سمحت له بهذه الزيارة بحضرة الملك فى هـــذه المدينة التي تعتبر « من أحسن المدن مظهرا واوسعها شوارع واكثرها سكانـــا ، واجملهـــا أسواقـــا ...

لقد كانت العاصمة تحتوي على ثلاثة عشر مسجدا لاقامة الجمعة اضافة الى طائفة من المساجد الاخرى وتحتضن العاصمة عـــددا مـــن القوميات ففيهم المغول وبعضهم مسلمون وهم اصحاب البلاد والسلاطين، وفيهم الآس وهم مسلمون (23) ، ومنهم القفجق والجركس ، والروس ، والروم وهم مسيحيون اضافة الى الغرباء من أهل العراقيـــن ومصـــر والشام وغيرها ، كل طائفة تسكن على حدة فى محلة تحتوي على عدد من الاسواق ، وبالعاصمة هذه يوجد قصر السلطان أوزبك ، وهو اي القصر يحمل اسم الطون طاش (AL THOUN-THACH) يعني حجر الذهـــب ، وتتوفر المدينة على قاضي من خيرة القضاة ، وعدد من المدرسيـــن فى المذهب الشافعي والمذهب المالكي ...

وياخذ ابن بطوطة ـ بعد هذا المقام فى السراى الجديد العاصمة الثانية للملك اوزبك ـ طريقه جنوبا نحو منطقة خوارزم التي تفصلها عن الحضرة مسيرة اربعين يوما فى تقدير ابن بطوطة .

وهكذا غادر المدينة يوم 12 ربيع الثاني 735 = 10 دجنبر 1334 مارا بعد عشرة ايام بمدينة سراجوق (Serâïtchïk) حيث استعاض ابن بطوطة عن الخيل بالجمال التي تستطيع جر العربات فى الصحراء وقد صحبه الى خوارزم ثلاث من الجواري كن يشاركنه عربته ...

ويقدم ابن بطوطة مدينة خوارزم على انها أكبر مدن الاتراك واعظمها واجملها واضخمها باسواقها وشوارعها وعماراتها ومحاسنها وسكانها ، ولا شك ان الرحالة يقصد الى وصف مدينة (الجرجانية) عاصمة الناحية الشاسعة التي كانت تحمل بجملتها اسم خوارزم الذي كان يطلق على العاصمة ايضا (24) ، وقد كان الوالي على خوارزم من قبل سلطان قفجق هو الامير قوطلودمور الذي عمر المدرسة ومرافقها بينما عمرت زوجتها الخاتون مسجد المدينة .

وقد تحدث ابن بطوطة كذلك عن المستشفى الذي كانت تحتضنه المدينة والذي كان يشرف عليه طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة الى صهيون من بلاد الشام ، وقد اضفى على اهل خوارزم من تقديره لحسن اخلاقهم وكرم نفوسهم وحبهم للغريب الامر الذي ما يزال اهل المنطقة يتمتعون به بل ان كرمهم ليصل احيانا حد الازعاج كما قالها صادقا احد الزملاء التتريين !

ويذكر ان المؤذنين فى خوارزم يطوفون على دور الجيران لتذكيرهم بحضور وقت الصلاة وان كل مسجد يحتوي على درة لجلد التاركين الذين يجبرون على اداء خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد واكرام الواردين ، واذا كان ابن بطوطة قد تحدث عن ان هذه العادة مستحكمة فيهم من قديم فاننا نذكر هنا ان المسلمين هناك الى الان هم الذين يتولون انفسهم تلك النفقة وذلك الاكرام .. وذلك التواصي على الصلاة ...

وبمناسبة الحديث عن معالم المدينة ذكر أنه يوجد بخارجها زاوية بنيت على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى الذي قتله المغول في خوارزم عام – 1221 ، وقبة ضريح الامام الزمخشري نسبة الى زمخشر التي لا تبعد عن خوارزم الا بمسافة اربعة اميال .

وكشف ابن بطوطة عن ان مذهب الاعتزال هو الغالب على طائفة مهمة من الناس هنا .. بيد انهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره قوطلو من أهل السنة .

واضافة الى هذا يعطي الرحالة فكرة عن الثروة والسعة التي يعيش عليها القوم هنا ، فان المجالس مفروشة بالزرابي الحافلة والحيطان مكسوة بالملف ، والطيقان مؤثثة باواني الفضة المموهة بالذهب والاواني العراقية ...

وقد خصص ابن بطوطة حديثا لامير خوارزم قوطلو دومور الذي استقبله بالرغم من أنه كان يشكو داء النقرس المنفشي في بلاد الترك ، حيث جرى حديث ودي بين امير خوارزم وبين الرحالة المغربي حول السلطان محمد أوزبك وزوجته الاميرة بيلون التي رافقها ابن بطوطة الى القسطنطينية .

وقد تحدث عن المادبة الفاخرة التي أقيمت على شرفه ولم يغفل ذكر الاواني والملاعق الفضية والذهبية وأواني الزجاج العراقي ...

وذكر الاصناف التي قدمت من انواع اللحوم ومختلف الحلويات ومن ضمنها (الكليجا) التي ما تزال محتفظة باسمها الى الان عبر هذه البلاد الى بغداد ، وكذلك متنوع الفواكه وخاصة بطيخ خوارزم الذي كان – وما يزال – مضرب المثل في حجمه الكبير وفي نكهته وحلاوته مما كان يغري للادمان عليه ذكرى لرحالتنا المغربي .. !

ويحكي ابن بطوطة عن شريف من أهل كربلاء بالعراق يدعى (علي بن منصور) رافقه من عاصمة السراي الى خوارزم . وانه كان من أكرم الناس

خلقا واضبطهم سلوكا ... وانه حفاظا على مروءته ، وابقاء على شرفـــه انتحر بسبب حادث وقع له ، وان هذا الشريف العراقي سبق لـــه ان حاول مرة اولى الانتحـــار عندما ربط عمامتـــه بسقـــف البيـــت .. !

وهكذا وكان ابن بطوطة يتذر في زميله العراقي تلك الشهامة من غير ان ينتقد عملية انتحاره ! وبعد أن ودع أمير خوارزم قصد الى بخارى وكان قد اخذ استعداده مرة اخرى لقطع مسيرة لا تقل عن ثمانية عشر يومـــا

وقد نزل في طريقة الى بخارى بمدينة أخرى كانت عاصمة أيضـــا لخوارزم ، هي مدينة الكات (ALCAT) حيث اجتمع هناك بالقاضـــي والطلبة وشيخ المدينة ...

وقد اقترح عليه القاضي أن يزور امير المدينة ، بيد أن شيخها كان يرى ان واجب الامير ان يتفقد زائره عملا بالقول المأثور « القادم يزار » وتم اللقاء بين الامير وبين الرحالة حيث أقيمت على شرف هذا دعـــوة كبـــرى ...

وبعد مسيرة ستة ايام وصلوا الى بلدة وبكنة (WABKENEH) التي تقع على مسيرة يوم من مدينة بخارى ، والتـــي ما تـــزال الى الان محتفظة بماذنتها الانيقة التي ترجع لاواخر القرن السادس الهجـــري ، الثاني عشر الميلادي (25) .

ويؤكد ابن بطوطة ان مدينة بخارى كانت قاعدة بلاد ما وراء النهر : نهر جيحون ، ولكنها تعرضت للتخريب من قبل جنكييزخـــان (26) ، فمساجدها ومدارسها واسواقها خربة الان ، وأهلها على حال من الانكسار والهوان ... وليس بها من الناس اليوم من يعلم شيئا من العلم ولا من له عنايـــة بـــه !

وقد اغتنم الرحالة فرصة الحديث عن تخريب مدينة بخارى ليقدم تحقيقا عن تاريخ ظهور جنكيزخان وذريته على نحو ما قدمه ابن خلدون

تقريبا في رسالته الى عاهل بني مرين في اعقاب اجتماع بالشام مع تيمورلنك (27) ...

وكان ابن بطوطة يأسف على ما تعرض له التتر من حيف في البداية من طرف بعض المسلمين فانقلبوا نقمة على البلاد الى أن هداهم الله لاعتناق الاسلام فامسوا من ابطاله المعدودين !

يقول عن جنكيز انه اختير من طرف قومه وكان ذا بسطة وقوة فامسى زعيم بلاده ولم يلبث أن تزعم شمال الصين بل وتملكها كلها واستولى على عدد من البلاد الاخرى ...

وبالرغم من استفحال امر جنكيز فانه لم يجرؤ على اقتحام ما وراء النهر نظرا للهيبة والمنعة التي كان يتمتع بها انذاك جلال الدين سينجار ملك خوارزم وما وراء النهر وخراسان كذلك ، وحدث ان أرسل جنكيز بعثة تجارية بامتعة من الصين الحريرية الى عمالة الملك جلال الدين ... وحينما تلقى هذا تقريرا من عامله حول وصول البعثة كتب يطلب اليه الضرب على يدها .. !

ومن هنا ابتدأت المأساة التي اجتاحت بلاد المشرق كلها ... وآل الامر الى أن تملك جنكيز ما وراء النهر وخرب ترمذ وبخارى وسمرقند.. الى ان انتهى أمر التتر باقتحام بغداد والاجهاز على المستعصم بالله ...

ويحكي ابن بطوطة انه نزل من مدينة بخارى في ربض فتح اباد حيث اقام له شيخ المدينة حفلة كبرى على ما اعتاده ابن بطوطة اينما حل وارتحل ، وهنا يذكر انه قام بزيارة لقبر « الامام العالم ابي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح وشيخ المسلمين رضي الله عنه ، وقد افاد أنه قرأ منقوشا على قبره ما يلي :

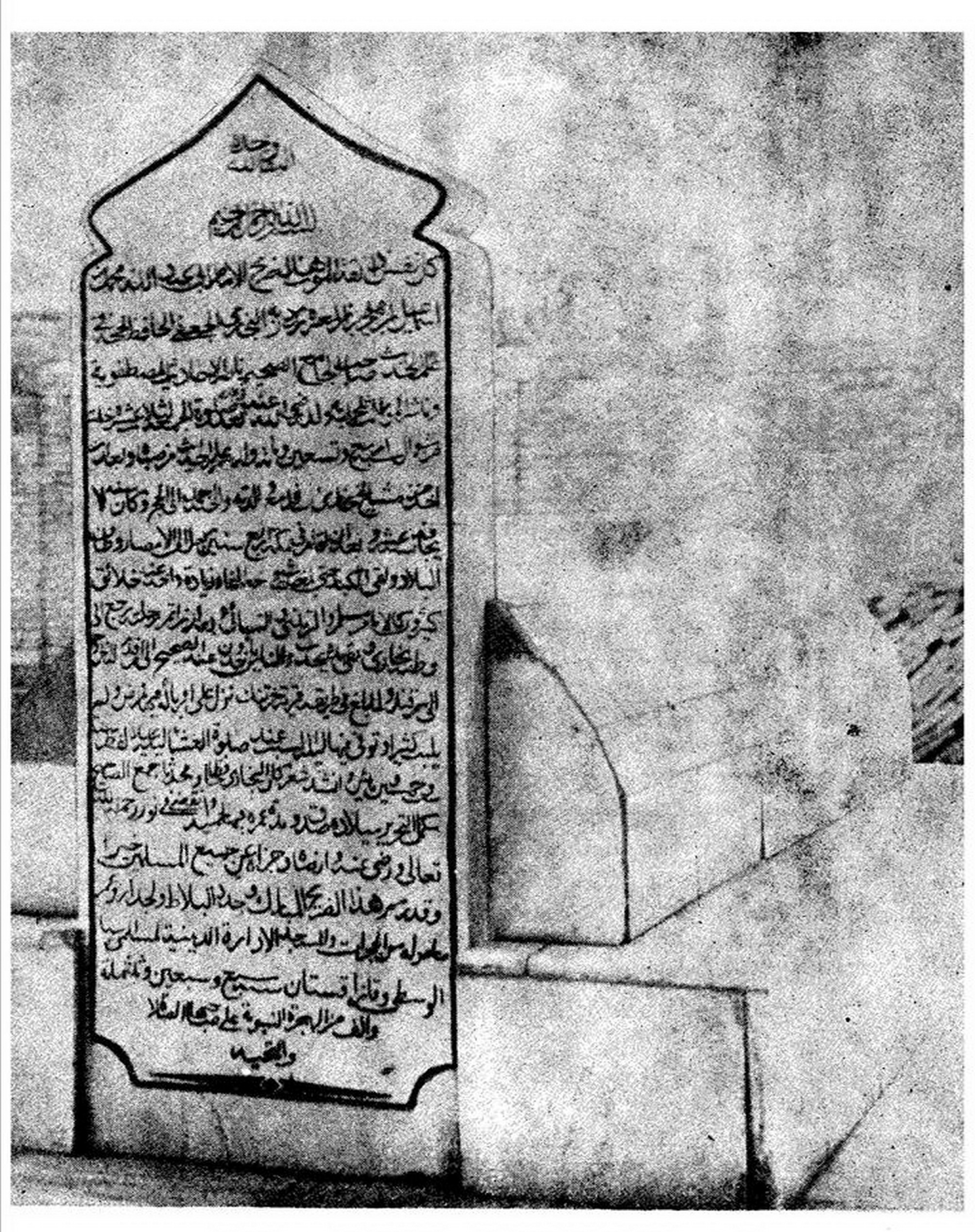
« هذا قبر محمد بن اسماعيل البخاري وقد صنف من الكتب كذا وكذا ... »

قال : « وهكذا الامر في سائر علماء بخارى يكتبون اسماءهم واسماء تصانيفهم ... وكنت قيدت ـ يقول ابن بطوطة ـ كثيرا من ذلك ولكنه ضاع مني من جملة ما ضاع لما سلبني كفار الهند في البحر » .

ولنا وقفة ثالثة هنا مع الرحالة المغربي ، فان ضريح الامام البخاري موجود باجماع الذين ترجموا له في قرية خرتنك القريبة من سمرقند وهي تبعد عن بخارى بسبعة ايام على ذلك العهد (28) ، وهكذا فقد حصل لابن بطوطة سهو واضح في تحديد ضريح الامام البخاري ، وليس يصح القول أنه يقصد الى منطقة بخارى ، فان سياق حديثه يعطي انطباعا قويا على انه يقصد المدينة ذاتها وانه عندما يذكر بخارى يميزها عن سمرقند ولا شك ان الوقت الطويل الذي مر على الرحالة قبل ان يفكر في تسجيل مذكراته وتحريفات التراجمة كذلك ! له اثر في هذا التساهل ، ومن الملاحظ أن نجد ابن بطوطة هنا وفي اعقاب حديثه عن زيارة ضريح الامام البخاري يحكي في حسرة والم عن ضياع اوراقه ، وكأنما شعر هنا بالذات بانه يروي اشياء قد لا تكون مطابقة للواقع !

وعلى كل حال فان ما رواه مما قراه منقوشا على ضريح الامام لم يبق له اثره ، وان الذي نقش اليوم بمناسبة احياء ذكراه المائتين بعد الالف (29) هو ما يلي :

« كل نفس ذائقة الموت ، هذا ضريح الامام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي الحافظ الحجة في علم الحديث صاحب الجامع الصحيح ناصر الاحاديث المصطفوية وناشر الموارث المحمدية . ولد رضي الله عنه بعد صلاة الجمعة الثالث عشر خلت من شوال سنة اربع وتسعين ومائة وألهم علم الحديث في صباه وبعد ان اخذ من مشايخ بخارى سافر مع والدته وأخيه احمد الى الحج وكان سنه لا يجاوز ستة عشر وبعد ان اقام في مكة اربع سنين رحل الى الامصار وطاف البلاد ولقي الكبار حتى بلغت اشياخه المائة وزيادة واخذ عنه خلائق كثيرون كالامام مسلم والترمذي والنسائي وبعد ان اتم رحلته رجع الى وطنه بخارى وبقي مدة يحدث والناس



ضريح الامام البخارى فى خرتنك (سمر قند)

ياخذون عنه الصحيح الى ان قدر له ان يرحل الى (سمرقند) ولما بلغ في طريقه قرية خرتنك نزل على اقربائه فيها فمرض ولم يلبث كثيرا وتوفي فيها ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين وانشد شعرا :

كان البخاري حافظا ومحدثـا * جمع الصحيح ومحكـم التحريـر

ميلاده صدق ومـدة عمـره * فيها حميد وانقضـى في نـور

رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه وجزاه عن جميع المسلمين خيرا . وقد رمم هذا الضريح المبارك وجدد البلاط والجدار وعمر ما حوله من الحجرات والمسجد الادارة الدينية لمسلمين آسيا الوسطى وقازاقستان سنة سبع وسبعين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والتحية . »

ومن مدينة بخارى مروا ببلدة (نخشب) التي ينسب اليها الشيخ ضياء الدين النخشبي والتي هي بالذات مدينة قرشي (KARSHI) وهنا شعر ابن بطوطة بان جارية من جواريه الثلاث قد قاربت الولادة فاراد اخذها الى مدينة سمرقند لتلد هناك بيد أن ارتحال الجارية ضمن طليعة القافلة كان سببا في تغيير الفكرة حيث اشتغل الناس بالبحث عنها ، وبعد ان عثروا عليها وضعت الجارية بمحلة الامير تاقبوغا (Takbogha) خليفة سلطان ما وراء النهر علاء الدين طيرمشيرين

ويتخلص ابن بطوطة لتقديم سلطان ما وراء النهر على ان بلاده « ما وراء النهر » تتوسط بين اربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك ، وان جميعهم يهادونه ويجاملونه، وعلى العادة فقد سمحت الفرصة لابن بطوطة - وهو بصلاة الصبح في المسجد - بالسلام على الملك طيرمشيرين الذي رحب به باللغة التركية قائلا في جملة ما قال : « قوطلو ايوسين » (Kotholoû eïoûsen) يعني قدومك مبارك على ما يترجمه ابن بطوطة نفسه وقد تحسنت

معرفته فى اللغة التركية ، ثم خصص له السلطان استقبالا خاصا وكان الملك على عرش داخل الفسطاط ، وقد اضفى ابن بطوطة وصفا دقيقا للقبة والكرسي بما يضمه من جوهر وياقوت وتاج ... كما لم يغفل تشريفات الاستقبال ووضعية الامراء والوزراء والكتاب .

وقد القى سلطان ما وراء النهر عددا من الاسئلة على ابن بطوطة بواسطة صاحب العلامة الذي كان يقوم ايضا بدور الترجمان ـ حول الحرمين الشريفين والقدس ـ ودمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ، ووصلة بعطاء كان ، منه فروة سمور ، وقد تتبع ابن بطوطة اخبار السلطان التتري هذا تتبعا دقيقا ، حيث تحدث عن سابقيه وعن لاحقيه ! وكان مما حكاه عنه ان احد فتيان السلطان جاء بسجادة ووضعها قبالة المحراب لدى صلاة عصر حيث جرت عادة السلطان ان يصلي وقال للامام : « ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ ! فقال الامام : « الصلاة لله او لطيرمشيرين ؟ ! ثم امر المؤذن باقامة الصلاة ، وجاء السلطان وقد صلى ركعتين وانتهى به القيام فى الموضع الذي يضع فيه الناس انعلتهم ... ولما فرغ من الصلاة تقدم الى الامام يصافحه وهو يضحك وجلس الى جانبه ! وهنا قال الامام لابن بطوطة : « اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك ! »

لقد ودع ابن بطوطة سلطان ما وراء النهر الى مدينة سمرقند التي كانت كما يقول الرحالة المغربي : « من اكبر المدن واحسنها واتمها جمالا مبنية على شاطىء وادي يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين .. وكانت على شاطىء قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن علوهم اهلها فدثر اكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا ابواب عليها ...

وبالرغم من ان اسم سمرقند ما يزال ساحرا لامعا فى دنيا التاريخ وبالرغم من ان بطيخها الذي اشتهرت به سائر بلاد خوارزم ما يزال

مضرب المثل في حجمه وطعمه (30) .. فان « النواعير التي ذكـــر ابن بطوطة انها كانت تقع على ساحل وادي القصارين الذي يحمل اليوم اسم زار افشان (ZAR-afshân) اختفت معالمها كما اختفت آثـــار تلـــك القصور العظيمة لتعويضها مباني عادية ومتواضعة ، ويمعن ابن بطوطة في وصف آثار ضواحي مدينة سمرقند فيزور قبر سيدنا قثم بن العباس ابن عبد المطلب الذي استشهد حين فتح المدينة ، وانتشر الاسلام بسببه في آسيا الوسطى وماوراء النهر والذي اعتاد اهل المدينة زيارة ضريحه كل ليلة اثنين وجمعة ، كما داب التتر على التيمن بالترحم عليه وتقديم الفتوحات لخزانته التي يستفيد منها الواردون والصادرون وخدام الزاوية، ويصف ابن بطوطة قبة سيدنا قثم بانها تقوم على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، منها الخضر والسود والبيض والحمر ، وحيطـــان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب ، وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة مـــن قناديل الفضة ، وقد فرشت القبة بالصوف والقطن ، وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك ، وعلى حافتيه الاشجار ودوالـــي العنـــب والياسمين ، وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ، ولم يغير التتر ايام كفرهم شيئا من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات ، وبهذا الضريح نزل ابن بطوطة ضيفا على ناظره الامير غياث الدين سليل الخليفة المستنصر بالله العباسي وكان طومشيريـــن سلطان ما وراء النهر اولاه هذه الوظيفة ...

هكذا كان وصف ابن بطوطة لضريح سيدنا قثـــم الذي يقـــع في المجموعة المعمارية التي تحمل اسم شـــاه زنـــــدي (Shâh Zendé) وهي من أهم المجموعات الاثرية في آسيا الوسطى ولكن الوصف اليـــوم يختلف كثيرا عما كان ايام ابن بطوطة ، ولعل التغييرات التي حصلت في الضريح ترجع الى سنة 736 = 1336 - 1337 ايام حفيد جنكيزخـــان تيموزلنك الذي يقترن اسمه بانشاء تلك المجموعة ، والذي اتخـــذ مـــن سمرقند عاصمة له وجاء اليها بالعمال والفنانين والعلماء فازدهرت على ايامه . ان الضريح اليوم يقع في بيت مربع حيث طليت صفائح الفخار المنقوشة بالميناء الفيروزي ، لقد نقشت على القبر هذه الكلمات :

ضريح سيدنا قثم بن العباس في سمرقند



« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سشبيل الله اموانا بل أحيـــاء عنـــد ربهـــم يرزقـــون » •

هذا مرقد امير المومنين قثم بن العباس رضي الله عنه ابن عم سيد المرسلين وخاتم النبيئين ورسول رب العالمين عليه السلام •

ونردد هنا انه كان على ابن بطوطة لو لم تخطئه ذاكرته ان يذكر ـ وهو بسمرقند ـ زيارته لضريح الامام البخاري الذي يوجد على ما اسلفنــا بقرية خارتانك (31) ••

ومن سمرقند تحرك الرحالة المغربي ليمر ببلدة نسف التي ينتسب اليها الفقهاء والقضاة والمفسرون ، ذكر منهم ابن بطوطة أبا حفص مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة ••• ومن نسف الى ترمذ التي ينتسب اليه الامام الترمذي مؤلف الجامع الكبير فى السنن والتي نالت منها ايضا معاول جنكيزخان ، خلال 617 = 1220 – 1276•

وبالاضافة الى الاوصاف التى خلعها ابن بطوطة على مدينة ترمـذ التاريخية من حسنها وعمارتها وتخللها بالبساتين والانهار وتوفرها على مختلف الفواكه والخيرات ، بالاضافة الى ذلك ذكر عن اهلها خاصيـــة تعتبر اليوم من أهم مقومات النظافة ، تلك أن أهلها يغسلون رؤوسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الفاسول بحيث يكون عند كل صاحب حمام أوعية كبارا مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام اخذ منها فى اناء صغير فغسل رأسه ، وهو يرطب الشعر ويصقلـــه ، مما نعرفـــه اليـــوم باســـم « الشامبـــوان » (Shampooings)

وقد لاحظ ابن بطوطة ايضا ان مدينة ترمذ كانت مبنية على شاطىء نهر جيحون ، فلما خربت عام 1220 بنيت ترمذ جديدة على بعد ميلين من النهر المذكور ، ولم يفت ابن بطوطة ان يجتمع بوالي المدينة على عادته فى الاتصال دائما باصحاب الكلمة فى البلاد مجاملة ومصلحة كذلك •••

وبعد كل هذه المراحـــل نودع ابن بطوطة وهـــو يجتاز نهـــر جيحون او (OXUS) الى بلاد خراسان متجها نحو مدينة بلخ التي تعد اليوم من جمهورية افغانستان ...

* * *

وهكذا استمتعنا برحلة شيقة مع ابن بطوطة فيما نسميه اليـــوم بجمهورية أوكرانيا ، والجمهورية الاشتراكية الفيديراليـــة السوفياتيـــة الروسية بما فيها جمهورية تاتارستان ، وجمهورية جورجيا ، وجمهورية قازاخستان ... وجمهورية اوزبيكستان ، وجمهورية توركمنستان ...

وتظل المعلومات التي قدمها الرحالة المغربي عن هذه المناطق حية شاخصة يجد فيها علماء الاتحاد السوفياتي مادة خامة للحديث عن رقعتهم

فاذا أضفنا الى هذا ، المعلومات القيمة التي قدمها ابن بطوطة عن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان والحجـــاز والعراق واليمن ومقديشو وعمان وبلاد الخليج والبحرين وايران وتركيا والهند وبانغلاديش وباكستان والصين ، وجزر مالديـــف وشرى‌لانكـــا والبنغال وماليزيا واندونيسيا واسبانيا وايطاليا والســـودان ومالـــي والصومال والحبشة وغينيا والكامبودج والفلبين ... اذا أضفنا هذا الى ذاك ، عرفنا اذن القيمة الدولية لرحالتنا المغربي مما يحملنا اليـــوم على ان نتقدم باقتراحنا الى الجهات المعنية المسؤولة فى المملكة المغربية ان تقوم بتنظيم أسبوع عالمي فى المغرب ، وفى طنجة بالذات لابن بطوطة تستدعى للمشاركة فيه سائر تلك الدول التي تكون اليوم أكثر من ثلثـــي الامم المتحدة ! اننا بذلك سنقدم للعالم دليلا آخر على مـــدى برورنـــا برجالاتنا ممن خلدوا اسم بلادهم عبر مراحل التاريخ .

الرباط　　　　　　د. عبد الهادى التازى

المصـــادر والمراجـــع

(1) يقول ابن بطوطة وهو منغمر في رحلته بالسودان : « ولما عدت الى تكدا (Tacadda) وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بامر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا بالوصول الى حضرته العلية فقبلته وامتثلته على الفور».

(2)
De Slane : Voyages dans le Soudan par IBN BATOUTA (jour asiatique 1843).

(3)
H.M.Z. FAROUQUE : The Ceylan Muslim Community ; P. 49 SRILANKA

(4) خليل الله خليلي سفير افغانستان في العراق والكويت : ابن بطوطة في افغانستان ، تقديم عبد الهادي التازي ، مطبعة بغداد 1970 .

(5)
Voyages d'IBN BATTUTA, par DAnthropos, Paris, Notes Vincent chronology of IBN Battûta, Camnology of IBN Battûta's Travels, IBN BATTUTA in Asia and Afrifrmery et Sanguinetti, Editions Monteil, 1968. H. GIBB : Thebridge 1962. Herberk : The chro- Prague 1962. The Travels ofca, Londres 1921.

هذا وقد ترجمت الى الايطالية ايضا عام 1961 وتعد في الوقت الحاضر ترجمتهـا للبولونية والبرتغاليـة ...

(6) التازي : العلاقات المغربية الايرانية عبر التاريخ ؛ نشر وزارة الانباء بمناسبة زيارة جلالة الشاه للمغرب . مجلة وزارة الشؤون الخارجية بالمغـرب ، مجلـة الاخـاء الايرانية (ايار) 1967 – أمير مغربي في ليبيا ؛ الملك محمد الثالث 1143 – 1144–

1731 – 1732 – تحت الطبع . الروابط التاريخية القديمة التي جمعت بين المحيط والخليج – دعوة مارس 1971 – مجلة الاتحاد (ابو ظبي) أبريل 1971 – مجلة البيان (الكويت مايه 1971 – العلم غشت 1972 – الانباء غشت 1974 .

(7) اشتهرت هذه الجزيرة بالحرب التي شنتها روسيا على تركيا وحلفائها عام 1854 – 1856 والتي انتهت بتغلب روسيا واجلاء تركيا عن الجزيرة ؛ ومما يذكر في هـذا الصدد أن الدبلوماسية الامريكية التي كانت تساند روسيا آنذاك قامت بمجهود لحمل المغرب على ملازمة الحياد واستدراجه للدخول في الحلف الروسـي الامريكـي في مقابلة ارجاع مدينتي مليلية وسبتة ... لكن السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام كان حذرا من هذه العروض سيما والامر يتعلق بالحلف ضد دولة اسلامية .
التازي : العلاقات المغربية الروسية ، مجلة البحث العلمي عدد ماي – دجنبـر 1967 ص 148 .

(8) عرف الاسلام طريقه الى آسيا الوسطى منذ ايامه الاولـى ، ولمـا ظهرت الدولـة السامانية اصبحت بخارى عاصمـة ؛ وفي القرن الثالـث عشر تعرضـت لتخريـب جنكيزخان لكنها لم تلبث ان استعادت معالمها في القرن الموالي ...

(9) كلمة عربية ما تزال محفوظة في اللغة الروسية الى الان وهناك منطقة كبيرة بموسكو تحمل اسم (اربا) تحريف عربة ، وليس الاسم من كلمة عربد كما سمعت ...

(10) ذكر ابن خلدون ان التتر يحكمون الرشتة على ابلغ ما يمكن . التعريف بابن خلدون نشر ابن تاويت الطنجي ـ القاهرة 1951 ص 370 .

(11) كان هذا القصور من الترجمان نافعا لابن بطوطة من جهة أخرى فقد اعطى فكرة على انه متضلع من لسان العرب الاوائل الذين نزل القرآن بلغتهم ؛ وهكذا نال احترام الناس على ما يرويه الرحالة ذاته !

(12) كانت حركة منتشرة بجميع البلاد التركمانية الرومية ؛في كل بلد ومدينة وقرية ، ويقول عنهم انه لا يوجد في الدنيا مثلهم اشد احتفالا بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على ايدي الظلمة وقتل أهل الشر؛يجتمعون عند رئيس لهم من اهل صناعهم ؛ وهم من الشبان الاعزاب والمتجردين يتخذون زاوية يفرشونها ويسرجونها ويزودونها بالمرافق ، انها حركة الاخية الفتيان التي تتطلب وحدها بحثا على حدة . راجع مقام ابن بطوطة في آسيا الصغرى وبخاصة عندما يصل الى مدينة انطاكيــة .

(13) سمعت هناك عن آثار عميقة الجذور لهذه التقاليد التي كانت تصل احيانا لدرجة عبادة المراة باعتبارها اداة للنسل والخصب ؛ ومن اغرب ما رواه ابن فضلان عن باشقردستان ان كل واحد من اهلها كان ينحت خشبة على شكل الاحليل ويعلقها عليه فاذا أراد سفرا او لقاء عدو قبلها وسجد لها ؛ ولما سال ابن فضلان احدهم عن حجته في ذلك اجابه بهذه القولة : « لاني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقا غيره ! » ابن فضلان ص 108 .

(14) تركستان اسم لمنطقة في آسيا الوسطى منقسمة اليوم بين الاتحاد السوفياتي وبين الصين ، دخلها الاسلام منذ سنة 133 = 751 ؛ القسم الصيني اوسين كيانغ وفيه طائفة مهمة من المسلمين ؛ والقسم السوفياتي يحتوي على جمهوريات خمس من الاتحاد ، وهي تركمستان (عاصمتها اشخباد) واوزبيكستان (عاصمتها طشقند) ومن مدنها سمرقند وبخارى وتاجيكستان (عاصمتها دوشانبي) وكيرغيزستـــان (عاصمتها فرونزة) ؛ وقازاخستان (عاصمتها ألما اتا) وهذا الاسم تركستان بقيت تحمله اليوم فقط مدينـة تقـع جنـوب جمهويـة قازاخستـان قريبـا مـن وادي سيرداريـــا

(15) التاريخ البيزنطي وتاريخ تتر الفرس وملوك الترك مليء بهذه الامثال العديدة حيث تتـم عقـود زواج من هذا الشكل قصد احكام صلات التقارب والتحالف بين الامم ـ ابن بطوطـــة ج 2 ص x .

(16) رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة والباشقرد سنة 309 = 921 تحقيق سامي الدهان ، طبع المجمع العلمي العربي دمشق 1379 = 1959 ـ سعيد الديوه جي ؛ الصلات بين العباسيين والبلغار ؛ مجلة الاقلام البغدادية ، 1971 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ

(17)
VERA Mutafcieva, Nicolai Todorov : Le passé de la Bulgarie, Sofia presse ?????? P. 17 - 18.

(18) دكتور شاكر خصباك ابن بطوطة ورحلته ص 217 ـ 218 .

(19) صدر أخيرا في موسكو 1971 عن الاستاذين بولشاكوف ومونكليت ترجمة باللغة الروسية للرحالة ابي حامد الغرناطي ، وقد تفضل الاستاذ بولشاكوف فاهداني هذه الترجمة بمعهد الاستشراق في لينينغراد .

(20) حسب جد أول كاطنوز يكون العيد الاحد بيد ان من معروف العادات أن تسبق بلاد المشرق بلاد المغرب في التاريخ القمري ـ التازي دعوة الحق ـ دجنبر 1966 ـ يناير 1967 .

(21) الخدمة يعني بهامس الارض بالركبة اليمنى ومد الرجل تحتها بينما الاخرى قائمة ، على نحو ما يفعله اليوم الجند عند تقديم اليمين أمام القائد الاعلى ، وعلى نحو كذلك ما نشاهده عند اداء التحية لكبار المجلس من طرف الصغار .

(22) كانت هناك مدينتان تعرفان باسم السرايي بلاد التتار ، وكانتا بالتعاقب عاصمتين لخانات (القبيلة الذهبية) ، وهما السراى القديمة وتقع بالقرب من قرية سيليتيرنو (Sel terenos) الحالية حوالي 47 ميلا فوق اصطراخان ، والسراى الجديدة التي تحيط بمدينة تساريف (Tsarev) الحالية على بعد 225 ميلا فوق استراخان ، قريبا من (ستالين كراد) التي أصبحت فولغاكراد ، وقد نقل السلطان محمد أوزبك عاصمته من السراى القديمة الى السراى الجديدة في حوالي هذا الوقت وربما قبل هذا الوقت ببضع سنين ، وينطبق وصف ابن بطوطة على السراى الجديدة التي تمتد بقاياها الى حوالي اربعين ميلا وتغطي منطقة تزيد على عشرين ميلا مربعا .

(23) الآس (AS) شعب هندي أوربي ورد من آسيا ، يسميه المغول (Asut) وفي القرن الخامس عشر ذابوا مع المغوليين باستثناء من بقي منهم في القوقاز حيث يعرفون باسم (OSSETES) ، ويكونون القسم الشمالي (داخل جمهورية روسيا السوفياتية) والجنوبي (داخل جمهورية جورجيا لغتهم ايرانية وبعضهم مسلمون ..

(24) كانت العاصمة تسمى بالجرجانية التي قد تدعى عند أهلها أوركافج (Urgench) التي تقع على شاطىء نهر جيحون (Oxus) ومنطقة خوارزم اليوم داخلة ضمن جمهورية أوزبيكستان ، بعد أن كانت جمهورية موقتة عابرة (1920 ـ 24) حول مدينة (خوا = (Khiva) ، وفي القرن الرابع عشر كانت تتناول عاصمة كونيال أوركانج في جمهورية توركمينيستان ، وفي اواخر القرن الرابع عشر خربت خوارزم من طرف تيمورلنك ، وهكذا خربت شبكة السقي واستحالت خوارزم منذ ذلك الوقت الى خراب .

(25) آثار الاسلام التاريخية في الاتحاد السوفياتي ص 6 .

(26) تعرضت بخارى ـ في ظرف زهاء نصف قرن من عام 617 ـ 675 = 1220 ـ 1276 ثلاث مرات للتخريب والتدمير من طرف الجيوش المغولية ، وبخاصة جنكيزكان ، ومن المعلوم انها كانت قاعدة الدولة السامانية وانها فتحت فيما بين سنة 53 ـ 55 .
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تاليف ابن خلدون ، تحقيق ابن تاويت الطنجي ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1951 ص 381 ـ وما بعدها .

(27) ورد فى رسالة ابن خلدون للعاهل المغربي : ان هؤلاء التتر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر بينه وبين الصين ، أعوام عشرين وستمائة مع ملكهم جنكزكـان وملك بلاد المشرق كلهما من ايدي السلاجقة ومواليهم الى عراق العرب ، وقسم الملك بين ثلاثة من بنيه : جقطا ودوشي‌خان وطولي فمما كان للاول تركستان وباشقر والشاش وفرغانة وسائر ما وراء النهر من البلاد ، وكان مما فى نصيـب دوشي خان بلاد قبجق ومنها صراى وبلاد الترك الى خوارزم الخ ... التعريف .

(28) ابن فضـــلان ص 76 .

(29) شاهدت سمرقند تجمعا كبيرا لعدد مهم من رجال العلم والدين من افريقيا واوربا واسيا ، وذلك احياء لذكرى مرور 1200 على ميلاد الامام البخاري ويذكر بهذا الصدد أن عددا من رجال الفكر والدين كانوا أعربوا عن رغبتهم بمناسبة زيارتهـم لجمهورية أوزبيكستان من الاتحاد السوفياتي ، اعربوا عن رغبتهم فى ترميم ضريح الامام البخاري وقد كان فى صدر هؤلاء السادة : الاستاذ علال الفاسي من المغرب جريدة العلم (الملحق الثقافي) 18 ـ 10 1974 .

(30) كنا نعيش ـ كما أشرت قبل ـ على ذكر رحالتنا ونحن نتذوق بطيخ سمرقند الذي يغزو سائر بلاد خوارزم والذي قد تبلغ الحبة الواحدة عشرين كيلو غراما على ما رأيناه فى سوق الخضر بالجملـــة ...

(31) تضم سمرقند اليوم جدث تيمورنك وهو من أهم القطع الفنية .

ترقب اذا جن الظلام زيارتـــــي
فاني رأيت الليل أكتم للســــــر

وبي منك ما لو كان بالشمس لـم تلـــح
وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يســــر

ولادة بنت المستكفي

جبل الشيخ

نذير العظمة

انطـــق فدتـــك عيونـــى ايها الجبل ... هل الضحايا على شم الـــذرى شعـــل
يا أيها الشيخ هل للصخـــر أغنيـــة ... مـــذ ضرجت خدك القامات والمقـــل
ياراحلا فى العلى كم رحلة قصــــرت ... علـــى الذيـــن الـــى امجادهم رحلوا
انى رأيـــت نجـــوم الليـــل ضاحكة ... والليل من حولها فى عينـــه حـــول !!

* * *

ياصخر صار الفدى فجرا يقول لنـــا ... ان الذين صفا وجدانهـــم وصلـــوا
الطائـــرون وحـــب الأرض أجنحـــة ... تـــرف فى الأفـــق الأعلى وتتصـــل

يسطرون على التاريخ مكرمة ... والحرف يختلس المعنى ويختزل

ميراج ميراج ما فى الحب معتصم ... ونحن نفترس الرؤيا ونعتقل

بالحب نعلو على الفولاذ فى دمنا ... نبع من الحب لا ضحل ولا وشل

نعانق الموت فى الأجواء منهزما ... والموت فى وجهه من كرنا وجل

رحنا اليه زرفات مجنحة ... لها انقضاض على الباغين متصل

يقال للعربى اليوم أنت بلا ... جنح ، وفى قلبه الفينيق يشتعل

اذا أردنا فللأ رحام أجنحة ... تطير فى شوقها الاجيال والمثل

ياخالد هذه الصحراء نثقبها ... ماهم من تحتنا طير ولا جمل

فالراكبون على صهواتها وصلوا ... لا الطائرات الى الجوزاء والابل

والروح تفترس الأبعاد وثبتها ... والروح تبتكر الدنيا وتشتمل

خل السنور سنور الشام تطلقها ... حتى تزول سدود الوهم والحيل

وخل أجهزة الرادار يربكها ... مخاطر من أضاحينا ومهتبل

زان التعلم فيه الخلق من كبر ... وشده أمل ان خانه أمل

فللتمرد فى آفاقه شفق ... وللتمرس فى اتقانه مهل

ما نام جفن له الا على حكم ... كواكب المجد فى رؤياه والعمل

ياشيخ ياجبل الأمجاد طرت بنا ... الى المعالى بجنح ليس يكتهل

لأننا هلل يحيى وباكرة ... من الحضارات مافى نجمها فلل

لأننا فلك للروح ملتهب ... يدور الشمس لاغش ولا زغل

فقل لصهيون مافى القتل مرجلة ... بآلة الحرب والتدمير يرتجل

مــن يحتكم للهوى والسيــف يحكمه ... سيــف تصدع مــن ضراباته الأول

ان الرجولــة بالأخــلاق قيمتهـــا ... ان الطبيعــة بالانســان تكتمـــل

ان كــان ييــذر ابراهيم بذرتنـــا ... فللصلاة علـى ابراهيـم محتمــل

لكــن شــرعكــم النابالــم متقــد ... واللـــه فى قلبنـــا مذجهجــه الأزل

ان الســـلام ســلام الحــب بغيتنا ... وليس شرعه من غالوا ومن قتلــوا

أطفالنا أوجه فــى الرحم شائهـــة ... أوطاننا خيمـــة فى الأفـــق أو طلــل

وأنــت يابنــت اسرائيل عاقـــرة ... تمـــوت فـــى رحمك الأطفال والغزل

ولانهــاب الوغــى لكــن مروءتنــا ... تأتـــى ويخجل من أطماعك الخجــل

فدمـــرى دمـــرى ماشئــت بنيتنــا ... فسوف يولـــد من تدميـــرك البطــل

ماخاننـــا رحـــم للحـــب متصــل ... ان خـــان رحمكم النـــازى والسبل

فيــا خيام الدجى ظلــى مساكنــنا ... ففيك فيك شروق الشمس لا الطفــل

ويــا مواسمنـــا ضمـــى بوارهـــم ... لتورق الأرض بالأبطال لا الجـــدل

ان الذيـــن طبــت نحواتهم عثـــروا ... ان الذيـــن خبـــا وجدناهم خذلـــوا

فان هـــم نشبت أظفارهم نشبـــوا ... وان هـــم مصلت أرحامهم مصـــلوا

ردوا على القدس دنيـــاها وهيبـــتها ... ما انفك يثغو على ساحاتهـــا حمــل

* * *

مغارب العـــرب فى الجولان ملحمـــة ... تقـــول : انكـــم فــــى بالهاعــــل

يلـــذ طعـــم دماكـــم فى مراشفهـــا ... وفى مخايلهـــا مـــن رشقه ثمـــل

قـــل للذين جثـــوا فى خلدهـــا خلدوا ... قـــل للذين حمـــوا أوصالها حصلـــوا

القدس فى روحنا نسر محلقه … نأبى على الدهر يصادها حجل

يا أطلس الشوق فوق النجم حط بنا … قد رصعت صخرك القامات والقبل

ما بيننا بيننا ارث نصير به … حلما ومن دونه هاماتنا يصل

غاياتنا زبد انساننا عدد … دولاتنا بدد فى الارض مهتبل

ارث وحلم هما الانسان فى نسق … كالعين تلبسها الرؤيا فتكتحل

قل للحواجز ما للوهم محتجز … فى أرضنا لا ولا للخوف معتقل

ان كان سحر لسان الضاد يجمعنا … فهل تفرقنا الوديان والقلل ؟!

مغارب العرب طعم الوعد فى شفتى … جدب ، ولكنه فى خاطرى بلل

انى رضيت من الينبوع حنجرة … غريدة وأنا فى شربه علل

مراتب الكحل فى عينى غالية … والشوق من وهجها فى وجهه خصل

تصيدت مهجتى سمراء طالعة … من الكروم وأغنى الحب والحبل

بها اخترقت شقوق الموت من زمن … فليس ينفع تثريب ولا عذل

نخل لضوء فى دنياى أروقة … بها أشمس احلامى وأحتفل

وخل كأس والأوتار عندلة … يطيب فى حرسها لى اللؤلؤ الهطل

مغارب العرب صار القلب منزلة … لمن تباروا الى سام الردى ثكلوا

يكفيك منى فؤاد كل قانية … لدى جراحة كرم ماله أجل

ونخوة نخوة ان طار طائرها … فكل عش لدى تغريدها هدل

يكفيك منى فؤاد أنت فى دمه … صوت الصهيل وفى وجدانه الأسل

* * *

ياقاسيون تركت الصخر والهة ... على أكباده والأعين النجل

بينى وبينك عهد لا أبوح به ... الا لقلب له من بوحنا علل

قد جئت أرسم آهاتى على فمه ... قوافيا نبضت من نبضها الدول

فكل مجدبة من خصبها اختصبت ... وكل عاطلة ماعابها عطل

والأرض مثل الرجال الخير خطوهم ... وان هم أمحلت رؤياهم محنوا

ياقمة النسر هل لى عند ذروته ... شهادة ولدى ينبوعه نهل

يسمر فى العين الا أنه لهب ... من معدن الشمس ما فى ضوئه زلل

مكور جبلا مشعشع أملا ... لكنه جوهر فى النفس متصل

يرصع القلب والاحداق متقدا ... حتى يهرول فى أثوابنا زحل

يا شيخ يا جبل الامجاد حط بنا ... هل تأمر الجبل الراسى فينتقل ؟ !

هل نترك السفح غير السفح نزرعه ... وعدا فتصطبع الرايات والحلل ؟ !

فالثلج مبتهج آنا ومكتئب ... والغاب منطفىء آنا ومشتعل

انا صعدنا الصخور الشم تحملنا ... الى ذراك النفوس الشم يا جبل

فخل غارك معقودا بهامتنا ... يقوى به قلبنا والعظم والعضل

يا قمة النسر صوت الحق قال لنا ... ما عاش من مات فى وجدانه شلل

فخل صدرك يا شيخ العلى اشفقا ... نموت عند حوافيه فنشتعل

وخل أرضك تطوينا وتحضننا ... مثل البذور ولذ بالقلب يمتثل

لأننا وردة فى الرحم غالية ... يضمنا الدهر ما فى وصله خلل

فى مفرق السفح من أبطالنا شجر ... وفى ينابيعنا الارواح تغتسل

مشارف الشام والجولان موعدنا … اذا تصدت لها العقبان والغول

ما ظل صخرك فى حر نفىء به … من القنابل الا حصننا الجلل

اننا حلفنا بعهد الضاد فى فمنا … الا تفرقنا لات ولا هبل

لنا لنا كعبة فى القدس جوهرها … وهل تصفى بغير الجوهر الرجل

ومعدن الشهداء الصيد معدننا … يبقى على الدهر ان حزوا وان سحلوا

وذاك انساننا والعين مبصرة … عين البصيرة ان غطوا وان سملوا

وتلك بذرتنا فى الارض يطلعها … نسغ الربيع ويحيى قلبها الجذل

تبقى وان شوه النابالم صورتها … تبقى وتصمد فى الجلى وتحتمل

لايقتل الماء فى رحم البنور ولا … يستأصل الحب فى التاريخ منتحل

يا أرض يا أرضنا ظلى على أمل … حتى تبرعم فى أحشائك النصل

يا شيخ حل لنا موتا يعانقنا … دهرا وتنقش فى أعمارنا القبل

وخلنا خلنا قتلى تكفننا … هوج العواصف لا غالوا ولا قتلوا

تبقى البذور ويبقى فى ضمائرها … حب الحياة ويحيا الورد والسبل

الرباط **نذير العظمة**

نشأة الأدب العربي في المغرب
ظروفها ومظاهرها

د. عباس الجراري

ليس يخفى ان الخلفاء الراشدين لم يفكروا في توجيه حملة اسلامية (1) الى المغرب ، وان عمر بن الخطاب كان قد طلب اليه ان يامر بفتح الشمال الافريقي ولكنه رفض . ولعله كان يدرك ما ستتكبده اية حملة تتجه الى هذا البلد من متاعب ومصاعب ، لا سيما وبعد المسافة سيحول دون تتبعه لعملية الفتح ، وسيجعله عاجزا عن امدادها عند الاقتضاء الملح الطارىء . بل ان عمرو بن العاص كتب اليه يقول بعد ان تم له فتح طرابلس : « ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة ايام ، فان راى امير المومنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » فاجابه : « لا ، انها ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة ،

غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت)) . وفى رواية أخـــرى : ((لا أوجه اليها أحدا ما مقلت عيني الماء)) (2) .

وعلى الرغم من أن عثمان بن عفان لم يمانع فى فتح الشمال الافريقي حيث أرسل جيشا دخل تونس بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح قبل سنة 30 هـ ، فان الاهتمام الحق بهذه المنطقة لم يبـــدأ الا على عهـــد الامويين الذين لم يقنعوا بفتحها ، بل حاولوا اقامة حكمهم عليها وربطهـا بمركز الخلافة . والحق أنه كان لا بد لدولة الاسلام على عهد الامويين ، وقد ذهبت بعيدا فى الفتوح ، أن توجه اهتمامها لحوض المتوسط وما يحيط به من بلاد وما يزخر به من تجارة ، خاصة وأنهم كانوا ـ على عكس الخلفاء الراشدين ـ مهتمين بشؤون البحر . ولكن الامر لم يكن يسيرا على الاطلاق ، ففى الوقت الذي استطاع المسلمون أن يقيموا خلال بضع سنوات دولة واسعة الرقعة فى المشرق ، فانهم ظلوا زهـــاء قرن مـــن الزمان يحاولون أن يثبتوا دعائم الدين الجديد فى بلاد الشمال الافريقي .

ويمكن القول بأن فتح المغرب تم على مرحلتين : الاولى على يـــد عقبة بن نافع فى زمن يزيد بن معاوية ، والثانية على يد موسى بن نصير فى عهد الوليد بن عبد الملك . ففىسنة 61 ـ 62 هـ وصل عقبـــة الى المغرب مبشرا بالدين الجديد ، وفتح مدينة طنجة ووليلي ـ وكانتا من أهم المراكز المغربية قبل الاسلام ـ وانتهى فى محاربة القبائل وبـــث الدعوة فيها الى منطقة سوس ، ولكنه لم يلبث ، بعد سنتين أو أقل من الجهاد ، أن قتل من طرف البربر فى جنوب بسكرة عند واحة تهودا فى الزاب . ولعل معاملته القاسية للبربر ، وخاصة زعيمهم كسيلة ، كانت السبب الرئيسي فى تدبير أمر قتله .

وقد ظلت البلاد منذ هذا التاريخ ـ أو جزء منها على الاقل ـ تواجه الدعوة الاسلامية بمعارضة شديدة تمثلت فى زعيمين همـــا كسيلـــة والكاهنة (3) ، الى أن استطاع موسى بن نصير ابتداء من سنة 79 هـ (4)، وكان واليا على افريقيا والمغرب ، أن يضبط الامور بشيء غير قليل من القوة والحزم ، وأن ينشر بذلك الاسلام فى كثير من المناطق التي كانت لم تعتنقه بعد . وربما ساعد البربر على تقبل الدين الجديد مشاركتهـــم

للعرب باغلبية ساحقة فى فتح الاندلس ، فلعلهم كانوا يعللون نفسهم بما قد يحصلون عليه من الغنائم ، ولعلهم كذلك وجدوا فى هذا الفتح ما يغذي ميلهم الطبيعي الى المحاربة ، خاصة وانهم كانوا يسمعون عن هذه البلاد المجاورة ما جعل فى نفسهم لا شك رغبة الى اكتشافها ، وان كنا بهذا لا نحكم على جميع البربر ، وانما نريد ان نثبت ان الاسلام لم يكن قد تغلغل بقوة فى قلوب المغاربة . ونحن نعرف انه حتى القرن الثاني كانت لا تزال فى منطقة نفيس عند سفح الاطلس الكبير قبائل تدين بالمسيحية ، وكانت قبائل غيرها تدين باليهودية أو الوثنية . ولعل الاسلام لم يستقر فى المغرب الا بعد ان استقر فى الاندلس من جهة وفى تونس من جهة اخرى . وغير خاف ان الحملتين اللتين وجهتا لفتح المغرب ، او بالاحرى لمواجهة تفشي المذهب الخارجي فيه (122 — 123 هـ) لقيتا فشلا ذريعا. فقد هزمت الاولى فى معركة طنجة ، وقضى على الثانية عند وادي سبو وكانت بقيادة كلثوم .

وقد جعلت مثل هذه الهزائم وغيرها مما لقينه الجيوش العربية فى بقية الشمال الافريقي تؤكد قولة سابقة كان قد كتب بها حسان بن النعمان لعبد الملك بن مروان ، يخبره انه من المستحيل فتح البلاد الافريقية ، وانه متى قضى على قبيلة بربرية الا وتخلفها قبيلة أخرى . ولعل التكوين البنيوي لطبقات المجتمع المغربي ، سواء على الصعيد السلالي أو الاقتصادي والثقافي كان عاملا اساسيا فى التاثير على موقف المغاربة من الفتح .

وربما يبالغ بعض الباحثين العرب حين يقولون بانه ما « انقضت سنة 51 هـ الا وقد انهى عقبة بن نافع الفهري بناء القيروان وفتح شمال افريقيا والسودان » (5) . ونحن نعرف ان البربر على حد قول ابن أبي زيد القيرواني قد « ارتدوا اثنتى عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتى اجاز موسى بن نصير الى الاندلس بعد أن دوخ المغرب واجاز معه كثير من رجالات البربر وامرهم برسم الجهاد ، فاستقروا هنالك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب واذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة » (6) .

ومهما يكن من امر ، فقد استطاع الاسلام — ولو بعد زمن طويل — ان يجد له مكانا فى هذا البلد وفى نفس ابنائه ، خاصة وانه كان فى تلك الفترة الاولى يبدو لهم بسيطا فى مبادئه خاليا من كل خلاف او تعقيد ، وخاصة كذلك ان القائمين على شؤونه من العرب الفاتحين الاول لم يكونوا يقيمون الامور على غير العدل ، ولم يكونوا يظهرون غير المحبة والمساواة.

وكان نتيجة لهذه العوامل ان اطمان المغاربة للدين ، وزال — ولو موقتا — ما كان فى نفوسهم ضد العرب ، وزاد الاتصال بالمشرق الذي اخذت اصداء احداثه تتردد فى المغرب ، وخاصة اصداء النـــزاع على الخلافة والحكم ، وبدات فئات الخوارج المنهزمة تفد عليه من المشرق ، ولا سيما منها الاباضية والصفرية تحاول الترويج لمذهبها .

ويبدو ان البربر مالوا الى هذا المذهب الذي وافـــق طبيعتهـــم الاستقلالية وميلهم الى رفض كل سيادة تفرض عليهم ، سواء كانـــت عنصرية او دينية . ولعلهم افهموا من خلاله حقيقة الاســـلام وحقيقـــة اسلوب الحكم فيه . كذلك كان التعاطف قويا مع آل البيت والانتصار لهم فيما يعانون من محن بالمشرق . وقد تجلى هذا التعاطف فى الترحيب الذي لقيه المولى ادريس فى المغرب (7) وتنازل عبد الحميد بن اسحق الاوربي عن امارته له فى وليلي ودعوته للقبائل ان يبايعوه سنة 172 هـ (8)

وقد عمل ادريس (172 — 177 هـ) على متابعـــة عملية نشـــر الاسلام ، وخاصة فى منطقة الشرق وتلمسان وفى الجنوب حيث واجه البرغواطيين (9) ، وكانوا قد انشاوا شبه امارة مستقلة فى تامسنا (10) بزعامة صالح بن طريف الاندلسي سنة 127 هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك على اساس مذهب محرف عن الدين ، حيث اقروا نبوة ابن طريف الذي وضع لهم قرآنا وتشريعات (11 يبدو من شديد تاثيره بالاسلام فى وضعها وكانه يريد مغربة هذا الدين او بربرته وطرحه فى صيغة جديدة .

ولم تلبث مثل هذه التحركات الادريسية وما كان يصاحبهـــا مـــن انتصار ان اقلقت بال الرشيد فى بغداد ، فبعث له من قتلـــه فى قصـــة معروفة . ثم استانف العمل ابنه ادريس الثاني (177 — 213 هـ) بعد

وصاية مولاه راشد ، وسعى الى توسيع رقعة الدولة ، وخاصة في الوسط ومنطقة الحوز وسهول الشمال . وكان من أهم اعماله توسيع مدينة فاس (12) وانشاء حكومة شبه ائتلافية بين العرب والبربر ، قائمة على مبادىء اسلامية كانت بمثابة النموذج الذي احتذته الدول التي تعاقبت على الحكم في المغرب ، لولا ان العنصر العربي كان طاغيا عليها ومستبدا بامرها ، الشيء الذي اثار البربر وازم الوضع . فقد كان في اعتبارهم ان ادريس الاول زعيم عربي لاجيء ، وانه على الرغم من كونه ينتمي لآل البيت المناضلين فانه قنع باللجوء والاحتماء بالبربر المسلمين المتعاطفين معه ، ورضي — ورضوا مثله — ان يكون — وهو عربي — زعيم امارتهم البربرية . اما ادريس الثاني فيبدو في نظرهم قد تجاوز هذا الاطار حين حاول فرض امامته ، وحين حاول بالتالي تاطير هذه الامامة بتكوين بلاط عربي بما يقتضي من وزارة وحرس وبطانة وما اليها من مظاهر يبدو انها لم ترق البربر ، خاصة وان حظوظهم فيها كانت هزيلة . لذا لا نستغرب حين نرى المغرب يقع فريسة الاضطراب والفوضى والنزاعات بين أبناء ادريس الثاني الذين ارادوا ان يتقاسموا مناطق النفوذ — وكانوا اثنى عشر — فلم تبق لهم غير ولايتين : احداهما في فاس والثانية في الريف ، وبالتحديد في مدينة مندرسة الان تسمى البصرة ويطلق عليها بصرة الكتان ، الى ان كان الغزو الفاطمي سنة 305 حيث بدات نهاية الادارسة واخراجهم من فاس ، وبدات كذلك محاولات لاقامة مراكز شيعية في شمال المغرب (13) . وقد كان يكتب لهذه المحاولات بعض النجاح ، ولكنه نجاح موقت ، وخاصة في فاس حيث كان الفاطميون وبعض اعوانهم يقيمون حكم الائمة ، ولو في فترات متقطعة .

وكانت هذه المحاولات الفاطمية في التقدم نحو غرب الشمال الافريقي تقلق بال الامويين في الاندلس ، ولكنها ، لم تدفعهم الى اتخاذ اية مبادرة غير الاحتياط والاحتراس ، علما بان لهم مراكز في شمال المغرب ، هي سبتة وطنجة واصيلا والبصرة . ولعلهم وجدوا في القبائل الزناتية خير من يرد عنهم خطر الفاطميين في المغرب . فمن جهة كانت قبائل مكناسة مستقرة في شرق المغرب منذ عهد الادارسة ، وكانت قد بدات في هذه الفترة — بزعامة موسى بن ابي العافية — توسع لنفسها

وتتقدم نحو سهول الغرب ومنطقة الواحات حيث انشات تازة ومكناس وسجلماسة (14) . ومن جهة أخرى كان بنو يفرن والمغراويون قد اقاموا في وسط المغرب وبداوا يزاحمون بني العافية .

وكما جعل الامويون في الاندلس من القبائل الزناتية خط دفـاع ، فكذلك اتخذ الفاطميون من الصنهاجيين ليس خط دفاع فقط ، بل خط هجوم كذلك على المغراويين وبني يفرن . غير أن هاتين القبيلتين لم تلبثا بعد انتهاء امر الامويين في قرطبة ان دخلتا في نزاع حول مناطق النفوذ . يضاف الى ذلك عودة الادارسة (15) الى الريف حيث كانوا يقيمون تحت تصرف الجهة المتغلبة ، سواء شيعة افريقيا مرواني الاندلس .

وهكذا ظل المغرب فترة غير قصيرة موزعا بين هذه القوى المشتتة الى ان كان عهد المرابطين الذي يعتبر بحق بداية الحكم المغربي المنظم والقوى والمستقـــر .

* * *

كان طبيعيا ـ ووضع المغرب على حد ما راينا ـ ان يستهـــدف الفتح الاسلامي امرين : نشر الدين اولا ونشر العربية ثانيا باعتبارها اداته ولغة القرآن . وكان طبعيا كذلك واللغة تساير الفتح وتواكبه ان تستقبل بسهولة ويسر حيث يستقبل بسهولة ويسر ، وان ترفض بقـــوة وعنف حيث يرفض بقوة وعنف .

لذلك تعرضت حركة التعريب لمختلف الهزات والانتكاسات التـــي تعرض لها نشر الدين ، بل اكثر من ذلك نستطيع ان نقول انها ســـارت ابطا منه ، خلافا لما كان ينبغـــي أن يكون ، بسبب عوامل كثيرة ، لعل من بينها طبيعة الجيوش التي كانت توجه للفتح . وقد تسنى لهذه الحركة أن تشهد غير قليل من التوسع في هذا العهد حيث أتيحت جملة اسبـــاب يمكن تلخيصها فيما يلي (16) :

1 ـ حالة الاستقرار التي سادت مناطق نفوذ الادارسة .

2 ـ عـروبـة الادارسـة .

3 ـ انشـاء جامـع القروييـن .

4 ـ خروج المغاربة فى رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى المغرب .

5 ـ كثرة الوفود العربية التي قصدت مدينة فاس قادمة اليها مـن الاندلس والقيروان .

6 ـ قرب اللهجة البربرية ـ وقد تاثرت بالفينيقية ـ من اللغة العربية .

7 ـ عدم مقاومة اللهجة البربرية للغة العربية الا فى المناطق الداخلية النـائيـة .

8 ـ تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم واعجابهم بلغته واعجازه .

9 ـ تهجير أفواج من المغاربة فى شكل سبي الى المشـرق وعـودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية .

وليس من شك فى ان المغرب ـ لهذه العوامل مجتمعة وخاصـة قدوم الاندلسيين فى هجرة منظمة تضم كثيرا من الفقهاء ورجال العلم ـ قطع مرحلة فى التعريب لا يستهان بها ، كان من المنتظر ان تعقبها مراحل أخرى لولا انه تعرض فى أواخر أيام الادارسة وبعدها لاضطراب شديـد ظل يعانيه حتى عهد المرابطين ، وكان محتما ان يتاثر سير التعريب بهذا الاضطراب (17) .

واذا كان الفكر فى كل زمان ومكان متاثرا باللغة فى حال ازدهارها وركودها ، باعتبارها الوعاء الذي ياخذ به ويصب فيه ، واذا كانت حركة التعريب قد تعثر سيرها ـ على حد ما راينا ـ بحكم ظروف الاضطراب التي عانتها البلاد سواء فى نشر الدين او استقرار احوال الحكم ، فاننا لا نكون مبالغين اذا نحن اعتبرنا الفكر المغربي قد تأثر بكل عوامل التفتـح والانطماس التي عرف المغرب . وتكاد تكون اهم ظاهرة فكرية يمكـن

للباحث ان يستنتجها فى هذه الفترة من خلال تلك العوامل هـــي اخــذ المغاربة بالمذهب المالكي والتزامهم بآرائه فقها وعقيدة (18) .

اما الادب ، فلست ادري اذا كان جائزا لنا ان نتحدث عن وجوده فى فى هذه الفترة ، واللغة ما زالت تتعثر فى طريقها للوصول الى الألسنة بله القلوب والعقول . ولست ادري كذلك اذا كان عدم وجود هـــذا الادب ، أو وجوده هزيلا يرجع الى تلك العوامل التي أثرت على اللغة وعرقلـــت سيرها الذي كان طبعيا أن تسير فيه . واكاد أكون متأكدا من أن هـــذه الاسباب التي حالت دون استقرار البلاد وانتشار العربية وازدهار الفكر هي نفسها التي وقفت دون انطلاق الادب .

ولا اخفي ان العجب ياخذني وانا اقرا فى كتاب ((الادب المغربي)) ما يذهب اليه المؤلفان من أن فتح الاندلس كان ((على المغرب من الناحية الادبية خسارة تشبه تلك الخسارة التي منيت بها الجزيرة العربية وقد فارقها اهلها ، فتوجهت الانظار الى البلاد المفتوحة ونفقت فيها ســـوق الادب ونبغ فيها الشعراء وغيرهم من رجال الادب فلم نعد نسمع للجزيرة بعد ذلك هذا الصدى القوي الذي كان يتردد فى جنباتها ايام الجاهليـــة واوائل الاسلام (19))) . فى حين ان القضية معكوسة ، ولا يبدو فيها أي وجه للمقارنة . والسبب ان الجزيرة العربية التي أراد هذا القول أن يشبه المغرب بها فى انطلاق الفتح منـــه الى الاندلس ، كما انطلق منهـــا الى سائر الاقاليم ، كانت فى فترة الاسلام الاولى وفترة الجاهلية قبلها مهد ادب مزدهر لا يخفى على احد . اما المغرب فلم يكن يعـــرف من هـــذا الازدهار أو ما هو شبيه به اي شيء . واذا كانت الجزيرة العربية قـــد ضاعت فى ابنائها الذين استشهدوا فى الفتوح او استقروا فى الامصار الاسلامية الجديدة ، وكان فيهم خطباء وشعراء وحفاظ القرآن والحديث ، فان المغرب لم يرسل لفتح الاندلس غير جيش من المحاربين ، لم يكن الاسلام قد تمكن من قلوبهم ، ولم تكن اللغة العربيـــة قد وصلـــت الى السنتهم وافهامهم ؛ بل انا نؤكد ما سبق ان قلنا قبل من ان الاسلام استقر فى المغرب بسبب استقراره فى الاندلس ، او على الاقل كان ذلك مـــن اهم العوامل . ثم انه لولا وجود الاندلس لما تشجع اولئك المشارقة الذين

وفدوا اليها على الاقامة في المغرب بدلا منها لما كان عليه وضعه ـ في هذه الفترة ـ من الفوضى وعدم الاستقرار . وربما زاد في أهمية الاندلس واعتبار المغرب مجرد ممر عبور لها انها اصبحت مركز خلافة الامويين . ولا انكار بعد هذا أن المغرب أفاد من الاندلس سواء في هذه المرحلة أو بعدها ، وأنها اشعت عليه اشعاعات مختلفة وفي جميع الميادين ومختلف الفترات ، وان كنا لا ننكر كذلك ان المغرب في وقت ما انقذ الاندلس من الضياع وتبادل واياها الكثير من العطاء .

وربما اعتمد الذين يقولون بوجود ادب في المغرب لاول عهده بالاسلام على الخطبة (20) المشهورة التي القاها طارق بن زياد في الجيش المتوجه لفتح الاندلس . والحق أن الباحثين وقفوا بشان هذه الخطبة مختلفين . فعند الاستاذ كنون أنها « فهمها الجيش كله واثرت فيه تاثيرها البليغ المشهود في اندفاعه الى حومة الوغى وتهافته على الموت بايمان وحماس، فكيف يفسر هذا بغير سرعة انتشار العربية كالسرعة التي انتشر بها الاسلام ؟ (21) » .

ويذهب والدنا حفظه الله الى أن جند طارق « كان في مجموعه يدرك مدلول ما احتواه الخطاب الحماسي العربي ، وهو ما هو علوا في البيان والروعة والسمو يجعلنا نومن بان برابرة المغرب لذلكم العهد الاسلامي الفتي كان لهم المام واسع ومعرفة لا تقصر عن فهم امثال هذا الخطاب الحربي البليغ الذي حول فزعهم ثباتا وشجاعة واضطرابهم يقينا وصمودا (22) » .

ونجد الامير شكيب ارسلان في العرض الذي قدم به لكتاب (النبوغ) في طبعته الجديدة يبدي بعض الشك في هذه الخطبة ، ولكنه لم يلبث أن يتراجع عن هذا الشك ، مقتنعا براي صاحب (النبوغ) ؛ فهو يقول : « ... ظهر الطابع العربي على البربر ونبغ فيهم العلماء والخطباء بالعربية الفصحى ، وحسبك شاهدا طارق بن زياد الذي خطب قبل الموقعة التي هزم فيها لذريق ملك الاندلس ، تلك الخطبة الطنانة التي لو حاول مثلها قس بن ساعدة أو سحبان وائل لم يات بافصح ولا بابلغ منها . ولقد كنت

افكر مليا فى أمر هذه الخطبة واقول فى نفسي : ... هنا لغز من الغاز التاريخ لا ينحل معناه بالسهولة ، فقد اتفقت الروايات على كون طارق بن زياد بربريا قحا ، وكذلك اتفقت الروايات أيضا على كونه هو لا غيـــره صاحب الخطبة الرنانة المعدودة من انموذجات الخطب العربية ، فكيف يمكن التلفيق بين هذين الامرين المتناقضين واني لطارق البربري مثل هذه العربية . وكنت أفكر فى أن طارق يكون احسن تعلم العربية كما أحسن ذلك كثير من ابناء جيله ، وكما تعلمت العربية رجال فارس حتـــى برزوا فى العربية اقرانهم من انفس العرب ، ولكني لم أكن مستريح البال من جهة اتقان طارق للعربي الفصيح وبلوغه فيه هذه الدرجة العليا ، وكان يحز فى صدري أن تلك الخطبة كانت بلاغتها فى المعنى وانما وضعها رواة العرب فى هذا القالب الذي سحر الالباب ؛ وما زلت مترددا فى هذا حتى جاءني ثلج اليقين على يد الاستاذ عبد الله كنون الذي جزم بأن هذه الخطبـــة النادرة انما كانت من جملة ثمرات انطباع البربـــر بالطابـــع العربـــي البحـــث(23))) .

وعلق الاستاذ كنون على هذا الكلام فى الهامش فقال : ((يستشكل بعض الباحثين صدور خطبة طارق بن زياد منه وهو بربري قح ، يستبعد أن تكون له هذه العارضة القوية فى اللغة العربية ، حتى يأتي بتلك الخطبة البليغة . وهو استشكال فى غير محله ، (اولا) لان طارق بن زياد ان كان أصله بربريا فقد نشا فى حجر العروبة والاسلام بالمشرق ولم يكن هـــو الذي أسلم اولا بل والده ، بدليل اسمه زياد فانه ليس من أسماء البربر ، ولا شك انه كان من مسلمة الفتح المغربي الاول وانه انتقل الى المشرق حيث تولاه موسى بن نصير ونشا ولده فى هذا الوسط العربي الذي كونه وثقفه . (ثانيا) لان نبوغ غير العرب فى اللغة العربية منذ اعتناقهم الاسلام امر غير بدع حتى يستغرب من طارق وهو قد نشا فى بيت اسلامي عربي . فعندنا سلمان الفارسي الذي قضى شطر حياته فى بلاد عجمية فلما أسلم بعد ذلك تفتق لسانه بالعربية الى ان قال فيها الشعر ، وبيته المضروب به المثل فى الاعتزاز بالاسلام واعتباره هو نسبه الذي يفخـــر بـــه ، اذا افتخروا بقيس او بتميم لا يخفى على احد . ونمثل ببربري آخر غير طارق وهو عكرمة مولى ابن عباس الذي قال فيه الشعبي : ما بقي احـــد

اعلم بكتاب الله من عكرمة ، ومقامه فى العلـــم والروايـــة لا يجهل .
(ثالثا) لانه ليس فى الخطبة من صناعة البيان ما يمنع نسبتها لطارق ، وبلاغتها فى نظرنا انما ترتكز أولا وبالذات على معانيها . والمعاني ليست وقفا على عربي ولا عجمي . نعم يمكن أن يكون وقع فى هذه الخطبة بعض تصرف من الرواة بزيادة أو نقص ، ونحن قد صححنا فيها بالفعل احدى العبارات التي لم تكن واضحة الدلالة على معناها ولكن هذا لا ينفي أصل الخطبة ولا يصح أن يكون حجة للتشكك فى نصها الكامل (24) » .

وفى رأي الاستاذ عبد الله عنان « أنه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة الى طارق ، فان معظم المؤرخين المسلمين ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير اليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري ، وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ، ولم تشر اليها المصادر الاندلسية الاولى ، ولم يشر اليها ابن الاثير وابن خلدون ؛ ونقلها المقري عن مؤرخ لم يذكـــر اسمه ، وهي على العموم أكثر ظهورا فى كتب المؤرخين والادباء المتاخرين. وليس بعيدا ان يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيرا من الغزوات الاسلامية الاولى كانوا يخطبون جندهم فى الميدان، ولكن فى لغة هذه الخطبة وروعة اسلوبها وعبارتها ما يحمل على الشــــك فى نسبتها الى طارق ، وهو بربري لم يكن عريقا فى الاسلام والعروبة ، والظاهر انها من انشاء بعض المتاخرين ، صاغها على لسان طارق مـــع مراعاة ظروف المكان والزمان (25) » .

وقريب من هذا الراي ما ذهب اليه الدكتور أحمد هيكل ، فعنده أن الخطبة يحف بها كثير من الشك لاسباب هي :

1 ــ « ان طارق بن زياد كان بربريا مولى لموسى بن نصير ومن شأنه ان يكون حديث عهد بالعربية والا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هـــو حديث عهد بهـــا ...

2 ــ أن المصادر الاولى التي سجلت حوادث الفتح قد خلت تماما من اي حديث عن هذا الادب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها فى باب الاساطير . وقد استوت فى ذلك الصمت عن هذا الادب المصادر

الاندلسية والمغربية والمشرقية جميعا ، ولم يــرد هــذا الادب المنسوب الى طارق الا فى بعض المصادر المتاخره كثيرا عن فترة الفتح مثل نفــح الطيــب ...

3 ـ الاسلوب الذي جاءت به لم يكن معروفا فى النثر العربي خلال الفترة التي تعزي اليها تلك الخطبة فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد شاعت فى عصر متاخر كثيرا عن القرن الاول .

4 ـ قوله لجنده وكانوا كما نعرف من البربر : (وقد اختاركم اميــر المؤمنين من الابطال عربانا) .فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر وجنوده كانوا يعرفون انهم ليسوا عربانا . ومن هنا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذي لا يقوله الا غير عالم بحقيقــة جيــش طــــارق (26) » .

واغلب الظن ان فى كل هذه الاقوال (27) مبالغة لا تنكر . اما بالنسبة لماذهب اليه الوالد وصاحب النبوغ فنحن نعرف ان البربر بمجــرد ان اسلموا ، او بالاحرى اسلمت طائفة منهم ، خرجوا للفتح من غير ان تتاح لهم اية فرصة ـ مهما كانت هذه الفرصة قصيرة ـ ليتعلموا اللغة العربية لدرجة تمكنهم من الخطابة بهذا الاسلوب الذي هي عليه خطبة طارق .

واما بالنسبة لصاحب « الادب الاندلسي » وصاحــب « دولــة الاسلام » قبله فنحن لا نختلف معهما فى ان طارق بن زياد لم ينح له من تعلم اللغة ما يسمح له بالقاء تلك الخطبة ، ولكنا نختلف معهما فيما بعــد ذلك . فاهمال المصادر القديمة لهذا الادب ـ ان كان هناك اهمال حقا ـ لا ينهض دليلا على رفضه ، لا سيما ونحن نعرف ان ما وصلنا من هــذه المصادر قليل جدا ، وان ما وصلنا فيها من اخبار ونصوص ليس غيــر جزء ضئيل مما كنا ننتظر وما زلنا ننتظر ان يصلنا يوم يكشف النقاب عن تراثنا الدفين . ثم ان القول باهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة قول مبالغ فيه ، فقد فات كلا من الاستاذين هيكل وعنان ان يطلعا على كتب كثيرة الفت قبل « نفح الطيب » وردت فيها الخطبة بنصوص متشابهــة حينا ومختلفة حينا آخر ، نرى ضرورة اثباتها هنا (28) :

1 ـ ففي تاريخ ابن حبيب (29) المتوفى سنة 239 هـ ورد انه « لما بلغ طارقا دنوه منه قام في اصحابه فحمد الله واثنى عليه ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم في الشهادة ثم قال : أيها الناس أين المفرة والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله الا الصدق والصبر ، الا واني صارم الى طاغيتهم بنفسي لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه » .

2 ـ وفي كتاب (الامامة والسياسة) يورد ابن قتيبة (30) المتوفى سنة 276 الخطبة بهذا النص : « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس ثم والله الا الصدق والصبر فانهما لا يغلبان وهما جندان منصوران ولا تضرهما قلة ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال الا واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه أو أقتل دونه فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير . واياكم اياكم أن ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة وما قد حل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين وها انذا حامل حتى اغشاه فاحملو بحملي (31) » .

3 ـ وفي (سراج الملوك) للطرطوشي المتوفى سنة 520 هـ بعد الحديث عن القتال الذي دار بين جيش المسلمين وجيش الروم : « فاقتتلوا ثلاثة ايام اشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضهم على الصدق والصبر ورغبهم في الشهادة وبسط آمالهم ثم قال : (أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم وانا فاعل شيئا فافعلوا كفعلي فوالله لاقصدن طاغيتهم فاما ان اقتله واما ان اقتل دونه) » (32) .

4 ـ وفي (ريحان الالباب وريعان الشباب في مراتب الاداب(33)) لابي محمد عبد الله بن ابراهيم المواعيني الاشبيلي ـ وكان معاصرا للموحدين ـ ورد تحت عنوان : (مقتضبة في ذكر ولاة الاندلس من عهد

فتحها الى وقتنا هذا) : ((ولما اجاز طارق البحر ودمرهم قال : ((انكم بين عدوين بين اهل الكفر وبين البحر فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا)) واحرق سفن الجواز ... فلما اشرف طارق على جمعهم قال : لاصحابه : ((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين واني مصمم بنفسي نحو طاغيتهم حتى يحكم الله بيني وبينه وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة فاحملوا كما أمر الله ينصركم وان ينصركم الله فلا غالب لكم)) ثم اجاز موسى البحر الى الاندلس ...))

5 ـ وفى (وفيات الاعيان) لابن خلكان المتوفى سنـــة 681 :
((فلما بلغ طارقا دنوه قام فى اصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى واثنـــى عليه بما هو اهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ثـــم قال : ((أيها الناس اين المفر البحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة وانتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي اعدائكم وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد القت به اليكـــم مدينته المحصنة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم ان سمحتم بانفسكم للموت واني لم احذركم امرا انا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ابدا فيها بنفسي واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليـــلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان مـــن بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيـــان المقصورات فى قصور الملوك ذوي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعام واستماحكم لمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة ويكون مغنمهـــا خالصا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه

واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذويق فقاتله ان شا ءالله فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون امركم اليه وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون (34) » .

6 — وفي (تحفة الانفس وشعار اهل الاندلس) لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل — وهو من كتاب القرن الثامن الهجري — ورد هذا النص : « ايها الناس اين المفر . البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مادبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه واسلحته واقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجراة عليكم فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد القت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . واني لم احذركم امرا انا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة ارخص متاعا فيها النفوس ابدا بنفسي واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا فما حظكم فيه باوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المومنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم لمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم . والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين . ايها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا انهيه حتى اخالطه وامثل دونه فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل واسير

واياكم اياكم ان ترضوا بالدنية ولا تعطوا بايديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين وها انذا حامل حتى اغشـــاه فاحملـــوا بحملتـــي (35) » .

ومن عجيب الامر ان ينقل عنان هذه الخطبة من نص ابن هذيل ثم يترك القارىء يفهم من تعليقه عليها ان النفح اقدم مصدر اوردها ، ونحن نعرف ان صاحب النفح توفي سنة 1041 هـ .

واظنني في موضوع الاسلوب لا ارى ما يباعد بين خطبة طارق وخطب الامويين ، من حيث التاثير على المشاعر ، واثارة العواطف ، واللجوء في ذلك الى الاستفهام والتساؤل والتمني والترغيب واستعمال الالفـــاظ القوية في الجرس والمفهوم . واذا كان السجع قد اختفى من خطابة هذا العصر في مفهومها العام ، فانه لم يختف من المحاورات وبعض الخطب السيـاسيـــة .

اما قول طارق « وقد اختاركم امير المؤمنين من الابطال عربانـــا » فلعل المقصود به القواد العرب الذين كانوا على راس فرق الجيش . بل انا نجد في بعض الروايات كلمة العربان هذه قد اضيفت اليها نقطة فاصبحت عزبانا (36) جمعا لعزب وهو الذي لم يتزوج . وليس مستبعدا ان تكون هذه الرواية صحيحة بدليل قول الخطبة بعد ذلك : « ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا » (37) .

والراي عندي بعد هذا ان الخطبة ثابتة وان كان اختلاف النصوص يدعو الى الشك في هذا الثبوت ، ثم اني ارجح انها ليست من انشـــاء طارق وانما كتبت له ليلقيها في الجيش ، وانها في هذه الحالة من انشاء عربي من الفاتحين يتقن الكتابة بل لعل مهمته كانت تقتضـــي أن يكتـــب للجيش ولقائده . وليس هذا بغريب فقد كان مالوفا ان تكتب للامـــراء والوزراء خطبهم ورسائلهم ، بل ما زلنا اليوم نرى المسؤولين على مختلف طبقاتهم يكتب لهم حين يريدون أن يخطبوا او يراسلوا ، سواء منهم من يعرف اللغة او يجهلها .

ونفي انشاء الخطبة عن طارق لا يمس اسلامه ولا يطعن فى عملية الفتح او يشكك فى حقائق التاريخ كما قد يظن (38) . ولعلنا فى غنى عن القول بانه ليس فى اثباتها جملة او عدمه ما يزيد شيئا فى الاسلام او ينقص منه ، بل ان تعثر الفتح نفسه فى المغرب ـ وهو حقيقة تاريخية ـ لا يؤثر على الدين ولا يخدش عقيدة المغاربة حتى من تاخر اعتناقهم له .

وهبنا نقبل جدلا ان الخطبة لطارق ، وانها دليل على انتشار اللغة العربية واتقان البربر لها فى هذا العهد المبكر ، فاين هي اذن آثار هذا الانتشار والاتقان ؟ ايعقل ان يكون لسان البربر قد تعرب لدرجة انشاء الخطب البليغة ، وليس غير طارق متعربا خطيبا ؟ ايعقل ذلك فى هذا الوقت ـ فى اواخر القرن الاول ـ ونحن لن نعثر بين المغاربة بعد ذلك على من ينشىء ادبا الا فى القرن الرابع .

على اننا ونحن نناقش صحة نسبة هذه الخطبة لطارق ، لا نرى مناصا من ادخال اصل صاحبها فى الموضوع ، وهو عنصر يحدد اتجاه تناولنا للخطبة ، حيث اننا نبحثها ونهتم بها على اعتبار انها صادرة عن طارق ، مفترضين او مسلمين انه مولى لموسى بن نصير وانه من البربر الزناتيين او النفزاويين ، وان كنا نرتاب فيما يقال من ان والد طارق وجده كانا مسلمين كما يتضح من اسمه « طارق بن زياد ابن عبد الله (39) » لان ذلك لا يساير حوادث التاريخ التي تجعل الفاتح الاول للمغرب وهو عقبة يصل عام 61 ـ 62 هـ ، الا اذا كنا نتفق على ان طارقا واباه وجده كانوا جميعا على قيد الحياة فى هذا الوقت واسلموا فى فترة واحدة .

وقد يتخذ البحث اتجاها آخر ، وربما يصبح غير ذي جدوى اذا نحن افترضنا او سلمنا بانه ليس مولى ولا بربريا وانما هو من صدف ، او اذا نحن افترضنا او سلمنا بانه مولى لموسى ولكن ليس بربريا وانما مولى له فارسيا من همدان (40) .

وما قلناه عن الخطبة نقوله عن الابيات الشعرية التي اوردها لـه المقري (41) نقلا عن الحجاري فى المسهب وابن اليسع فى المغرب ، وهي :

ركبنا سفينا بالمجـــاز مقيـــرا   عسى ان يكون الله منا قد اشترى

نفوسا وأموالا واهـــلا بجنـــة   اذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا   اذا نحن ادركنا الذي كان أجـدرا

وقد علق والدنا على الابيات بقوله : ((... وقد اشتد شوق الاخوان البرابرة وقوى شغفهم باللسان العربي الجديد ساعة ما اخذ القائد طارق يخاطب اخوانه بلون جديد من ألوان الكلام منشدا اخوانه قصيدتـــه فى الفتح ... بل حسبنا ان نرى هذا اللون من الكلام المقفى والاسلـــوب المتزن الجديد الذي لا تفتنا تقاطيعه الشعرية ونبراته الغنائية ذات النوبات التفعيلية القارة تجتذب نفسية الاخ البربري وتحرك شوقه الحار لهـــذا النوع الطريف من القول الحافز بهدوئه الموسيقي الى الاصفاء بقلب واع ونفس تواقة للنسج على منواله الهندسي الدقيق رافعا مكانته فى مقـــام الكلام الى اسمى ذروة فى الوزن والتآفية (42))) .

* * *

ولعلنا الى جانب هذه الخطبة والابيات ، نستطيع ان نقسم الانتاج الادبي ـــ ان صح أن نسميه كذلك ـ الى فرعين :

الاول : انتاج غير مغربي ولكنه قيل فى المغرب . ويجب الانتباه فى هذا المضمار الى اننا قد نجد فى المصادر التي تحدثت عن هذه الفترة بعض الشعر ينسب لولاة أو غيرهم ، وفدوا الى المغرب ، ولكن قد لا تعني ((المغرب الاقصى)) بقدر ما تعني كل الشمال الافريقي ، على حد ما نقرا ليزيد بن حاتم (43) فى هذين البيتين :

ما يالف الدرهم المضروب خرقتنا   الا لماما يسيرا ثـم ينطلـــــق

يمر مرا عليها وهـــي تلفظــه   انيامرؤلم يحالفخرقتي الورق(44)

ويعتبر الشاعر التاهرتي بكر بن حماد (45) اشهـــر من وفـــد على المغرب ومدح حكامه . وله فى احمد بن القاسم بن ادريس هذه الابيات :

أن السماحة والمروءة والنـــدى جمعوا لأحمد من بني القاســـم

واذا تفاخرت القبائل وانتمـــت فافخر بفضـــل محمد وبفاطـــم

وبجعفر الطيار فى درج العـــلا وعلى العضب الحسام الصـــارم

اني لمشتاق اليـــك وانمـــــا يسمو العقاب اذا سما بقـــوادم

فابعث الي بمركب اسمـــو بـــه على أكـــون عليـــك أول قـــادم

واعلم بأنك لن تنـــال محبـــــة الا ببعض ملابس ودراهـــم (46)

وله فى أبي العيش عيسى بن ادريس صاحب جراوة وتلمسان قصيدة منها هذه الابيـــات :

سائل زواغة عن فعال سيوفـــه ورماحـــه فى العارض المتهلـــل

وديار نفزة كيف داس حريمهـــا والخيل تمرغ بالوشيج الذبـــل

وغشى مغيلة بالسيوف مذلـــة وسقىجراوة من نقيع الحنظل(47)

كذلك نقرأ هذه الابيات من أرجوزة للشاعر أحمد بن جعفر المروزي، وكان قد مال لعبيد الله حين دخل مدينة نكور منتصرا على سعيد :

لما طغـــى الارذل وابـــن الارذل فى عصبة من الطغام الجهـــــل

قال نكـــور دون ربـــي معقلـــي أتاه محتوم القضـــاء الفيصـــل

من الالاه كالحريق المشعـــــل فحل أرضا طالما لم تحلـــــل

حطم اهل كفرهـــا بالكلكـــــل وجاء رأس راسهـــا المبـــــذل

على القنا من الرماح الذبـــــل ذو لمة شاعثـــة لم تغســـــل

ولحية غبراء لـــم ترجـــل (48)

وربما جاز لنا أن نعتبر من الأدب الوافد ذلكم الادب الذي صدر عن

الادارسة . حقا انهم اقاموا في المغرب ونشأوا فيه ، ولكنهم ظلوا يعيشون فى بيئة عربية خالصة ، ولم يتح لهم من ظروف الزمن وعوامل الاندماج ما يعتبرون به مغاربة ، الا ما كان من حفدتهم فانهم قد يسحبون من هـذا الحكم . فباستثناء الرابط الديني لم تكن توجد ــ فى الفتـره الاولـى للادارسة ــ عناصر مشتركة من شانها أن تحلق التكاثـف والتجانـس والامتزاج ، وان تحلق بالتالي نمطا ثقافيا وحضاريا واحدا يجمعهم مـع المغاربة داخل اطاره ونطاقه ، بل كانوا يعيشون خارج النمط المحلي . وكذلك كان المغاربة الذين لم تكن قد أتيحت لهم ظروف التعرف على ما فى النمط العربي المشرقي الذي حمله الادارسة ، فضلا عن أن يندمجوا فيه وينسجموا معه ، علما بأننا لا نعرف الا أشياء قليلة عن بنيـات كل مـن النمطين . وقد ظل الادارسة مشارقة بالروح والعقليه وبنمط الحيـاه وبطبيعة العلاقات ومستوى التعبير ، لا يفارقهم الشعور بأرومتهم ، ذلكم الشعور الذي كان ثابتا فيهم متأصلا يتمثل في الحنين الذي لم يخب قط فى نفوسهم ، بل ان هذا الحنين ظل يراودهم بقوة فى بعض الاحيـان ، وخاصة حين تتأزم الاحداث والظروف ، على حد ما نقرأ لادريس الثاني يشكو الهموم وبعد الاحباب (49) :

لو مال صبري بصبر الناس كلهم	لضل في روعتي او ضل في جزعي
وما أريع الى يأس ليسليـنـي	الا . . . يـاس الى طمـع
وكيف يصبر مطـوي هضائمـه	على وساوس هم غيـر منقطـع
اذا الهموم توافت بعد هجعتـه	كرت عليه بكاس مـرة الجـرع
بأن الاحبة واستبدلت بعدهـم	هما مقيما وشملا غير مجتمـع
كأنني حين يجرى الفكر ذكرهـم	على ضميري مخبول من الفـزع
تأوى همومي اذا حركت ذكرهم	الى جوانح جسم دائم الولـع

وبأقوى من هذا النفس ، وفى شيء غير قليل من اليأس والانسلاخ عن كل ما قد يربطه بالمغرب ، يتحدث ابنه القاسم فى معرض اعتذاره عن محاربة عيسى بن ادريس حين خرج على اخيه محمد فيقول :

ساترك للراغب الغرب نهبـــا وان كنت في الغرب قيلا ونديا
واسمو الى الشرق في همـــة يعز بهـا رتبـا من احبـا
واترك عيسى على رايــه يعالج في الغرب هما وكربـا
ولـو كان قلبـي عن قلبـه لكنت له في القرابـة قلبـا
وان احدث الدهر من ربـه شقاقا علينا واحـدث حربـا
فاني ارى البعد سترا لنـا يجدد شوقا لدينـا وحبـا
ولم نجن قطعـا لارحامنـا نلاقي به آخـر الدهر عتبـا
وتبقى العـداوة في عقبنـا واكرم بـه حين نعقب عقبـا
واوفق من ذاك جوب الفـلاة وقطع المخارم نقبا فنقبـا (50)

ويكاد كل الشعر الذي صدر عن الادارسة يكشف عن اضطـراب نفسي ناتج عن الظروف المتازمة التي كانوا يعيشون ، سواء فيما بينهم أو مع خصومهم . وهذه ابيات كتب بها ادريس الثاني لبهلول بن عبد الواحد المضغري ـ وهو مغربي كما سنرى بعد ـ وكان قد مال الى ابراهيم بن الاغلب عامل الرشيد على افريقية ، يقول فيها :

ابهلول قد حملت نفسك خطـة تبدلت منها ضلـة برشـاد
اضلك ابراهيم مـع بعـد داره فاصبحت منقادا بغير قيـاد
كانك لم تسمع بمكر ابن اغلـب وقدما رمى بالكيد كل بـلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليـا ومناك ابراهيم شوك قتـاد (51)

ومثلها ابيات لابراهيم بن ادريس بعد ان اخرجه المنصور ابن ابي عامر من قرطبة ، قالها يخاطب المروانيين لما راى غلبـة المنصور على هشام المؤيد ، وهي :

فيما ارى عجـب لمن يتعجـب جلت مصيبتنا وضاق المذهـب

اني لأكذب مقلتـــي فيمـــا أرى	حتى أقول غلطت فيما أحســـب
ايكون حيا من أميــة واحـــــد	ويسوس هذا الملك هذا الاحدب
تمشي عساكرهم حوالـي هودج	أعواده فيهن قـــرد أشهـــــب
أبني أمية أين أقمار الدجــــى	منكم وما لوجوهها تنغيــب (52)

وابراهيم هذا هو صاحب قصيدة طويلة فى مدح مؤيد الدولة هذيل بن خلف بن رزين ، وقد أورد منها ابن الابار هذه الابيات : (53)

للبين فى تعذيب نفسي مذهـــب	ولنائبات الدهر عنـدي مطلـــب
اما ديون احادثـــات فانهـــــا	تأتي لوقت صادق لا تكـــــذب
والبين مغرى كيده بأولي النهـى	طبعا تطبع والطبيعـة أغلـــــب
أيقنت أنى للرزايـــا مطعــــم	ودمى لوافدة المكاره مشـــرب
فأنا من الآفات عرض سالــــم	وجوانح تكوى وعقل ينهـــــب

وفى هذا الاطار يقول عبيد الله بن يحيى يخاطب الناصر بعد أن فتح سبتة سنة 319 :

بسيفك دانت عنوة واقـــــرت	بصائر كانت برهة قـد تولــت
وما قربت أهواؤها اذ تقربـــت	ولا حيلت بالزي لما تحلــــت
ولكن أزالت راسيات عقودهـــا	عزائم لو ترمي بها العصم زلـت
ودولة منصور اللواء مؤيـــــد	تدال بحمد الله من شر دولــة
فهذا أوان النصـر منها وهـــذه	بشائره تروي الانام بسبتة (54)

أما ما ينسب لادريس الثاني من خطب ، وخاصة خطبته بعد مبايعته والخطبة التي القى فى أول جمعة اقيمت بعد بناء مدينته ، فأمره يختلف .

أما الاولى ــ ومن العبث محاولة اثبات صحة نسبتها له ــ فقالها وهو طفل عمره أقل من احدى عشرة سنة ، لا مجال للحديث عن ((فصاحته وبيانه ورصانة عقله وبلاغته)) (55) . وفيها جاء : ((الحمد لله أحمده واستغفره وأستعين به واتوكل عليه واعوذ بالله من شر نفسي وشر ذي شر ، وأشهد أن لا الاه الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ارسله الى الثقلين بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، أيها الناس انا قد ولينا هذا الامر الذي يضاعف للمحسن فيه الاجر وللمسيء الوزر ، ونحن والحمد لله على طريق قصد فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فان الذي تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا)) (56) .

وأما الخطبة الثانية ، وقالها بعد الاولى بنحو ست سنوات ، فلعل حدة الشك حولها تخف ، وقد ختمها بهذا الدعاء : ((اللهم انك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وانما أردت ان تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا ، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليهم واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الارزاق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شيء قدير)) (57) .

ولعلنا ، ونحن نبحث في هذا الجانب من شعر المشارقة الذي قيل في المغرب ، أن نتساءل عما قال شعراء الفتح الاسلامي ــ ان كان هناك شعراء ــ سواء ما كان منه متعلقا بالوقائع أو ما كان معبرا عن مشاعرهم في هذه الوقائع من رثاء للشهداء وحنين الى الاوطان والاحباب ، على حد ما نقرأ في شعر الفتوح الشرقية في بغداد وفارس ، وهو ذلك الشعر الذي يزخر به كتاب فتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري ومعجم البلدان لياقوت الحموي . والاسف انا لا نجد مثل ذلك شعرا يصور الفتح الاسلامي للمغرب ، واغلب الظن أن السبب راجع الى طبيعة هذا الفتح والى ان الجيوش التي شاركت فيه كانت في جلها مكونة من عرب الجنوب ومن أهل اليمن خاصة ؛ ومعروف ان حظهم من الشعر قليل وربما لا يذكر .

والاسف ان هذه الظاهرة لم تؤثر على حال شعر الفتح فقط ، بل تعدتـه الى تاخر النهضة الادبية عموما وتخلفها فى المغرب .

الثاني : انتاج مغربي ولكن قليل . ويكاد ما وصلنا منه يتصل كله بالصراع السياسي والمذهبي الدائر حول ازمة الخلافة فى المشرق وحول قضية النفوذ والحكم فى المغرب ؛ يعبر ـ شانه كشان ادب الادارسة ـ عن ظلامية المرحلة وما كانت تعكس فى نفوس المغاربة من ملامح الاضطراب وعدم الاستقرار . ويبرز لنا فى طليعة الاسماء بهلول بن عبد الواحـد المضغري الذي كان « رئيسا فى قومه (58) » و « من خاصة ادريس ... واركان دولته (59) » ، وكانت له مكاتبات مع ابراهيم بن الاغلب الـذي « ارهف عزمه للتضريب بين البربر واستفسادهم على ادريس (60) » افضت فى النهاية الى مساندة البهلول لابن الاغلب الذي كان قد جند نفسه لخدمة بني العباس فى الشمال الافريقى . ويهمنا فى هذا الصدد ان نورد ابياتا للبهلول يخاطب فيها ابن الاغلب ، وهي :

لئن كنت تدعوني الى الحق ناصحا	لتكشف عن قلبي ضمير خـلاف
لقد ما اتانا عنك انك ناصـح	لمن قال بالصلح الخلافة كـاف
وانك محمود النقائـب عندهـم	تزين ما تاتـي لهـم بعفـاف
فعجـل على ردي فاننـي	ارد الهوى للحق حين يوافي (61)

وفى اتجاه مضاد يقول شاعر سعيد بن صالح صاحب امارة النكور مخاطبا عبيد الله الشيعي الذي كان تغلب ودعا أهل المغرب الى الدخول فى طـاعتـه :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا	ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما انت الا كافـر ومنافـق	تميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليـا لدين محمـد	وقدجعل الرحمن همتك السفلى (62)

وهي رد على أبيات كان بعث بها عبيد الله ، منها قوله : (63)

فان تستقيموا أستقم لصلاحكـم وان تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
واعلو بسيفي قاهرا لسيوفكـم وادخلها عفوا واملأها قتـــلا

ومن اسماء الشعراء التي وصلتنا : سعيد بن هشام المصمودي وعبد الله الكفيف ومحمد بن اسحاق البجلي وابراهيـم بن محمد الاصيلـي وابراهيم بن أيوب النكوري •

فمن شعر سعيد قوله يهجو البرغواطيين واميرهم ابا عفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ويذكرهم بوقعة بهت التي هزموا فيها ، وفى ((البيان المغرب)) (64) انها قصيدة طويلة ، منها هذه الابيات (65) :

قفي قبل التفرق فاخبرينـــا وقولي واخبري خبرا مبينـــا
هموم برابر خسروا وضلـــوا وخابوا لاسقوا مـــاء معينـــا
الايم امة هلكـــت وضلـــت وزاغت عن سبيـل المسلمينـــا
يقولون النبـي ابـــو عفيـــر فاخـــزى الله ام الكاذبينـــا
ألم تسمع ولم تر يوم بهـــت على آثـــار خيلهـــم رنينـــا
رنين الباكيات بهـــم ثكالـــى وعاوية ومسقطـــة جنينـــا
سيعلم اهل تامسنـــا اذامـــا اتوا يوم القيامـــة مقطعينـــا
هنالك يونس وبنـــو ابيـــه يقودون البرابـــر حائرينـــا
اذا ورياورى زمـــت عليـــه جهنم قائـــد المستكبرينـــا
فليس اليوم ردتكـــم ولكـــن ليالي كنتـم متميسرينـــا (66)

ومن شعر عبد الله الكفيف فى حاميهم الغماري المفتري المسمى بابن من الله وكان قد تنبا فى غمارة (67) :

وقالو افتراء ان حاميم مرســل — اليهم بدين واضح الحق باهــر

فقلت كذبتم بـدد الله شملكــم — فما هو الا عاهر وابن عاهــر

فان كان حاميم رسولا فانني — بمرسل حاميـم لأول كافــر

رووا عن عجوز ذات افك كهينـة — تجاوز فى اسحارها كل ساحـر

احاديث أفك حاك ابليس نسجها — يسرونها والله مبدي السرائر(68)

أما عند غير هؤلاء فيميل القول الى التعبير الذاتي على حد ما نقرؤ لمحمد بن اسحق البجلي فى عدوة القرويين بفاس :

يا عدوة القرويين التي كرمــت — لا زال جانبك المحبور ممطــورا

ولاسرى الله عنك ثوب نعمتــه — أرض تجنبت الآثام والزورا (69)

وعلى حد ما نقرأ كذلك لابراهيم بن محمد الاصيلي (70) معرضـــا بمدينـــة فـــاس :

دخلت فاسا ولي شوق الى فاس — والحين ياخذ بالعينيـن والراس

فلست ادخل فاسا ما حييت ولو — أعطيت فاسا بما فيها منالناس(71)

وهو القائل فى ارض هوارة وكان بها قوم يعرفون ببني زياد (72) :

سقى غربى ارض بني زيـــاد — سحائب ما يجف لها غـــروب

ولا زال النعيم يعـم قومـــا — ازاءهم من الشرق الكثيـــب

اما ابراهيم بن ايوب النكوري فيقول :

ايا املي الذي ابغي وسولـــى — ودنياى الذي ارجو ودينـــي

الحرم من يمينك رى نفسي	ورزق الخلق فى تلك اليمين
ويحجب عن جبينك لحظ طرفي	ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامة من نكور	اليك بكل ناحية امون (73)

ولعله واضح من هذه القطع والابيات ـ وهي تمثل جل الشعر الذي قيل او بالاحرى الذي وصلنا عن هذه الفترة ـ انها فى غالبها تصوير لبعض جوانب الاضطراب الذي كان يعانيه المغرب ، وانها بلغت من اليسر فى الاسلوب ومن البساطة فى العواطف ومن الوضوح فى المعاني درجة تكاد ان تصل الى الفتور والضعف ، مما يجعلنا لا نبالغ حين نحكم عليها بالهزال ، وكذلك نحكم على حال الادب المغربي عموما فى هذه المرحلة .

الرباط　　　　　　　　عباس الجراري

المصادر والمراجع

1 ـ د. آمنة اللوه
حول الثقافة العربية المعاصرة فى شمال المملكة المغربية
(دعوة الحق ـ 16 ع ـ 6 مايو 1974)

2 ـ ابو العباس احمد بن خالد الناصري
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى
(مطبعة دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1954)

3 ـ ابو العباس احمد بن خلكان
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان
(ط بولاق ـ مصر 1299)

4 ـ احمد بن القاضي المكناسي
جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس
(ط حجرية)

5 ـ ابو العباس احمد المقري
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تـ محمد محي الدين عبد الحميد
(المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر 1367 ـ 1949)

6 ـ د. احمد هيكل
الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة
(مكتبة الشباب ـ المنيرة ـ القاهرة)

7 ـ بروكلمان (كارل) Brockelmann
تاريخ الادب العربي (ج 2)
ترجمة د. عبد الحليم النجار
(دار المعارف ـ مصر 1961)

8 ـ د. عباس الجراري
القصيدة (الزجل فى المغرب)
(الرباط 1970)

9 ـ د. عباس الجراري
المغرب وتيار المذاهب الاسلامية
(مجلة الايمان ـ المغرب ـ س 3 ع 4 ـ 5 ـ 6 1966)

10 ـ عبد الرحمن بن خلدون
التاريخ (ديوان العبر)
(ط بولاق)

11 ـ ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ابن عبد الحكم)
فتوح مصر واخبارها
(ت شارل توري ـ ط ليدن 1920)

12 ـ د. عبد السلام الهراس
خطبة طارق من جديد
(دعوة الحق س 11 ع 5 مارس ـ ابريل 1968)

13 ـ د. عبد الكريم كريم
فتح الاندلس : الخطبة واحراق السفن
(مجلة الباحث س 3 ع 1974 ـ المغرب)

14 ـ ابو محمد عبد الله بن ابراهيم المواعيني الاشبيلي
ريحان الالباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب
(مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 2647)

15 ـ عبـــد اللـــه الجـــراري
تاريخ الادب الناثر والشاعر بالمغرب قديما وحديثا
(مخطـــوط المـــؤلـــف)

16 ـ ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري
المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من المســالـــك والممالـــك)
نشـــر دو ســـلان
(الجـــزائـــر 1857)

17 ـ عبـــد اللـــه عنـــان
دولة الاسلام فى الاندلس من الفتح الى بداية عهد الناصر
العصر الاول ـ القسم الاول
(الطبعة الثالثـــة)

18 ـ عبـــد اللـــه كنـــون
النبـــوغ المغربـــي فى الادب العربـــي
(دار الكتاب اللبنانـــي ـ بيروت 1961)

19 ـ عبـــد اللـــه كنـــون
حـــول خطبـــة طـــارق
(دعوة الحق س 11 ع 6 ـ 7 ماى 1968)

20 ـ عبـــد الله كنـــون
ســـابـــق البـــربـــري
(دعوة الحق س 2 ع 1 س 6 ع 8 ـ 9 س 8 ع 4)

21 ـ ابـــو محمد عبـــد اللـــه بن مسلـــم بن قتيبـــة
الإمـــامـــة والسيـــاســـة
(مطبعـــة القاهـــرة)

22 ـ عثمـــان الكمـــاك
مراكز الثقـافـــة فى المغـــرب
(منشورات معهد الدراسات العربية ـ القاهرة 1958)

23 ـ ابن عـــذارى المراكشـــي
البيـــان المغـــرب فى أخبـــار المغـــرب
ج 1 تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وليفي بروفنسال
(دار الثقـافـــة ـ بيروت)

24 ـ عز الدين ابو الحسين علـــي (ابن الاثيـــر)
الكـامـــل فى التـاريـــخ
(ط ليـــدن 1869 ـ 1874)

25 ـ ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري
مقالات الاسلاميين واختلاف المصليـــن ـ ج 1
تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد
(القاهـــرة 1369 ـ 1950)

26 ـ علـــي الجـزنـائـــي
جنى زهرة الآس فى بناء مدينـــة فـــاس
(المطبعة الملكية ـ الرباط 1387 ـ 1967)

27 ـ ابـو القاســـم الزيـانـــي
الترجمانة الكبرى فى اخبار المعمور بـــرا وبحـــرا
نشر الاستاذ عبد الكريم الفيلالي
(وزارة الانبـــاء ـ المغـــرب 1967)

28 ـ ليفـــي بروفنســـال :
E. LEVI Provençal : La Fondation de Fès, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales T 4 1938 pp 23-53. Faculté des Lettres de l'Université d'Alger.

29 ـ ليفـــي بروفنســـال L'Islam d'Occident. Paris 1948.

30 ـ محمد بن ابى بكر القضاعي (ابن الابار)
الحلة السيراء
تحقيق د. حسين مؤنس
(الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1963)

31 ـ ابو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس
(الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966)

32 ـ محمد رمضان شاوش
الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد
(الطبعة الاولى ـ مستغانم ـ الجزائر 1385 ـ 1966)

33 ـ محمد الصادق عفيفي ـ محمد بن تاويت
الادب المغربي
(دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1960)

34 ـ ابو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي
سراج الملوك
(ط الازهرية)

35 ـ د. محمود مكي :
Egipto y la historiografia arabico-espanola. :
مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد م 5 سنة 1957
(عدد خاص بمرور خمس سنوات على انشاء الصحيفة)

---

(1) يقال ان بعض المغاربة أسلموا قبل الفتح « اول من أدخل دين الاسلام للمغرب ... رجال رقراق السبعة من المصامدة وقيل كانوا التى عشر رجلا اجتمعوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وكلمهم باللسان البربري ، والصحيح انهم لم يجتمعوا به ، وانما أسلموا على يد عمر وعلمهم دينهم وتوجهوا لمغربهم . ولما بلغوا قومهم منهم من اسلم

ومنهم من أبى ، وذلك عام ثمانية عشر من الهجرة . وفي ايام عثمان اسلم مغراوة ، قيل وفدوا على عثمان مع اميرهم (صولات) وقيل أسر في الحرب مع جماعة من أعيانهم . ولما بلغوا المدينة أسلموا على يد عثمان ، وله عليهم الولاء عام اربعة وثلاثين ثم تتابعت الفتوحات » (الترجمانة ص 80 — 81) . ويلاحظ على هذا الكلام عن دخول الاسلام في هذه الفترة انه خال من أي اثبات .

(2) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص 173 .

(3) من المعروف أن الكاهنة خربت البلاد التي تركتها للفاتحين ظنا منها انها بذلك ستثنيهم عن الاستمرار في الفتح . وهو موقف يحث على طرح قضية ملكية الارض في المغرب . وقد حاول العلماء تناوله حين تحدثوا عن هذه الارض وهل فتحت عنوة او صلحا . فعند ابن القاضي : « قال أبو الحسن بن القابسي في شرح الموطا من كتاب الجهاد : اختلف الناس في ارض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو مختلطة على ثلاثة أقوال . الاول وهو الظاهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها عنوة افتتحت بالسيف لانه جعل النظر في المعادن للامام . الثاني قيل صلحا صالح أهلها عليها . الثالث قيل انها مختلطة حرب بعضهم من بعض فتركوها فمن بقي بيده شيء كان له وهو الصحيح والله اعلم . وقال التادلي أسلم عليها اهلها وحكي عن بعض عمال المنصور بن أبي عامر حين تغلب على أرض فاس قال لهم : اخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة ، فقالوا له : لا جواب عندنا حتى ياتي الفقيه يعنون أبا جيدة بن أحمد. فجاء أبو جيدة فسأله فقال : ليست بصلح ولا عنوة وانما أسلم عليها أهلها فبقيت لهم » . (الجذوة ص 4 — 5)

(4) انظر جذوة المقتبس ص 338 .

(5) مراكز الثقافة ص 12 .

(6) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 110 .

(7) في قدوم المولى ادريس الى المغرب قولان : أحدهما وهو الشائع يذهب الى أنه فر من وقعة فخ سنة 169 هـ على عهد الهادي العباسي ، والثاني يذهب الى أن أخاه محمد بن عبد الله الذي كانت له مواجهات مع المنصور أوفده الى المغرب قبل تاريخ وقعة فخ بنحو عشر سنوات . (انظر مقالات الاسلاميين للاشعري ج 1 ص 145)

(8) انظر بحث الكاتب عن « المغرب وتيار المذاهب الاسلامية » .

(9) او البلغواطيين (بفتح الباء واللام) .

(10) هي بالتقريب منطقة الشاوية وما حولها ، يكونها السهل الممتد من وادي أبي رقراق الى أم الربيع . وتجدر الاشارة الى أن هذا الاسم لم يعد معروفا .

(11) انظر البيان المغرب ج 1 ص 226 — 227 .

(12) لا بناءها كما كان يظن . انظر بحثا لبروفنسال عن بناء مدينة فاس وان مؤسسها هو ادريس الاول في : p.p. 3-41
Annales de l'Institut d'Etudes Orientales T 4 1938 pp 23-53
وقد أعاد نشره في أول كتابه : L'Islam d'Occident

وفيه يذهب الى ان ادريس الاول بنى فاس سنة 172 فى المنطقة التي تعرف بعدوة الاندلس وأن ابنه أسس عدوة القرويين (أو المدينة العالية) سنة 192 . وقد اعتمد فى هذا الراي على بعض النصوص التاريخية وعلى قطع من العملة سكت فى مدينة فاس قبل سنة 192 وعلى قطع أخرى تحمل اسم ادريس الثاني ضربت فى مدينة العالية التي أصبحت مركز سك العملة .

(13) بدات دولة أبي عبيد الله سنة 296 حين قضى على دولة الاغالبة .

(14) دام أمر بني العافية مائة وأربعين عاما حيث انتهى سنة 363 هـ .

(15) قامت دولة الادارسة الثانية على يد القاسم كنون وكان مقرها فى قلعة بجبل سماتة تعرف بحجر النسر أو حجر الشرفاء وبدار القرار .

(16) انظر تفصيل الكلام على هذا الموضوع فى كتابنا « القصيدة » (فصل : مراحل التعريب) ابتداء من ص 85 .

(17) انظـــر المصـــدر السابـــق .

(18) انظر تفصيل ذلك فى « المغرب وتيار المذاهب الاسلامية »

(19) ص 121 .

(20) قد يثار الكلام فى هذا المجال عن سابق البربري الذي جاء ذكره فى مصادر غير قليلة ، وخاصة الكامل للمبرد والاغاني للاصفهاني وحماسة البحتري والميزان للذهبي وحماسة الجراوي وفهرسة ابن خير الاشبيلي وتاريخ ابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير وشرح المقامات للشريشي حيث وردت له أشعار كثيرة يغلب عليها طابع الحكمة والموعظة . غير أن مغربيته مشكوك فيها . وقد كتب عنه الاستاذ عبد الله كنون ثلاث مقالات (دعوة الحق س 2 ع 1 ، س 6 ع 8 – 9 ، س 8 ع 4) وكان ذهب فى المقال الاول الى القول بانه « ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربي يقول الشعر فى لغة الضاد والاجادة فيه » غير أنه علق فى المقال الثاني بقوله : « لم يحقق بعد ما اذا كان سابق ينتمي الى مغربنا الصغير » .

(21) ج 1 ص 42

(22) تاريخ الادب الناثر والشاعر بالمغرب قديما وحديثا ص 4 .

(23) النبـــوغ ج 1 ص 22 – 23 .

(24) المصـــدر السابـــق ص 23

(25) دولة الاسلام فى الاندلس – العصر الاول ، القسم الاول – ص 47 .

(26) الادب الاندلسي ص 71 – 72 . وعليه اعتمد مؤلفا كتاب « الادب المغربي » حيث نقلا كلامه بتصرف .

(27) وقد سلم الدكتور عبد الكريم كريم ببعض هذه الاقوال ونقلها معتمدا عليها فى مقال له عن « الخطبة واحراق السفن » (مجلة الباحث س 3 م 3 1974) .

(28) نشير هنا الى ان للدكتور عبد السلام الهراس مقالا حول هذه الخطبة اورد فيه نصها كما جاء في معظم المصادر مع استعراض بعض الآراء حولها (خطبة طارق من جديد دعوة الحق س 11 ع 5 مارس - ابريل 1968) . وقد علق الاستاذ عبد الله كنون على هذا المقال بمقال صغير يحمل عنوان : (حول خطبة طارق) اضاف فيه نص الخطبة الوارد في « سراج الملوك » للطرطوشي (دعوة الحق س 11 ع 6 - 7 مـاي 1968) .

(29) نشر قطعة منه في ضميمة في بحث د. محمود مكي المنشور في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد تحت عنوان :
Egypto y la historiografia arabico-espanola
سنة 1957 عدد 5 ص 222 .

(30) عند بروكلمان في الجزء الثاني من الترجمة العربية (ص 230) : « يذكر دي خويه R SO I, 41521 ان هذا الكتاب صنف في مصر أو في بلاد المغرب في أثناء حياة ابن قتيبة . وبعض اقسام الكتاب المذكور ماخوذ من كتاب في التاريخ ينسب الى ابن حبيب(ت 239 - 853) . انظر :
Dozy. Recherches, 2 ed. Bd I p 23 ed. Bd I, 9
Noeldeke, ZDMG 1886, S. 316 De Slane

وقد تحدث د. محمود مكي عن « الجزء الخاص بالاندلس من كتاب (الامامة والسياسة) المنسوب الى ابن قتيبة وعرض آراء الباحثين المحدثين فيه مثل ميكيلي أماري وبسكوال دي جاينجوس ودوزي ودي خويه وهنري بيرس ، وخلص من بحثه لهذه القطعة الى ان مؤلفها ينبغي أن يكون مصريا وان يكون قد عاش في القرن الثالث الهجري . ثم أشار الى ان المؤرخين الاندلسيين والمصريين يتحدثون عن كتاب يسمونه (اخبار الناس) الفه رجل من ولد موسى بن نصير فاتح الاندلس عن قصة الفتح واشاد فيه بطبيعة الحال بالدور الذي قام به جده موسى في كل ذلك . أما اسم هذا المؤلف فهو معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن بن نصير . وقد استقصى الكاتب اخبار نسل موسى بن نصير بعد عودته الى المشرق وبين ان معاركا هذا ينبغي أن يكون مصري النشأة وأن حياته انما كانت في غضون القرن الثالث . فاذا فحصنا بامعان تلك الاخبار التي اشتملت عليها القطعة الخاصة بفتح موسى بن نصير للمغرب والاندلس وجدنا انها تتفق مع ما ذكره المؤرخون عن كتاب معارك بن مروان الذي أشرنا اليه بشكل يمكن أن يكون هذا الجزء وكتاب معارك شيئا واحدا » (مصر والمصادر الاولى للتاريخ الاندلسي - ملخصات ص 331-332 مجلة معهد الدراسات - المجلد الخامس 1957 .

(31) ج 2 ص 53 .

(32) ص 154 .

(33) مخطوط بالخزانة الملكية رقم 2647 .

(34) ج 2 ص 177 - 178 لدى ترجمة موسى بن نصير .

(35) دولة الاسلام في الاندلس ج 1 ص 46 - 47 نقلا من تحفة الانفس (لوحة 48 مخطوط

رقم 1652 الاسكوريال) وكان قد نشره المستشرق مرسيبه . ويلاحظ ان النص الوارد فيه يجمع بين نصي ابن قتيبة والمقري .

(36) انظر النفح ج 1 ص 226 .

(37) ج ختن وهو الصهر أو كل من كان من قبل المرأة .

(38) انظر مقال « حول الثقافة العربية المعاصرة فى شمال المملكة المغربية » للدكتورة آمنة اللوه (دعوة الحق س 16 ع 6 ماى 74) .

(39) البيان المغرب ج 1 ص 43 .

(40) انظر النفح ج 1 ص 238 .

(41) ج 1 ص 248 حيث قال : « وانشد فى المسهب وابن اليسع فى المغرب لطارق من قصيدة قالها فى الفتح » .

(42) تاريخ الادب الناثر والشاعر ص 5 .

(43) المتوفى سنة 171 ، وكان قد ولاه ابو جعفر المنصور على افريقية والمغرب بعد أن كان تولى أرمينية والسند ومصر واذربيجان وغيرها .

(44) البيان المغرب ج 1 ص 81 .

(45) حوالي 200 – 296 هـ . انظر فيه « الدر الوقاد » لمحمد رمضان شاوش .

(46) الدر الوقاد ص 72 – 73 والبيان المغرب ج 1 ص 236 .

(47) الدر الوقاد ص 74 والمسالك والممالك ص 143 والبيان المغرب ج 1 ص 200 .

(48) المسالك ص 96 وانظر البيان ج 1 ص 179 – 180 مع بعض التعديل .

(49) الحلة السيراء ج 1 ص 55 – 56 .

(50) المصدر السابق ص 132 – 133 .

(51) الاستقصا ج 1 ص 164 .

(52) الحلة السيراء ج 1 ص 227 .

(53) نفس المصدر .

(54) البيان ج 1 ص 201 .

(55) جنى زهرة الآس ص 16 .

(56) نفس المصدر .

(57) الاستقصا ج 1 ص 167 .

(58) الحلة السيراء ج 1 ص 111 .

(59) الاستقصـــا ج 1 ص 164 .

(60) المصـــدر السابـــق .

(61) الحلـــة السيـــراء ج 1 ص 112 .

(62) البيان المغرب ج 1 ص 178 والمسالك ص 95 .

(63) المصـــدر السابـــق .

(64) ج 1 ص 226 .

(65) وردت فى مصادر مختلفة وبنصوص غير موحدة (انظر البيان ج 1 ص 226 والمسالك ص 183 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 208) ولعله واضح أن التأثر كبير فى هـــذه القصيدة بمعلقة عمرو بن كلثوم ، وأولها :

ألا هبي بصحنـك فاصبحينـا ولا تبقـى خمـور الاندرينـا

(66) نسبـــة الى ميســـرة المضغـــري صاحب ثورة طنجـــة .

(67) ادعى النبوة فى غمارة سنة 310 ووضع على نسق البورغواطيين تشريعات محرفة عن الاسلام ولم يدم امره طويلا حيث قتل سنة 315 .

(68) البيان المغرب ج 1 ص 192 والمسالك والممالك ص 100 ـ 101 (مع بعض الاختلاف فى النـص) .

(69) انظر المسالـــك ص 117 .

(70) والد المحدث الفقيه عبد الله بن ابراهيم الاصيلي المتوفى سنة 372 . وعنـــد البكري أنه المذحجي (ص 117) .

(71) البيان ج 1 ص 183 والمسالك ص 117 .

(72) االبيـــان ج 1 ص 235 .

(73) المسالـــك ص 91 .

قصة

دنياي يا دنيا

عن القصصي الروسي بوشكين
بقلم : عبد المجيد ابن جلون

كان همى الاول حينما وصلت الى مركز النزالة بعد السفر تحت وابل من المطر يتمثل فى شيئين : ان استبدل ثيابى وان أتناول شايا ساخنا ، فصاح مدير المركز « دنيا » وامرها باعداد الشاى .

وظهرت على اثر ذلك من خلف الحاجز فتاة فى نحو الرابعة عشرة من عمرها صدمنى جمالها فسألت مدير المركز :

ـ هل هذه ابنـــتك ؟

فأجابنى فى انشراح : نعم وهى جد ذكية وجـــد سريعـــــة بالضبط مثـــل أمها العزيزة من قبــــل .

وشرحت له ما أريد منه ثم انصرفت أتأمل الصور التـــى يزيـــن بها منزله المتواضع ، ولكنـــه مرتب ونظيـــف ، وأقبلت دنيا بعد ذلك ، ولم تكن الحسناء الصغيرة بالبطيئة فى ادراك الاثر الذى تركته فى نفسى ، فاسبلت عينيها الواسعتين الزرقاوين نى خفــــر ، ودخلت معها فى حوار فكانت تجيبنى دون أن يبدو عليها اى اثر للتضايق كما لو كانت فتاة لعبت دورا فى الحياة ، وقدمـــت الى أبيها كأسا مـــن الشراب وناولت دنيا فنجانا مـــن الشـــاى ، وانهمكنا ثلاثتنا فى الحديث كما لو كان التعارف قائما بيننا منـــذ أجيـــــــال .

وعندما كان كل شىء معدا لاستئناف السفر كرهت مفارقـــة الرجل وابنته ولكننى ودعتهما أخيرا فتمنى لى هو سفرا طيبـــا واوصلتنى هى الى العربة ، فوقفت عند المدخل وطلبت منهـــا ان تسمح لى بتقبيلها ، فرضيت دنيا ... ومنحتنى عـــدة قبلات لهـــا ذكريات لا تنسى .

ومرت عدة سنوات ، وشاءت الظروف ان تسوقنى فى نفس الطريق والـــى نفس الامكنة ، فتذكرت ابنة مدير النزالة وراقتنى فكرة ان أراها مرة أخرى ، ثم ساورنى ان من الممكن أن يكـــون الرجل قد أعفى من عمله ، وان من المحتمل ان تكون دنيـــا قـــد تزوجت ، ومرقت فى ذهنى فكرة امكان ان يكون احدهمـــا قـــد مات ، ولذلك فاننى دنوت من المركز وأنا اتوجس خيفة .

ودخلت المنزل فعرفت فى الحال الصور التى كانـــت تزيـــن حيطان الغرفة . وكانت المائـــدة والفراش فى مكانهمـــا القديـــم ، ولكن لم تعـــد هناك زهور على حافة النافذة ، وكان كل شىء فى الغرفة ينم عن البلى والاهمال ، وكان مدير المركز نائما ولكـــن حضورى ايقظه فجلس ... انه سامسن فيرين بعينه بيد ان مـــن الغريب كيف طعن فى السن ، وقـــد لاحظت وهو يدون طلباتـــى كيف تفشى الشيب فى رأسه ، وعمق غضون وجهه غير الحليق ، وانحاء كتفيه ، وعجزت عن أن اكتم دهشتـــى مـــن أن تستطيع ثلاث أو أربع سنوات أن تحول رجلا عتيدا الـــى شيـــخ فـــى الغابريـــــن .

سألته : ألا تعرفنى ؟ اننا ــ أنت وأنا ــ صديقان قديمان .

فأجاب فى نكد : ممكن جدا ، فان عددا كبيرا من المسافرين يمرون بهذه الطريق .

قلت : وكيف « دنياك » ؟

أجاب الشيخ فى عبوس : الله يعلم .

سألته : هل تزوجت اذن ؟

وتظاهر الشيخ بأنه لم يسمع سؤالى ومضى يقرأ مطالبى همسا ، فتوقفت عن الاستمرار فى طرح الاسئلة وطلبت منه أن يوضع الابريق على النار وبدأت أشعر بوخز الفضول ، ورجوت أن أحل عقدة لسانه بكأس من الشراب .

ولم يخب رجائى اذ لم يرفض الشيخ كأس الشراب الذى قدمته اليه ، ولاحظت ان كآبته بدأت تتبدد ، واخذ يثرثر على اثر الكأس الثانية ، بعد ان تذكر او زعم انه تذكر ، من أكون وسمعت من فمه قصة حازت اهتمامى وتأثرت لها تأثرا غريبا فى ذلك الحين .

بدأ يقول : أنت تعرف اذن « دنياى » . آه ومن ذا الذى لا يعرفها ، آه ، دنيا . يالها من فتاة ، لقد اعتاد كل من يرود هذا المكان ان يطريها ولم يكن احد يستطيع أن يجرحها بكلمة

واعتادت السيدات ان يقدمـن لها الهدايا مـن مناديل واقراط ، وكان السادة يتوقفون عند المركز عمدا ، على زعم أنهـم يريدون تناول الغداء او العشاء ، ولكنهم كانـوا يريدون فى الواقـع أن يطيلوا النظر اليها ، ومهما يكن غضب الرجل منهم فان غضبه كان يزول عند رؤيتها فيتحدث الى فى رقة ، انك لن تكاد تصدقنـى ، لقـد كان رجال البريد يأتون ليتحدث المرء منهم اليها نصف ساعة لقـد كان منزلى مدينا لها ، فقد كانت تجد من الوقت ما يكفـى لتنظيفه ، والطبخ والقيام بكل شىء ، ولكننى أنا الشيخ المأفون لم أكن استطيع ان ارفع طرفى عنها ، ألم أكن أحب «دنياى» ؟ ألم أكن اعز ابنتى ؟ ولكنك لا تستطيع دفع الكوارث بالدماء ، ولا مهرب من القضاء والقدر .

وهنا بدأ يحدثنى عن تفاصيل ما حاق به :

منذ ثلاث سنوات خلت ذات مساء فى فصل الشتاء بينما كان مدير مركـز المسافرين يعد دفترا جديدا للحسابات ، وكانت ابنتـه تجلس خلف الحاجز تصنع ثوبا ــ وقفت عربة ودخـل الغرفـة مسافر يلبس قبعة شركسية ويرتدى معطفـا عسكريـا وشـالا كثيفا ، وطلب جيادا .

وكانت الجياد كلها على سفر ، وعندما علم المسافـر بذلـك

رفع صوته وسوطه ، ولما كانت « دنيـــا » قد ألفـــت مثل هـــذه المناظـــر فانها خرجت تجرى م نخلف الحاجـــز وتحدثـــت الـــى المسافـــر فى رقة ، وسألته عما اذا كان يريد ان يصيـــب شيئـــا من الطعام ، وانتج ظهور « دنيا » مفعوله العادى ، فزال غضب المسافر ، ورضى بأن ينتظـــر الجياد وطلب وجبة عشاء .

خلع قبعة الفرو الشعثـــاء وفـــك الشـــال والقـــى بمعطفـــه العسكرى ، فاذا به شاب ضامر من فرسان الجيش ، له شانـــب اسود ، وقد اخـــذ يتصرف فى المركز كما لو كان فى منزلـــه تماما وسرعان ما انخرط فى الثرثرة مع مدير المركز وابنته ، ثم قدم له طعام العشاء ، ووصلت الجياد خلال ذلك ، فامر مديـــر المركـــز بشدها الى زلاقة المسافر دون أن يقدم لها حتى علفها ، ولكنـــه حينما عاد الى الغرفـــة وجد الشاب راقدا على الدكة فاقد الشعور وكان يشعر بالضعف والصداع ، وليس على استعداد لمواصلـــة السفر . . . ولا حيلة فى ذلك فتنازل له رئيس المكتب عن فراشه ، وتقرر استتدام الطبيب اذا لم تتحسن حالـــة المريض فى اليـــوم التالـــــــى .

وأصبحت حالة الفارس اسوأ فى اليوم التالى ، فانطلق خادمه راكبا الى القرية المجاورة للبحث عـــن الطبيب ، وعصبت دنيـــا

منديلا مبلولا بالخل حول رأسه ، وجلست الــى جانب فراشـه تواصل خياطتها ، وكان المريض يئن ولا يكاد يتكلم عنـد حضور مديـر المركز ، بالرغم من انه شرب فنجانين من القهوة وغمغم بطلب الغداء ، ولم تفارق دنيا جانب فراشه أبـدا ، وطلب ان يشرب ، فأتت له دنيا بابريق من عصير الليمون اعدتـه بنفسها فيبلل شفتيه كلما أعاد اليها الابريق ، وكان المريض يضغط على يد دنيا كلما اعاد اليها الابريق بقبضته الواهنة معبرا لها بذلك عن امتنانه ، ووصل الطبيب فى ساعة الغذاء فقاس نبض المريض وتحدث اليـه بالالمانية وأعلن بالروسية أن كل ما يحتاج اليـه هـو الخلود الى الراحة ، وانه سيكون فى مقدوره بعد يومين أن يواصل السفر ، فنقده الفارس خمسة وعشرين روبل أجرا لعيادته ودعاه الى الغداء فقبل الدعوة فأكل الرجلان فى شهيـة وشربا محتويات زجاجة من النبيذ وقد غمرهما سرور متبادل .

ومـر يوم آخر فعوفى الفارس تماما ، وأصبح فى غايـة الحبور وهـو يمازح دنيا تارة ومدير المركز تارة أخرى ، ويصفر بالالحان ، ويثرثر مـع المسافرين ويساعدهم ، فاصبـح المديـر الطيب جد مولع به الى درجة انه لم يكد يطيق فراق الرجل الانيس فى صبـاح اليـوم الثـالث ، وكـان الـيـوم يـوم أحـد ودنـيـا تستـعـد للذهـاب الـى الكـنـيـسـة فـجـىء

بزلاقة الفارس الذى ودع مدير المركز وجازاه على اقامته لديه بسخاء ، وودع دنيا أيضا وهو يعرض عليها أن يوصلها الى الكنيسة التى كانت تقع فى الجانب الاخر من القرية ، وبدا على دنيا الارتباك فقال لها ابوها : « مم أنت خائفة ، ان سعادته ليس ذئبا ، فلن يعضك ، دعيه يوصلك الى الكنيسة » فدخلت دنيا الى الزلاقة وجلست الى جانب الفارس ، وصعد الخادم الى المقعد الامامى ، فصفر السائق وانطلقت الجياد تركض .

لم يستطع المدير المنكود ان يعرف أبدا كيف سمح « لدنياه » ان تذهب مع الفارس ، وكيف كان أعمى الى هذا الحد ، وماذا حدث له فما كادت تمر نصف ساعة حتى شعر بالامتعاض وتملكه الانفعال الى درجة انه لم يعد يستطيع أن يتحكم فى نفسه فذهب الى الكنيسة بحثا عنها ، فلما اقترب منها رأى الناس يغادرونها ولكن دنيا لم تكن من بينهم ، فسارع الى داخل الكنيسة ليجد القسيس قد غادر الهيكل والخادم الكنيسى يطفىء الشموع ، وكانت امرأتان ما تزالان ترتلان الصلاة فى زاوية ، ولكن لم يكن بصره ليقع على دنيا ، وسأل الاب الشقى الخادم هل حضرت الصلاة فأجابه بأنها لم تفعل ، فعاد المدير الى منزله اقرب الى الموت منه الى الحياة ، ولم يبق له سوى امل واحد ، هو ان طيش الشباب قد يكون دفع دنيا

للذهاب الى مركز النزالة التالى حيث تعيش امهـا فى العمـاد ، وانتظـر عودة الجياد التى ساقت الزلاقة بصبـر نافـذ ولكـن اليوم انتهى دون ان يعود السائق ، وأخيرا عاد وحده بعـد حلول المساء وهو ثمل ، يحمل النبأ المخيف : لقـد غادرت دنيـا مركـز النزالة التالى مع الفـارس .

لم يستطع أن يتغلب على سوء حظه بعد ذلك ابدا ، وذهـب فى تلك الليلة الى فراشـه ، نفس الفراش الذى كان الدجال الشاب مستلقيا فيه منذ يوم ، واستعرض المدير كل الظروف وأصبـح يميل الان الى القول بأن مرض الشاب كـان مفتـلا ، واصيـب الشيخ بحمى عنيفة فنقل الى القرية المجاورة ليحل محله مؤقتـا شخص آخـر ، وعالجه نفس الطبيب الـذى زار الفارس فأكـد له أن الشاب كان فى تمام العافية ، وانه تصور نواياه السيئة فى ذلك الحين ولكنه لم يقل شيئا خوفا من سـوط الفارس ، ولـم يعرف المدير ما اذا كان الالمانى صادقا فى قوله ، أو أنه كان مجرد تظاهر منـه بالحصافة ، ولم يجد المريض فيما قاله الطبيـب اى عزاء وما كاد المدير يتماثل للشفاء حتى طلب مـن السلطـات ان تمنحه اجازة شهرين ، وانطلق راجلا للبحث عـن ابنتـه دون ان يطلـع احدا على نواياه ، واكتشف ان الكابتن منسكى قد سافـر الى بيترسبورج ، وعلم من السائق الذى اخذه الى هنـاك ان

دنيا كانت تبكى طول الطريق وان كان يبدو فى الظاهر انها تسافر معه بمحض ارادتها ، ففكر المدير : « سأعود بحملى الى المنزل ان شاء الله » فذهب الى بيتسبرج وقد تملكته الفكرة ، فوصل الى منزل ضابط متقاعد كـــان زميلا له فى السلاح أيام خدمتـــه العسكرية ، وهناك علم ان كابتن منسكى موجود فى المدينة واين يقيم ، وصمم مدير المركز على مقابلته .

وصل الى منزل الفارس فى الصباح المبكر وطلب من الخادم ان ينهى الى سعادته ان جنديا قديما يود مقابلته ، فاجابه الخادم وهو يقوم بتلميع حذاء للفروسية ان سيده نائم وهو لا يستقبـــل احدا قبل الحادية عشرة فانصرف الرجـــل ليعـــود فى الساعـــة المذكورة ، فخرج اليه منسكى نفسه فى ردائه المنزلى وعلى رأسه طربوش قرمزى وسأله : ماذا استطيـــع ان اقـــوم لـــك بـــه ، ايهـــا الاخ ؟

اضطرب قلب الشيخ انفعـــالا واغرورقت عينـــاه بالدموع ولـــم يستطـــع ان يقـــول أكثر مـــن : « يا صاحب السعادة ، أتوسل اليه بالله . . »

حدجه منسكى بنظرة سريعة واحمر وجهه واخذه من يده وقاده الى المكتب الذى اغلق بابه من الداخـــل ، فاستمر الشيـــخ

يقول : يا صاحب السعادة ، ما ضاع قد يضيع الى الابد ، ولكن اعد لى دنياى المسكينة ، لقد استمعت بها ، ولكن لا تحطمها فى سبيل لا شىء .

قال الشاب وقد غلبه الانفعال : ما حدث لا يمكن ابطاله ، لقد اسأت اليك وأريد ان اطلب منك ان تغفر لى ، ولكن لا تحسب اننى قادر على فراق دنيا ، واننى لاعطيك كلمة الشرف على انها ستكون سعيدة ، وماذا تريد منها ؟ انها تحبنى ، ولم تعد تألف حياتها السابقة ، ولن تستطيع انت ولا هى نسيان ما حدث ، ثم دس شيئا فى كم الرجل وفتح الباب : ولا يكاد مدير المركز يعرف كيف وجد نفسه فى الشارع .

وقف مدة طويلة لا حراك به ثم لاحظ اخيرا ان فى كمه رزمة من الورق واستخرجها وعندما فتحها وجد انها مجموعة من أوراق النقد المكومة ، فترقرقت عيناه بالدموع مرة أخرى ، وكانت دموع الشعور بالمهانة ، فكوم الاوراق مرة أخرى وضرب بها الارض وداسها بكعبه ثم انصرف ... ثم توقف بعد بضعة ياردات مشاها وتراجع ولكن الاوراق النقدية كانت قد اختفت ، ذلك أن شابا رأى مافعل فالتقط الاوراق النقدية وعدا على عجل الى عربة عامة وصاح بقائدها : « الى الامام » ولم يبذل مدير المركز

اى مجهود لاقتفاء اثره ، وقرر ان يعود الى مركزه ولكنه كان يريد ان يــرى اولا « دنياه » المسكينة ، ان يراها مرة واحدة فقــط اذا امكن ، وعلى ذلك ذهب بعد يومين الى مقــر منسكــى مــرة أخرى ، ولكن الخادم العسكرى انهى اليه فى خشونة أن سيده لا يستقبل احدا ، واخرجه من القاعة ثم صفق الباب فى وجهه ، فوقف مدير المركز فى الخارج برهة ثم انصرف .

وفى مساء نفس اليوم ، بينما كان مدير المركــز يتجــول فى الشارع مرقت به عربة فاخرة فاستطاع ان يتعرض داخل العربة الى وجه منسكى « وعندما توقفت العربة بباب عمارة قفز منهــا الفارس ودخل باب العمارة ، فخطرت ببال المدير فكرة طرب لها ، وتراجع ليسأل السائق : لمن هذا الجواد يا أخى ؟ أليس جــواد منسكــى . » ؟

ــ اجل ، لماذا تسأل ؟

ــ سأقول لك لماذا ، لقد اوصانى سيدك بأن أوصل بطاقة الى « دنيــــاه » ولكننى نسيت اين تقيم هذه « الدنيا » .

ــ انها تقيم هنا فى الطابق الثانى ولكنك تأخرت ببطاقتــك أيها السيد فانه هو نفسه يوجد معها الآن .

قال المدير وقلبه يخفق خفقانا غريبا : شكرا على هدايتك لى ، ولكن لابـــد من ان ابر بوعدى ، قال ذلك وهو يصعد السلالم .

كان الباب مغلقا فدق الجرس ومرت عدة دقائق تعلقت فيها انفاسه ، ثم سمع دورة المفتاح فى الباب ، فسأل الخادمة الشابـــة التى فتحت الباب : هل تقيم آفدوتيا سمسونفنا هنا ؟

فأجابته : نعم ، ماذا تريد منها ؟

دخل المدير قاعة المنزل دون ان يجيبها ، فقالت وهى تسيـــر خلفه : لا تستطيع الدخول ، آفدوتيا ليست وحدها .

ولم يعبأ بها مدير المركز ، وكانت الغرفتان اللتان عبر بهمـــا مظلمتين ولكن الثالثة كانت مضاءة ، فقصد البـــاب المفتـــوح ثـــم توقف ، كان منسكى جالسا فى الغرفة ، بديعة الاثاث ، غارقا فى التفكيـــر ، وكانت « دنيا » فى أبهى هندام جالسة على مسنـــد مقعده كما تقتعد الانجليزيات ظهور الجياد من جانـــب واحـــد ، وكانت تحملق برقة فى منسكى واصابعها البارقة بالجواهر تعبث بخصلاته السوداء ، يا للمسكين انه لم ير ابنته اجمل من ذلك ، فراقبها فى اعجاب لا ارادى .

وصاحت « دنيا » دون ان ترفع رأسها : « من هنـــاك » ؟

ولما لم تتلق منه جوابا وهو واقف فى صمت رفعت رأسها لتصرخ وهى تسقط على الزربيـــة ، وذعر منسكى واسرع لاغاثـــتها . ولكنه حينما رمق مدير المركز الشيخ واقفا بالباب تـــرك دنيـــا ، واقترب منه وهو ينتفض غضبا .

قال بيـــن أسنانه : ماذا تريد ؟ لماذا تقتفى أثرى كاللص ؟ هل تريد ان تسلبنى حياتى ؟ أخرج

ثم شده منسكى بيده القوية من ياقة معطفه وقذف به الـــى الخارج فوق السلالم .

عاد الشيخ الى مثواه ، ونصحه صديقه بـــأن يلتجىء الـــى العدالة ولكن المدير تدبر الأمر ورفض الفكرة بحركة من يده وقرر ان يدع الأمور تجرى مجراها وغادر بيتسبورج بعد يومين عائدا الـــى مركز نزالته حيث استأنف عمله السابق ، وختم الرجل قصته وهـــو يكفكف دموعه : وقد مرت على ذلك ثلاث سنوات دون أن يعلم مـــن أمرها شيئا .

وعاد بى الحنين الى القرية مرة اخرى بعد ذلك ، فلم أجـــد الشيخ فى مركز النزالة فخرجت الى المدخل حيث قبلتنـــى دنيـــا . امرأة بدينة انبأتنى بأن الشيخ قد توفى منذ سنة .

ـ ماذا كان سبب وفاته ؟

ـ عكف على الشراب الى ان مات

ـ واين دفـــــن ؟

ـ خلف القرية الى جانب زوجته

ـ هل استطيع ان أزور قبـــــره ؟

ـ بكل تأكيـــد ، هاى ! فانكا . خذ السيد الى المقبرة وأره قبر مدير المركز ، وهنا اقبل طفل اعور مهلهل محمـــر الشعـــر وقادنى الى مؤخرة القرية ، وسألته فى الطريق : هل كنت تعـــرف الرجــــــل ؟

ـ نعم كان يلعب معنا دائما وكنا ندعوه بالعم ، ولـــم يعـــد هناك مسافرون كثيرون من معارفه ، فيما عدا سيدة اقبلت هذا الصيف تسأل عن قبره .

ـ ماذا كان شكل السيدة

ـ سيدة جميلة اقبلت فى عربة تجرها ستة جيـــاد ومعهـــا ثلاثة أطفال ومربية ، ولما علمت بموت الشيخ بكت ، وعرضـــت عليها ان اصحبها الى قبره فقالت انها تعرف مكانه ثم منحتنى قطعة فضية من فئة خمس كوبيك .

وعندما وصلنا دلنى على القبر فسألته : وهل جاءت السيدة هنا ؟ .

أجاب فانك : نعم جاءت ، وراقبتها من بعيد وهى تقف فترة طويلة الى جانب القبر ولما عادت الى القرية طلبت القسيس واعطته بعض المال ثم انصرفت : لقد اعطتنى قطعة فضية من فئة خمس كوبيك

واعطيت الطفل انا أيضا قطعة فضية مماثلة ، دون ان أندم على ما أضعت من وقت ومال ، فى سبيل الوقوف على قبر الشيخ الذاهب المسكين .

الرباط **عبد المجيد ابن جلون**

معركة صاخبة فى الأدب العربي

بين أنصار الورد وخصومه

مصطفى القصري

توصلت الى الاقتناع وانا أقوم بجمع بعض ماقيل عن الورد فى الآداب الانسانية ـ أن الادب العربى فى هذا الباب سيد كل هذه الآداب على الاطلاق ، وأن الوردة احتلت فى قلب الرجل العربى الآتى من الصحراء التى لم تنبت سوى الشوك والشيح والطلح مكانة لم تبلغها فى قلب من كانوا يسكنون بين رياض الدنيا وبساتينها ومنتزهاتها ومغانيها المزهرة . تغنى اليونان بالوردة وتغنى الفرس بها ، وجاء الغرب بعد الحرب ليتغنى بها بدوره ،

ولكنك لو جمعت ماقاله كلهم لما كان سوى مقدار حبة من خرذل أو قطرة من جدول ، بالنسبة للجدول العارم الذى تدفق بـــذكر الورد على ألسنة العرب ومن قرائحهـــم ، وانصـــب فى انتاجهم الادبـــى شعرا كان أو نثـــرا .

فلو أننا طرحنا فى كفة ميزان انتاج الحضارات السالفة ، مختلطا بانتاج الحضارة الغربية الحالية ، وطرحنا فى كفة اخرى انتاج الادب العربى منذ عمر بن أبى ربيعة ، الى بدايـــة عصر الانحطاط العربى ، لرجحت كفة العرب ، لما قيل عن الورد ، وما أوحته الوردة الى العربى من معانى الجمال ، والسمو ، والخير ، ومن حكم ، وعبر ، وأمثال .

فهذا أبو نواس ، وعلى بن الجهم ، وعبد الله بـــن المعتـــز ، وغيرهم فى بغداد وهم كثير ، وابن خفاجة ، وابـــن حمديـــن ، وابن زيدون ، وغيرهم فى الاندلس ، لا يخلو شعر من أشعارهم مـــن ذكـــر الوردة وجمالهـــا فى ندواتهم وسمرهم ، ومنادماتهم ومساجلاتهم وبدائع بدائعهم . وهذا الوزير ابو حفص بـــن بـــرد الشاعر الاندلسى ، له رسالة طويلة رائعة الى الوزير أبى الوليد ابن جهور يصف فيها الزهور ويفضل الورد عليها . وهناك رسائل كثيرة شبيهة بها فى نفس الموضوع . وأينما ذهبت فى بلاد الاسلام

ـ حيث ازدهر الادب العربى ـ وجدت شعراء من الطبقة الأولى يصفون الورد ، وجمال أوراقه ، ورقة بشرتـــه وبهاء أكمامـــه ، ورونق لونه ، وما يوحى به اليهم من الحكم والعبر ، ومن المعانى الرقيقة ، والصور الرائعة ، ووجدت الكاتب ، والشاعر ، والعاشق ، والصديق ، والملك ، والحائك ، على الســـواء يقتنونه ويشربون عليه ، يتهادونه ، ويتفاءلون به ، ويفرحون لمقدمـــه ، ويبكـــون لانصراف أيامه ، مترقبين عودته . وهذا الموضوع يمكن ان يفرد له باب شيق من دراسة قيمة تتوفـــر عناصرها فى كتـــب الادب العربـــى أيما توفر . (1)

كما أننى لا حظت وأنا أكتب عـــن الورد أن هـــذه الزهـــرة الرقيقة الحاشية ، ذات البشرة المرهفة ، تولد مع ميلاد الحضارات برعوما رقيقا نديا ، ثم تترعرع وتنمو وتتفتح مع تفتح الحضارات وازدهارها ، فتقدم للبشرية أزكى عطرها ، وأروع لونها ، وأسمى معانيها ، مواكبة تلك الحضارة فى سيرها ، الى أن تموت وتذبل معها ، وتذبل وتسقط اوراقها يابسة على الارض ، وتفنى وتندثر لتخلفها فى بداية انحطاط تلك الحضارة وردة اصطناعية أقرب الى الكليشى منها الى الوردة الطبيعية ، ولكن الوردة خالدة لا تفنـــى مع الحضارة الفانية ، الا لتتقدم برعوما جديدا مع حضارة أخرى قامت فى ربوع أخرى ماسكة المشعل من يـــد الحضارة الفانية ،

لتحتفظ به ردحا من الزمن ، حتى تسلمه بدورها لحضارة جديدة أخرى ، تتهيأ فى مكان آخر من الدنيا . وهذا مثال واضح نلمسه بأيدينا فيما يخص الحضارة العربية بالنسبة للحضارة الغربية التى جاءت اثرها .

فالغرب أخذ من العرب ــ الذين اغترفوا من المنابع اليونانية والفرسية والهندية ــ حوصلة علومهم من فلسفة ، وطب ، وهندسة، وحساب ، وهيأة ، وقامت حضارته فيما يسمى بعصر النهضة Renaissance على علوم العرب الذين تخلفوا عن الركب ، نقول هذا بالنسبة لنهضة الادب كذلك ، اذ لما كانت الحضارة العربية فى أوجها ، كانت الوردة فى أوج أيامها ، ولما أصبح الادب الغربى فى أوجه ، احتلت الوردة التى فقدت مكانتها من الادب العربى فى عصر انحطاطه ، نقول احتلت فى الادب الغربى ماكانت لها من مكانة فى الحضارة السالفة .

وليس هذا هو المقصود بالذات فى هذا المقال ، فقد شرحنا هذه الاستنتاجات واستنتاجات أخرى مفصلة فى كتابنا الذى يوجد الآن تحت الطبع فى تونس .

أما قصدنا اليوم ، فهو أن نقدم للقارىء العربى حادثا غريبا

فى أدبه الرائع الحافل بالاحداث ، ويتلخص فى تلك المعركة التى شنها الشاعر العبقرى ابن الرومى ، حيث تصدى فى شعره ، يكيل السباب للوردة مفضلا عليها النرجس ، وواصفا اياها بأقبح الاوصاف ، وأشنع النعوت ، فانتصب له جيش من الشعراء الفطاحل فى الشرق والغرب الغربيين وابرزوا فضل الوردة على غيرها من الزهور ، ونصبوها ملكة عليها فى قصائدهم ورسائلهم الخالدة ، وقاموا فى وجه ابن الرومى يدحضون حجته ، ويسفهون منطقه ، ويقيمون الدلائل على خوره ، حتى ان كثيرا من الشعراء والكتاب ، أصبحوا يعارضون هذه القصائد والرسائل ، وينهجون نهجها ، ويطلقون على لسان الازهار ما جاء فى طائية ابن الرومى وداليته ، محاولة من هذه الازهار الاعتلاء على عرش الجمال ، وانتزاع هذا العرش من الوردة .

فمن المشرق انبرى له ابن المعتز على الخصوص ، وهو من هو فى الرقة والتشبيه والمكانة الادبية والشعرية ، ومن المغرب انبرى له العديد من الشعراء والكتاب الاندلسيين .

وعلى هامش هذه المساجلة والدفاع عن الورد ، نلاحظ تلك السرعة التى كانت تنتشر بها الكلمة فى مشرق العالم العربى ومغربه ، وتلك المشاركة والاخذ والرد الذى كان يجرى حولها ،

فى عصر لم تكن فيه الصحف أو المجلات أو الاذاعات والطائرات والمطبعة ، كما هو الشأن اليوم ، ومع ذلك فاننا قلما نشهد مثل تلك المشاهد المنعشة ، والتى طورت الادب والشعر ، مع أننا فى زمن يدعو فيه الداعون الى الوحدة ، ولن تكون هناك وحدة بدون وحدة فكرية ، وبدون ذلك الاتصال التلقائى ، لقد كانوا فيما سبق وعلى بعد المسافة ، وتباين الانظمة ، والصراع القوى فيما بينها متصلين متناقشين ، متجاذبين ، وكانت الكلمة و الكتاب والاديب والعالم ، يتنقل بين الاقطار العربية مشرقا ومغربا ، دون أن يقف أمامه أى حاجز ، اللهم الا فيما ندر ، والدليل على ذلك ، خزائن الكتب والمؤلفات التى كانت تروج تجارتها ونسخها بين المشرق والمغرب وبالعكس ، والعلماء الذين انتقلوا الى المشرق ، أو جاءوا اليه من المغرب ، فى عهود كان فيها الصراع السياسى والحزبى بين الانظمة المختلفة على أشده ، وهذا عبد الرحمن الداخل ، يشترى النسخة الاولى من « الاغانى » لابى الفرج الاصفهانى قبل أن تصدر فى بغداد .

ولنعد الى ابن الرومى والى تلك المساجلة ، وهى مفصلة فى كتب الادب العربى (2) .

يقول على بن العباس ابن الرومى يهجو الورد فى بيتيه الطائيين الشهيرين :

يامادح الورد لا تنفك عـــن غلط ألست تنظره فى كـــف ملتقطـــه
كأنـــه سرم بغـــل حين يخرجـــه عند البراز وباقى الروث فى وسطه

ويقول فى داليته التى أحرزت نفس الشهرة :

خجلت خدود الورد من تفضيلــه خجـــلا توردهـــا عليـــه شاهـــد
لـــم يخجل الورد المورد لونـــه الا وناحلـــه الفضيلـــة عانـــــد
للنرجس الفضل المبين اذا بـــدا بيـــن الرياض طريفـــه والتالـــد
هذى النجوم هى التـــى ربينهـــا بحيا السحاب كما يربـــى الوالـــد
فانظر الى الولدين من أدناهمـــا شبهـــا بوالـــده ، فذاك الماجـــد
أين الخدود من العيون نفاســـة ورياسة ، لولا القياس الفاســـد

وقام عبد الله بن المعتز يرد عليه فى أبيات شعرية يكسوهـــا شىء من المجون ، رغم نبل محتده ليلا يخرج عن المعنى السافل الذى طرقه ابن الرومى ، وهذه الابيات هى :

ياهاجى الورد لا حييت من رجل غلطت والمرء قد يؤتى على غلطه
هل تنبت الارض شيئا من أزاهرها اذا تحلت يحاكى الوشى فى نمطه
أحلى وأشهر من ورد لـــه أرج كأنما المسك مذرور على وسطـــه
كأنـــه خـــد حبـــى حين ملكنـــى حل السراويل بعد الطول من سخطه

كما انبرى لابن الرومى الوزير الكوفى ابن القاسم بن صبيح المعروف بالكاتب (3) الذى ولى ديوان الرسائل للمامون العباسى وهو صاحب البيت المشهور :

اذا ضاق صدر المرء عن سرنفسه   فصدر الذى يستودع السر أضيق

يقول ابن صبيح الكاتب مناقضا ابن الرومى فى مذهبه :

يامـــن يشبـــه نرجسا بنواظـــر   دعـــج ، تنـــبه ان فهمك راقـــد
ان القياس لمـــن يصح قياســـه   بيـــن العيـــون وبينه متباعـــد
والورد أصـــدق للخدود حكايـــة   فعلام تجحد فضلـــه ياجاحـــد
ملـــك قصيـــر عمـــره مستأهـــل   تخليـــده ، لو أن حيـــا خالـــد
ان قلت أن الورد فـــرد فى اسمه   مافى الملاح لـــه سمـــى واحـــد
فالشمس تنفرد باسمها والمشترى   والبدر يشرك فى اسمه وعطـــارد
أو قلت أن كواكبـــا ربينهـــــا   بحيا السحاب كما يربـــى الوالـــد
قلنا أحقهما بطبع أبيـــه فى الجـــــــدوى هو الزاكى النجيب الراشد
زهـــر النجوم تروقنـــا بضيائهـــا   ولهـــا منافـــع جمـــة وفوائـــد
وكذلك الـــورد الانيـــق يروقنـــا   ولـــه فضائـــل جمة وفوائـــد

وخليفه ان غـاب نـاب بنفعـه   وبنفحـه أبـدا مقيـم راكـد
ان كنـت تنكر ما ذكرنا بعدمـا   وضحت عليه دلائل وشواهـد
فانظر الـى المصفـر لونا منهمـا   وافطن فما يصفر الا الحاسـد

وانبـرى الاندلسيون بدورهـم للرد على ابن الرومى ، فقال بعضهم وقـد اخترنـا هذين البيتين علـى الخصوص ، لذكـاء الشاعـر الذى فطن للرد على فحش ابن الرومى بمعنى جميـل نزهه عـن الفحش ليقابـل بذلك المعنى نبله ورقته وعفته وقذارة وهجر قول ابن الرومى :

لعائب الورد قل : ما أنت من نمطـه   قد قلت هجرا فتب فى القول من غلطه
الورد خـد حبيـب حيـن تلثمـه   فيغتدى أثـر الاسنان فى وسطـه

وللشاعر أبى بكر بن القوطية من الاندلس رد مطـول علـى داليـة ابـن الرومى ، وهذا الـرد موصول بمدح المعتضد بـن عباد ، ونحن نقتصر هنا على الموضوع الذى يهمنا وهو الرد :

كسفت خدود النرجس المصفر مـن   حسد وقد يذوى العدو الحاسـد
واصفر حتى كاد أن تنقضى أسـى   لمـا راى الورد الـذى هـو وارد
هيهات للـورد الفضائـل كلهـا   وان ادعـى التكذيـب فيـه معاند

فصـل القضيـة ان هذا ممتـع فصـل الربيـع وكـل نور بائـد

يأتـى ونوار الربـى متزحـزح وكـذا الرئيس مـن المشابه واحـد

هـذا مقـر للسمـاء بفضلهـا فى ما غذتـه بـه وهـذا جاحـد

وتـرى تبـاين ذلـك فى وجهيهما باللون والنشر الذى هـو شاهـد

كم بين مصطنعين هـذا كافـر افضـال سيـده وهـذا حامـد

هـذا لـه خلـق العجوز وهـذه عـذراء فى حمـر المجاسد ناهـد

وكفـى افتخـارا أن هـذا نافق غضا ومبتـذلا وهـذا كاسـد

لـو لـم يكـن للورد الا أنـه يفنـى ويبقـى ماؤه المتعاهـد

ولـه منافـع لا تجمـل كثـرة ومرافـق مشكـورة وفـوائـد

والنرجس المصفـر ليـس بنافـع ميتا ولا فى الروض اذ هـو وافـد

هـذا عقيـم لا يشـاد بذكـره أبـدا وقـب الورد بـاق خالـد

أخـوان مغزوان لـم يتنازعـا شبهـا وبينهمـا اخـاء تالـد

هذا يبشـر بالحيـاة وذاك ينـذ ر بالممـات اذا أتـاه العائـد

أين الحياة من الممـات نفاسـة ورياسـة لولا القيـاس الفاسـد

وقام الشاعر الاندلسى أبو عثمان سعد بن فرج الجيانى ، فتتنن أيما تفنن فى قصيدة مطولة يسفه منطق ابن الرومى بمنطق فى مستوى عبقرية الشاعر العراقى ، فرد على قول ابن الرومى : (شتان بين اثنين هذا موعد الخ) بقوله :

ولن يكون الفضل فى حكم العلا ... الموعود عنه أو النديم الواعد

فجعل الورد لتأخره موعدا بانقضاء الربيع والبهار لتبكيره واعدا به .

ومن خلال سرد القصيدة يتبين للقارىء كيف قارع الشاعر الاندلسى الحجة بحجة أقوى ، والمنطق بمنطق اسلم قال :

عنى اليك فما القياس الفاسد ... الا الذى أدى العيان الشاهد
أزعمت أن الورد من تفضيله ... خجل وناحله الفضيلة عاند
ان كان يستحيى لفضل جماله ... فحياؤه فيه جمال زائد
والنرجس المصفر أعظم ريبة ... من أن يحول عليه لون واحد
لبس البياض لصفرة فى وجهه ... صفة كما وصف الحزين الفاقد
والآن فاسمع للبراهين التى ... قطعت فليس يحيد عنها حائد
الورد تيجان الربيع فأيما ... اختار الفخار متوج أو ساجد
ولمن يكون الفضل فى حكم العلا ... الموعود عنه او النديم الواعد

مهلا فمــا هــو بالتقــدم قائـــد كـــلا ولا ذا بالتأخـــر طـــارد

وانظر اذا اعتدل الزمـان وغنـت الاطيـار فهـو لشجوهن مساعـد

موف علـى الغصن النضير كـأنه فى منبـر بيـن الحدائق قاعـد

والنرجس المنحـط امـا راكـع ذلا الى عقر الثـرى أو ساجـد

وجعلـت للاسمـاء حظـا زائـدا مهلا فمـا هـذا سبيـل قاصـد

اسـم الذى فضلـت ان فنتشتـه وخرمـت أولـه فرجس راكـد

والـورد كيـف خرمتـه وخبنتـه ود تــود بـه ورد عائـد

ودع البقاء فما ترى مـن جملـة الا وأفضلهـا يكـون البائـد

يفنـى خيـار الخلـق فى الدنيـا وما شىء سـوى ابليس فيهـا خالد

والضد كـل الضـد قولك انـه ينهى النديـم بلحظـه ويساعـد

فأعرتـه عيـن الرقيب فللعمـى والسمل طـرف للاحبـة راصـد

واذا فخرت على الخدود بمقلـة يرقانهـا بـاد فأصلـك فاسـد

ولـو أن فعـلا للكواكب فى الثرى ربـى الرياض كمـا يربـى الوالد

وتنـازع النـوار شبـه صفاتهـا مـا كـان غير الورد فيهـا الماجـد

الـورد وقـاد التوقـد ناضـر والنجـم نارى مضـىء واقـد

ولخص الشاعر الصنوبرى هذه المساجلات وهـذا الجدال ، بأبيات لطيفة تشير الـى هذه المعركة الشعرية ، وهذه الحـرب بين الورد والنرجس ، فقال فى حوار بين هذبن الزهرتين التى تنتمى احداهما الى الخدود والاخرى الى العيون :

زعـم الـورد أنـه هـو أبهـى ... مـن جميـع الانوار والريحـان
فأجابتـه أعيـن النرجـس الغض ... بـذل مـن قـولهـا وهـوان
أيمـا أحسن : التورد أم مقلـة ... ريـم مريضـة الاجفـان
أم فمـاذا يرجـو بحمرتـه الورد ... اذا لـم تكـن لـه عيـنـان ؟
فزهـا الـورد ثـم قـال مجيبا ... بقيـاس مستحسـن وبيـان
ان ورد الخـدود أحسـن مـن ... عـين بهـا صـفرة من اليرقـان

وقال العسكرى مشيرا الى نفس المعنـى فى بيتين لطيفيـن فيهما تلاعب لفظى بين المثول والقعود :

أفضـل الـورد علـى النرجس ... لا أجعـل الانجـم كالاشمـس
ليس الـذى يقعد فـى مجلس ... مثـل الـذى يمثـل فى المجلـس

وقـد أكثر الشعراء شرقـا وغربا فى الخوض فى هـذا الجدال ، وهذه المعركة الكلامية حتـى أصبح هذا النوع مـن

الادب فى درجة الابتذال لا يتجاوز ان يكـون تلاعبـا بالالفاظ واظهارا للمهارة البيانية فقـط ، ومن الغريب أن يدخل فى هـذا اللعب اللفظى ، أبو جعفر ابن الابار نفسه ، فقـال فى تصحيفه للفظتى : ورد ، ونرجس .

الــــورد أحـــســـن ورد   يروى بـــه لحـــظ عيـــن

ونــرجس الـــروض مــهــمـا   صحفتـــه بــــرح بيـــن

وقال نفس الشاعر فى تصحيف آخر لكلمة نرجس :

طلـــع النرجـــس فى أكذانـــــه   قائـــلا للورد قـــد برحـــت بـــى

لم تزل تورث جسمـــى سقمـــا   مبكيـــا عينـــى بدمـــع الحـــبـــب

كيــــف خلطـــت وغلبـــت علـــى   سيــــد الانــــوار ياللعجـــب

انما اسمــــى تحـــت شكواى فلا   توقعونـــى تحـــت ريـــب الريـــب

أنـــا لـــولا طمعـــى أن نلتقـــى   مـــا أقلتنـــى حينـــا قضبـــى

وانبرى لابن الرومى الشيخ أبو عبد الله بن مسعود فـــى القصيدة التاليـــة يفضل فيها الورد على البهار ، فيهـــا تصحيـــف آخر لكلمة نرجس (برحبيب ، ببيت خرب)

ولا بـــس ثـــوب الضنـــــى		مـــن حســـد قـــد اكتـــأب،

كـــأنمـــا أحـــداثـــه		أقـــداح تبـــر منتـخـــب

مـــن الحيـــا مترعـــة		أجـــل مـشـــروب شـــرب

يسعـــى بهـــا محتسبـــا		بـــلا أذى ولا نـــصـــب

ســاق علـى ســاق لــه		تزهـــى بمخضـر قـصـب

زبـــر جـــد مبتهـــج		يـــكـــاد لينـــا ينـقـضـب

اذا الصبـــا عنـــت لـــه		ومـــاس عـــن ثقـــل الحـبـب

صـبـــا لبعـــض بعـــضـــه		فـيـلـتـقـــى ويـصـطـحـب

يــقــول للـــورد أنـــا		بـــر حبـيـب يقـــتـــرب

قـــال لـــه الـــورد لقـــد		أخطـأت يامـــن لـــم يصـب

أنـــت اذا مـــا صحفـــوا		وأنـــصفـــوا بـيـــت خـــرب،

أنـــا الـــذى لـم أختلـــق		مـــا قلتـــه ولـــم أحـــب

أشبـــه شـــىء بالـــخـــدو		د الزهـــر ريعـــت مـــن كـثـب

وآنـــت عيـــن دهـــرهـــا		فـــى مثـــل دهـــر قـــد كلـــب

فـــانـشـعـبـت أســـرابـــه		خـــوفـــا بـــدمـــع منـسـيـرب

وأصفر من هم كما يفعل مخضوم غلب

الفضل للورد وان أبى على وحرب

طيب وطب وشذا ومنظر ينفى الكرب

سلطان الانوار على رغم الغبى المضطرب

ووجد لابن الرومى أنصار من بينهم أبو الفرج الببغا عبد الرحمن بن نصر بن محمد المخزومى ، وهو شاعر مشهور وكاتب مترسل اتصل بسيف الدولة ، وله ديوان شعر ، مشهور فى كتب الادب بلقب الببغا للثغة فيه ، كان يكتب النثر الى جانب الشعر (مات سنة 398 هـ — 1008 م) ، قال فى تفضيل النرجس على الورد :

كأنما تهدى التحايا به لطفا الى الارواح ارواحا

يلهى عن الورد اذا مارنا ويخلف المسك اذا فاحا

وقد استعمل الادباء والبلغاء تفضيل الورد على الآس والنرجس أو تفضيل هاتين الزهرتين على الورد فى أدبهم وقصائدهم لاغراض خاصة بهم للبرهان مثلا على أن الآس يدوم عهده والورد لا يدوم له عهد .

فاشتكى عبد الرحمن بن زيدون وهو فى سجنه فى سينيته الشهيرة صائحا :

لا يكن عهدك وردا ... ان عهدى لك آس

وكتب أبو دلف العجلى وهو أحد الامراء الشعراء (1) الى عبد الله بن طاهر

أرد ودكم كالورد ليس بدائم ... ولا خير فيمن لا يدوم له عهد

وحبى لكم كالآس حسناء ونضرة ... له زهرة تبقى اذا فنى الورد

فأجابه ابن طاهر :

وشبهت ودى الورد وهو شبيهه ... وهل زهرة الا وسيدها الورد

وودك كالآس المرير مذاقه ... وليس له فى الطيب قبل ولا بعد

وتبع الجمهور هذه المساجلات ، وهذا الجدال اللفظى والمعنوى ، فكان أنصار الورد يستعملونه فى رسائلهم لاحبائهم ليبرهنوا لهم على محبتهم ، وانصار الآس والنرجس يخبرون أحباءهم بأن حبهم له دائم كالآس ، وكثر استعمال التصحيف لدرجة الابتذال ، حتى فى صفوف شعراء من الطبقة الاولى ، كالعباس بن الاحنف الذى أشاد به البحترى ، والذى رغم شاعريته لم يمدح ولم يهج ولم ينتجع قط بشعره . قال :

أبغض الآس والخلاف جميعا لمكان الخلاف واليأس منها
وأحب التفاح والورد بحتى لو وزنتيه بالجبال وزنها
أشبها ريقها ونكهة فيها فهما ينبئان بالطيب عنها

وفى هذا المعنى ايضا قال أحدهم :

أهدت اليه بنفسجا تسليه تنبيه أن بنفسها تفديه

وقال آخر :

ولخص هذا التطاحن بين الزهور الشاعر الفذ أبو نواس فى معنى مبتكر لم يجوز مثله لاحد بعده

ياعاذلى بملام مر باليأس
فلسلت أقلع عن ريحانة الكاس
تباعد العذل عن قلبى على ثقة
كما تباعد بين الورد والآس

ونحن لا نستطيع ، ولن نستطيع ، أن نأتى على هذا الموضوع فى كتاب ، وبالاحرى فى مقال واحد ، لوفرته وسعة مجاله فى الادب العربى فى عصر ازدهاره ، وقد ذكرنا جملة أخرى من هذه الحصيلة فى الباب الذى أفردناه له كتابنا الذى تفضلت « الدار التونسية للنشر » فعزمت على طبعه كما أن المقام

ضيق لسرد نماذج من الادب المنشور الذى ازدهر بدوره وتناول موضوع هذه المعركة بالذات فى رسائل من اشهرها رسالة ابن برد الاصغر وابى الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر الاندلسى وتاج الدين اليمانى وغيرهم ، تتناول كلها موضوع هذه المعركة فى حوار بين زهرتين ، أو ثلاث ، أو أربع ، أو خمس زهرات ، يكون النصر فيها حليف الوردة ، ملكة الزهور ، وتكتب فيها الازهار لملكتها هذه بيعة بذلك ، فى أسلوب فنى ، ينبغى على مدرسينا وأساتذتنا ، أن يقدموه لتلامذتهم كنماذج مختارة للنثر الفنى العربى .

ونختم مقالنا هذا ، ببعض الفقرات من مقالة ابن برد الاصغر ، صاحب رسالة السيف والقلم الشهيرة ، ومقالته هذه ، وصف فيها خمس زهرات فضل فيها الورد عليها فى كتاب الى أبى الوليد بن جهور .

أما بعد ياسيدى ومن أفديه بنفسى ، فانه ذكر بعض أهل الادب المتقدمين فيه وذوى الظرف المعتنين بملح معانيه أن صنوفا من الرياحين وأجناسا من أنوار البساتين جمعها فى بعض الازمنة خاطر خطر بنفوسها وهاجس هجس فى ضمائرها لم يكن لها بد من التفاوض فيه ، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف ،

وأجمعت علـــى أن ما ثبت فى ذلك من العهد ونفذ من الحلــف ماض على من غاب شخصه ولم يأن منها وقته .

فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة وأخصبها نجعـــة ، وأظلهـــا شجرا ، واغضرها زهرا ؛ وأعطرها نفس ريح وأرقها دمع ندا .

ثم أخذت مجالسها وانبرت على مراتبها وقام قائمها فقال :

يامعشر الشجر وعامة الزهر ، ان اللطيف الخبير الذى خلق المخلوقات وذرأ البريات باين بين أشكالها وصفاتها وبـــاعد بين منحهـــا وأعطياتها ، فجعل عبدا وملكا وخلـــق قبيحا وحسنـــا ، فضل علـــى بعض بعضا حتى اعتدل بعد له الكل واتســـق علـــى لطف قدرته الجميع ، وأن لكل واحد منا جمالا فـــى صورته ورقة فى محاسنه واعتدالا فى قده وعبقا فى نسيمه ومائيةفى ديباجيته ، وقـــد عطفت علينا الاعين وثنت الينا الانفس وأصبت بنا الاكف وأزهـــت بمحضرنا المجالس حتى سفرنا بين الاحبة ووصلنـــــا أسباب القلوب وتحملنا لطائف الرسائل وحببنا اللهو واحتضنـــا السرور وأخذنا جعالة البشرى وأكرمنا بنزل الرفادة وأسنيت لنا صلة الزيادة وصيغ فينا القريض وركبت على محاسننـــا الاعاريض فطمع بنا العجب وازدهانا الكبر وحملنا تفضيل من فضلنا وايثار مـــن آثرنا على أن نسينا الفكرة فى أمرنـــا والتمهيـــد لعواقبنـــا والتطييب لاخبارنا وادعينا الفضل بأسره والكمال بأجمعـــه ولـــم

نعلم أن فينا من له المزية علينا ومن هو أولى بالرياسة منا ومـــن يجب له علينا التحرج ومد اليد بالمبايعة واعطاء مجهود المحبـــة وبذل ذات النفس وهو الورد الذى أن بذلنا الانصاف من أنفسنا ولم نرتكض فى بحر عملنا ولم نملمع نزع هو انا دنا له ودعونا له واعترفنا بفضله وقلنا برياسته واعتقدنا امرته وأصفينا محبته ، فمن لقيه منا حياه بالملك ووفاه حق الامامة ومن لم يدرك زمـــن سلطانه ولـــم يأت على عدان دولته اعتقد ما عقد عليه ولبى الـــى ما دعى اليه ، فهو الاكرم حسبا والاشرف زمنا والاتـــم خصـــالا والذى ان فقدت عينه لم يفقد أثره أو غاب شخصه لم يغب عرفه والطيب اليه كله محتاج وهو عن جميعه مستغن وهو أحمر والحمرة لون الدم والدم صديق الروح وصيغة الحياة وهو كالياقوت المنضد فى أطباق الزبرجد عليها فرائد العسجد .

وأما الاشعار فبحاسنه حسنت وباعتدال جماله وزنت ، واننا ما نعتقد الهامنا الى هذه المحمدة واستنظافنا مـــن دنس تلـــك المذمة الا من أجل النعم المقسومة لنا والايادى المتصلة بنا .

وكان ممن حضر هذا المجلس وشهد هـــذا المشهـــد مـــــن مشاهيـــر الازهار ورؤساء الانوار النرجس الاصفر والبنفســـج والبهـــار والخيرى النمـــــام .

فقال النرجس الاصفر : والذى مهد لى حجر الثرى وارضعنى ثدى الحياة لقد جئت بها أوضح من لبه الصباح وأستطع من لسان المصباح ، ولقــد كنت أسر من التعبد له والشغف به والاســف على تعاقب الموت والرجعة دون لقائه ما أنحل جسمى ومكن سقمى واذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد حق ثقل البلوى .

ثم قام البنفسج فقال : على الخبير سقطت أنا والله المتعبــد لـــه الداعى اليه المسغوف به كلفا ، المغضوض بيد النأى عنـــه أسفا ، وكفى ما بوجهى من ندب وبجسمى من عدم نهوض ولكن فــى التأسى بك أنس وفى الاستواء معك وجدان سلو .

ثم قام البهار فقال : (خفيف)

ثــم قالوا تحبهـــا ، قلــت بهــرا عــدد النجــم والحصى والتــراب

ــ عمر بن أبى ربيعة ــ

لا تنظرن الى غضارة منبتى ونضارة ورقى وانظر الى وقد صرت حدقة باهتة تشير اليــه وعينــا شاخصة تنــدى بكـــاء عليه : (وافــر)

ولــولا كثــرة الباكيــن حولـــى علـــى اخوانهم لقتلــت نفســـى

ــ الخنســاء ــ

ثم قام الخيرى النمام فقال : والذى أعطاه الفضل دونى، ومد له بالبيعة يمنى ، ما اجترأت قط اجلالا له واستحياء منه ، على أن أتنفس نهاوا أو أساعد فى لذة صديقا أو جارا ، فذلك جعلت الليل سترا واتخذت جوانحه كنا .

فلما رأت استواء آرائها على التفضيل له واعتدال مذاهبها فى الدعاء اليه قلت : ان لنا أصحابا وأشكالا وأترابا لا نلتقى بها فى زمن ، ولا نجاورها فى وطن ، فهلم فلنكتب بذلك كتابا ولنعقد به حلفا ولنضع من شهادتنا ما يحتمل الاقاصى والادانى عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر وضروب الزهر وسيمها وشتويها وربيعيها وقيظيها حيث ما نجمت من تلعة أو ربوة ، وتفتحت من قرارة أو حديقة عندما راجعت من بصائرها ، وألهمت من رشادها ، واعترفت بما سلف من هفواتها ، وأعطت للورد قيادها وملكته أمرها وأخلصت له محبتها وعرفنا أنه أميرها المقدم بخصاله والمؤمر بسوابقه عليها واعتقدت له السمع والطاعة والتزمت له الرق والعبودية وبرئت من كل نور نازعته نفسه المباهاة والانتزاء عليه فى كل وطن ومع كل زمن فأية زهرة قص عليها لسان الايام هذا الحلف فلتعرف أن رشادها فيه وقوام أمرها به

ولتحمد الله كثيرا على ما هداها اليـه واستنـقذها من الضلال بتبصرته لو تشهده على اعتقادها والله على الجميع .

شهادة النرجس : (رمـل)

شهـد النرجس واللـه يـرى صحة النيـات منهـا والمرض
ان للـورد عليـه بـيـعــة أكدت عقدا فمـا ان تنتقـض

شهادة البنـفسج : (كامـل)

شـهـد البنـفسـج أنــه للـورد عـبـد تـمـلـك
يسـعى بـقـلـب نـاصـح فى حـبـه مـسـتـهـلـك

شهادة البهـار : (كامل)

شهد البهار وذو الجلالة عالـم بصحيح ما يبدى وما يخفيـه
أن الامارة فى الأزاهر كلهـا للورد لا يؤتى لـه بشبـيـه

شهادة الخيرى النمام : (رمـل)

شهـد الخيرى بـرا صادقـا قـولـة أبعـد عنهـا الـدرك
أن أزهـار الثـرى أجمعـهـا أعبـد والـورد فيـهـا ملـك

هذا يا سيدى ما انتهى فى المعنى الى ، ففضلك فى تصفحه والتجاوز عما وقع من زلل فى نقله فأنت السابق الذى نجرى فى غباره ونهتدى بمنـــاره ولولا علمى بموقع هذه الملح منـــك لـــم أجشمك مؤنة النظر فى ما كتبت منها لك ان شاء الله .

الربـــاط **مصطفى القصرى**

---

(1) انظر محاضرات الادب ، قصة الحائك والمامون العباسي وكتاب الديارات للشابستي ، ونشوار المحاضرة للقاضي التنوخي ، والبديع فى وصف الربيع للحميدي ، وكتاب الاغاني ، ونفح الطيب ، وزهر الآداب ، والموشى ، ونهاية الادب وغير ذلك من كتب الادب الصفـراء .

(2) راجع على الخصوص كتاب البديـع فى وصف الربيـــع .

(3) مـــات سنـــة 213 هـ .

(4) قلده الرشيد العباسي اعمال الجبل ، ثم اصبح من قـادة جيـــش المامون واخبـاره متواترة فى كتب الادب وكان من العلماء بصناعة الغنـاء ، يقـــول الشعـر ويلحنـه وتوفـي ببغـداد سنـة 226 .

(5) أمير خراسان من اشهر الولاة فى العصر العباسي كان عالما وكريما شهما ، اعتمد عليه المامـــون .

وامعتصماه !

علي الصقلي

علمنا ان الشاعر الاستاذ علي الصقلي يعد للنشر قريبا مجموعة شعرية من طراز الشعر التعليمي ، ابتداء من القسم التحضيري الى الاقسام الثانوية العليا.
ولعل من نافلة القول الاشارة الى ان هذا اللون من الشعر تفتقده المكتبة العربية افتقادا يشعر بحدة بالفراغ الملحوظ في ميدانه ، مع ما يحققه من فوائد تربوية وادبية شتى بالنسبة للتلميذ، وما فيه من اثراء له فكريا ولغويا.
ومن بين ما اعده الاستاذ الصقلي في هذا الصدد قصص متنوعة ، بعضها من ابتداعه ، والبعض الآخر مما ترجمه بتصرف ، او مما اختاره من قصصنا التاريخي المليء بالمواقف البطولية الخالدة ، علما بانه قدم هذه القصص في اطار جديد ، واعطاها ابعادا غير ما تعارف لها من قبل .
و « المناهل » ستوالي احيانا نشر مختارات من مجموعة الاستاذ الصقلي كنماذج لمختلف الصفوف الدراسية .
وفيما يلي قصيدة بعنوان « وامعتصماه ! » احيى فيها الشاعر قصة العلج الذي انتهك حرمة امراة مسلمة فلطمها على خدها ، فلما صرخت مستنجدة : وامعتصماه ! ـ وكانت بعمورية ، بعيدة عن بغداد موطن المعتصم ـ سخر منها لاطمها ، وعدا الامر ضربا من الخيال ، الا انه خيال عرف طريقه الى الواقع فيما بعد ، فقد فتح المعتصم عمورية رغم تثبيط المنجمين له ، وانتقم لكرامة من استغاثت به الى آخر القصة المعروفة . ونشير الى ان جميع الحقوق محفوظة للشاعر .

أى جـرم ذلـك الـعـلـج أتـاه !

فرقـى قلب العلـى فيـمـا رمـاه

وانثـنـى يصـعـر زهـوا خـده

ويـعـاف الارض ممشى لخـطـاه

آمـنـا مـكـر السمـاوات العلـى

لو تـراه خلـت فرعـون أبـاه !

واذا مـال لـتـحـت طـرفـه

جاذبـتـه للـثـريـا كبـريـاه ! !

كاسـر كـالـوحش ! لـولا أنـه

ظـالـم ، بـل سـادر فى غـلـواه

سلـه مـاذا بـحـصـان عـفـة

صنعتـه يـده ، شـلـت يـداه !

فـاذا الطهـر عـلـى معـولـه

تـتـهـاوى فى لـحـيـظـات ذراه

واذا العفة حيرى فى طريق

تائه الخطوة قد ضاعت صواه

آه منه حرما منتهكا

عز أن يغدو كذا لولا الشفاه

يالعمورية الشهباء كلمى

جرحها تنزف كالمزن دماه

قيل : اغضت عن قذاها ، أو يغضى

مثلها ، ان سيم خسفاء عن قذاه ؟

أو ما ثار على أرباضها

ثائر يجأر : وامعتصماه !

فاستشاطت اختها بغداد من

غضب مضطرم شبت لظاه

وانتضت غضبا تعالى أن ترى

اعين العلياء فى الروع اخاه !

يا دعاء جائعا من حرة

لم يرم يلتقم الظلم صداه

مذ مشى الحق على آثاره

قدرا لا ينثنى دون مداه

هادرا كالرعد فى اعواله

ثائرا كالموج يمضى فى رغاه

نحو دار العلج لا يردعه

ما رواه النجم افكا وادعاه

يا صباح العز آذن بالسنى

تتساقى خمره تلك الجباه

كن لها طهرا ، فكم دنسها

وحل الذل ، وغاصت فى ثراه

وسل العلج عن المظلوم ، عن

صرخة ما فتئت تملأ فاه

صرخة زحزحت الظلم فأمسى

في يد المظلوم مملوكا فتاه

والذي يصنع قيدا ظالما

تحتذي القيد جحيما قدماه

علي الصقلي

الحلزون*

دب الحلزون

فوق حجارة

من أين أتى

يحمل داره ؟

في قبتها

لذ قراره

الرباط علي الصقلي

* انشودة للاطفال .

أبو الوليد ابن زيدون
وذكراه الألفية
394 - 1394 هـ

حبيبة البورقادية

قليل هم الصفوة الادباء الذين كتب لهم الخلود ، وظل ادبهم شامخا على مر العصور متخطيا عصره ومكانه ، آخذا باعجاب الاصدقاء والاعداء .

وابن زيدون الشاعر القرطبي من القلة الذين ظلوا أعلاما بارزين على كر الاجيال . فقد سجل فيما وصل الينا من انتاجه الشعري والنثري مواقف خالدة ، واحاسيس انسانية تنبض بالحياة .

فجر الحب في نفسه ينابيع من الشعور الفياض ، انسابت في غرامياته ، فجاءت من أروع ما صاغه المحبون من فرحة واكتئاب ووفاء وحنين ولوعة وحرقة .

ودفعه حبه لوطنه ، وتعلقه بمرابعه الفيحاء ، وحنينه الى قرطبة بالذات الى تسجيل ذكريات لاعجة ، وحنين ممض ، وشوق فياض ، فى تصوير صادق وتعلق مخلص صبه فى التشطير التالي :

اقرطبة الغراء هل فيك مطمع وهل كبد حرى لبينك تنقع

وهل للياليـــك الحميـــدة مرجـــع

أليس عجيبا أن تشط النوى بك كأني لم انش نفح جنابك

ولم يلتئـــم شعبـــي خـــلال شعابـــك

ولـــم يك خلقـــي بـــدؤه من ترابـــك

ولـــم يكتنفنـــي من نواحيـــك منشـــا

امتزج بدم ابن زيدون الم ممض ، وعاطفة متقدة فتهيأ له اكبـــر عنصر من عناصر الشعر وظهر اثر ذلك فى كل خاطرة من خواطره وجعله فى حبه ، وسجنه انسانا يتحدث عن آلام الانسانية ، ويصورها حتـــى يراها كل محب أو سجين أو معذب صورة صادقة لما فى نفســه وكأني به ليثا يزأر من ذل القيد وتنبعث من شعره نبرات الاسى الممزوج بالانفـة والعـــزة .

اذا ما كتـــاب الوجـــد اشكـــل سطـــره

فمن زفرتي شكل ، ومن عبرتـــي نقـــط

الا هـــل أتى الفتيـــان ، أن فتاهـــم

فريسة من يعدو ، ونزهة من يسطـــــو ،

وان الجواد الفائت الشـــأو صافـــــن ،

تخونه شكـــل ، وازرى بـــه ربـــط

هذه المعاناة التي سكبها فى شعره ، معبـــرا عمـــا كان يعيشـــه من أحداث لا يمارسها الا من ساهموا فى بناء الحياة ولعبوا أدوارا مهمة فى مسرحها اخذوا واعطوا ، فلم يكونوا قط سلبيين ، ولم يعيشوا على الهامش منذ زهرة الشباب .

فمن خلال انتاج ابن زيدون تتجلى صورة الشاب الطموح ، العالم ، الشاعر المرهف الاحساس ، الرقيق الشعور ، الذي عرف المعانـــاة ، وصـــارع الحيـــاة .

من يسأل الناس عن حالي فشاهدهـــــا ،
محض العيان ، الذي يغني عن الخبـــــر
لم تطـــو برد شبابـــي كبـــــرة ، وأرى
برق المشيب اعتلى فى عارض الشعـــــر
قبل الثلاثين ، اذ عهد الصبا كثـــــب ،
وللشبيبـــة غصـــن غيـــر مهتصـــــر
يا للرزايـــا لقـــد شافهـــت منهلهـــــا
غمرا ، فما أشرب المكـــروه بالغمـــــر
ها انها لوعـــة فى الصـــدر ، قادحـــــة
نار الاسى ، ومشيبـــي طائر الشـــــرر

ان صدق العاطفة لدى ابن زيدون وتعبيره عن أحاسيس النـــاس المشتركة ، والتفاته الى الطبيعة وتجاوبه معها مضفيا عليها من روحـــه حركة وحياة ، رفعه تارة الى مستوى الحكمـــاء والفلاسفـــة متجـــاوزا الزمان والمكان ، وتارة الى مستوى المحبين الذين توقد الذكـــرى فى حشاشاتهم الحرقة واللوعة :

اذكرتني سالف العيش الـذي طابـا
يا ليت غائب ذاك العهـد قـد آبـا

اذ نحن في روضة للوصـل ، نعمهـا
من السـرور غمـام فوقـه صابـا

اني لاعجـب من شـوق يطاولنـي
فكلما قيل فيه : قد قضـى ، ثـابـا

ما توبتـي بنصـوح من محبتكـم ،
لا عـذب اللـه الا عاشقـا تـابـا

كثيرهم الشعراء الذين طرقوا من الغزل ابوابا ، وخلا شعرهم من الاحساس والشعور . هذا العنصر الهام الذي طبع شعر ابن زيـدون بطابع الصدق والعمق ، فالمتصفح لتراث ابن زيدون تتمثل له من خلاله شخصيته المتميزة ، ويلمس استقلالها ، فملامحه أكثـر وضوحـا ، وسماته أكثر بروزا ، وتفننه الفريد في استعمال الالفاظ والاساليـب والمعاني ، وما يتخلل ذلك من علامات نفسية اكثر شفافية .

اذ الشاعر الحق هو الذي يطالعك في كل كلمة من كلماته ، وبيت من ابياته وقصيدة من قصائده ، فنا ، وروحا ، ونفسا ، وكأنك جالس اليه تحفظ ملامح وجهه ، وتسبر خلجات نفسه المعتزة الابية التي تتأبى الهوان ، وتتسامى الى منادمة النجوم ، في ثقة وكبرياء ، واعتزاز صارخ في وجه الخطوب .

أنا السيف لا ينبو مـع الهـز غربـه
اذا ما نبا السيف الذي تطبـع الهنـد

* * *

أما الهوان فصنت عنه صفحة
أغشى بها حد الزمان الشارع

فليرغم الحظ المولى ، انه
ولي فلم أتبعه خطوة تابع

ان الغنى لهو القناعة ، لا الذي
يشتف نطفة ماء وجه القانع

* * *

خصني بالأدب الله فأعلى فيه شاني
خاطري انفذ ، مهما قيس ، من حد السنان

وناهيك باديب وشاعر يقول عنه ابن بسام في الذخيرة :

« كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد من خبر الايام خبرا ، وفاق الانام طرا ، وصرف السلطان نفعا وضرا، ووسع البيان نظما ونثرا ، الى ادب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الالفاظ والمعاني » .

ان شخصية تقتعد أعلى المراتب أدبا وعلما . وتوافرت لها امكانيات تضاهي ما توافر لابن زيدون لجديرة بأن تعطي حقها من البحث والدراسة ويلتف حولها الادباء والشعراء من الشرق والغرب يقيمون الذكرى الالفية لميلادها ، ويخلدون هذه الذكرى بأحرف من نور ، مضيفين الى سجل الادب الانساني سجلا حافلا يعزز دولة الشعر والادب ، وواضعين لبنات متألقة في صرح الادب العربي الشامخ .

وان اقامة مثل هذه المظاهرات الادبية يحضرها خيرة الادباء والشعراء من الشرق والغرب لبادرة طيبة ، تضع مغربنا كرائد من رواد

الثقافة العربية فى موضعه الحقيقي . وناهيك بشعب حفظ من تـــراث الاندلس الشيء الكثير واضفى عليه من ذهنيته وجهاده العلمي والادبي واضاف اليه صفحات غرا ما زالت حتى يوم الناس هذا موئل الدارسين وقبلـــة الباحثيـــن .

ولم يكن التواصل فى هذه الحقبة من تاريخ الاندلس بين المغاربة والاندلسيين ثقافيا فقط بل سياسيا ايضا ، فأبو بكر ابن زيدون والوزير من بعد ابيه ـ الذي انتقم له من ابن عمار منافسه فى دولة بني عباد ـ تولى السفارة عن ابن عباد الى يوسف بن تاشفين المرابطي طلبا للنجدة من ملك الاسبان ، وسقط شهيد الدفاع عن حوزة الاسلام بقرطبة الفيحاء مرتع الآباء والاجداد ومهد الحضارة التي ما زالت تتحدى التاريخ الى الان .

ان عبقريا كابن زيدون ووزيرا ذي الثمانية والعشرين ربيعا اكتنفت حياته أنواع شتى من الاحداث ، واحاطت بها كثير من التساؤلات ، بغية استجلاء الخفى واستكناه الغامض ، لجدير بأن تتناول الاقلام من جديد حياته وتاريخها بالتحقيق والتمحيص والتعليل والتحليل خدمة لحقبة من تاريخنا الحافل ما زال يكتنفها الغموض ، ولم ينل تراثها الادبى الحـــظ الاوفر من الدراسة والبحث .

الربـــاط **حبيبة البورقادية**

حلم بالصحراء

أبو بكر اللمتوني

الحب و السحر
والحجل و الخدر
والصمغ و العطر
والطلح و السدر
حلم يوافينا
مناغيا فينا

الشوق والذكرى
لأمنا الصحرا

* * *

الشمس كالجمر
فى ساعة الجزر
تنصب كالخمر
قطرا على قطر
فى رائق بحت
من عاتق الصمت
تعود بالذكرى
لأمنا الصحرا

* * *

والرقى والفال
والوشم والخال
والغول والجن
والسعد واليمن
مشارب تسرى
فى القلب والصدر
من يوم أن كنا

أغرة لدنا

نلهو عن الفطم

بسامر الأم

فننشق العطرا

من قصة الصحرا

* * *

من يوم أن كنت

طفلا وأيفعت

لم ينتقل عنى

أو ينفصل منى

أو يجل عن وهمى

أو ينأ عن حلمى

النوق والخيل

والظبى والوعل

والآل والرمل

والطيب والكحل

وكل ما يغرى

بالموطن البكر

برحمنـــــا الحـــــرى
بأمنـــــا الصحـــــرا

* * *

والـــعـــيـــد مـــا أحلـــى
صـــبـــاحـــه الـــطـــلا
نمشـــى مـــع القـــوم
فـــى موكـــب فخـــم
نستـــغفـــر الذنبـــا
نمجـــد الربـــا
نمضـــى الـــى البيـــد
لسبحـــة العيـــد
نحنـــو علـــى التـــرب
الطاهـــر العـــذب
فننتشـــى العطـــرا
ونذكـــر الصحـــرا
منـــازل الفضـــل
وموطـــىء الرســـل
ومهبـــط الوحـــى
الوابـــل الـــرى

وموكـــب النصـــر
فـــى البـــر والبحـــر
كـــأنـــه فجـــر
طفـــا بـــه الدهـــر
فـــى شاطىء غـــم
بالـــرق والظلـــم
فكســـر القيـــد
وحـــرر العبـــد
ولاح فـــى الأفـــق
قوافـــل الـــرق
تخـــر للحـــق
تتيـــه بالعتـــق

* * *

أنعـــم بـــه فجـــرا
فاضـــت بـــه الصحـــرا
لـــم تشهـــد الدنيـــا
كمثلـــه فجـــرا

طنجة : أبو بكر اللمتونى

الكناشات المغربية
ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية

محمد المنوني

تاتي النصوص المكتوبة فى طليعة المصادر التاريخية ، وقد تداول الباحثون منها المؤلفات ، والوثائق ، والكتابات ، والنقوش الاثرية ، وما الى ذلــــك .

وتحاول هذه الدراسة ان تبرز اهمية نوع خاص من المخطوطات ، وهي المجموعات التي يسجل فيها المعتنون مختـــارات ما يقـــرءون أو يسمعون ، واحيانا يضيفون لذلك انتاجاتهم ومشاهداتهم وما جـــرى مجـــرى ذلـــك .

وهذا اللون من التقييد لم تختص به ناحية دون أخرى ، وانما كان شائعا بالمغرب ، كما هو منتشر لدى المشارقة (1) ، غيـــر ان هؤلاء

يخصون – فى الغالب – هذه المقيدات باسم (التذكرة) : وهو واقع (تذكرة ابن حمدون) ، و (تذكرة ابن مكتوم) ، و (تذكرة الصفدي) ، و (تذكرة ابن مبارك شاه) ، وسواها وسواهـا (2) ، الى (التذكرة التيمورية) المنشورة حديثا .

وبالنسبة الى المغرب تتميز هذه المقيدات باسم « الكناشة (3) » ، ومن الجدير بالذكر أن هذه التسمية صارت مغربية صميمة ، يشير لهذه الحقيقة ما ورد عند شارح القاموس (4) حيث يقول أثناء كلام : « .. ومنه الكناشة : لاوراق تجعل كالدفتر ، تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط ؛ هكذا استعمله المغاربة ، واستعمله شيخنا : (محمد بن الطيب الشركي) » ، وبعد مرتضى الزبيدى المصرى ، يؤكد نفس الواقع . مستشرق من الغرب فى فقرة قصيرة هكذا : « والكناشة عند المغاربة مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد (5) » .

والظاهر أن الكناشة – بهذا العنوان – لم تستعمل بالاندلس ، حيث لا يوجد – لحد الان – نص معروف فى هذا الصدد ، وانما يذكر لسان الدين ابن الخطيب اسم الكناش بالتذكير ، للدلالة على موضوعين من مؤلفاته ، واولهما أرجوزته الالفية فى أصول الفقه ، وهي « الحلل المرقومة ، فى اللمع المنظومة » ، اما الثانى الذى يعطيه نفس الاسم : فهو رسالة « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة (6) » .

* * *

ولا يعرف – بالضبط – تاريخ ظهور هذه التسجيلات بالمغرب ، واقدم كناشة مذكورة كانت للجادري الفاسي : عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان المديوني ، المتوفى عام 818 هـ / 1415 – 16 م ، وقد استمرت هذه بقيد الوجود حتى النصف الاول من المائة الحادية عشرة هـ، حيث وقف عليها أبو حامد محمد العربي الفاسي وافاد منها فى بعض مؤلفاته(7) ، وكانت وفاته عام 1052 هـ / 1642 م .

وقد يكون الونشريسي وقف ـ قبل أبي حامد الفاسي ـ على نفس الكناشة ، حيث ينقل فى كتابه المعيار من خط الجادري (8) .

وبعد هذا : فمن المتوقع ان هذا النوع من المقيدات اخذ يشيع حوالي عصر الجادري ، على انه من المؤكد ان هذه التسمية بدأت تنتشر من الفترة الوطاسية ، وهكذا : سيستعمل اسم الكناش عنوانا للترجمة الذاتية التي يكتبها لنفسه أبو العباس أحمد زروق البرنسي ثم الفاسي ، المتوفى عام 899 هـ (9) / 1493 ـ 94 م .

وبعده ياتي عبد الواحد بن أحمد الونشريسي ثم الفاسي ، المتوفى عام 955 هـ / 1549 م ، وقد ورد التصريح بأنه خلف عدة من الكنانيش (10) .

ونذكر ـ الان ـ سقين : عبد الرحمان بن علي العاصمي ثم الفاسي . المتوفى عام 956 هـ / 1549 م . والغالب انه خلف كناشة او كناشات ، وهو ما قد تشير له فقرة تلميذه المنجور (11) عند ذكر أستاذه : « وقيد بخطه من الفوائد الحديثية وغيرها ـ أدبية وغيرها ـ ما لم يقيده أحد من معاصريه ، رايت كثيرا من ذلك بعد موته ، وعلى خطه رونق ، ويشكل ويضبط ما يحتاج اليه ، ويقرب من شيخه ابن غازي فى الضبط والاتقان لمقيداته » .

وسنستفيد من آخر هذه الفقرة ان ابن غازي ـ بدوره ـ كان ولوعا بالتقييد للمسائل العلمية (12) ، واسمه ـ كاملا ـ محمد بن أحمد ابن غازي العثماني المكناسي نزيل فاس ، وبها كانت وفاته عام 919 هـ / 1513 م .

* * *

ويعتبر العصر السعدي فترة انتظام ـ اكثر ـ لهذه المقيدات . وهكذا : فان المنجور يشير فى طالعة فهرسه (13) الى مجموعة

كنانيشه ، كما ان احمد بابا التنبكتي يصنف الكناشات من بين مصادر مؤلفة : نيل الابتهاج (14) ، مع العلم بأن اكثر مواد هذا الكتاب كانت مغربيـــة (15) .

ومن جهة اخرى : فان محمد بن احمد ميارة الفاسي يسجل في شرحه للمنظومة الزقاقية (16) هذه الفقرة :

« يوخذ من الناظم وغيره انه ينبغي للشاهد ان يكون له زمام يـ فيه الامور المهمة ، والوقائع الغريبة ، ووفيات الاعيان : من العلمـ والملوك ، وتبديل السكك الجارية بين الناس ، ونحو ذلك ، اذ كثيرا ما يحتاج لذلك لتاريخ ونحوه ، وهو كذلك ، وقد أخبرني بعض كبار عدول وقتنا أن من قبلهم كان له ذلك » .

وقد كانت وفاة هذا المؤلف عام 1072 هـ / 1662 م ، وفي نحو هذا التاريخ صار من مكملات ظرف الطالب أن يتوفر على كناشة لتسجيل الفوائد ، وهذا ما يندب له مؤلف « مختصر الافاريد (17) » ، وقد وقع الفراغ من تاليفه عام 1070 هـ / 1659 ـ 60 م .

وهكذا : نتبين من هذا العرض أن هذه المقيدات ستنتشر بالمغرب السعدي ، ويستعملها الطلاب ومعهم الشهود ، فضلا عن اوساط العلماء والادباء ، ونشير ـ بعد هذا ـ الى أن نفس العصر خلف نخبـــة مـــن المفيدين للفوائد والفرائد : في بطاقات متفرقة ، او بكناشات منتظمة ، ومن نماذجهـــم :

ـــ محمد بن قاسم القصار القيسي ثم الفاسي ، التموفى عـــام 1012 هـ / 1604 م ، وكان كثير التقييد في بطاقات ترك منها اعـــدادا وفيرة ، وصارت ـ بعد وفاته ـ تباع بالارطـــال (18) ، وفي تعبيـــر البعض (19) انها بيعت بوزنها ذهبا .

ـــ ويحتذي حذو القصار ـ في الاهتمام بالتقييد ـ نخبة مـــن طلابه : ابو زيد عبد الرحمان بن محمد الفاسي (20) ، وعلي بن قاســـم

البطوءي ثم الفاسي (21) ، وثالثهم ، أبو حامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي .

وكان لهذا الاخير – حسب الافراني (22) – من الاعتناء بتقييد شوارد الفوائد ما لم يكن لغيره ، حتى انه يكون راكبا فى السفر فيتذكر مسألة يبدو له فيهاجديد ، فيوقف فرسه حتى يسجل ما عن له فى الوقت ثم يتابع السير ، ويقول عنه اليوسي (23) : كان من دابه متى لقي انسانا يسأله فى أي بلد هو ، ومن فى بلده من أهل العلم والصلاح والاعيان ، ويقيد ذلك كله :

ومن المقيدين بالجنوب المغربي : أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الجزولي التمنارتي المعافري (24) ، ثم محمد بن سعيد الاخصاصي المرغيتي (25) المتوفى عام 1089 هـ / 1678 – 79 م ، بعد ما كان سابقه توفى من عام 1060 هـ / 1650 م .

* * *

والى هنا يصل بنا المطاف الى المغرب العلوي ، وقد عرف نفس العصر ثروة مهمة من هذه الكناشات ، وفى هذا الصدد نشير الى مدينة تطوان بالخصوص ، وبالضبط خلال النصف الاول من المائة الهجرية الثانية عشر ، حيث كان عبد الله شطير التطواني يدون كناشته : « نضار الاصيل » ، ويهمنا منها أن يسجل جامعها عن نخبة من رفقائه توفرهم – بدورهم – على مجموعات مماثلة ، وهو يعرض اسماء أصحاب الكناشات كالتالي : علي بن عبد السلام ابن ريسون ، والمامون افيلال ، واحمد غيلان ، واحمد بن احمد حجاج ، وابن ادريس ، وشهبون ، والعمارتي (26) .

وسوى هذه الظاهرة صار عدد من الاعلام فى الفترة ذاتها ، يخلف الواحد منهم أعدادا من هذه المجموعات ، وهذا هو واقع محمد بن أحمد التماق الفاسي ، المتوفى عام 1151 هـ / 1738 م ، ثم محمد بن أحمد

ابن محمد بن عبد القادر الفاسي ، ثم محمد التاودي ابن سودة ، ثم محمد ابن عبد السلام الناصري ، ثم عبد القادر بن محمد بن عبد الواحد الفاسي ، ثم المهدي ابن سودة ، ثم محمد المدني ابن جلون ، ثم العباس ابن محمد بن عبد الرحمان الحجرتي ، ثم علال بن عبد الله الفاسي ، ثم أبي العباس أحمد ابن سودة ، ثم عبد العزيز السوسي الادوزي ، ثم ابي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن العباس البوعزاوي ، ثم ابي حامد المكي البطاوري (27) .

ومن المعاصرين حسب وفياتهم او ولادة الاحياء منهم نذكر : محمد الكانوني ، ومحمد بن علي الدكالي ، والعباس بن ابراهيم ، والمدني ابن الحسني ، وابا الاسعاد الكتاني ، ثم عبد السلام ابن سودة ، وعبد الله الجراري ، ومحمد داود ، ومحمد العابد الفاسي ، ومحمد ابراهيم الكتاني.

غير انه فى الفترات الاخيرة وعلى وجه التقريب بعد الاستقلال ، صار الباحثون المغاربة الجدد يستعيضون عن هذه المجموعات بالتسجيل على الجذاذات ، جريا على الاسلوب الحديث فى تصنيف الوجادات وتنظيمها حسب الترتيب الهجائي .

* * *

والان نذكر أن هذه الكناشات تسجل بها المقيدات دون انتظام ، وانما تكتب شبه مذكرات يدون فيها المعني بالامر ما يهمه حسبما يتفق له ، ولهذا لم تكن مبوبة فى الغالب ، وقليل منها يصدر بفهرس للكشف عن الموضوعات ، وقد يتداول كتابتها أكثر من واحد . وخطها — على العموم — ياتي من النوع السريع الدقيق المدمج ، وفى أكثر الحالات كانت هذه المدونات تستمر بخط أو خطوط أصحابها ، غير أن الكناشات البالغة الاهمية تستخرج منها نسخة أو نسخ جديدة .

وبالنسبة الى موضوعاتها فهي تعكس — فى الاكثر — اتجاه صاحبها، يغلب الفقه على مقيدات الفقيه ، والادب على مقيدات الاديب ، والتصوف على مقيدات المتصوف ، والتاريخ على مدونات المؤرخ ، وهكذا .

ومن الجدير بالذكر ان غالبية هذه المدونات لا تحمل اسم صاحبها او اصحابها بطريقة واضحة ، وانما يستخرج ذلك ـ عرضا ـ من ثنايا المقيدات ، او بواسطة مقارنة الخط .

ومن مزايا هذه الكناشات انها قد تنفرد بافادات تاريخية منوعة ، وربما تكون غير معروفة بالمرة ، فتكشف هذه الافادات عن معلومات جديدة : فى موضوع التراجم أو أحداث مجهولة يجليها شاهد عيان ، أو اقتباسات من مؤلفات صارت ضائعة ، واحيانا يقع العثور على حقائق لم تكن اذاعتها ميسورة فى حياة مدونها ، هذا الى ان عديدا من هذه المقيدات تستفاد منها الترجمة الذاتية لصاحبها كلا أو بعضا ، زيادة على أن بعض الكناشات تحتفظ بمؤلفات نادرة ولو انها صغيرة الحجم .

وهكذا يبدو من هذا العرض الاهمية البالغة للكناشات المغربية كمصادر تاريخية دفينة ، وستتضاعف هذه الاهمية بالنسبة لمن تقل لديهم المدونات التاريخية المنتظمة ، وهو واقعنا كمغاربة .

❋ ❋ ❋

وبعد هذا نتساءل هل سنقبل كل الكناشات التي صارت في متناولنا ، ونبادر بالجواب ، لنعلن أن هذه المقيدات لا ينبغي اهمالها بالمرة ، ما دامت طبيعة البحث التاريخي أن لا يهمل المؤرخ أو يزدري أيا من المصادر .

غير انه سيكون علينا ـ قبل اعتماد هذه المدونات ـ أن نجعلها تخضع لاساليب النقد والتمحيص ، وهنا سنحتذي خطة الناقدين العرب القدامى فى النقل من الحواشى والطرر المدونة على هوامش الكتب ، وفي هذا الصدد يتشدد الشهاب القرافى ، ويمنع ـ بالمرة ـ اعتماد هذه التعليقات المكتوبة بهوامش المؤلفات ، ولكن ابن فرحون (28) يحلل نظرية القرافي ويقول :

« مراده اذا كانت الحواشي غريبة النقل ، واما اذا كان ما فيهـــا موجودا فى الامهات ، أو منسوبا الى محله وهي بخط من يوثق به ، فلا فرق بينها وبين سائر التصانيف » .

ويؤكد ابن فرحون تحليله هذا ويقول : « ولم يزل العلماء وأيمـــة المذهب ينقلون ما على حواشي كتب الايمة الموثوق بعلمهم ، المعروفة خطوطهم ، وذلكموجود فى كلام القاضي عياض . وابي الاصبغ بن سهل . وغيرهما ، اذا وجدوا حاشية يعرفون كاتبها نقلوا ذلك عنه ... ومن ذلك الطرر لابي ابراهيم الاعرج على التهذيب ، وهي من الكتب المعتمد عليها ، الموثوق بصحة ما فيها ، وكذلك الطرر لابن عات على الوثائق المجموعة ، وكذلك الطرد لابي الحسن الطنجيعلى التهذيب ، من الحواشى الموثوق بهـــا ... »

هذا تعليق ابن فرحون حول قاعدة اعتماد الحواشي والطرر المدونة على الكتب ، ومن الواضح ان واقع هذه يجري على محتويات الكناشات التي نتناولها ، فنعتمد منها ما كان كاتبها مشتهرا بالثقة ، او كان ما ورد بها يؤيده مصدر أو مصادر معروفة ، وفى حالة ثالثة اذا وجدت قرائن خارجية تؤكد صحة الوارد الكناشة ، وكما يقال : الناقد بصير .

ومن الواقع التاريخي اعتماد عدد من المؤرخين والمؤلفين المغاربة على الكناشات الموثوق بصحتها ، لاثبات حقيقة او دحض شبهة ، وقد رأينا فى صدر هذه الدراسة أبا حامد الفاسي يعتمد كناشة الجادري ، وقبله ينقل مؤلف المعيار عن خط صاحبها ، كما ان الافرانـــي يصنف كناشه ابي زيد التمنرتى فى مقدمة مصادر كتابه صفوة من انتشر (29) ، وهذا محمد بن الطيب القادري يسجل فى احدى المناسبات انه رجع الى كثير من الكنانيش (29 مكرر) ، ومرة اخرى ينفل عن كناشة أبي العباس احمد بن ابي عسرية الفاسي (30) ، ويقول أبو الربيع الحوات فى كتابه : « السر الظاهر (31) » عن كناش محمد العربي القادري : (طالعته وقيدت منه فى هذا الموضوع وغيره ، وبعده يشير الـــى نفـــس المجموعـــة أبو محمد جعفر بنا دريس الكتاني للرجوع اليها في نسب الاشـــراف الحموميـــــن . « 31 مكرر »

ومن بين المؤلفين المعاصرين الذين اعتمدوا هذه الكناشـــات ، نذكر المؤرخ ابن زيدان ، بالنسبة الى كناشات : اليحمدي (32) ، وابن عاشر الحافي (33) ، وابي الربيع الحوات (34) ، وابي بكر المنجرة (35)، ومحمد بن التهامي ابن عمرو الرباطي (36) ، واحمد بن الطاهر الازدي المراكشي (37) ، والطالب ابن الحاج (38) ، والمهدي ابن سودة (39) ، والعباس العلوي الامير (40) ، والمدني ابن الحسني (41) .

كذلك أبو الاسعاد الكتاني يستمد من كناشات ابن عاشر الحافي (42)، ومحمد بن محمد الخياط القادري (43) ، وابن عبد السلام الناصري (44)، وابن عمرو الرباطي (45) ، والتهامي ابن رحمون (46) ، والعبـــاس بن محمد بن عبد الرحمان (47) .

وهكذا يستمر الحال بالنسبة الى باقي المؤرخين المعاصرين : محمد الكانوني ، ومحمد بن علي الدكالي ، والعباس بن ابراهيـــم ، ومحمـــد المختار السوسى ، ومحمد داود ، وقد عرضتهم وسابقيهم حســـب التسلســـل التاريخـــي .

ومن جهة اخرى فان الباحث الفرنسي المعاصر جرمان عيـــاش اعتمد كناشة الوزير الطبيب بوعشرين ، فى دراسة المنشورة عن الازمة المالية بالمغرب بعد الغزو الاسباني سنة 1860 م (48) .

* * *

وهذه نماذج ــ ولو انها قليلة ــ من دفائن بعض الكناشات (49) ، ونشير ــ اولا ــ الى نصوص قصيرة فى غالبها وردت ضمن هذه المدونات حسب العـــرض التالـــي :

ــ توصية فى موضوع تحديد المواد الدراسية وترتيبها ، وما يستحسن ان يواكبها من سيرة حميدة ، كتبها أبو حامد محمد العربـــي الفاسي ، يخاطب بها ابناءه وقد رحلوا الى فاس لغاية الدراسة ، حسبما

يحتفظ بهذا النص كناشة محمد المدني ابن جلون الفاسي ، ثم كناشة الطاهر الافراني السوسي (50) .

— وهذه التوصية نشير الى نصوص اجازات مغربية موزعة بين أربع كناشات ، لابي سالم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البرنسي ، ولمحمد الصالح بن محمد المعطي الشرقي ، مع ابي الحسن علي بن التهامي الحمومي ، وأبي العباس احمد العلمي السريفي .

— وهذا وصف المصحف العتيق المكتوب برسم الفاتح عقبة بن نافع الفهري ، بالقيروان عام 47 هـ ، وقد كان من الذخائر القديمة بالمغرب (51) ، حسب كناشة محمد بن أحمد بنيس الفاسي ، حيث تحتفظ ايضا بنص اجازة صادرة لصاحبها من جهة محمد مرتضى الزبيدي ، شارح القاموس والاحياء .

— ونصل — الان — الى رسالتين من السلطان العلوي المولى سليمان خاطب بهما أمير طرابلس الغرب ، مع رسالة ثالثة من نفس العاهل الى باشا الجزائر ، وثلاثتها بكناشة أبي حامد العربي الدمناتي .

— ورسالة رابعة عن ابي الربيع الى أمير طرابلس ، فى كناشة ولد باعثها : الامير عبد السلام العلوي (52) .

— ورسالتين تبادلهما السلطان الحسن الاول ، والخاقان العثماني عبد الحميد الثاني ، وهما — معا — فى كناشة العباس بن محمد ابن عبد الرحمان الفيلالى الحجرتى (53) .

— وقطعة مهمة من ترجمة ابي اسحاق ابراهيم التادلي الرباطي ، دونها بقلمه ، واثبت نصها — فى كناشته — محمد بن عبد القادر فرفرة الرباطي .

— لائحة بكناشة الاديب الفاسي علال بن احمد ابن شقرون ، فى تفراد أساتذته وما درس اليهم .

— مشيخة ابي العباس احمد بن قاسم جسوس الرباطـــي : في كناشتـــه .

— نص اجازة من الحاج الطيب بن أحمد الحسني الودغيـــري الشهير بالسفياني ثم الفاسي ، الى الباي التونسي محمد الناصـــر فى الطريقة التجانية ، وتحمل تاريخ 23 جمادى الاولى ، عام 1338 هـ \ (1920 م) ، حسب كناشة ابي العباس أحمد النميشي .

وستكون الاجازة التونسية آخر هذه النصوص القصيرة ، لياتي — بعدها — نماذج من نقل بعض الكناشات — مباشرة — عن مؤلفـــات تختفي الان من الخزائن المغربية فيما يعرف .

ومن ذلك ارجوزة محمد بن يحيى العزفي فى مئاثر السلطان المريني ابـــي عنـــان .

ثم رسالة فى الوباء لمحمد بن احمد المشتهر بالحـــاج الزموري ، من اهل المائة الهجرية التاسعة .

ثم كتاب يمن النوال فى وصف النعال لابي العبـــاس احمد بن علي السوسي البوسعيدي .

وثلاثة هذه الموضوعات وردت مقتبسات منها فى كناشة ابي عبد الله محمد بن أبي السعود الفاسي .

وبعد هذا سنلتقي بالافادات الادبية من المجموعات التالية :

— كناشة محمد بن قاسم الزجالي الفاسي ، وهي ملأى بالقصائد والمقطعات لادباء العصر السعدي ، فضلا عن أشعار — ولو انها قليلة — من الفترة الوطاسية ، وبعض هذه الادبيات لا يعرف الا من خلال هذه المجموعة ، وسنعرف ان هذه المجموعة فى حوزة الاستاذ الكبيـــر محمد الفاسي الفهري .

— طائفة مهمة من اشعار محمد بن سعيد السوسي المرغيتي ، ضمن كناشتـــه .

— مجموعة من شعريات ابي عمران موسى بن محمد المكـــي بن موسى الناصري ، وهي تطفى على كناشة قريبه : عبد الله بن ابي بكر بن علي بن يوسف الناصري .

— ديوان شعر محمد بن محمد بن عامر التادلى ثم المدانى ، فـى مفتتـــح كناشتـــه .

— مجموعة تهاني وما اليها مرفوعة الى السلطان العلوي ابـــي زيد بن هشام من جهة شعراء فاس ومكناس ، وتضمها كناشة بخط بارع.

— مجموعة الاشعار المقدمة الى عامل فاس أوائـــل العهـــد الرحماني : الطيب بن محمد البياز الانصاري ، وكان رئيسا ممدحـــا — بالمعرب والزجل — من طرف شعراء فاس ، حيث تجمع ذلك كناشة تحتوي — ايضا — على مراسلات بين نفس الممدوح وبعـــض أعيـــان الحرميـــن الشريفيـــن .

— كناشة بخطوط ثلاثة من الاشراف البلغيثيين الفاسييـــن ، ويغلب عليها اشعار احمد بن الطاهر البلغيثى ، ومنها قصيدة بمناسبـــة ورود الراية المهداة الى السلطان الحسن الاول من المدينة المنورة ، وقصيدة اخرى فى الثريا المقدمة من الجهة الحسنية الى مقام الامـــام ادريس الثانى بفاس عام 1294 هـ ، هذا الى قصيدتين لعبد السلام الزمورى فى موضوع اعتقاله فى سجن مصباح بمراكش .

وهذه كناشة ثامنة تضم قصائد معربات وزجليات ، مما رفع الى السلطان الحسن الاول أو عاهل فاس : عبد الله بن أحماد السوسي ، ويغلب على اشعارها أسماء أدباء من مكناس وما اليها.

وكناشة تاسعة للحاج العربي المشرفي بها ديوان شعره .

ونختم عرض هذه المجموعات الادبية بالاشارة الى كناشة الاديب المعاصر محمد بن يحيى الصقلي ، وهي ـ بدورها ـ تحتفظ بنبذة من اشعاره .

* * *

ومن الكناشات السياسية : كناشة عبد القادر بن محمد الهرزوم التطواني كاتب السلطان العلوى محمد الثالث ، وكناشتان للطيب بوعشرين وزير السلطان محمد الرابع ، وكناشة الامير العلوي المولى العباس بن عبد الرحمان ، وكناشة السفير الحاج محمد بن الطاهر الزبدي الرباطي ، وقد أفاد من الاخيرتين المؤرخ محمد داود فى « تاريخ تطوان (54) » بمناسبة عرض ما جريات الحرب الستينية ، كما علمنا ـ سلفا ـ ان الاستاذ جرمان عياش أفاد من احدى كناشتي بوعشرين فى دراسة منشورة .

والان نشير الى أن الكناشة الاخرى للطيب بوعشرين كانت غير معروفة حتى كشفت عنها مناسبة قريبة ، ولهذا سيكون من المرغوب فيه القاء نظرة ـ ولو سريعة عليها ـ للتعريف بها .

ويلاحظ ـ فى البداية ـ ان هذه الكناشة الجديدة تتراوح تواريخها ما بين عام 1276 الى عام 1281 هـ .

ومن هنا يتبين انها تمثل المجموعة الاولى ازاء سابقتها التي تليها فى التاريخ لتعتبر مجموعة ثانية .

تشتمل هذه الكناشة الاولى على 114 ورقة متوسطة عدى الملصقات، ومن محتوياتها :

— نماذج تحركات البريد الرسمي حسب النظام القديم .
— اجراءات جمع الذعيرة الاسبانية وتسليمها .

— تقايـيــد بمخلفــات بعــض القــواد .

— اسماء قواد نواحي زعير ، ودرعة ، وزمور ، والاخماس ، وغمارة ، والريف ، وبني زروال .

— عملية احصاء المزروعات بشرق مدينة فاس .

— تقاييد أمكاس الموازين والابواب .

— تقاييد أمكاس ديوانتي الصويرة وطنجة .

— ذكر احصاء الاملاك المكراة ، ليوخذ من ملاكها الشهر الاخير مـن السنة على قدر مستفاداتها ، وجاء في هذا الصدد أسماء مدن فاس. وتازا ، وازمور ، وشفشاون ، والبيضاء ، ومكناس . ويلاحظ هنا ان هذه الضريبة وقع التفكير فيها من ذلك العهد ، دون أن يقـع اجراء العمل بها آنذاك .

ونتابع تقديم محتويات الكناشة ، ومنها : « تقاييــد شكايــات الاجانب وتصرفات نوابهم .

— تقديرات تجار فاس بشأن النسبة المئوية التـى تؤدى على السلع بالمراســي .

— تقدير مـن نحو ما قبله لمحمد الخطيب .

— تقاييد السلاح الوارد من طنجة مع حاجيات اخرى للجيش .

— حاصلات الحبوب من قبيلتي سفيان وبني مالك بالغرب .

— تقاييد الاعشار المحوزة من الغرب .

— تسجيل الاملاك المخزنية بمدينة مكناس .

— بيان المقادير المتجمعة من بيت المال الكبير .

— ما تدفعه قبائل الحوز من القمح الى المراسي .

— رسالة في موضوع رفع الحظر عن تسويق الصوف والحبوب الى الخارج .

— ما بيعت به امكاس واعشار الابواب بالرباط وسلا .

— لائحة بأسماء الاصول والفروع للقبائل النازلين شرق مدينة فاس .

— لوائح بأسماء المسجونين .

— اسماء امناء المراسي المغربية الثمانية ، مع تصنيفهم في طبقتين : اولى . وثانية .

— تفاصيل عن السلف المحوز من تجار الانجليز .

— اسماء وكلاء المغرب بمصر .

— لائحة بمدافع المراكب والابراج بمدينة العرائش .

— لائحة بما وجد بمدينة ازمور من المدافع والبارود .

— فروع قبائل الدير بالجنوب المغربي الغربي .

— تقييد امبالغ النقدية الموجهة الى سكان قلعية تعويضا عن قيمة املاكهم عام 1380 هـ ، (بعد ما سلمت الى الاسبان) .

— احصائيات مزروعات احوز .

— لائحة عسكر تازا : القديم والحديث .

— تقييد شكايات المسجونين بسجن القصبة بالرباط عام 1281 هـ

تلك اهم محتويات هذه الكناشة التي لا تزال بحاجة الى بحثها في دراسة مستقلة .

* * *

والان نشير الى ان هذه الكناشات يتوفر المغرب منها على رصيد مهم (55) ، موزع بين الخزائن الخاصة والعامة ، ونحاول هنا أن نعرض

نماذج منها مما هو محفوظ بالخزانة العامة والمكتبة الملكية ، او ضمن بعض المجموعات الخصوصية .

1 — ونذكر — اولا — اقدم كناشة مغربية باقية ، وهي **الكناشة الزجالية** ، التى دونها محمد بن قاسم الزجالى الفاسى ، المتوفى عام 1072 هـ \ 1662 .

وتبدو اهمية هذه المجموعة اذا لاحظنا أن ترجمة صاحبها لا تتعدى بضعة سطور (56) ، غير ان هذه الكناشة تسد بعض الفراغ فى حياته ، فتذكر اساتذته وادبه ، وتشير لرحلته الدراسية الى القاهرة .

والاهم من هذا ان المجموعة تنعكس فيها اسماء وآثار كثير من أدباء العهد السعدي ، وبالاضافة الى ادبيات صاحبها ، نقرؤ بها مجموعة من الاشعار فى اغراض متنوعة ، حسب الاسماء التالية :

— أبو العباس احمد ابن القاضي مؤلف جذوة الاقتباس وغيرها .
— محمد بن الزبير الجذميوي .
— عبد العزيز الفشتالي
— ولده محمد .
— عبد الوهاب الفاسي .
— عبد الواحد ابن عاشر .
— الاخوان محمد واحمد ابنا عبد الواحد الحسني ووالدهما .
— محمد الوجدي .
— علي بن الزبير .
— أبو العباس المقري .
— قاسم بن محمد الوزير الغساني .
— محمد بن يوسف ابن رضوان النجاري .

— محمـــد المكـــلاتـــــي .
— احمد بن محمــــد بن بكـــار .
— محمـــد الهــــوزالــــي .
— الحســـن المسفيــــــوي .

هذا فضلا عن أشعار — ولو انها قليلة — من الفترة الوطاسية .
ومن الجدير بالملاحظة أن بعض أشعار هذه المجموعـــة لا تعرف — لحد الان — الا من خلال ما دونه الزجالي .

تشمل هذه الكناشة على 96 ص في حجم صغير ، وهي في حوزة الاستاذ الكبير محمد الفاسي الفهري .

2 — **الكناشة القادرية** ، من جمع محمد العربي بن الطيب القادري الحسني الفاسي ، المتوفى عام 1106 (57) هـ / 1694 م .

وهي كناشة مهمة نوه بها عدد من المؤرخين ، ابتداء من محمد بن الطيب القادري (58) : وكان له كناش فيه تقايد بخط يده جيده مفيدة غريبة ، وفي تعبير محمد بن جعفر الكتاني (59) عند تعداد أوضاع المعني بالامر : وكناش جمع فيه غرائب العلم وشوارده ، أعجب بـــه الناس ، وكتبوا منه عدة نسخ ، وقد علق على هذا الموضع من سلوة الانفـــاس المؤرخ المرحوم عبد الحفيظ الفاسي الفهري ، وكتب — بخطه — عن هذا الكناش القادري ومصيره : « وقفت عليه ، وهو — اليوم — في ملـــك صاحبنا : العلامة المحدث الصوفـــي ، ابي عبد الله محمد بن ادريـــس القادري الفاسي ، المستوطن — حينه — بالجديدة ، ثم حازه والـــده السيد ادريس ، وبعد وفاته صار الى ولده سيدي الطائع ، ولا أدري أين آل الان ، وقد نقلت منه كثيرا من الفوائد في الانساب في كناشي الكبير الاول ، وقد نقل فيه وثائق مفيدة في أنساب كثير من المشاهير ... » .
وهناك مقتبسات كثيرة من الكناشة القادرية تطفى على كناشتيـــن بالمكتبة الملكية رقم 2389 — 2774 .

3 — **الكناشة الفاسية** : أكثرها بخط ابي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسى الفهرى ، المتوفى عام 1116 هـ (60) 1704 م ، وقد اشير

ـ سابقا ـ الى مقتبساتها من ثلاث مؤلفات تعتبر ـ الان ـ غير معروفة ، وزيادة على ذلك تشتمل الكناشة على فوائد وفرائد : بعضها من خطوط المقري الجد ، وابن غازي ، والقصار ، وابي الحسن البطيوي ، وابي حامد الفاسي ، زيادة على الاقتباس من مؤلفات نادرة ، وقد وقفت عليها عند العلامة الجليل محمد بن ابى بكر التطوانى من عام 1385 ه\1965 م .

4 ـ **الكناشة السودية** : لمحمد بن محمد بن الحاج ابن سودة المري ، كان يشتغل فيها عام 1122 هـ / 1710 م . ويغلب عليها مختارات ادبية لشعراء وكتاب معاصرين ، ومنهم محمد بن محمد غازي (61) الذي يقتبس المقيد من كناشته — خ. ع. د 163 .

5 ـ **كناشة البرنسي** : ابى سالم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البرنسي المتوفى عام 1130 هـ (62) / 1717 ـ 18 م ، تحتوي على مؤلفات صغيرة ، ونصوص اجازات لمقيدها من اشياخه : محمد بن عبد القادر الفاسى ، والعربى بردلة ، وسعيد العميرى ، وابى مدين السوسى .
خ. ع. ك 1056 .

6 ـ **كناشة** عبد الله الشرقي ، كان بقيد الحياة عام 1131 هـ (63) / 1719 م ، بها افادات متنوعة عن العصر الاسماعيلي : قصائد زجلية ومعربة ، وبعض الوفيات والمراسلات السياسية .
م. م. 5958 .

7 ـ **الكناشة اليحمدية** لابي العباس : احمد بن الحسن بن احمد اليحمدي نزيل مكناس ، والمتوفى ـ بها ـ عام 1132 هـ (64) / 1720 م، عامرة بالنصوص المختارة فى شتى المواد والموضوعات : مغربية ـ على قلة ـ وغيرها ، وتعتبر اكبر كناشة معروفة بالمغرب ، والموجودة منها نسختان مستحرجتان من الاصل :

الاولى : جددها محمد اليحمدي ـ ولد جامعها (65) ـ برسم السلطان العلوي المولى عبد الله ، وهي فى عشرة اجزاء بالمكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية : تسعة منها رقم 1034 ، والتاسع رقم 3985

اما النسخة الثانية فقد كتبت رسم السلطان المستضيء اخ العاهل قبله ، وجاءت في ثمانية اجزاء ، ثم كتبت منها نسخة اخرى للامير ابـــي النصر الاخ الثالث ، وجاءت في مجلدين ضخمين باسم « واسطة العقدين ، في ترتيب الكناشين السعيدين » ، وهي بالخزانة العامة تحـــت رقـــم ك 330 ، بخط مغربي مليح دقيق .

8 ــ **الكناشة الشرقاوية :** امحمد الصالح بن محمد المعطي بن عبد الخالق الشرقي العمري التادلي ، المتوفى عام 1139 هـ (66) \ 1726 ــ 27 م ، ومن محتوياتها اجازة لجامعها من جهة ابي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاســـي . م٠ م٠ 3415 .

9 ــ **كناشة الحافي :** ابي العباس احمد بن محمد بن عاشر بن عبد الرحمان السلوي ، المتوفى عـــام 1163 هـ (67) / 1749 ــ 50 م . خ٠ ع٠ ك 1044 .

10 ــ **كناشـــة الفيـــلالي :** محمد بن العربي بن احمد (68) . خ٠ ع٠ ك 911 .

11 ــ **كناشة الهزروم :** عبد القادر بن محمد بن محمد التطواني (69)، كاتب السلطان العلوي : محمد الثالث المتوفى عام 1204 هـ / 1786 م ، تشتمل على وثائق عن سياسة مخدومـــه ، زيادة على افادات ادبيـــة وتاريخية من العصر نفسه ، وهي بالمكتبة التطوانية بسلا .

12 ــ **كنـــاشـــة :** صاحبها من اسرة الحطاب الدكاليين ، وكان قد اخذ عن ابي حفص عمر بن عبد الله الفاسي ، وردد ذكره بهذه المجموعة م٠ م٠ 10ر028 .

13 ــ **كناشة بنيس :** محمد بن احمد الفاسي ، المتوفى عـــام عام 1213 هـ (70) / 1799 م . وقد سبقت الاشارة الى اهم محتوياتها . خ٠ ع٠ ك 3303 .

14 ــ **كناشة شطير :** عبد الله بن علي الحسني التطواني المتوفى ــ ظنا ــ عام 1215 هـ / 1800 ــ 01 م ، وهي منتظمة في شكل تأليف

يحمل اسم « نضار الاصيل ، على بساط الخليل » ، ومن فرائدهـــا ان كاتبها يسجل ابتكاره لطريقة جديدة فى لعبة الشطرنج ،وطريقة أخرى ابتكرها فى لعبة الكارطة ، زيادة على طرائق قديمة وصفها : بالنسبة الى اللعبتين ، وهذه الكناشة — بخط صاحبها الجيد — من مخطوطات المكتبة الداوديـــة بتطـــوان (71) .

15 — **كناشة المعداني** : محمد بن محمد بن عامر التادلي المتوفى عام 1234 هـ (72) / 1819 م ، وقد ذكر — سلفا — انها مصدرة بديوان شعـــــره — م٠ م٠ 5601 .

16 — **كناشة المنجـــرة** : ابي بكر بن محمد بن عبد الرحمان بن ادريس الحسني الفاســـي ، المتوفى عـــام 1240 هـ (73) / 1824 م تنفرد بجملة من الاشعار المغربية القصيرة خ٠ ع٠ ك 464 .

17 — **كناشـــة الدمناتي** : العربي بن محمد الفاسي ، المتوفى عام 1253 هـ (74) / 1837 م ، عامرة بالنصوص النثرية والشعرية من الاندلس والمغرب ، وبالخصوص اشعار الادباء المغاربـــة المعاصرين ، وخطها دقيق مدموج مليح . م٠ م٠ 1952 .

18 — **كناشـــة** اخرى للدمناتي ، على غرار سابقتها فى محتوياتها وخطها ، وبها رسالتان عن السلطان العلوي أبي الربيع الى باشا طرابلس الغرب ، ورسالة عن نفس العاهل الى باشا الجزائر ، وكتاب من السلطان ابي زيد بن هشام الى وكيل المغرب بمصر م٠ م٠ 3718 .

19 — **كناشـــة قصـــارة** : محمد بن العربي الحميري الفاسي ، المتوفى عام 1257 هـ (75) / 1841 م ، بها افادات مغربية وغيرها ، ومن مصادرها خط احمد بن عبد السلام بناني استاذ مقيدها ، فى خزانـــة خاصـــة بفاس .

20 — **كناشـــة الحمومـــي** : على دعي علالا بن محمد التهامي بن احمد الحسني الفاسي ، المتوفى عام 1259 هـ (76) / 1843 — 44 م ، ومن محتوياتها اجازة بدر الدين الحمومي الى محمد بن احمد بن الطيب البناني المراكشي (77) . خ٠ ع٠ ك 1531 .

21 ـ **الكناشـــة البيازيـــة** : وهي مجموعة ادبية بها قصائد من الفصيح والزجل ، ومراسلات من بعض أعيان الحرمين الشريفين ، الى المدح بهذه الاشعار : الطيب بن محمد البياز الانصاري عامل فـاس الى عـــام 1260 هـ (78) / 1844 م .

ومن شعراء المجموعة : عبد القادر السلوي ، و (محمد بن العربي) قصارة ، ومحمد ابن ادريس العمروي ، وعبد الســلام الزمـــوري .
م م .. 3665 .

22 ـ **كناشـــة ابن يحيـــى** : (محمد بن محمد الطنجي) (79) ، تشتمل على فوائد واشعار بعضها للاديب الشهير : خالـــد بن محمد الهادي العمري الطنجي (80) ، وهي بالمكتبة الملكية ضمن المجموعـــة الزيدانية رقـــم 2847 .

23 ـ **كناشـــة** الامير : عبد السلام بن السلطان العلوي ابـــي الربيع ، المتوفى عام 1261 (81) هـ / 1845 م ، وقد تبينا ـ سلفا ـ انها تحتفظ برسالة من المولى سليمان الى باشا طرابلس الغرب ، علاوة على افادات اخرى وفيرة . م.م. 4001 .

24 ـ **كناشـــة ابن ادريس** : محمد بن محمد العمروي الفاسي ، الوزير ، المتوفى عام 1264 هـ (82) / 1847 م ، مفيدة في ترجمـــة كاتبها وادبه ، وهي بالمكتبة الاحمدية بفاس .

25 ـ **الكناشـــة البلغيثيـــة** : بخطوط ثلاثـــة من الاشـــراف البلغيثيين الفاسيين :

— العربي بن احمد (بن علي) ، المتوفى عام 1271 هـ (83) / 1854 م.
— وابنه ابي العباس احمد ، المتوفى عام 1307 هـ (84) / 1889 م .
— ثم محمد بن الطاهر بن احمد النسب (85) .

بها مقيديات عن تنقلات السلطان الحسن الاول ، وبعض احداث عصره وعهد السلطان العزيز ، مع اشعار عديدة : للعربي البلغيثي وعبد

السلام الزموري ، ولاحمد بن الطاهر البلغيثي مقيدة بخط محمد الطاهر ابن احمد آنف الذكر .

وقد اشير - سلفا - الى بعض موضوعات هذه الكناشة المحفوظة بالمكتبة الاحمدية بفاس .

26 - **كناشة المنجرة** : احمد بن ابي بكر الحسني الفاسي ، المتوفى عام 1271 هـ (86) / 1855 م . خ. ع. ك 546 .

27 - **كناشة ابن الحاج** : محمد الطالب بن حمدون السلمي المرداسي الفاسي ، المتوفى عام 1273 هـ (87) / 1857 م ، بالمكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 3063 .

28 - **كناشة** : بها مجموعة من الاشعار المديحية المرفوعة الى السلطان العلوي عبد الرحمان بن هشام ، المتوفى عام 1276 هـ / 1859م بالمكتبة الاحمدية بفاس .

29 - **كناشة القادري** : محمد الطيب بن عبد السلام بن عبد الله الخياط بن محمد بن علال الحسني الفاسي ، قيم خزانة جامع الرصيف بفاس فى العهد الرحماني (88) ، وورد اسمه بالكناشة ص 213 و 218 و 235 و 265 ، وهي عامرة بالمقيدات المغربية وخصوصا فى الانساب (89) ، وبها مقيدات اخرى بخط محمد بن محمد بن العربي الزعري المباركي ثم الفاسي (90) ، وورد اسمه ص 87 ر 365 .
خ. ع. ك 1574 .

30 - **كناشة الفرديس** : عبد العزيز (91) ، بها احداث وتراجم واشعار مغربية . خ. ع. ك 1081 .

31 - **كناشة ابن سودة « النحول »** : محمد بن محمد ن علال المري الفاسي ، المتوفى عام 1285 هـ (92) / 1868 م ، افادات مغربية نادرة ، وهي بالمكتبة الاحمدية بفاس .

32 - 33 - **كناشتان** لابي عشرين : محمد اطيب بن اليماني الانصاري المكناسي الوزير ، المتوفى عام 1286 هـ (93) / 1869 م ،

وقد اشير لمحتو محتواهما سابقا .

34 ـ **كناشة السريفي** : احمد بن عبد السلام العلمي الفاسي ، المتوفى عام 1294 هـ (94) / 1877 م ، بها نقول من خط علي بن ادريس قصارة ، واجازات لابي القاسم بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري . خ. ع. ك 1182 .

35 ـ **كناشة السرغيني** : محمد بن المعطي المراكشي ، المتوفى عام 1296 هـ (95) 1878 م . خ. ع. ك 491 .

36 ـ **كناشة ابن جلون** : محمد المدني بن علي الملقب بالكومي الفاسي المتوفى عام 1298 هـ (96) / 1880 م ـ خ. ع. ك 29 .

37 ـ **كناشة ثانية** له ، وبها وردت وصية ابي حامد الفاسي لاولاده لما رحلوا للدراسة بفاس ، وقد اشير لها سابقا .
خ. ع، ك 2676 .

38 ـ **الكناشة الناصرية** : لعبد الله بن أبي بكر بن علي بن يوسف الناصري التمكروتي (97) تغلب عليها الادبيات وبالخصوص أشعار قريب جامعها : أبي عمران موسى بن بن محمد المكي بن موسى الناصري (98) ، مع جملة من اشعار المقري مؤلف النفح ، منها نسخة عند بعضهم ، واخرى بالمكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 2845 .

39 ـ **كناشة** ادبية ، بها قصائد معربة وزجلية يغلب عليها طابع المديح في السلطان الحسن الاول ، أو عامل فاس : عبد الله بن احماد السوسي ، وبها منظومتان في تعداد مراحل زيارة نفس السلطان الى الحوز : (طويل) ، والى مراكش (رجز) ، وناظمهما مع الزجليات غير مذكور .

اما القصائد المعربات فاغلب شعرائها من ادباء مكناس : محمد ابن المعطي ، المزطاري ، والتهامي المزوار ، واحمد العرائشي ، ومحمد ابن عزوز ، والطاهر بوحدو على لسان قاضي مكناس أبي العباس احمد ابن سودة ، ومن مدينة زرهون : الفاطمي الادريسي الشبيهي ، والهاشمي الزواوي ، عدد أوراق هذه المجموعة 114 . خ ع. د 267 .

40 ـ 41 ـ **كناشتـــان** لابي حامد العربي بن محمد بن محمد السايح الشرقاوي العمري نزيل الرباط ودفينـــه ، المتوفـــى عـــام 1309 هـ (99) / 1892 م ، وهمـــا معا ـ بالخزانة العامة بالربـــاط : الاولى بحطة رقم ج 147 ، والثانية مستخرجة من سابقتها رقم ج 139 .

42 ، 43 ، 44 45 ـ **كناشـــات أربعـــة** : للعباس بن الفقيـــه محمد بن عبد الرحمان الفيلالي الحجرتي ثم الفاسي ، المتوفـــى عـــام 1311 هـ / 1893 م وجميعها حافلة بالمعلومات المتنوعة ، مع اهتمـــام زائد بتقييد الافادات النادرة ، وتسجيل وفيات المتاخرين مـــن فاس ومـــا اليهـــا .

خ. ع. د : 3634 ـ ص 685
خ. ع. د : 3747 ـ ص 218
خ. ع. ك : 70 ـ ص 378
خ. ع. على الشريـــط : رقم 1299

46 ، 47 ـ **كناشتـــان** : للحاج العربي بن عبد القادر المشرفي الحسنى نزيل فاس ، المتوفى عام 1313 هـ (100) \ 1895 م .
خ. ع. ك 204 ر 471

48 ـ **كناشـــة الصقلـــي** : محمد بن احمد الحسيني الفاسي ، المتوفى ع م 1316 هـ (101) / 1898 م . خ. ع. ك 480

49 ـ **كناشـــة ابن فقيرة** : عبد الواحد بن محمد الانصـــاري المكناسي ، المتوفى عام 1317 هـ (102) / 1899 م . بها مقيـــدات واشعار مغربية قصيرة ومطولة اغلبها لادباء القرن الثالث عشر هـ .
خ. ع. د 158 .

50 ـ **كناشـــة** اخرى له ، اصغر من الاولى ـ خ. ع. د 157

51 ـ **كناشة ابن شقرون** : علال بن احمد ابـــن شقرون لكريمـــي الفاسي ، المتوفى عام 1319 هـ (103) / 1901 م ، وقد علمنا ـ سلفا ـ انها تشتمل على تعداد اساتذة كاتبهـــا ومقروآتـــه عليهـــم .
خ. ع. ك 469

52 ـ **كناشــة الرشيدي** : ابي العباس احمد بن محمد الرشيدي المكناســي ، المتوفــى عـــام 1319 هـ (104) / 1902 م .
خ. ع. ك 1068 .

53 ـ **كناشــة** تداولها اديبان من مكناس : محمد بن محمــد بن محمد بن العناية بن فقيرة الانصاري (105) ، ثم محمد التهامي بن المهدي المزوار المتوفى بعد عــام 1320 هـ (106) / 1902 ـ 03 م ، ومــن محتوياتها قصيدتان للمذكورين بمناسبة مأساة تطوان ، بخط ناظيمهما .
خ. ع. د 3736 .

54 ـ **كناشة ابن سودة** : ابي العباس احمد بن الطالب المــري المتــوفـــى عـــام 1321 هـ (107) / 1903 م .
خ. ع. ك 473 .

55 ـ **كناشة جسوس** : ابى العباس احمد بـن قاسـم الرباطـي ، المتوفى عام 1331 (108) / 1912 م ، ضمنها مشيخته بتوسع ، وقــد وقفت عليها لدى ابن اخي مقيدها : الاريحي المفضال ، الحاج قاســم جســوس .

56 ـ **كناشــة المنونــي** : محمد السعيدي بن محمد بن المهدي المكناســي ، المتوفــى عـــام 1334 هـ (109) / 1916 م ،
خ. ع. ك 2803 .

57 ـ **كناشــة الادوزي** : ابي فارس عبد العزيــز بن محمــد السوسي اليعقوبي ، المتوفى عام 1336 هـ (110) / 1918 م ، وهــي مصورة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 88 .

58 ـ **كناشــة** اسرة الخصاصيين الفاسيين ، ابتداها محمد بن عبد الرحمان الخصاصي المتوفى عام 1343 هـ (111 / 1925 م ، ثــم تابع التقييد بها ابنه عبد الكبير وحفيده ، وتشتمل على وفيات من فاس ابتداء من أواخر القرن المنصرم حتى منتصف هذه المائة الهجرية الجارية، ولا تزال هذه الكناشة لدا أسرة مقيديها .

وتعد امتدادا لتقاليد بعض الشهود فى تسجيل الوفيات والاحداث ، وفق ما اشار له محمد بن احمد ميارة كما رأينا ضد مبادىء هذه الدراسة ، مع التنبيه على ان المقيدين بهذه المجموعة كانوا ثلاثتهم يضطلعون بتقدير فرض النفقات بفاس .

59 ـ **كناشة الشرادي** : الفاطمي بن محمد الفاسي ، امتوفى عام 1344 هـ (112) / 1925 م .   خ. ع. ك 499 .

60 ـ **كناشة الصقلي** : محمد بن يحيى بن رشيد الحسيني الفاسي ، المتوفى عام 1354 هـ (113) / 1935 ، بها جملة من اشعاره .
خ. ع. ك 1555 .

61 ـ **كناشة البطاورى** : ابى حامد محمد المكى بن محمد بن على الشرشالي الحسني الرباطي ، المتوفى عام 1355 (114) / 1936 م ، بالمكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 2857 .

62 ، 63 ـ **كناشتان** : لابي بكر بن عبد الهادي الشنتوفي السلاوي ، المتوفى عام 1355 هـ (115) / 1936 م .

المجلد الاول منها بالخزانة العامة رقم ج 917 ، ابتدأ كتابته ـ بخطه الانيق ـ عام 1327 ه \ 1909 م ، وهناك مجموعة اخرى ـ بخطه .. بالمكتبة الصبيحية بسلا .

64 ـ **كناشة الرافعي** : محمد بن احمد الازموري ثم الجديدي ، المتوفى عام 1360 هـ (116) / 1941 م .   خ. ع. ك 1198 .

65 ـ **كناشة** ابن علي الدكالي : محمد بن محمد السلاوي ، المتوفى عام 1364 هـ (117) / 1945 م ، وهي مصورة على الشريط بالخزانة العامة رقم 36 .

66 ، 67 ـ **كناشتان** لفرفرة : محمد بن عبد القادر الرباطي ، المتوفى عام 1371 هـ (118) / 1952 م ، عامرتان بالمعلومات النادرة عن تاريخيات الرباط فى هذه المائة الجارية والمائة قبلها ، واغلب ذلك منقول من خط المؤرخ محمد بن محمد بن علي الدكالي او من مقيدات

اعلام الرباط ، وقد اطلعت على الكناشتين معا لدا العلامة الجليل محمد ابن بو بكر التطواني ، من عام 1374 هـ / 1955 م .

68 ، 69 — كناشتـــان لمحمد بن عبد الله المراكشي نزيل سلا ، حافلتان بالمقتبسات من نوادر المؤلفات ، ومن خـط المؤرخ محمد بن علـــي الدكالـــي .

خ. ع. ج 88

خ. ع. ج 91 — ص 278

70 ، 71 ، 72 ، 73 — **كناشـــات اربعـــة** : لابي الفضل عباس ابن ابراهيم المراكشي المتوفى عام 1378 هـ (119) / 1959 م ، ويغلب عليها تلخيص المخطوطات التاريخية : كبيرها وصغيرها ، مع تسجيـل الافادات والانشادات ، وقد وقفت عليها عند المؤرخ محمد بن بوبكـر التطـوانـــي .

74 — **كناشـــة** ابي الفضل عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي الفهري المتوفى عام 1383 هـ (120) / 1963 م ، اطلعت عليها لـــدى العلامـــة التطوانـــي .

75 ، 76 ، 77 — **كناشـــات ثلاثـــة** : لابي العباس احمـــد بن محمد النميشي الحسني الفاســي ، المتوفـى عـام 1386 هـ (121) \ 1966 م ، واحدة منها بالخزانة العامة رقم ك 351 مكتوب منها أوائلها ، واثنتان فى خزانة خاصة بفاس ، وبهما مقتبسات من المخطوطات مـع تسجيل مشاهدات ووفيات محلية .

* * *

وستكون هذه المقيدات النميشية آخر نماذج الكناشات المغربية التي تقدمها هذه الدراسة ، وفى دراسة مقبلـة نعرض — بحـول الله سبحانه — نماذج جديدة من هذه الكناشات ، وبالخصوص مـا لا يزال منها محفوظا بالخزانات الشخصية ، والله — سبحانه — ولي التوفيق .

الربـــاط **محمد المنوني**

التعـــاليـــــق

(1) جاء عند البلوي في كتاب « الف با » : (وما رايت احدا ممن لقيته من اهل الافاق ، الا وله تعاليق وأوراق ، تحتوي على حكايات واشعار ، ورسائل واخبار) ، المطبعة الوهبية بالقاهرة ـ ج 1 ص 39 .

ومن نماذج التذكرات الاندلسية المذكورة : (حانوت عطار) لابن شهيد ، الاديب الاندلسي المعروف ، حسب الحميدي في (جلوة المقتبس) ، نشر السيد عزت العطار ـ ع 232 .

ثمالكتاب المظفري) للمظفر صاحب بطليوس ، ويقول عنه ابن الابـار : (ولـه التصنيف الرائق ، والتاليف الفائق ، المترجم « بالتذكرة » ، والمشتهـر اسمــه ـ أيضا ـ « بالكتاب المظفري » في خمسين مجلدا ، اشتمل على فنون وعلوم : من مغاز وسير ، ومثل وخبر ، وجميع ما يختص به علم الادب ابقاه للناس خالـدا) ، التكملة طبع مجريط ـ ع 451 .

وفي ترجمة أبي القاسم بن بشكوال يقول ابن الابار عند تعداد أوضاعه : (وكتاب الفوائد المنتخبة ، والحكايات المستغربة) (في عشرين جزءا) ، نفس المصـدر والطبعــة ـ ع 179 .

ومن التذكرات الاندلسية الباقية « في نسخة خاصة » : قطعة من مقيدات يذكرها صاحبها ـ ص 44 ـ باسم (الدفتر) ، وأغلبها بخط أندلسي يبدو من مقارنته أن كاتبه هو الواداياشي البلوي : احمد بن علي بن أحمد الاندلســي نزيـل تلمســان ، وتلميذ ابن غازي ومن في طبقته .

وهي تبتدي بمقامة في ذم الجزيرة الخضراء (وطريف)، سميت في آخرها ـ ص 10 ـ « طرفة الطريف . في أهل الجزيرة و (طريف) » ، غير أنها مبتورة الاول ، ولذلك لم يعرف اسم مؤلفها الذي قد يكون مغربيا .

ثم يغلب على المجموعة ـ بعد هذا ـ تسجيل الافادات والانشـادات ، وضمنهــا مقتبسات من رحلة ابن رشيد : « ملء العيبة ... » ، فيها معلومات قليلة عن ترجمة ابن الصلاح ، وافادات كثيرة عن ترجمة ابن دقيق العيد .

الى اقتباس من كتاب « الدرة المكنونة ، في محاسن اسطبونة » ؟

ومن كتاب الاحاطة للسان الدين ان الخطيب .

مع بعض أشعار صاحب التذكرة .

وسوى هذا تشتمل المجموعة على مقيدات مهمة بخط مغربي ، كاتبـه من تلاميـذ القاضي الحميدي ص 73 .

بها 100 ص ، مسطرة مختلفة ، مقياس 210 / 150 سـم .

ومن المغرب الاوسط نذكر كتاب « حاطب ليل » ، لابن أبي حجلة التلمساني نزيل دمشق ثم القاهرة ، قال ابن حجر العسقلاني : « عمله كالتذكرة في مجلدات كثيرة »، « انباء الغمر » ـ ج 1 ص 82 مع « الدرر الكامنة » ج 1 ص 330 .

واذا كانت هذه التذكرة الجزائرية لا يعلم ـ الان ـ مصيرها ، فان « كناشتين » من نفس الجهة لا تزالان معروفتين ، وهما ـ معا ـ لقاضي تلمسان : شعيب بن علي ابن محمد البوبكري الجليلي ، المتوفى عام 1347 هـ / 1928 م ، وقـد سجـل في المذكرتين مقيدات في أغراض شتى ، وفي ذلك بعض الاجراءات السياسية بالجزائر في عصر صاحب الكناشتين ، المحفوظتين بالخزانة العامـة رقـم ك : 45 ر 48 ،

وانظر عن ترجمة الجليلي وبعض مراجعها : رضا كحالـة فى « معجـم المؤلفيـن » ج 4 ص 302 .

وننتقل من الجزائر الى تونس لنشير الى كناشة الاديب المؤلف المؤرخ : محمد ـ بفتح أوله ـ بن القاضي الحاج عثمان بن الشيخ محمد بن قاضـي تونـس محمد السنوسي اسما ، المعروف بابن مهنية ، الكافي ثم التونسي ، المتوفى ـ بها ـ عام 1318 هـ / 1900 م .

ولحسن الحظ فان هذه الكناشة لا تزال بقيد الوجود ، باسم : « الكشكول . فى محاسن المقول » ، بها مجموعة من الاشعار التونسية ، واجازات لجامعها من عـدة اعلام تونسيين وشرقيين ، ومن الصحراء ، الى افادات اخرى مهمة .

تشتمل على 343 ص ، فى مقياس 310 / 225 سم ، وخطهـا تونسـي متوسـط سريع ، يتخلله تشطيب على طول عدد من الصفحات .

وهي بالخزانة العامة رقم ك : 193 .
اما صاحب الكناشة فهو محرر جريدة (الرائد) التونسية ، ومؤلـف « مسامـرات الظريف » ، ورحلة « الاستطلاعات الباريسية » .

ومن الجدير بالملاحظة ان ترجمة المعني بالامر خالية من ذكر هذه الكناشة ، فى مصادرها التونسية ، وعند الزركلي فى « الاعلام » ج 7 ص 145 ـ 146 .

(2) هناك لائحة مطولة لهذه التذكرات : فى (كشف الظنون) ج 1 من عمود 383 الى ع 394 ، مع (ايضاح المكنون ، فى الذيل على كشف الظنون) ج 3 من ع 271 الى ع 277 ، حسبنشر (مكتبة المثنى) ببغداد .

وبالنسبة الى تذكرة ابن حمدون : توجد منها نسخة عتيقة فى مدرسة فاضلخان بايران ، بعنوان تذكرة الاديب ، وقد طبع قسم منهـا بمصر ، حسب ذيـل كشف الظنون) ، للشيخ اغا بزرك الطهراني ، وهو ملحق بالجزء السادس من طبعة المثنى الانفة الذكر ـ ص 30 .

وفى دار الكتب المصرية توجد بضعة اجزاء من تذكرة ابن حمـدون ، ويتـوزع وصفها بين الفهرس القديم للـدار ج 3 ص 58 ، وفى فهرسهـا الجديـد بعنـوان (فهرسة المخطوطات) ج 1 ص 147 . وفى المغرب يوجد منها ـ بالخزانة العامة ـ مجلد ضخم يحمل رقم ج 72 ، فى 604 ص بخط شرقي عتيق ، والمجلد مبتور الاول ، ويبتدي من الخطبة النبوية الكريمة حين تزويج السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ، الى ان يقف على باب الكناية والتعريض ...

وبدار الكتب المصرية ـ ايضا ـ توجد خمسة اجزاء من تذكرة الصفدي : الثاني والثالث عشر والرابع عشر والثاني والخمسون ، وجزء مبتور الطرفين ، حسـب الفهرس القديم لدار الكتب المصرية ج 3 ص 59 .

اما تذكرة ابن مكتوم فهي من خمس مجلدات ، وفيها تراجم نحاة كثيرة ، حسب السيوطي الذي صنفها بين مصادر بغية الوعاة ص 3 ، وذكر معها تذكرة اليغموري ، وقال : انها فى ست مجلدات : ثلاثة بمكة المكرمة وثلاثة بالقاهرة بخط جامعها .

(3) هناك (الكناش) فى العلوم والنحو وغير ذلك ، للملك المؤيد ابي الفداء صاحب حماة، (ايضاح المكنون) ج 4 ص 384 .

(4) (تاج العروس) ، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ج 4 ص 347 .

(5) (ملحق المعاجم العربية ، لدوزي ، الطبعة الثالثة ، باريس ، سنة 1967 ـ ج 2 ص 294 .

(6) (نفاضة الجراب) ، تحقيق الدكتور احمد مختار العبادي ، نشر دار الكاتب العربي بالقاهرة ص 187 ـ 188 .

(7) ما له من الشرح على دلائل الخيرات للجزولي ، خ. ع. ك : 1532 ـ ص 113 .

(8) ج 12 ص 177 .

(9) يوجد هذا الكناش مخطوطا لدى البعض ، وبالخزانة العامة نسخة أخرى منه : ك 1385

(10) فهرستا المنجور فى نسختين مخطوطتين ، غير ان كبراهما نسخة اصيلة فى حوزة الاستاذ الكبير محمد ابراهيم الكتاني .

(11) المصدر الاخير .

(12) تعدى ابن غازي هذا الاتجاه الى ما يسجله عنه البوسعيدي فى كتابه : « بذل المناصحة » ، وهو يقول في هذا : « أخبرني سيدي علي بن بلقاسم البطيوي قال : بلغنا ان الشيخ ابن غازي قد عين بعض اصحابه ان يكتب له كل ما جرى فى البلد وما قال وقيل من خميس الى خميس ، فيطالع ذلك ، ويكون ذلك يوم الخميس الذي تفرغ فيه من التدريس » ، نقله فى « التراتيب الادارية » ج 1 ص 364 ، ثم فى « اتحاف أعلام الناس » ج 4 ص 4 ببعض تصرف .

(13) الكبرى والصغرى .

(14) مطبعة المعاهد بالقاهرة على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ـ ص 361 .

(15) جاء فى مدخل بعض النسخ المخطوطة من « نيل الابتهاج » زيادات على الفتتاحية المطبوعة ، حسب مخطوطتي المكتبة الملكية رقم 1896 و 4206 ، فبعد ما ذكر تاليف الديباج المذهب لابن فرحون قال :

« ... فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان ، وفى برهة من الاوان ، باستدراك بعض من فاته ومن جاء بعده من الاعيان ، فقيدت فيه بحسب المنة والامكان ، وذلك حين كنت ببلدنا البعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها من مدن العلم والاوطان ، فقصر بي الحال مع قلة الكتب هناك وعدم مساعدة الزمان ، حتى تفضل من له الفضل ، واحسن الي من له الطول ، سبحانه ، بوصولي الى منبع العلم فى الديار الغربية : حضرة الامامة العلية ، المولوية الهاشمية ، الاحمدية المنصورية ... فرأيت اسباب السعادة بها متيسرة ، وأزمة الاماني فيها مبذولة غير متعسرة ، ونشدت الضالة فوجدتها أقرب الي من ظلي ، وظفرت بما يكمل مرادي ونلت أملي ، فبادرت ـ حينئذ ـ الى كتب ذلك الذيل » .

(16) « المطبعة الفاسية » ، الملزمة 47 ص 8 .

(17) « المطبعة الفاسية » عام 1304 هـ ـ الملزمة 2 ، ص 3 .

(18) (صفوة من انتشر) ط. ف. ـ ص 18 ، مع (نشر المثاني) ط. ف. ـ ج 1 ص67

(19) محمد الطالب ابن الحاج : أول « حاشية شرح ميارة على المرشد المعين » ، ط. ف. ـ الملزمة الاولى ، ص 4 .

(20) له « كناشة » بالخزانة الفاسية بفاس ، حسب « دليل مؤرخ المغرب الاقصى » ، رقـــم 2150 .

(21) ميارة في كتابيه : « الدر الثمين » ، مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة ـ ص 89 ، مع مخطوط « نظم اللئالي والدرر ، في اختصار مقدمة ابن حجر » ، خ. ع. ك 931، عند الفصـــل الاول .

(22) « صفوة من انتشر » ط. ف ـ ص 71 .

(23) « المحاضرات » ط. ف ـ ص 59 ، ونقله في « نشر المثاني ـ ج 1 ص 182

(24) له « كناشة » افاد منها الافراني ، وذكرها ضمن مصادر كتابه : « صفوة من انتشر» ط. ف ـ ص 228 .

(25) له « كناشة » افاد منها محمد المختار السوسي في كثير من أدبيات صاحبهـا ، بمناسبة ترجمته بكتاب « المعسول » ـ ج 10 ص 187 ـ 198 ، وفهرسته الكبرى هي ـ بدورها ـ أشبه بالكناشات منها ببرنامج الاشياخ ، ولهذا يسميها « بالعوائد المزرية بالموائد » ، ولا تزال مخطوطة .

(26) محمد داود في تاريخ تطوان ـ ج 6 ص 208 .

(27) انظر دليل مؤرخ المغرب الاقصى : أرقام : 2159 ر 2161 ر 2165 ر 2168 ر 2179 ر 2195 ، مع ص 462 .

وانظر عن كناشات الادوزي محمد المختار السوسي في : « سوس العالمة » ـ ص 205 ، و « المعسول » ج 5 ص 72 ر 88 ، مع « خلال جزولة » ج 1ص 118 . وانظر ـ أيضا ـ لائحة الكناشات الواردة بهذه الدراسة .

(28) « تبصرة الحكام » ، مطبعة التقدم العلمية على هامش الفتاوي العليشية ـ ج 1 ص 59 ، ونقل كلام التبصرة أبو العباس الهلالي فيما له من الشرح على المختصر الخليلي ـ ص 124 ، غير أنه تصحف عنده ابن فرحون بابن هارون ، حســـب الطبعة الفاسية لنفس الشرح عام 1292 هـ .

(29) ص 228 .

(29) مكرر « نشر المثاني » المخطوط ، خ. ع. ك 2253 ـ ج 1 ورقة 80 . أ ، عند ترجمة المولىعبد اللهبن طاهر الحسني .

(30) « نشر المثاني » المطبوع ـ ج 2 ، الملزمة 25 ص 1 .

(31) « السر الظاهر » ط. ف ـ الملزمة 18 ص 3

(31) مكرر « الشرب المحتضر ، والسر المنتظر ، من معين بعض اهل القرن الثالث عشر » ، ط. ف - الملزمة الثالثة ص 6 .

(32) « اتحاف اعلام الناس » - ج 4 ص 81 ، مع العز والصولة - ج 2 ص 95 ...

(33) « اتحاف اعلام الناس » - ج 5 ص 476 .

(34) « المصدر » الاخير - ج 4 ص 121 و 127 .

(35) نفس « المصدر » - ج 1 ص 239 .

(36) « المصــــدر » - ج 4 ص 86 .

(37) « المصــــدر » - ج 5 ص 353 .

(38) « المصــــدر » - ج 5 ص 260 .

(39) « المصـــدر » - ج 4 ص 130 د 360 ، مع ج 5 ص 274 .

(40) « المصــــدر » - ج 4 ص 422 .

(41) « المصــــدر » - ج 4 ص 264 .

(42) « التراتيب الادارية » - ج 1 ص 24 ، مع « فهرس الفهارس » - ج 2 ص 217 .

(43) « التراتيب الادارية » - ج 1 ص 25 .

(44) « فهرس الفهارس » - ج 1 ص 406 ، مع ج 2 ص 220 .

(45) « المصــــدر » الاخيــر - ج 1 ص 204 .

(46) نفـــس « المصــــدر » - ج 2 ص 222 .

(47) « التراتيب الادارية » - ج 1 ص 25 .

(48) نشرت ضمن سلسلــة مطبوعــات معهــد الدروس العليــا المغربيـــة ، ج 19 ، سنـــة 1959 م .

(49) الكناشات المحال عليها سترد الاشارة لها من بعد .

(50) هذه التوصية معدة للنشر - بحول الله سبحانه - ضمن سلسلة نصوص مغربية قصيرة.

(51) انظر عنه : « مركز المصحف الشريف بالمغرب » ، مجلة دعوة الحق ، السنة 11 ، العــدد 3 - ص 71 .

(52) سنتبين أن كناشة أبي حامد الدمناتي بالمكتبة الملكية رقم 3718 ، وكناشة الامير العلوي بنفس المكتبة رقم 4001 ، وقد نشرت هذه الرسائل الاربعة من طرف ملفق هذه الدراسة :

الرسائل الليبية الثلاثة بعنوان : « ثلاث رسائل من المغرب الى ليبيا » ، مجلــة دعوة الحق : السنة 12 ، العدد 4 - ص 42 - 47 .

بينما نشرت الرسالة الجزائرية فى ذيل موضوع : « مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية » ، نفس المجلة : السنة 13 ، العدد 3 ص 58 – 60 .

(53) ثبت نص الرسالتين فى كتاب « مظاهر يقظة المغرب الحديث » : ج 1 ص 50 – 54، نقلا عن مصدر آخر احتفظ – بدوره – بالرسالتين قبل أن أقف عليهما بالكناشة التي نعلق عليها .

(54) ج 4: الكناشة الاولى: ص 78 و 83 و 88 و 109 ، والثانية: ص 77 و 109 و 110.

(55) جاء فى سوس العالمة ص 219 عن سوس بالخصوص : « وما أكثر امثال هذه الكنانيش عند العلماء » .

(56) انظر مخطوط « الاعلام ، بمن غبر من الاعلام » ، تاليف أبي محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمان بن أبي السعود الفاسي ، أثناء ترجمة وفيات عام 1072 هـ ، مع « نشر المثاني » المطبوع ، ج 1 ص 242 .

(57) ترجمته ومراجعها فى « سلوة الانفاس » – ج 2 ص 345 – 347 .

(58) « نشر المثاني » المطبوع – ج 2 ص 159 ، وانظر « السر الظاهر » لابي الربيع سليمان الحوات ، ط. ف ، الملزمة 18 ص 3 .

(59) سلوة الانفاس – ج 2 ص 346 .

(60) ترجمته ومراجعها فى « سلوة الانفاس » – ج 1 ص 316 – 318 .

(61) ترجمة كل من ابن سودة وغازي غير واردة فيما رجعت له من المصادر ، وجاء ذكر هذا الاخير عند الشيخ عبد المجيد الزبادي آخر رحلته : « بلوغ القصد والمرام ، بالرحلة الى بيت الله الحرام » ، حيث يصفه بالفقيه النبيه ، النزيه الوجيه الناظم الناثر ، الاصيل ، حسب مخطوطة الرحلة ، خ. ع. د 1808 و ك 398 .
وهناك مخاطبات خوطب بها محمد غازي : منها رسالة من العربي ابن ابراهيم ، ورسالة من مسعود الروسي ، حسب كناشة خ. ع. ك 2151 .

(62) تاريخ وفاته من خط السيد ابي الاسعاد الكتاني على أول الكناشة .

(63) هذا هو تاريخ وفاة قاضي مكناس سعيد العميري ، وقد اثبته الشرقي فى كناشته .

(64) استبدل السلطان أبو الفداء اسمه من محمد الى أحمد فتسمى به ، وقد ترجمه بكل من الاسمين ، على حدة مؤلف الاعلام ، بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ، ج 2 ص 172 ، مع 5 ص 28 – 30 ، وباسم محمد جاءت ترجمته فى اتحاف أعلام الناس ج 4 ص 106 – 117 ، وقد جعل هذا المصدر الاخير اسم والد المترجم أحمد بن الحسن ، مع ان الواقع ان هذا هو الاسم الثاني للمترجم نفسه .

(65) ترجمته فى الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام – ج 5 ص 62 .

(66) ترجمته فى المصدر الاخير – ج 5 ص 41 – 46 .

(67) ترجمته فى مخطوط « الاتحاف الوجيز » لمحمد بن محمد بن علي الدكالي السلوي ، خ. ع. د 42 ، مع « فهرس الفهارس » – ج 2 ص 217 – 218 ، وفى « الاعلام ، بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام » – ج 2 ص 183 – 187 .

(68) يظهر انه السكوري المتوفى عام 1201 هـ / 1786 ـ 87 م ، حسب « اتحاف المطالع» للمؤرخ عبد السلام ابن سودة .

(69) له ترجمة في « الاعلام » المراكشي بالقسم المخطوط ـ ج 6 ص 431 .

(70) ترجمته في « سلوة الانفاس » ـ ج 1 ص 204 ـ 205 .

(71) انظر ترجمة صاحب الكناشة من « تاريخ تطوان » ـ ج 6 ص 199 ـ 209 .

(72) ترجمته في « سلوة الانفاس » ج 3 ص 16 .

(73) تاريخ وفاته من « دليل مؤرخ المغرب الاقصى » ع 315 .

(74) ترجمته في مخطوطة « فهرس » محمد المهدي ابن سودة ، مع « فهرس الفهارس » ج 1 ص 300 ـ 302 .

(75) ترجمته في « سلوة الانفاس » ج 2 ص 155 ـ 156 .

(76) ترجمته بالمصدر الاخير ج 1 ص 177 ـ 178 .

(77) له ترجمة عند الحاج العربي المشرفي في كتابه : « نزهة الابصار »، خ. ع، ك 579 .

(78) ورد ذكره في « زهر الاس . في بيوتات فاس » لابي محمد عبد الله الكبير بن هاشم الكتاني ، خ. ع، ك 1281 عند ترجمة بيت بني البياز .

(79) لم أقف على ترجمته ، وورد ذكره في « الرحلة الحجازية » لمحمد بن محمد التهامي ابن عمرو الأوسي ، وقد حلاه بالفقيه الاريب ، العلامة القاضي ، وذكر أنهما قراءا ـ معا في فترة الطلب ـ بتطوان ثم بفاس ، حسب ترجمة الرحالة الرباطي عند محمد ابن علي الدكالي ، ونقلها ـ من خطه ـ محمد بن عبد القادر فرفرة الرباطي في «كناشة» له بالمكتبة التطوانية بسلا ، حيث وقفت عليها أثناء عام 1374 هـ / 1955م، وكانت وفاة ابن عمرو المذكور عام 1244 هـ .

(80) لا تعرف له ترجمة منتظمة ، على انه كان من جلة علماء وأدباء الريف المغربي، وورد ذكره عند أبي محمد عبد الكبير بن المجذوب الفاسي ، في « تذكرة المحسنين بوفيات الاعيان وحوادث السنين » ، خ. ع، ك 270 ، وهو يقدمه ـ عام 1259 هـ ـ حسب الفقرة التالية :

« وتوفي الفقيه المشارك ، الجهبد الذكي ، عالم وقته ، وعديم من يدانيه في وقته ، أبو البقاء : سيدي خالد بن سيدي محمد الهادي العمري الطنجاوي ، من سلالة العارف بالله سيدي أبي ابراهيم دفين سجلماسة ... توفي ـ رحمه الله ـ ببلاد سفيان من الغرب في أواخر شعبان من السنة ودفن هناك ، ثم نقل لضريح الولي الصالح الشهير : سيدي محمد الحاج البقال ، خارج باب الفحص من ثغر طنجة ، ودفن عند رجليه » .

وبعد « تذكرة المحسنين » نقفي بفقرة أوردها محمد الامين بن عبد الله الحجاجي الجعفري الصحراوي ، وأثبتها في كتابه : « الارتجال . في مناقب ومشاهد سبعة رجال » م. م. 194 :

« ... وبطنجة لقيت قارعة الادب ، الهجاء ، سيدي خالد الطنجي رحمه الله ،

فتذاكرنا ، واستنشدني فانشدته مطلع قصيدة فى مدح سيد البشر صلى الله عليه وءاله وسلم ، وهي قولي :

بطيبة نور ساطع وهو فائح
الى جنة الفردوس غاد ورائح

واستزادني فزدته ، وساجلني فما قدر على مساجلتي ؛ فكان ـ رحمه الله ـ يقول لبعض طلبة طنجة فى غيبتي : « ان شعري بدوي ؛ واني احفظ الاشعار الكثيرة وأختار منها ما أشاء لنفسي ؛ فاعرضت عن ذلك صفحا ؛ لشيبته وشهرته بالادب فى بلاد المغرب ، على اني لو رمت لنضاله ايتار قوسي ، لوجدته جرير وقتي ... » .

وبالاضافة الى اشعار المعني بالامر الواردة بالكناشة التي نعلق عليها ؛ هناك قصيدة له فى مدح الشاي ، أثبتها العربي الدمناتي فى كناشته التي تحمل بالمكتبة الملكية رقم 1952 ؛ كما أن القاضي المرحوم عبد الحفيظ الفاسي ؛ اشار فى احدى كناشاته الى قصيدة خالدية من مائة وسبعة أبيات فى مديح السلطان العلوي أبي زيد بن هشام ؛ ومطلعها :

بشارة خير قد بدت لي غزالة
كأن محياها الحيي غزالة

وهناك معلومات اخرى عن حياة المنوه به ؛ فى ترجمته التي نشرها ـ اخيرا ـ الاستاذ الكبير عبد الله كنون ؛ فى جريدة الميثاق : السنة 11 ، اعداد 190 ـ 193.

(81) له ترجمة قصيرة عند الفضيلي : الدرر البهيـة » ، ط. ف ـ ج 1 ص 177 ، وتاريخ وفاته من « اتحاف المطالع » .

(82) ترجمته فى « اتحاف اعلام الناس » ج 4 ص 189 ـ 239 ؛ مع « الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام » ج 5 ص 263 ـ 292 ، الى مصادر اخرى متعددة .

(83) له ترجمة فى كل من « الدرر البهية » ج 1 ص 227 ـ 228 ؛ مع « سلوة الانفاس » ج 3 ص 129 ـ 130 .

(84) له ترجمة فى « الدرر البهية » ج 1 ص 228 ـ 229 ؛ مع « الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام » ج 2 ص 230 ـ 233 ؛ وهو المترجم ـ أيضا ـ باسم مولاي احمد البلغيثي ـ فى « فواصل الجمان » ص 207 .

(85) يبدو ان هذا مع احمد بن الطاهر ءاتي الذكر اخوان ، ووالدهما هو مولاي الطاهر البلغيثي الكاتب المخزني فى الدولتين : الحسنية والعزيزية ، والمترجم فى « فواصل الجمان » ص 203 .

(86) ترجمته عند أبي المواهب جعفر بن ادريس الكتاني فى « فهرس اشياخه » ، ط. ف ـ الملزمة 3 ص 6 .

(87) ترجمته فى « سلوة الانفاس » ـ ج 1 ص 157 ـ 158 ، مع « فهرس الفهارس » ـ ج 1 ص 350 ؛ و «الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» ـ ج 5 ص 308ـ310

(88) لم اقف على ترجمته ؛ ويبدو من سلسلة ءابائه انه ابن مؤلف التحفة القادرية عبد السلام بن عبد الله الخياط القادري الحسني ؛ المتوفى عام 1228 هـ .

(89) مما تجدر ملاحظته : آن القادريين الفاسيين تسلسلت فيهم الكتابة في الانساب المغربية اجيالا متعاقبة ، ابتداء من محمد العربي بن الطيب صاحب الكناشة القادرية ، وشقيقه المولى عبد السلام مؤلف « الدر السني » ، ومعاصرهما أحمد بن عبد القادر ، ثم محمد بن الطيب مؤلف « نشر المثاني » وغيره ، ثم عبد السلام بن عبد الله الخياط مؤلف التحفة القادرية ، وولده محمد الطيب الذي نعلق على كناشته ، ثم السيد ادريس بن محمد بن الغالي ، واخيرا : ولده الطائع بن ادريس القادري ، المتوفى عام 1362 هـ .

(90) لم اقف على ترجمته ، على انه كان ولوعا بالتقييد للفرائد والسوارد ، وفي خط ولده انه توفي ليلة الاربعاء 20 من ذي الحجة عام 1276 هـ .

(91) لم اقف له على ترجمة منتظمة ، وورد ذكره عند الحاج العربي المشرفي بتنويه كبير ، بمناسبة الحديث عن بيت بني الفرديس بفاس ، وذلك في كتابه : « الحسام المشرفي » ، خ. ع، ك 2276 ، مع « مشموم عرار النجد والفيطان المعد لاستنشاق الوالي وانفاس المولى السلطان » ، بالمكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 2848 .

(92) وفاته من « اتحاف المطالع » .

(93) ترجمته في « فواصل الجمان » لمحمد غريط ص 71 – 75 ، مع « اتحاف اعلام الناس » – ج 3 ص 97 – 100 ، و « الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام » ج 5 ص 327 – 331 .

(94) ترجمته عند القاضي عبد الهادي بن احمد الصقلي : في وفياته المعنونة « بذكر من اشتهر أمره وانتشر ، ممن بعد الستين من اهل القرن الثالث عشر » ، مخطوطة خاصة ، مع « فهرس » أبي عبد الله محمد بن قاسم القادري ، ط. ف : الملزمة 5 ص 6 .

(95) ترجمته في « فهرس الفهارس » – ج 1 ص 268 – 269 .

(96) ترجمته في « سلوة الانفاس » – ج 2 ص 363 – 364 ، مع « فهرس الفهارس » – ج 2 ص 384 – 385 .

(97) ورد ذكره محلى بالعلامة الاديب عند الناصري في « طلعة المشتري » – ج 2 ص 169

(98) هو ابن مؤلف « الدرر المرصعة » ، وله ترجمة قصيرة في كل من « طلعة المشتري » ج 2 ص 151 – 152 ، مع « سلوة الانفاس » – ج 1 ص 265 .

(99) تعددت مصادر ترجمته لاعتبارات منوعة ، ونذكر منها خمسة :
— « الاغتباط ، بتراجم أعلام الرباط » ، خ. ع، د 1287 .
— « مجالس الانبساط ، بشرح تراجم علماء وظلحاء الرباط » ، م. م 779 .
— « اتحاف أعلام الناس » – ج 5 ص 429 – 438 .
— « كشف الحجاب » ، الطبعة الثالثة – ص 313 – 328 .
— « أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين » : الرباط وسلا – ج 2 ص 368 – 371 .

(100) ترجمته في القسم المخطوط من : « الاعلام ، بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام » ج 6 .

(101) ورد ذكره في « الدرر البهية » — ج 1 ص 221 ، وله ترجمة قصيرة عند ابن زيدان في أحد تعاليق « النهضة العلمية ، في عهد الدولة العلوية » ، حسب مقتبسات مستخرجة منها .

(102) ترجمته في « فواصل الجمان » ص 204 ، مع « اتحاف أعلام الناس » ج 5 ص 394 — 397 .

(103) له ترجمة في احد تعاليق « النهضة العلمية » المشار لها وشيكا .

(104) ترجمته في « الاعلام ، بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام » — ج 2 ص 265—266.

(105) ترجمته في « اتحاف اعلام الناس » — ج 4 ص 262 .

(106) ترجمة في « فواصل الجمان » ص 195 — 199 ، و « اتحاف أعلام الناس » ج 2 ص 94 — 106 ، مع اعتماد تاريخ وفاته الوارد بالمصدر الاول .

(107) ترجمته في « اتحاف أعلام الناس » — ج 1 ص 456 — 463 ، مع معجم الشيوخ ج 1 ص 99 — 103 .

(108) ترجمته في كل من « الاغتباط » و « مجالس الانبساط » المخطوطين المشار لهما سلفا ، مع « الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام » — ج 2 ص 281 — 289 ، ثم « أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين » — ج 2 ص 39 — 43 .

(109) ترجمته في البقية المخطوطة من « اتحاف أعلام الناس » بالمكتبة الملكية رقم 3986 من المجموعة الزيدانية .

(110) ترجمته في « المعسول » — ج 5 ص 70 — 98 .

(111) ترجمته في « سل النصال ، للنضال بالاشياخ وأهل الكمال » اسم فهرس مخطوط لابي خليل عبد السلام ابن سودة .

(112) المصدر الاخير .

(113) ترجمته في القسم المخطوط من « الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام » ج 6.

(114) ترجمته في « أعلام الفكر المعاصر » — ج 2 ص 214 — 226 ، مع جريدة « السعادة » ع : 4337 — 4338 ، السنة 33 ، عام 1355 هـ / 1936 م .

(115) ترجمته في « أعلام الفكر المعاصر » — ج 2 ص 263 — 265 .

(116) هناك مقالان في التعريف به بقلم كل من العالمين : محمد السايح وعبد الحفيظ الفاسي ، حسب مجلة الثقافة المغربية سنة 1941 م ، العدد 3 — ص 123 — 129.

(117) ترجمته في « أعلام الفكر المعاصر » — ج 2 ص 177 — 182 ، مع « سل النصال ، للنضال بالاشياخ وأهل الكمال » ، وجريدة « السعادة » ع : 6470 ، السنة 42 ، عام 1364 هـ / 1945 م .

(118) ترجمته في « اعلام الفكر المعاصر » — ج 2 ص 162 — 163 .

(119) نشرت ترجمته — قيد حياته — في جريدة « السعادة » ع 4916 .

(120) ترجمته في « سل النصال ، للنضال بالاشياخ وأهل الكمال » .

(121) ترجمته في « الادب العربي بالمغرب الاقصى » — ج 1 ص 76 — 78 .

قريتي في الربيع

عيسى الناعوري

قريتي دمية تعز مثالا
زادها مبدع الربيع جمالا

تكتسي مطرف الربيع وشاحا
وتلف السناء بردا وشالا

وتعيش الحياة في روعة الحلم
كطفل يغفو وينعم بالا

الينابيع ثرة في رباها
واخضرار الكروم يكسو الجبالا

والعصافير :

ههـنــا جــوق عــرس
يسكر السهل صدحه والتــلالا

وهنــا مرقص وجوقــة أنــس
تمــلأ الروض نشــوة واختيالا

والدوالى :

عرائـــس حـــالمـــات
يتمطــين فى ارتــخـــاء ، دلالا

يتهامسن ، والشعــاع عيــون
جائعات على الجسوم الكسالى

ومياه الوديان تضحك للعشــب
وتسقى الحقــول عذبــا زلالا

تتراءى الاشجار والزهر فيهــا
بضة الحسن ، حيــة لا ظــلالا

وببلورها النقى يرى الــروض
قريــرا ، لكــل غصــن مثــالا

يركع الزهر جاثيــا فى حفافيها
ويتلـــو الى السماء ابتهــالا :

* * *

« مبدع الحسن والربيع حنانا !
لا تـــدع للربيع يومــا زوالا !

انه بهجة الحياة ، يشيع الحب
فيها ، ويستـــثـير الخـــيــالا

هو شعر، ويستفز حبيس الشعر
فى النفس ، صافيــا منــثــالا

انـــه بسمــــة على كل ثــغـــر
تجعل الخلـــق بالجمال ثمــالى

كل نفس تنــوء بالحزن والهــم
يزيـــل الربيع عنهـــا الكـــلالا

فى بهـــاء الربيع يبصرك الناس
جميعـــا فيعبـــدون الكـــمـــالا

عمـــان **عيسى الناعورى**

أضواء على حياة

الحسن بن محمد الوزان
وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها

د. شوقي عطا الله الجمل

من المفارقات الغريبة ان رحلة الحسن بن محمد الوزان ، وانتاجه وشخصيته لقيت من العناية والاهتمام فى العالم الغربي أو العالم الاوربي على وجه العموم اضعاف أضعاف ما وجدته فى عالمنا العربي والاسلامي الذي ينتمي اليه الرحالة ، فباستثناء محاولات فردية سريعة لتسليط الاضواء عليه – لم ينشر بالعربية بحث كامل شامل عنه ، بل يكفي ان كتابه « وصف افريقيا » – وهو بلا شك ليس الانتاج الفكري الوحيد له – ترجم الى معظم لغات العالم وطبع عدة طبعات ، ولم يقدر له الى الآن أن يطبع وينشر بالعربية ، واعتقد أنني لا ابتعد عن الصواب كثيرا اذا قلت ان الكثيرين من المثقفين قد يعرفون الرحالة باسمه الاجنبي الذي أطلق

عليه في ظرف معين من حياته (ليون الافريقي) بينما يجهلون اسمه العربي الذي يرجع به الى أصله الحقيقي .

وتبدو غرابة هذا الوضع ، وحجم الفراغ الذي تشكو منه مكتباتنا العربية ــ لعدم وجود ترجمة عربية لكتاب « وصف افريقيا » بين كتب التراث المنشورة ، حين نلقي بعض الاضواء على هذا الكتاب فندرك قيمته الحقيقية ووضع مؤلفه واهميته .

ان الوزان يقف في الصف ــ ودون مبالغة ــ مع البكري العالم الجغرافي (1094 م) والادريسي (1100 ــ 1165) ، ومع الرحالة المغربي ابن بطوطة (1304 ــ 1377) وغيرهم ممن عرف لهم العالم مكانتهم ، بل ان مؤلفه يتميز بأهمية خاصة ترتبط بالظروف المحيطة بالعالم العربي ، والاوربي التي عاش فيها ، والميدان الذي تناولته جولاته.

فالعصر الذي عاش فيه الرحالة ــ كما سنبين بايضاح اكثر فيما بعد ــ يمثل مرحلة حاسمة فيما يتعلق بتاريخ العرب خاصة في شمال افريقيا ، وعلاقاتهم بأوربا ، التي كانت هي الاخرى على أعتاب مرحلة النهضة الاوربية التي عاصر (ليون) ــ كما أصبح يسمى في روما ــ اشعاعاتها القوية ، وقد عاش هو في بلاط اسرة مدتشي (Medicci) التي يذكر لها مساهمتها بنصيب في اذكاء شعلة هذه النهضة .

ان بعض المؤرخين والكتاب يعتبرون رحالتنا هذا آخر حلقة في سلسلة العلماء العرب الذين نبتوا في ظل الحضارة الاسلامية المزدهرة في الاندلس ، ومهما يكن مدى صحة هذا الراي ــ فان رحلات الوزان ومؤلفه عنها تثير الانتباه الى عدة ظواهر في العالم الاسلامي لها أهميتها البالغة ، فهي تدل على الروابط الثقافية التي كانت بين أجزاء العالم الاسلامي مغربه ومشرقه ، فرغم انقسام العالم الاسلامي الى عدد من الوحدات السياسية ــ فقد كان باستطاعة الرحالة والعلماء بالذات أن ينتقلوا دون اي جهد من بلد الى آخر ، وان يقيموا أمدا طويلا أو قصيرا في مختلف الاماكن دون الاحساس بفروق كبيرة ، وكانوا يقابلون عادة في

اي بلد من بلاد الوطن العربي بالترحاب وتعرف لهم مكانتهم ويستفاد من علمهم وخبرتهم (1) .

وكان الاندلس ــ وحتى نهاية دولة غرناطة (1492 م) ، وحتى بعد ذلك بفترة غير قصيرة ــ مرتبطا بالمغرب والمشرق العربي ينتقل رواد العلم والرحالة منه الى هذه الاقطار العربية فى المغرب والمشرق دون عناء .

والظاهرة الهامة الاخرى التي تبرز لاول وهلة من تتبع رحلة الوزان وغيره من رحالة الاندلس والمغرب والتي يمكن وضعها فى صيغة استفهامية هي :

ما العوامل والمؤثرات التي جعلت المغاربة بالذات يبرزون فى مجال الرحلات العلمية ، تلك الرحلات التي تميزت بدقة الملاحظة والتحليل ؟

فرحلة الوزان ليست فريدة فى بابها لكنها فى الحقيقة حلقة بارزة فى سلسلة الرحلات العلمية التي قدمت للفكر الانساني ولعلوم الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وغيرها من العلوم ــ ثروة لا تقدر ، وقد ذكر مؤرخ الاندلس الذي عاش فى القرن السابع عشر وهو المقري ــ اسماء مائتين وثمانين شخصا من الاندلسيين قاموا برحلات للشرق للرحلة والعلم وليس للتجارة ــ واعترف انه لم يستوعب كل الاسماء .

نبذة عن حياة الحسن بن الوزان :

من هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي ؟

بالرغم من المحاولات المتعددة للكشف عن الوزان فلا تزال نواح عدة من حياته وشخصيته لم تكتشف بعد ، أو على الاقل لا نستطيع الجزم بحقيقة الامر فيها ، اذ أن أحدا من المعاصرين له لم يتحدث عنه ــ ومع ذلك فيمكن من ثنايا كتابه المنشور أن نستشف بعض جوانب شخصيته ومكوناتها .

وكل ما نعرفه عن (العائلة الوزانية) التي ينتسب اليها ـ هو انها عائلة عربية كانت بالاندلس فى فترة حاسمة من تاريخ العرب فى هذه البلاد وكفاحهم ضد القوى المسيحية التي أخذت تكيل لهم الضربات حتى انتهى الامر بالقضاء على نفوذ العرب فى اسبانيا ، وهجرة البقية من المسلمين من هذه البلاد تبحث لها عن مأوى فى البلاد الاسلامية الاخرى القريبة . وكانت أسرة الوزان من هذه الاسر التي هاجرت من (غرناطة) الى شمال افريقيا ، واستقرت أخيرا فى فاس (2) .

ورغم أننا نجهل مركز أسرته ـ لكن هناك اشارات فى كتابه تدل على أنها كانت أسرة مرموقة سواء فى (غرناطة) أم بعد هجرتها الى المغرب ، فهو يشير الى أن اباه كان يقضي فصل الصيف عادة (بقصر عباد) قرب فاس لهوائه العليل وطقسه الجميل ، كما يشير الى انه (اي اباه) كان يسافر الى بعض الجهات بالريف فيما يتعلق بعمله ـ أما عمه فقد كان شخصية ذات بال ،فقد ذكر انه كان يسافر كسفير عن حاكم فاس فى السفارات الهامة ، وقد صحبه هو الى (تمبكتو) (3) .

وقد تعددت الاسماء والصفات التي اطلقت عليه ، فقد عرف فى المراجع الاجنبية باسم (Leo Africanus) اي يوحنا (الاسد) الافريقي ، كما عرف باسم (Giovanni Lone) ، واحيانا سمي (ليون الايبيري) أو (الغرناطي) أو (الفاسي) .

وكل من هذه الصفات يتصل بناحية خاصة من نواحي حياته . فصفة الافريقي لعلها ترجع الى أن كتابه الهام الذي نشر ، وكان سبب شهرته يتعلق بتاريخ افريقيا ووصفها والاشياء الهامة المتصلة بها (4) .

أما اسم (ليون أو ليو) أو (جيوفاني) فهو يرتبط باسم البابا ليو العاشر (Leo X) الذي جلس على كرسي البابوية (1513 ـ 1521) وهو من أسرة مدتشي (Medicci) (5) وكان اسمه قبل أن يصل الى كرسي البابوية (Geovanni de Medicci)

وقد أدرك هذا البابا منزلة الحسن بن محمد الوزان حين قدمه له القرصان بعد اسره ـ فقربه اليه ، وعمده ثم أطلق عليه اسمه ، وكان هذا البابا مهتما بشؤون الشرق والبلاد الاسلامية ، ويذكر التاريخ انه حين زاد خطر الاتراك العثمانيين جرت مباحثات بين (ليو العاشر) وبين (فرنسوا الاول) ملك فرنسا فى عام (1515) ـ بهدف بحث امكان ارسال حملة صليبية ضد الاتراك العثمانيين (6) .

اما لفظ (الايبيري) أو (الغرناطي) فيرجع لارتباطه بغرناطة فى شبه جزيرة ايبيريا ، أما (الفاسي) فنسبة الى مدينة (فاس) التي ارتبطت بفترة هامة من حياته وتكوينه الفكري .

وقد اثيرت شكوك حول مسقط راسه ، فيتساءل (بورى (Pory هل ولد (الحسن بن محمد) فى (غرناطة) ، أم فى بلد افريقي آخر ؟ ويبني شكوكه هذه على تعبير جاء فى كتاب (وصف افريقيا) فقد ذكر فيه « ان افريقيا ـ القارة التي ادين لها بمولدي ـ بالاضافة الى الفضل الاكبر فيما اكتسبته من ثقافة (7) » .

والحقيقة ان الترجمة الانجليزية هي المسؤولة عن هذا (اللبس) فالنص اللاتيني لا يحمل هذا المعنى ، لكنه يعني « ان افريقيا القارة التي احتضنته فى صغره ، والتي قضى فيها زهرة حياته » .

وقد وقع فى هذا الخطأ كتاب آخرون ، فالكاتب (Rae) فى حديثه عن بلاد المغرب يشير الى (ليو) على انه ولد فى المغرب ، لكنه بعد ذلك شب فى غرناطة كشخص مسيحي ، دون أن يفسر لنا ظروف انتقاله هذا الى غرناطة والى المسيحية (8) .

لكن فى الحقيقة ان (ليو) نفسه يحسم هذا الامر ، فهو يذكر لنا انه التقى بأحد الغرناطيين من أبناء بلده الاصلي (9) .

وهناك اختلاف ايضا فى تحديد تاريخ ميلاده ، فقد ذهب كثيرون من الكتاب الى أنه ولد فى عام (1491 م) ، ولعل تحديد هذا التاريخ

ارتبط بسقوط غرناطة التي استسلمت فى (2 يناير 1492 م) ، ولما كان رحيله الى افريقيا قد تم فعلا وهو طفل استنتج هؤلاء انه ولد فى العام السابق لسقوط غرناطة أي فى عام (1491) ــ لكن هذا الزعم لا يستند فى الحقيقة على أسس قوية ، فلا يوجد ما يدل على ان اسرته هاجرت الى المغرب بعد سقوط (غرناطة) مباشرة ، اذ انه من المعروف أن عددا غير قليل من المسلمين بقي فيها مدة بعد سقوطها .

على ان تاريخ ميلاده يمكن استنتاجه من اشارته فى كتابه لبعض الاحداث التاريخية ــ فعند كلامه عن سقوط (آسفي) فى يد البرتغال يشير الى ان عمره كان فى ذلك الوقت عشر سنوات (10) .

ولما كان استيلاء البرتغاليين على آسفي قد تم فى عام (913 هـ ــ 1508 م) فهذا يعني ان مولده كان فى عام (904 هـ ــ 1498 م) ، وبالتالي تكون أسرته قد بقيت فى غرناطة مدة ست سنوات تقريبا بعد أن سلمت آخر معاقل الاسلام فى اسبانيا لجيش (ايزابيلا) و (فرديناند).

وهذه الحقيقة تفتح الباب لتساؤلات عدة عن وضع المسلمين الذين بقوا فى اسبانيا بعد تصفية النفوذ الاسلامي فى هذه البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين ما يقرب من ثمانية قرون .

والمعروف ان كثيرا من المسلمين هاجروا من الاندلس قبيل سقوط غرناطة ، واثر سقوط هذه المملكة وقد لجأ عدد منهم الى المغرب واستقر بعضهم فى (تطوان) بينما استقر البعض الآخر فى (الرباط) و (سلا ،) ولعب هؤلاء المهاجرون دورا هاما فى تاريخ هذه البلاد ، فكانت منهم أسر حاكمة ، كما حملوا لواء الجهاد والكفاح ضد البرتغاليين والاسبان فى البحر المتوسط وفى ثغور شمال افريقيا التي تعرضت لاطماعهم (اطماع البرتغاليين والاسبان) ، ووصل الامر الى أن أصبح لهم اسطول قوي يعمل فى البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ضد سفن البرتغال والاسبان بالذات ، وقد شعرت الدول الاوربية جميعها بوطأة هذا الاسطول حتى أن بعض الكتاب الاوربيين أطلقوا على البحارة

العاملين فى هذا الاسطول اسم قراصنة سلا (Les corsaires de Salé) وهذا التعبير فيه تجنى على الدافع الحقيقي وراء هذا العمل (11) .

اما الذين بقوا من المسلمين فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة ــ ومنهم اسرة الوزان ــ فقد عوملوا فى البدء معاملة مقبولة وسمح لهم بالابقاء على ممتلكاتهم ، لكن لم يلبث الاسبان أن ضيقوا عليهم الخناق ، واضطر كثيرون لاعتناق المسيحية وساموا الباقين سوء العذاب ، وأجبروهم على العمل كالعبيد فى السفن الشراعية ، او فى مناجم (بيرو) ، كما ألزموهم ان يجتمعوا فى احياء خاصة بهم وحرموا عليهم شراء الاراضي أو حمل السلاح ، وظل الامر كذلك حتى وصلت موجة الاضطهاد الى ذروتها فى عهد فيليب الثالث (Philippe III) الذي وصل للعرش فى عام 1598 ، وبتحريض الراهب المتعصب زيمينس (ximenes) أصدر فى (1609) قرارا بترحيل جميع المتبقيين من عرب الاندلس الى المغرب ، وقد قتل كثيرون منهم قبل وصولهم الى الساحل ، ومن وصل منهم الى الساحل وصل فى حالة يرثى لها (12) .

على كل فمن المرجح أن أسرة الوزان ــ كما ذكرنا ــ بقيت فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة فى يد الاسبان مدة اربع او خمس سنوات ، ثم هاجرت الى المغرب حوالي عام 1497 واستقرت فى فاس ، ولم يكن اضطهاد الاسبان للعرب فى الاندلس قد وصل الى درجة العنف التي تطورت اليها الامور فيما بعد . (13)

وصل الرحالة الى (فاس) مع أسرته ــ ومنها كانت نقطة انطلاقة لرحلاته المتعددة .

وفى فاس تلقى الوزان علومه الاولى فى مدارسها ، وتعلم فى (جامع القرويين) الذي كان يعتبر كعبة الراغبين فى التزود بالعلوم الدينية والنظرية (14) .

وقد كانت (فاس) فى ذلك الوقت من اهم مراكز العلم والمعرفة

فى العالم العربي ، يأتي اليها طلاب العلم من مختلف بقاع العالم الاسلامي ، وكانت لها مكانة لا تقل عن مكانة (القاهرة) و (قرطبة) و (غرناطة) ، ولعل الظروف السياسية التي أحاطت بالعالم الاسلامي والتي تمثلت في انتهاء نفوذ العرب السياسي في اسبانيا ـ رغم قسوتها ـ ساهمت في ازدهار منار العلم فى فاس اذ أصبحت بلاد المغرب بالذات المأوى الذي احتضن الكثيرين من المثقفين والعلماء المهاجرين من اسبانيا . ودراسة الاوضاع العلمية والفكرية فى المغرب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعطي لنا فكرة عن الجو العلمي الذي نشأ فيه الوزان والذي اسهم فى تكوينه .

ولعل اروع وصف لما وصل اليه صاحبنا من العلم والمعرفة هو ما عبر عنه (Pory) مترجم كتابه للانجليزية اذ قال : « كما ان موسى وصف بأنه تثقف بكل حكمة المصريين ـ كذلك فان ليو يمكن أن يوصف بأنه تثقف بكل ثقافة المغرب والمغاربة فى عهده (15) » .

ويشير الوزان فى كتابه الى بعض رفاقه فى التعليم (16) لكنه لم يشر الى اساتذته ، وان كان قد اشار الى عشرات من المفكرين والفلاسفة المسلمين الذين قرأ لهم وتأثر بكتاباتهم مثل (ابن رشد ، الفارابي ، ابن سينا ، ابن خلدون ، عبد الله البيطار ، البكري ، الادريسي ، المسعودي) والعديد غيرهم ، وهذا يدل على انه نال قسطا وافرا من فنون العلم المختلفة واطلع على أمهات الكتب المعروفة فى وقته فى ألوان المعرفة المتعددة .

أما عن أوجه نشاطه الاخرى فى المغرب فيذكر انه اشترك مع والده فى اعداد قوافل الحج المتوجهة الى الحجاز ، كما يشير الى زياراته لبعض المزارات التي كانت لها قدسية فى ذلك الوقت .

وقد شغل الحسن بن محمد الوزان فى بداية حياته العلمية ، بعض الوظائف ، فعمل لمدة عامين ككاتب عدل فى المستشفى الكبير بفاس (17).

رحـــلاتــــــه وأسفــــــاره :

تعددت أسفاره وتنوعت ، فلم يعد يستقر فى بلد معين لمدة طويلة، ويبدو أن السفر والترحال اصبح الشيء المحبب الى نفسه والذي يتلاءم مع ميوله واتجاهاته ، ولذلك نراه يتنقل فى البلاد ويعمـــــل (كقاض) أو حكم فى الخلافات بين الناس مقابل اشياء عينية لان النقود لم تكن متداولة بكثرة ، وهو فى ذلك يستند لالمامه ببعض المبادىء القانونية ، كما أنه فى بعض أسفاره مع التجار كان يعمل كاتبا بدون حساباتهم كما يفصــــل فى مشاكلهم المادية والقانونية ، ويشير الى بعض المتاعب التي كـــان يواجهها التجار فى الطريق ، أو فى المدن الساحلية من القرصان الذين كانوا لا يجردونهم فقط من بضائعهم — لكن ايضا يسلبونهم حريتهـــم اذا وقعوا فى ايديهم ، ولذا فان التاجر لم يكن تاجرا فحسب بل كان يلزم أن يكون ايضا رجل حرب مستعدا للدفاع عن نفسه وماله ضد اي هجـــوم مفاجـــيء .

ولم تقتصر تحركاته على هذا المجال ، فقد كلف من قبل (سلطان فاس) ، وكذا من (الشريف محمد) بالقيام بسفارات هامة (18) .

واشترك الوزان — بالاضافة الى ذلك — فى المعارك التي وجهت ضد البرتغال فى (أصيلا) و (المعمورة) وغيرهما من الموانيء المغربية التي كان البرتغاليون قد وضعوا أيديهم عليها . وهو يعطينا فى هـــذا المجال صورة رائعة للمقاومة الوطنية للمغاربة ضد المستعمرين حتـــى أصبحت حياتهم بالثغور المغربية لا تطاق (19) . اذ لم يكتف البرتغـــال بطرد العرب من شبه جزيرة ايبريا بل تعقبوهم فى القارة الافريقية حيث شنوا على المسلمين حربا يمكن أن نعتبرها امتدادا للحروب الصليبية ، فقد كان الهدف الديني فى مقدمة الدوافع لها ، وشارك فيها اكثر من بلد أوربي ، كما لعبت البابوية دورا هاما فيها . وقد صرح المؤرخون البرتغال انفسهم بذلك . فذكر المؤرخ البرتغالـــي (فاسكو دى كرافالو) : « ان الروح الطيبية التي ضعفت فى كل أوربا اخذت تنتعش فى البرتغال (20)» .

هذا وفى بعض رحلاته كان الوزان يسافر بتكليف من سلطان فاس كملحق مع بعض الموظفين الحكوميين لتحصيل الاموال المطلوبة من القبائل ، ويشير أثناء حديثه عن ذلك لاشياء طريفة ، فيذكر أن الناس رغم قدرتهم على الدفع فان هناك صعوبة فى أخذ النقود منهم ، ويذكر أن بعض القبائل بالذات عرف عنها البطء فى دفع ما عليها من مال (21) .

ومن جولات رحالتنا الوزان فى المغرب ، الجولة التي قام بها فى عام (915 هـ — 1509 م) لدراسة الشواهد التي على قبور بعض الشخصيات البارزة فى (شالة) (22) ويبدو — كما يذكر — أنه اتخذ منها مادة لكتاب وضعه عن هذه الشخصيات فيما بعد — والحقيقة أن هذه الدراسة ولو أنها قد تبدو غريبة فى الاساس الذي بنيت عليه — وهي شواهد القبور — لكنها بلا شك دراسة طريفة وتعطي فكرة على أنه كاتب ومفكر مجدد ، ولا يقف عند حدود التقليد .

ومن الرحلات الهامة التي قام بها — الرحلة الطويلة الى (تمبكتو) . وقد بدأها — كما يستفاد من كتابه — فى عام (917 هـ — 1511 م) عن طريق (سجلماسة) حتى وصل (تمبكتو) التي وصفها وصفا شيقا ، وكانت فى ذلك الوقت فى قمة مجدها بعد غزوات (أسكيا) الذي يسميه (ملك تمبكتو) والذي يقول انه ألزم معظم الاقاليم المجاورة على دفع ضرائب له ، ويشير الى سفره (اي اسكيا) الى مكة للحج ، وزار الوزان مملكة (مالي) وكانت فى حالة من التدهور بسبب الحروب التي طحنتها . ومن (صنغاي) اتجه شرقا الى بلاد (الهوسا) ، ثم الى (بورنو) . — وهكذا زار فى رحلته هذه — التي وصفها فى الكتاب السابع من كتبه التسعة — عددا كبيرا من الممالك الاسلامية والزنجية بغرب افريقيا ، ويذكر انها كلها تقريبا تقع بالقرب من نهر النيجر وفروعه .

وقد وقع الوزان فى خطأ عجيب حين ذكر أن نهر النيجر ينبع من بحيرة تشاد ويسير نحو الغرب الى المحيط ، رغم انه أبحر فى مياهه لخمسمائة ميل او اكثر . على أن هذا الخطأ الذي لا مبرر له لا يقلل من

قيمة المعلومات المتعلقة بافريقيا الغربية التي أمدنا بها ، والحقيقة أن هذه المعلومات تعتبر مكملة للصور التي رسمها الادريسي لهذه الجهات ، فهي توضح التغييرات التي طرات منذ وصفها الادريسي . وهذا يوضح اهمية هذه الرحلة وما كتبه الوزان عن هذه الممالك الاسلامية فى غـــرب افريقيـــا .

أما عن رحلاته الى المشرق واوربا ، فقد قام الحســـن بن محمد الوزان بثلاث رحلات الى مصر ، واعطى وصفا دقيقا للاوضاع بها فى ظل حكم المماليك ، لكنه يذكر انه زارها بعد فتح السلطان سليـــم لها ، وان وجوده هناك وافق خروج السلطان سليم من الاسكندرية ، فلعل فتـــرة زيارته لمصر كانت بين (1515 ، 1517) وانه زارها فى طريقـــه إلى القسطنطينية أو طريق العودة منها ، كما زار الحرمين الشريفين وبعض جهات آسيا ، ويذكر لنا انه اذا أمد الله فى عمره سيقـــوم بوصف كـــل الاماكن الآسيوية التي زارها (شبه جزيرة العرب ، الجزء الآسيوي من مصر ، العراق ، فارس ، بلاد التتار ، آسيا الصغرى ..) لانـــه لا يود أن يتعرض لوصف هذه البلاد فى كتابه الذي خصصه لاسفاره فى افريقيا حتى لا يبعده ذلك عن الموضوع الرئيسي للكتاب (23) . ولا ندري هـــل حقق هذا الامل ؟ وهل له كتاب أو كتب فى هذا الشأن ما زالت بعيدة عن متناول أيدينا ، أم لا ؟

هكذا نرى أن الوزان قضى معظم وقته بعد أن شب عن الطـــوق متنقلا فى اعمال تتعلق بالتجارة او الحرب او الدبلوماسية او كقاض او حكم فى المنازعات المدنية والمادية او ككاتب عدل أو فى رفقة والـــده او عمه ، ولذلك لم تكن لديه ــ كما يذكر ــ اوقات فراغ طويلة ،لكن فى أوقات الفراغ هذه كان يتغنى بالاشعار (24) .

هذا وفى اثناء عودته من القسطنطينية ، كان فى تونس ــ كما ذكر فى عام (926 هـ ــ 1519 م) ومنها ابحر قاصدا المغرب ، لكنه وقع فى أيدي قرصان صقلية الذين كانوا يجوبون فى البحر المتوسط قـــرب جزيرة جربة (25) ، ويبدو أن هؤلاء القرصان ادركوا انه شاب ليس كباقي

الاسرى الذين يقعون بين ايديهم فلم يبيعوه فى اسواق النخاسة بل حملوه الى (نابولي) ثم الى (روما) حيث قدموه هدية الى البابا ليو العاشر ، وكان هذا البابا من أسرة أثرت من التجارة لكنها أيضا — كما ذكرنا — اشتهرت بتشجيعها للعلم والعلماء — فعرف له مكانته واضفى عليه رعايته واطلق سراحه كما اطلق عليه اسمه ، وأتاح له فرصة الاجتماع بالعلماء والادباء الذين كان (البابا) يحتضنهم .

وتثير المراجع التي تعرضت لهذه الفترة الحاسمة من حياة ليو — جدلا حول اعتناقه المسيحية من عدمه ، وهل تم هذا مجاملة البابا الذي احتضنه او للوسط المسيحي الذي وجد فيه ، ام عن اقتناع ويقين كما يدعي (John Pory) الذي نقل مؤلفه الى الانجليزية عام 1600 (26).

وهذه النقطة ما كانت تستحق وقفة او تعليقا لولا أن بعض الكتاب الاجانب الذين تعرضوا لهذه الفترة بالذات اتخذوا منها تكأة فرددوا فكرة ان تحول المسلمين عن دينهم كان فى ذلك الوقت امرا شائعا . ومما لا شك فيه ان المسلمين فى الاندلس تعرضوا فى هذه الفترة الى ضغوط عنيفة واضطر كثيرون منهم الى الهرب بدينهم الى المغرب وغيره من بلاد الساحل الافريقي المقابل لشبه جزيرة ايبريا ، وقد كان العامل الديني من ابرز العوامل فى الحرب بين ملوك اسبانيا والبرتغال من جهة وبين العرب من جهة اخرى ، وقد حاول هؤلاء الملوك تعقب العرب فى شمال افريقيا بل حاولوا تطويق القوى الاسلامية والقضاء على مصدر قوتها التي كانت في ذلك الوقت تتمثل فى تجارة الشرق ، فكانت المحاولات للسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية الى مصادر هذه التجارة .

ويهمنا فى مجال بحثنا هذا موقف البابوية من هذه الحركة ومباركتها لها ، فهذا بلا شك يلقي الاضواء على موقف البابا (ليو العاشر) من الوزان ، والاهتمام بما يمكن أن تستفيده الدول المسيحية فى كفاحها ضد القوى الاسلامية من رحلاته والمعلومات التي كشف عنها . فليس الهدف العلمي فحسب كما تصور الكتابات الاجنبية هو العامل الوحيد الذي يفسر موقف البابا (ليو العاشر) من رحالتنا ، خاصة انه كانت لهذا

البابا بالذات مواقف اخرى معروفة فى التاريخ الاوربي حين اصطدم الدين بالتيارات الفكرية العصرية التي هي فى الحقيقة من نتاج عصر النهضة الاوربية ، وقد اشرت قبل الى أن البابا (ليو العاشر) لعب دورا هاما فى اثناء حركة مارتن لوثر (27) .

على كل فيما يتعلق بالوزان فلا يمكن ان نجزم — دون دليل قاطع — بأن شخصا مثله عاش وشب فى بيئة اسلامية دينية فى (فاس) وتعلم فى اكبر معاهدها الدينية ، من السهل ان يتحول عن دينه خاصة أنه لم يشر هو لشيء من هذا ، وكل ما فى الامر ان الذين تعرضوا للدراسة حياته ولمسوا ما قام بينه وبين البابا (ليو العاشر) من تقارب ومودة لم يتصوروا حدوث مثل هذا التعاطف بين البابا وشخص غير مسيحي ، وفسروا العمل الذي قام به البابا من اطلاق اسمه على الرحالة وغير ذلك بانه دليل اعتناقه المسيحية برغبته ورضاه .

عاش الرحالة فى روما حوالي ثماني سنوات زار خلالها عدة مدن ، وقام بتدريس اللغة العربية بكلية مدينة بولونيا (Bologna) وقد ربطته في روما صداقة بالقس (Viterbo) الذي اصبح فيما بعد كاردينالا باسم (Cardinal Egidi antonini) وقد علمه (ليو) العربية . لكن بعد وفاة البابا ليو العاشر فى عام (927 هـ — 1521 م) يبدو انه لم يلق نفس المعاملة التي كان يعامل بها فعاد بعد فترة الى شمال افريقيا حيث لجأ لتونس فقضى بقية حياته حيث مات فى (1552) .

ويستنتج من كتابه (وصف افريقيا) انه ختمه فى روما فى (10 مارس 1526) ، فمغادرته روما اذا كانت بعد هذا التاريخ (28) .

الاوضاع فى البيئة التي عاش فيها الوزان (قبل اسره وبعده) :

قبل ان نتعرض لكتاب وصف افريقيا الذي كان سبب شهرة الوزان لعله من الاوفق أن نقف وقفة نلقي فيها نظرة على المناخ الذي عاش فيه

سواء قبل اسره أو بعد اسره وانتقاله لاوربا ، ففي هذا المناخ تكونت مفاهيمه وآراؤه واتجاهاته بالاضافة الى تكوينه العلمي والثقافي .

لقد عاصر الرحالة فترة تعتبر ـ من الناحية السياسية ـ من فترات التاريخ الحاسمة سواء في المغرب او في أوربا . فقد كان المغرب يشهد غروب شمس دولة بني مرين ـ ملوك فاس ، وزيادة نفوذ بني وطاس واستبدادهم بالامر ، لكن لم تستقر الامور لهم بمفردهم طويلا فقد اشتد ساعد امراء مراكش (السعديين) ووقعت بينهم وبين الوطاسيين حروب انتهت بأن دخل السعديون فاس سنة (956 هـ) ونجحوا بعد ذلك في القبض على (أبي حسون) آخر الامراء الوطاسيين ، وبذا انقرضت أسرة بني وطاس وذهب ملكهم .

وادى هذا الاضطراب السياسي الى ضعف السلطات الحاكمة في وقت كان فيه المسلمون في الاندلس يتلقون ضربات متتالية من القوى المسيحية التي كانت قد أخذت تفرض نفوذها على البلاد وتقضي على نفوذ المسلمين بها .

هذا بينما كان المشرق الاسلامي يشهد ظهور دولة فتية هي (الدولة العثمانية) التي استطاعت فتح القسطنطينية في عام (1453 م) ، كما استطاع السلطان سليم الاول بعد ذلك في عامي (1516 – 1517 م) ان يقضي على نفوذ المماليك في الشام ومصر ، وغرب شبه جزيرة العرب، كما استولى على رودس وبسط سيادته على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وقد ذكر الوزان ـ كما أشرنا من قبل ـ انه زار القسطنطينية ومصر بعد غزو سليم لها مباشرة .

هذا من الناحية السياسية . لكن رغم ظروف الاضطراب السياسي التي كانت تسود بلاد المغرب العربي في الوقت الذي عاش فيه الوزان فقد كانت هذه البلاد تنعم بنهضة علمية وفكرية تمتد جذورها الى عصر المرينيين والى ما قبل ذلك . فاصبحت (فاس) مركزا للعلم والمعرفة في العالم العربي يأتي اليها طلاب العلم من كل بقاع العالم الاسلامي

والاوربي ، وكانت شهرتها فى هذا المجال تضارع شهـرة (قرطبـــة) و (غرناطة) فى أوج مجدهما . ولم يقتصر الازدهار العلمي على العنايـــة باللغة العربية وآدابها وعلوم الدين فحسب (29) ، بل ان كثيرا من كتب الاغريق والرومان وغيرهم كانت تترجم الى العربية ، وتعيد مجالـــس الحكام فى فاس وتشجيعهم للعلم والعلماء الى الذاكرة مجالس العلـــم والعلماء فى بغداد أيام الرشيد وغيره من خلفاء الدولة العباسية .

ونشير فى هذا المجال الى البحث القيم الذي نشــــره عن هـــذا الموضوع الاستاذ الكبير محمد المنوني (30)

وقد حاول الكاتب أن يحدد للتيارات الفكرية فى هـــذا العصـــر مسارات واضحة أهمها :

1 ــ أفكار جديدة فى الاجتماع والتعليم

وتبرز هذه فى مجال مؤلفات : ابن خلدون ، كذلك ابن السكاك (31) والمقري (32) ، الذي يبدي رأيا طريفا فى التعليم بقوله : « انما أفسد العلم كثرة التواليف ، وانما اذهبه بنيان المدارس » ويفسر ذلـــك بأن الناس استباحوا النقل من المختصرات الغريبـــة عن اربابهـــا ، كمـــا أن ما يرتب للطلبة من (جرايات) فى المدارس قد جذبهم أكثر من السعي للعلم طلبا للعلم فى ذاته (33) .

ويبدو أن السلطان (أبا عنان المريني) قد بنى (مدرسة المتوكلية) بفاس بهدف تلافي أمثال هذه العيوب .

2 ــ موضوعات دينية : وقد اتجهت هذه الموضوعات الى عدة اهداف منها :

أ) الرد على اليهودية والمسيحية ــ وتتمثل فى عدة رسائـــل وأبحاث منها « رسالة السائل والمجيب » ــ وهي عبارة عن حوار ديني طريف اشترك فيه عدد من رجال الدين المسيحيين واليهود ، ويذكر صاحب الرسالة أنه وضعها للرد على هؤلاء المجادلين بتكليف

من وزير السلطان عبد الحق المريني (34) .

ب) مباحث تتعلق بالفقـــه المالكـــي .

جـ) رسائل وابحاث فى مقاومة البدع .

د) ابحاث جماعات معينة كالسنة والصوفية (35) .

3 ـ رسائل مكتوبة من بعض العلماء للحكام فيها نقد وتوجيه (بقصـــد الاصلاح) وقد اختلفت لهجتها بين الشدة واللين . ومن أمثلة ذلك رسالة الامام (ابن عباد) الى السلطان المريني عبد العزيز (36) .

4 ـ « كتابات جماعات الدفاع عن الاندلس » فقد ظهرت جماعات من العلماء نذرت نفسها لحث الحكام والافراد للسفر للاندلس ، وتدعيم النفوذ العربي فيه ، وذلك نتيجة لما لمسه هؤلاء من المخاطر التي يتعرض لها النفوذ العربي فى هذه البلاد .

وهناك ميدان آخر هام بالنسبة لمجال بحثنا حظي بنشاط المغاربة وقد اشرت اليه فى بداية الحديث ، وهو مجال (الرحلات العلمية) وما يتبعها من كشف مناطق وتوجيه الانظار لحقائق علمية واجتماعية غيـــر معروفة . والحقيقة أن كتاب الوزان عن (وصف افريقيا) والذي يتضمن مشاهداته فى هذه القارة التي كانت حتى ذلك الوقت يطلـــق عليهـــا الاوربيون اسم القارة المظلمة (أي التي لا يعرف العالم الاوربي شيئـــا عما فى داخلها) ـ يمثل حلقة فى سلسلة الجهود التي قام بها عدد من المغاربة فى هذا المجال ـ وقد أشار ليو نفسه فى كتابه الى بعض هؤلاء من امثال : البكري (37) ، والادريسي (38) ، وابن جبيـــر (39) ، وابن سعيد الغرناطي (40) ، وابن بطوطة (41) ، وابن خلدون (42) .

وكتابات هؤلاء الرحالة ما هي الا نماذج للرحلات التي قام بها عدد كبير من المغاربة ، وانتظمت هذه الرحلات مناطق عديـــدة فى المغرب والمشرق بل وقلب القارة الافريقية . والحقيقة أن هذه الظاهرة التـــي برزت فى ذلك الوقت فى كتب (المسالك والممالك) ، وكتب الرحلات ،

والزيارات (أي الرحلة لفرض الحج) ــ تلــك الكتــب التي لم تكتــف بالطريقة الوصفية للطرق والمراحل ، لكن خرجت لنطــاق الدراســات الاجتماعية والتحليلية لعادات الناس وطــرق معيشتهم وتصرفهــم فى حياتهم ــ تحتاج لبحث أعمق ودراسة اشمل (43) .

هذه صورة لبعض مظاهر الحضارة التي كانت مزدهرة فى الاندلس والمغرب فى هذه الفترة التي عاش فيها الوزان ــ وهي بيئته الاصليــة والاولــــى .

أما فيما يتعلق بأوربا ففي ذلك الوقت كانت قد اخذت تتخلص من التخلف الحضاري الذي خيم عليها فى العصور الوسطى ، واسهمــت الحضارة العربية الاسلامية الزاهرة فى قيام هذه النهضة الاوربيــة . وكانت الاندلس بما ازدهرت فيها من حضارة عربية عملاقة من أهم مصادر الاشعاع الحضاري القوية على أوربا .

وتميزت شبه جزيرة ايطاليا التي احتضنت رحالتنا بعد أسره ، بالسبق فى الاخذ بأهداب النهضة الحديثة التي ساهمت فيها أسر حاكمة شجعت الآداب والفنون مثل أسرة مدتشي التي ينتمي اليها البابا ليــو العــاشــر .

هذا ونشير الى أن هذه الفترة فى أوربا كانت ايضا فاتحة عصــر الكشوف الجغرافية الاوربية الحديثة ، ولا شــك فى أن المجتمعــات الاوربية كانت تموج بأخبار الرحلات الكشفية التي أسفــرت عن كشف العالم الجديد ، كما كان البرتغاليون قد نجحوا فى الوصــول الى رأس الرجاء الصالح وعبروه الى الساحل الشرقي (فاسكو دي جاما 1498 م)، وان كان الوصول الى قلب القارة الافريقية ومعرفة حقيقة شبكة المجاري المائية بها واتجاه الانهار الرئيسية وعلاقتها بعضهــا بالبعض الآخــر (النيل ، الزمبيزي ، النيجر ، الكونغو) ظل حلما يراود عقول المكتشفين الاوربيين ويتحدى عزيمتهم لعدة قرون ، فقد ظل الكثير من أســرار القارة غامضا حتى قرب ختام القرن التاسع عشر (44) .

وهذا يعطي فكرة عن مدى تقبل العالم الاوربي لكتاب الحسن بن محمد الوزان وللمعلومات التي أدلى بها عن المناطق الداخلية من القارة التي كان الاوربيون يجهلون عنها كل شيء .

على ان وجوده في هذا الوسط الاوربي ، ومع جمع من العلماء الاوربيين ــ في مقدمتهم الذين وصفوا بأنهم علماء النزعة الانسانية من الايطاليين (Italian Humanists) ــ وكان البابا ليو نفسه احد هؤلاء ــ بالاضافة الى اجادته لعدد من اللغات الاوربية ــ مكنه بلا شك من الاطلاع على العديد من انتاج الفكر الاوربي (45) ، وقد عوضه هذا عن افتقاره للمراجع العربية التي تركها في وطنه الاصلي ، كما ذكر هو .

كتاب وصف افريقيا وقيمته العلمية :

هذا الكتاب ليس الانتاج الوحيد للمؤلف ، لكنه الكتاب الوحيد له الذي نشر وتداولته الايدي وكان سبب شهرته ، وسنشير فيما بعد الى المجالات الاخرى التي كتب فيها ــ أو على الاقل ــ التي ذكر انه الف او سيؤلف فيها .

ويحيط الغموض بالظروف التي الف فيها الكتاب ، والطريقة التي اتبعها الكاتب في اثبات معلوماته ، ذلك أن الكتاب ظهر لاول مرة حين عثر (Ramusio) من اسرة مؤسسة (Hakluyt) في عام 1550 م على النسخة الخطية الايطالية للكتاب ونشرها في ثلاث مجلدات مع مقدمة له ، في مجموعة عن الرحلات (46) .

واعيد طبعها بعد ذلك بالايطالية في عام 1554 م ، كما طبعت طبعات اخرى بنفس اللغة بعد ذلك . ومما زاد في غموض الوضع ان الاصل الايطالي الذي نقل عنه (Ramusio) لم يعثر عليه ولم يعرف مصيره ، وقيل انه ربما ذهب في الحريق الذي شب بعد ذلك ، واتى على كثير من كتب المؤسسة (47) .

هذا ولا يذكر الكتاب المنشور شيئا عن الطريقة التي حصل بها (Ramusio) على النسخة الخطية ، ولا عن مصير هذه النسخة الخطية (48) .

ويثار جدل كبير حول الاساس الذي اعتمد عليه (ليو) عند كتابة كتابه بالايطالية ، هل كانت لديه نسخة باللغة العربية حملها معه الى ايطاليا ، وعلى اساسها وضع ترجمته الايطالية ؟

هذا ما يرجحه (Ramusio) ناشر الكتاب بالايطالية ، فعند حديثه عن حياة الرحالة يذكر انه اثناء اقامته فى روما ترجم للايطالية الكتاب الذي كان يحمله حين اسر ، وأن البابا (ليو العاشر) حين عرف بانه يحمل مؤلفا هاما فى الجغرافية ، قابله باحترام وطلب منه ترجمته للايطالية . وهذا بالطبع لا ينفي انه عند الترجمة ادخل تعديلات كثيرة على الكتاب . وقد ذهب الى نفس الراي كثيرون منهم (John Pory) صاحب الترجمة الانجليزية (49) .

وقد ذهب البعض الى تأكيد وجود نسخة عربية للرحلة ، ولكنها فقدت أثناء هجوم القراصنة على السفينة المقلة له ، والبعض ذكر أنها كانت موجودة طرف احد هواة جمع الكتب الخطية يدعى (V. Pinelli) (50).

بينما ينفي آخرون وفى مقدمتهم ماسينيون (Massignon) وجود مخطوطة عربية للكتاب ، معتمدين على ما ذكره المؤلف نفسه من انه يدون مشاهداته وملاحظاته معتمدا على ذاكراته بعد مضي أعوام لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربي واحد (51) .

ومنذ ظهرت الطبعة الايطالية للكتاب بدا العالم الغربي يدرك اهمية الكتاب ، فترجم الى عدة لغات ، وظهرت عدة طبعات له باللغة الواحدة . ومنذ عام (1556) قام (Jean Temporal) بترجمة للكتاب الى الفرنسية ــ طبعها فى مدينة (ليون) وذلك عن الطبعة الايطالية التي صدرت فى (1854) واهداه لولي عهد فرنسا فى ذلك الوقت (52) ،

واعيد طبع الكتاب بالفرنسية فى مدينة (انتورب) فى نفس العام (1556) . وفى نفس العام أيضا نشر (Joanes Florianus) فى (انتورب) ترجمة لاتينية للكتاب ، وكانت اللغة اللاتينية لا زالت لغة الطبقة المثقفة فى اوربا ، ولذا لاقت هذه الطبعة رواجا ضخما (53) .

وهذه الطبعة اللاتينية للكتاب تهمنا بالذات لان معظم الطبعات الاخرى أخذت منها ، لكن للاسف فقد وقعت فيها عدة أخطاء وبالاضافة الى اخطاء فى الترجمة نتج عنها ان الترجمة اللاتينية لكثير من الالفاظ لم تكن هي المقابلة للفظ الايطالي الاصلي ــ فقد وقع المترجم فى اخطاء متعددة أخرى حين حاول ان يشير للسنوات الميلادية المقابلة للتواريخ الهجرية المذكورة فى الاصل ، او حين حاول أن يضيف تفسيرات ــ لم يقصدها المؤلف ــ لبعض الظاهرات التي أوردها ــ ولذا فان هذه الترجمة رغم أن لها الفضل فى جعل كتاب (ليو) فى متناول كثيرين بعد ذلك بعدة لغات ــ لكنها فى نفس الوقت مسؤولة عن كثير من الاخطاء التي تناقلتها الترجمات الاخرى .

وقد قام (John Pory) بأول ترجمة عرفت للكتاب باللغة الانجليزية ، ونشرت مؤسسة (Hakluyt) هذه الطبعة فى عام (1600) وان كان (Pory) قد وقع فى بعض أخطاء (Florianus) الا انه تخلص من بعض اخطائه ، مما يرجح أنه رجع أحيانا الى اللغة الايطالية (54) .

وفى عام (1665) ظهرت فى (روتردام) طبعة هولندية للكتاب ، كما ظهرت فى عام (1805) ترجمة المانية له ، وظهرت ترجمة اسبانية له فى عام (1940) (55) .

على أن من اهم طبعات الكتاب التي اشتملت على تعليقات علمية :

1 ــ الطبعة الفرنسية التي ظهرت لـ (Ch. Schefer) (1896 ــ 1898) (56) .

2 ـ الطبعة الانجليزية التي ظهرت في 1896 بتعليقات وملاحظات للدكتور برون (Dr. R. Brown) (57) .

على أننا نشير الى أنه بالاضافة الى هذه الترجمات ، عملت عدة دراسات على أساس كتاب الوزان نذكر منها على الخصوص :

1 ـ البحث الذي اعده (Francis Moore) بالانجليزية في عام (1738) عن غمبيا مستندا الى ما كتبه (ليو) عن الممالك الزنجية بغرب افريقيا .

2 ـ تحليل لبعض الحقائق التي أشار اليها ليو ـ نشره في عام (1801) بالالمانية : (Bruns, Harfrath Paul Jacob)

3 ـ البحث القيم الذي وضعه (Lorsbach) مدير جامعة ناسو (Nassau) في عام 1801 ايضا في 20 صفحة مبرزا الاخطاء التي وقع فيها (Florianus) في ترجمته اللاتينية . وكان هذا البحث دافعا لظهور ترجمة المانية دقيقة للكتاب في عام 1805 (58).

4 ـ وصف الرحالة الغرناطي (Mormol Caravajal) لكثير من جهات افريقيا ـ مقتبسا من رحلة ليو ، وهذا الرحالة كان معاصرا لليو ، وقبض عليه وسجن لفترة أثناء حملة (شارل الخامس) على الجزائر .

5 ـ كتابات كل من لانجر (Langres de Tassy) ، ومورجان (Joseph Morgan) عن الجزائر ، مأخوذة مما كتبه ليو عن هذه البلاد ـ رغم أنها ظهرت بعده بمدة في القرن الثامن عشر (59).

6 ـ البحث القيم الذي قام به (Louis Massignon) عن مراكش في السنوات الاولى من القرن السادس عشر في ضوء وصف ليو الافريقي (60) .

هذه بعض امثلة فقط — ويضيق المجال عن ذكر عشرات الكتاب الآخرين الذين ذكروا انهم مدينون له فى كتاباتهم ، أو الذين نقلوا عنه أو تأثروا به دون أن تكون لديهم الامانة الكاملة للاشارة اليه .

ولا نكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا انه يندر ان كتب كاتب عن شمال أو وسط افريقيا منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر — حين بدات الكشوف الجغرافية المتأخرة تكشف اشياء كثيرة كانت مجهولة عن قلب القارة — من غير أن يستعين بما كتبه ليو عن هذه البلاد — وقد صرح المستشرق الالماني هارتمان (Hartmann) فى القرن الثامن عشر بأن كتاب ليو كنز من الذهب ، ولولاه لخفيت عليه اشياء كثيرة (61) .

وحتى الرحالة الانجليزي بارث (Barth) الذي وصل الى تونس فى سنة 1849 ضمن حملة لكشف وسائل تنشيط التجارة عبر الصحراء الافريقية الكبرى للقضاء على تجارة الرقيق ، ووصل الى (كانو) وساح فى منطقتي (كانم) و (باجرمي) ووصل الى (تمبكتو) — نجده يبدي اعجابه بما كتبه ليو ، ودقته فى تسجيل ما رآه حتى أنه وعد بعمل ترجمة جديدة مع تعليقات لرحلة ليو — رغم مرور ما يقرب من ثلاثة قرون عليها ، لكن وفاته فى عام (1865) حالت — كما يبدو — دون اتمام هذا الوعد ، وان كان كثيرون فيما بعد وجدوا فى مشاهدات (بارث) مجالا للمقارنة بما سجله ليو (62) .

هذا ولم يقتصر اثر كتاب ليو على ذلك ، فقد امتد الامر الى رسامي الخرائط ، فقد ذكرنا ان كلا من (Ramusio) , (Pory) نشر خرائط عن افريقية بناء على وصف (ليو) للمناطق التي زارها ، وقد ظلت هذه الخرائط حتى وقت متأخر — المصدر الوحيد لرسامي الخرائط حتى ان كثيرا من المعالم الجغرافية والبلاد ظلت توضح على الخرائط كما هي رغم التغييرات الكثيرة المنتظرة التي طرات على الكثير من هذه المناطق نتيجة للظروف البشرية والطبيعية التي تعرضت لها (63) .

جولـــة سريعـــة مـــع كتـــاب وصـــف افريقيـــا (64) :

يصعب ان يعطي المرء صورة سليمة عن كتاب بهذا الضخامـــة ، ويحتوي على كل هذا القدر من المعلومات فى لمحة سريعة كهذه ، فان كل جهد يبذل فى هذا السبيل قاصر عن اعطاء صورة حقيقية للكتاب ، فلا غنى عن الكتاب نفسه ، ولذلك لا شك أن مكتبتنا العربية تنقصهـــا ترجمة علمية دقيقة لهذا الانتاج الذي سطره يراع هذا الرحالة المغربي العربي ــ خاصة وانه قد ترجم ــ كما اشرنا من قبل ــ تقريبا الى جميع لغات العالم ــ لكن الى ان يتم هذا العمل نشير هنا الى بعض ما تناولـــه الكتاب ، ولعل هذا يحفز الى أن يقوم احد المختصين أو لجنة مختصة بترجمتـــه .

الكتاب فى تسعة اقسام (ابواب) أطلق الوزان على كل قسم منها لفظ (كتاب) فهو فى تسعة كتب ــ كما يسميها المؤلف ــ ولا تتوزع هذه الكتب ــ فى الطبعة المشار اليها والتي ظهرت فى ثلاثة أجزاء ــ بالتساوي على الاجزاء الثلاثة ، خاصة أن الكتب ذاتها تختلف اختلافا بينا من حيث عدد الصفحات .

فالجزء الاول ــ لا يشتمل الا على الكتاب الاول للوزان ــ بالاضافة الى مقدمـــة (John Pory) واضافاته المتعددة وتعليقات (Dr. Brown) الدقيقة (من ص 1 الى ص 224 فى الطبعة التي أشرت اليها) .

بينما اشتمل الجزء الثاني ــ على الكتـــب الثلاثـــة التالية لليـــو (الكتاب الثاني والثالث والرابع) (من ص ب 225 الى ص 690) .

ويشتمل الجزء الثالث ــ على الخمسة كتب الباقية (من الخامس الى التاسع) (من ص 690 الى ص 1106) .

وتشمل الاضافة التي الحقت بالجزء الاول على مقدمـــات طويلـــة بقلـــم (Pory) ثم تعريف بالمناطق التي لم يتناولها ليو والتـــي

أضيفت للكتاب بهدف اعطاء صورة كاملة عن جميع اجزاء القارة ـ كما يذكر الناشرون (65) . فيبدأ بالاقاليم المطلة على البحر الاحمر ، ويتحدث عن الامبراطورية الاثيوبية (امبراطورية برسترجون (Prete Janni) (66) وزنجبار ، وموزمبيق ، وامبراطورية المونوموتابا (67) ، وارض الكافر (Kaffir) (68) ، ثم مملكة الكنغو (69) ، وانجولا ـ ثم ممالك بنين ، وغينيا ، وسيراليون ، والراس الاخضر ، وغمبيا ـ بغرب القارة .

ثم تلى هذا وصف ودراسة للجزر التي اهملها ليو والواقعة حول السواحل الافريقية (سوقطرة ، والجزر المقابلة للساحل الشرقي للقارة ، وسنت هيلانة ، وساوتومي ، وفرناندوبو ، والراس الاخضر ، وكناريا ، وماديرة ، وازور) ـ وقد استنفدت هذه المقدمات وتعليقات الدكتور برون عليها 122 صفحة .

اما **كتاب ليو الاول** ، فيتحدث عن افريقيا وسكانها بصورة عامة .

فيبدأ بتفسير سبب تسمية القارة بافريقيا ، ويرجع فى ذلك الى ابن خلدون وابي الفداء وغيرهما . ثم يعطي تحديدا عاما للقارة ـ من النيل شرقا ـ كما يقول ـ الى المحيط غربا (70) .

ويقسم القارة الى اربعة اقسام (بلاد البربر ، نوميديا ، ليبيا ، ارض الزنوج) ويعود فيقسم كل من الاقسام الاربعة السالفة الذكر الى اقسام (ممالك) (71) .

ثم ينتقل لدراسة سكان افريقيا فيتحدث عن أصلهم ، وقبائلهم ، ويتعرض لدراسة وتحليل عادات وطبائع الافارقة من سكان صحراء ليبيا بالذات وفى الاقاليم الواقعة غرب مصر (72) .

ويشير عند حديثه عن الديانات المنتشرة فى افريقيا الى انه سيخصص دراسة خاصة يتناول فيها على الخصوص الاختلافات الدينية بين المسلمين في افريقيا وآسيا (73) .

ويتحدث عن اللغات المنتشرة فى افريقيا ـ فيناقش قضايا هامة جدا لا زال بعضها مطروحا للبحث اليوم ـ مثل اتجاه الغزاة دائما لفرض ثقافتهم ولغتهم على البلاد المغلوبة على امرها ويضرب امثلة بما فعله الاتراك وغيرهم بالشعوب التي خضعت لهم (74) .

ويتساءل هل كانت للافريقيين لغة او لغات أصلية ـ خاصة بهم وينتهي بوجود لغات افريقية أصيلة (75) .

ويورد ملاحظات مناخية دقيقة تتعلق بالرياح التي تهب على القارة فى شهور السنة المختلفة والتغييرات الجوية التي تتعرض لها (76) .

ويتعرض لموضوع طريف يتعلق بأعمار الافارقة وعلاقتها بالبيئة التي يعيشون فيها (77) .

كما يتعرض لبعض الامراض التي يتعرض لها الافارقة (كالجدري) وكيف وصلت للقارة (78) .

ويتحدث عن بعض الخصائص المميزة لهم كولعهم بالفن والعلوم الرياضية والفلسفة والتنجيم ، وعن بعض الصفات الغالبة عندهم كالوفاء والشرف ، وحب الترحال والتنقل (79) .

كما يشير لبعض الرذائل والنقائص التي تشيع بينهم كحدة الطبع وسرعة الغضب (80) .

ولعل هذا يدحض أقوال الذين اتهموه بعدم الدقة بحجة محاولة اعطاء صورة وردية عن القارة التي ينتمي لها (81) .

وقبل نهاية هذا الكتاب يعتذر الكاتب عن تركيزه الحديث عن افريقيا ـ بأنها القارة التي ينتمي لها وتثقف فيها واتيحت له فرصة التجول فيها (82) .

فالكتاب الاول عبارة عن دراسة عامة للقارة تناول فيها النواحي الطبيعية المناخية والاقتصادية والاجتماعية والبشرية ــ ولا شك فى أن هذا يدل على دقة فى الملاحظة مع نظرة شاملة والمام بعدد من المعارف والعلوم ــ لعلنا نفتقر اليه اليوم فى اطار ما جنحنا اليه من التخصص الدقيق والمفهوم الخاطىء له ــ على ما أعتقد .

بعد هذه الدراسة العامة يبدأ الجزء الثاني من الطبعة المذكورة والذي كما قلنا يضم الكتب الثلاثة (الثاني والثالث والرابع) . وفيه يقدم دراسة تفصيلية لبلدان الشمال الافريقي مبتدئا من الغرب ويتجه شرقا حتى حدود مصر .

وقد خصص **كتابه الثاني** عن مراكش ، فتحدث عن مساحتها ، وعن تأسيسها ، وتطرق للحديث عن حوانيتها ، ومخازن الكتب بها ، وعن منار الكتبية العظيم (83) . والذي بني هو ومنار اشبيلية وكذا (مسجد حسان) بالرباط على نسق واحد ، ويقال أن مهندسا واحدا هو الذي وضع تصميمها كلها ، واشار فى هذا الباب ايضا الى بعض مدن (دكالة) ، كما اشار الى (أسفي) و (أزمور) (84) ووقوعها فى يد البرتغال ، واشار الى الرحلة التي قام بها عمه كسفير عن ملك فاس الى ملك (تمبكتو) ، وقد رافقه الحسن بن محمد الوزان فى هذه الرحلة ، ويذكر أشياء طريفة بخصوص هذه الرحلة فيذكر مثلا أن عمه تلقى دعاوي من بعض الامراء فى المناطق المجاورة ليزورهم وذلك لشهرته لكنه اعتذر بأنه موفد فى مهمة رسمية فلا يجب أن يغير خط السير المرسوم له ، ولذا أوفده هو بهدايا وبقصائد مدح لهؤلاء الحكام (85) ، ويتحدث عن بعض الجبال القريبة من (سجلماسة) و (دارا) ، وانها تشتمل على كميات كبيرة من (النترات) لكن الاهالي لا يستغلونه على الوجه الاكمل (86) .

وهو هنا يتحدث عن وطنه الذي عاش فيه ، فهو حديث العارف المتمكن المتعمق ، بل يوغل فى أعماق التاريخ ليحدثنا عن أصل كل مدينة ومؤسسها وسبب تسميتها والتطورات التاريخية التي مرت بها ، وحين يصل للمدينة الحديثة فى عصره يتحدث عن كل نواحي الحياة فيها.

وعندما يتعرض للثغور المغربية الهامة مثل (اسفي) و (أزمور) يسهب فى الحديث عن سقوطها فى أيدي البرتغال وما ترتب على ذلك من هجرة كثيرين من سكانها للسكنى فى (سلا) أو فى (فاس) هاربين من حكم البرتغـــال (87) .

اما **كتابـــه الثالـــث** ـ فيخصص ليو شطرا كبيرا منه للحديث عن فاس (88) ، ولا يكاد يترك صغيرة أو كبيرة تتصل بها الا ويذكرها ، فهو يتحدث عن تشيدها ، ثم يصف المدينة ومنازلها التي يصفها وصفا يذكرنا بالمنزل المغربي اليوم ـ فهناك صحن فى الوسط تحيط به الفرف، ويتحدث عن جامع القيروان بها ويقدم له وصفا دقيقا ، ويتحدث عـــن مدارس فاس ومستشفياتها وحماماتها وفنادقها واسواقها ، بل وعـــن طواحين الفلال بها ، وحديثه يدل على دقة الملاحظة والتحليل ، فهـــو يوضح كيف أن النقابات الطائفية التي تجمع أصحاب المهنة الواحدة تقوم على اساس نظام تكافلي سليم ، وحين يتحدث مثلا عن صناع السروج يلفت نظره ـ ذوقهم السليم واتقانهم لصناعتهم فهم يختارون أحســـن الجلود للمناطق البارزة للعيان ، بينما يستبقون الجلود الاقـــل جـــودة للمناطق غير الظاهرة (89) .

وحين يتحدث عن منطقة (القيصرية) بفاس يرجع التسميـــة الى (يوليوس قصير) والنفوذ الروماني بشمال افريقيا (90) .

وينتقل للحديث عن المنطقة السكنية بفاس بحدائقها الغناء ، وعن نظام الادارة والحكم فيها باعتبارها حاضرة الحكم ، ويتطرق للحديث من التقاليد المرعية فى القصر الملكي بها (البروتوكول) (91) .

كما يتحدث عن المجتمع الفاسي فيذكـــر عـــادات السكـــان فى الزواج (92) ، وفى الاحتفالات الدينية وفى الاكل والشرب وطبقـــات المجتمع ولا يترك حتى المنجمين وقراء الطالع والسحرة والباحثين عن الثروات التي يعتقدون أنها مخبأة بين انقاض الاماكن القديمـــة ، ومـــن

يتجولون فى الطرقات يحملون حيات ترقص على الانغام ويرتزقون من ذلك (93) . كما يذكر ألعابهم وكيفية قضاء أوقات الفراغ (94) .

ويتحدث عن فاس الجديدة التي تبتعد عن المدينة القديمة بميل تقريبا ، وكانت تسمى المدينة البيضاء (95) .

ويتحدث الوزان ـ عن (الرباط) فيذكر أن الذي بناها هو (يعقوب بن يوسف المنصور) وانه بناها على البحر المحيط لتكون مدينة بحرية يسهل فيها مرابطة جيشه والسيطرة منها على المناطق الاسبانية الخاضعة له (96) .

وعن (سلا) ذكر أن الرومان هم الذين بنوها على (نهر بورقراق) على بعد ميلين من المحيط .

أما (المعمورة) فيذكر أن يعقوب المنصور أسسها عند مدخل نهر (سبو) لتكون منطقة دفاعية ضد محاولات الغزو الاجنبي ، ويذكر انها كانت ميناء تجاريا تتجر فى (العسل ، والشمع ، والصوف ، والجلود ، والاخشاب) لكنها فقدت أهميتها التجارية بعد احتلال البرتغاليين لها . ويتحدث عن معركة المعمورة التي شن فيها الوطاسيون فى (يوليو 1515) هجوما بطوليا على البرتغاليين فقتلوا ما ينيف عن أربعة آلاف وفر الباقون (97) .

ويصف (مكناس) فيتحدث عن موقعها ، وتسميتها ، وعن حدائقها وفاكهتها الممتازة (العنب ، والتين ، والبرتقال ، والخوخ) ـ وعن قنوات المياه التي تأتي بالمياه النقية للمدينة من نافورة على بعد ثلاثة أميال منها . ويتحدث عن الصراع الذي قام بين حكامها وبين ملك فاس وحصار الملك لها ـ لكنها استطاعت أن تقاوم الحصار لانها مدينة حصينة وغنية (98) .

وينتقل للحديث عن مدن المغرب الاخرى كمدينة (القصر الكبير) فيذكر قصة طريفة عن ظروف بناء (المنصور) سلطان مراكش لها ، فقد

ضل الملك الطريق اثناء رحلة صيد فى جو عاصف فأكرمه صياد وآواه وقدم له (عنزته) الوحيدة . فكافأه الملك بمنحه قصرا كان نواة للمدينة العظيمـــة (99) .

وفى حديثه عن مدينة اصيلا (Arzilla) (100) ، يـــذكـــر ان الرومان هم الذين بنوها ، ويتابع الحديث عن تاريخها حتـــى استيـــلاء البرتغال عليها ، ثم كفاح (محمد البرتغالي) لاستردادها ـ وقد شارك ليو نفسه فى بعض الحملات التي ارسلهـــا ملك فاس ضـــد البرتغاليـــن فى اصيـــلا (101) .

ويتحدث بنفس المنهج عن (طنجة) و (القصر الصغير) و (سبتة) و (تطوان) و (المهدية) .

ولا شك فى أن (ليو) يمدنا فى هذا الجزء من كتابه بمعلومـــات هامة عن بلدان المغرب العربي التي خصص لها الكاتب جزء كبيرا مـــن جهده ، والتي كان على علم ودراية بتطورها التاريخي ، فسجل ذلك بكثير من الدقة . ويعتبر كتابه عن الثغور المغربية وكفاحها ضد الغزو البرتغالي من اول وادق الكتابات فى هذا المجال ، فهو مرجع أصيـــل فى هـــذه الاحـــداث .

ويخصص ليو **الجـــزء الرابـــع** ـ او الكتاب الرابع كما يسميه ـ للحديث عن مملكة (تلمسان) (102) فتحدث عن حدودها ويتتبع تاريخها حتى حكم الاسرة (الزيانية) التي يقول انها بقيت هي واتباعها تحكمها ما يقرب من ثلاثمائة عام (103) .

ويوضح الظروف التي انتهت بوقوع مملكة تلمسان بين فكي الكماشة الاستعمارية ـ الاتراك العثمانيون من جهة والقوى الاستعمارية الاوربية (الاسبان بالذات) من جهة أخرى .

ويتابع الحديث عن مدينة (تلمسان) ذاتها وتطورها من مدينـــة صغيرة حتى وصلت الى ذروة مجدها فى عهد حكم أبو تاشفين عبـــد

الرحمن (791 هـ - 1389 م) ، ويتحدث عن مساجد المدينة ومعاهدها ومتاجرها وسكانها ، والعادات المتبعة في قصور حكامها - بنفس النظام الذي اتبعه في الحديث عن (فاس) .

وينتقل الى الحديث عن (وهران) و (مستغانم) ثم (الجزائر) التي كانت فترة خاضعة لنفوذ ملك تلمسان ، لكن حين ضعفت الاسرة الحاكمة بتلمسان اصبحت الجزائر هي الاخرى مطمع انظار الاتراك العثمانيين والاسبان . وتحدث عن ظهور (عروج) وتدخله في شؤون الجزائر (1516) وقتله (1518) وانتقال الامر بعده الى اخيه (خير الدين بربروسا) الذي وضع نفسه والمناطق التي في حوزته تحت نفوذ السلطان سليم العثماني وضرب السكة باسمه في الجزائر - وبذا دخلت هذه البلاد في مرحلة جديدة من تاريخها (104) . . . وهكذا ختم الكاتب كتابه الرابع.

اما **الكتاب الخامس** فهو عن مملكة بجاية وتونس - فيصف مدن بجاية ، وقسنطينة (105) ، وبونة ، وقرطاج (106) ، وتونس (107) ، والمهدية (108) ، والقيروان (109) ، وصفاقس وقابس - ويتحدث عن ظروف تشييد كل منها ، وآثارها الهامة ، وأهم الاعمال التي يقوم بها السكان ، وما لفت نظره من حياة الناس وتقاليدهم وعاداتهم . بل يستطرد الى الحديث عن تاريخ هذه المدن والاحداث الهامة المتصلة بها، ويشير الى بعض الظاهرات الطبيعية والجغرافية كتعرض المواني الهامة لطغيان البحر - ثم يتحدث عن جزيرة (جربة) (110) ، الواقعة على مسافة قليلة من (قابس) ويشير الى انها المكان الذي أسره فيه القرصان الايطاليون وحملوه الى روما ، فيتحدث عنها باسهاب ويذكر ان تربتها خصبة فيزرع بها البلح ، والزيتون ، والكروم ، والفواكه الاخرى ، وان سكانها يشتهرون بصناعة نوع خاص من الاقمشة يتجرون به في تونس والاسكندرية ، ويذكر ان ملك اسبانيا (Firdinando) حاول في أيامه الاستيلاء على الجزيرة لكن سكانها استطاعوا ان يوقعوا بالجنود الاسبان ، لكن أرسل الامبراطور (شارل الخامس) بعد ذلك أسطولا اجبر سلطات الجزيرة على توقيع اتفاق تدفع بموجبه جزية سنوية للاسبان قدرها 5 000 دينار ذهبا .

اما **الكتـــاب السادس** ـ فقد تحدث فيه عن طرابلس ، ولبدة ، وفزان ، ووصف صحراء ليبيا ، وقد قسمها الى خمسة اقسام حسب القبائل التي تغلب على كل قسم منها .

وخصص**الكتـــاب السابـــع** ـ (ص 817 ـ 837) للحديث عـن ارض الزنوج (ممالك السودان الغربي) وهو يحددها بخمس عشرة مملكة يقول انها كلها تقع بالقرب من نهر النيجر او احد فروعه . ومن هـــذه الممالك التي افاض فى شرحها (مملكة جني) وتحدث عـــن حدودهـــا ومساحتها وغلاتها (الشعير ، والارز ، والقطن ، والاغنام ، والاسماك) ، وذكر انهم يبادلون القطن على الخصوص مع البربر بالاقمشة الاوربيـــة والاواني المعدنية والاسلحة وذكر ان عملتهم ذهبية ليس عليها اية كتابة أو طابع ، ويستغل الاهالي المجاري المائية للتجول فى قواربهم التـــي يصنعونها من تجويف النخيل وذلك لترويج بضائعهم (111) .

اما (مملكة مالي) فيذكر انها تمتد لمساحة 300 ميل على طـــول شاطىء أحد روافد النيجر ، وتتميز برقيها وتقدمها ، فبها المستشفيات والمعابد التي تقام فيها ايضا حلقات الدروس ، وقد انتشر الاسلام بين سكانها ووصلت قوتها الى درجة أن استطاعت بســـط نفوذهـــا على مساحات واسعة واشتهرت بثروتها وبتصديرها للذهب والعبيد (112) .

ويتحدث عن (تمبكتو) فيذكر ان مؤسس المدينة ذاتها هو (منسا سليمان) فى سنة (610 هـ) وبها معبد وضع تصميمه عامل من غرناطة ، وتكثر بها المراعي والزراعة ، ويتحدث عن القصر الملكي والتقاليد المتبعة (من يقابل الملك يركع على ركبته ، ويهيل التراب على رأسه) وبها عدد من القضاة والاطباء والعلماء ورجال الدين ، وعملتها ذهبية دون أية علامة مميـــزة (113) .

وتحدث عن (جاو) عاصمة (امبراطورية صنغاى) وذكر انها تقع جنوب تمبكتو بـ 400 ميل تقريبا وتعتبر مركزا تجاريا هاما للاقمشـــة الواردة من بلاد البربر ، والقمح ، والسمك ، والخمور ، والفواكـــه ،

والارز ، كما توجد بها سوق كبيرة للرقيق ـ ويذكر انه لا يوجد نوع من القماش أو غيره معروف فى أوربا لا نجده فى أسواق جاو ، والملح هنا من اغلى السلع لانه يرد من (تغازه) على مسافة طويلة ـ ويصف قصر الملك الذي يدعى سني علي (Sonni Ali) وحرسه من الخيالة والمشاة، ومستشاريه (114) .

واشار الى مملكة (جوبير) من ممالك الهوسا وهي تقع شرق (جاو) ويذكر انه حين يفيض النيجر يغطي الاراضي هنا بالمياه ويقوم الاهالي بالقاء البذور فى المياه ويتركونها ، ويذكر أن مملكة جوبير تعرضت للغزو من (أسيكا) ملك تمبكتو الذي قتل ملك جوبير واتخذ اولاده كعبيد (115) .

واشار الى مملكة اخرى ، شرق النيجر وهي مملكة (كانو) وتشتهر بخصوبة تربتها حيث تزرع القمح ، والارز والقطن والفواكه ، وقد غزاها (أسيكا) ، لكنه عقد اتفاقا على أن تدفع (كانو) ثلث دخلها السنوي (116).

أما مملكة (بورنو) ـ فهي تقع شمال (كانو) ، ويذكر أن ملك بورنو يقوم كل عام بغزوة ويعود من غزواته بالعبيد وهم يمثلون سلعة رئيسية ، ويذكر أن الذهب هنا كثير ، فكل الاواني والاطباق التي يستخدمها الملك بل سلاسل الكلاب الخاصة به من الذهب .. ويصف حياة الاهالي صيفا وشتاء ـ فقد قضى هنا ـ كما يقول ـ شهرا كاملا (117) .

ويصف ليو مملكة النوبة التي يقول انها تمتد من الغرب صوب النيل حتى كردفان وشمالا حتى حدود مصر ، وأن (دنقلة) اشهر مدنها ، ولها تجارة مع مصر والسكان خليط من العرب ، والبجه والزنوج ويمدون سلطانهم حتى (سواكن) على البحر الاحمر (118) .

وقد أشرنا الى ان الكتاب السابع الخاص بممالك السودان الغربي له أهمية خاصة لان الكاتب يعتبر من أوائل الذين زاروا هذه المناطق والقوا عليها الاضواء فى قت كان العالم الخارجي يجهل عنها كل

شيء كما يتضح من الخرائط الجغرافية التي رسمت للقارة في ذلك الوقت .

هذا وقد خصص **الكتاب الثامن** لمصر التي زارها كما يقول ثلاث مرات في طريقه للقسطنطينية ومنها ، وهو هنا يسجل ملاحظات طريفة عن مشاهداته تدل على دقة الملاحظة ـ فيتحدث عن اصل تسمية مصر ويرجعها الى (مصرايم) بينما يشير الى الفسطاط بأنها تسمى حاليا (مصر القديمة) ويشير الى ضيق الوادي الواقع بين الهضبتين الشرقية والغربية في مصر ، وعند حديثه عن فيضان النيل يذكر ان المياه تفيض فيتعذر الوصول الى مناطق كثيرة كالجزر ، وفي رشيد يشير الى مضارب الارز بينما يشير في الاسكندرية الى (عامود بومبي) وغيره من الآثار الرومانية ، ويشير الى المحلة وشهرتها بالغزل اليدوي ، وديروط وشهرتها بمعاصر قصب السكر ، وعند الحديث عن القاهرة يتحدث عن بناء جوهر الصقلي لها ، وابواب القاهرة ، وحوانيتها ، وعن مدرسة السلطان الغوري ، وعن حوانيت العطور والعنبر في الغورية ، وتجار خان الخليلي ، وتجار الكتب بجوار الازهر الشريف ، كما يشير الى مناطق باب اللوق والازبكية وجزيرة الروضة ومقياس النيل بها ، كما يتحدث عن عادات القاهريين ولم يغفل حتى الاشارة الى تجار المياه من السقايين ، وطريقة تفريخ البيض في افران خاصة ، كما يشير الى قصور المماليك بالجيزة . هذا وقد تنقل بنا الوزان في مختلف مدن وأقاليم مصر من (الاسكندرية) شمالا الى (أسوان) جنوبا واشار الى تجارتها مع النوبة . كما تعرض للمناصب المدنية والعسكرية في السلطنة المملوكية ـ ولا شك في أن (ليو) يعطينا هنا صورة دقيقة لمصر المملوكية التي زارها حوالي عام 1517 فقد كان بها اثناء وجود السلطان سليم بها (119) .

اما **الكتاب التاسع** والاخير . فهو عن الانهار الرئيسية والمخلوقات الغريبة والنباتات والمعادن الافريقية ...

ومن جهة الانهار يبدأ من الغرب من نهر تنسيفت الذي يصب في المحيط الاطلسي وتقع أسفي قرب مصبه ، ثم ام الربيع ، بورقراق ،

وهكذا حتى يصل لنهر النيل الذي يشير الى الجهل بمنابعه ، فالبعض يقول انه ينبع من جبال القمر ، لكنه يذكر ان التجار الاثيوبيين الذين يحضرون لدنقلة يذكرون انه ينبع من بحيرة ضخمة فى الجنوب .

والجزء الذي كتبه عن الحيوانات والنباتات الافريقية ليست له قيمة الاجزاء الاخرى ولعله استقى الكثير من معلوماته من الكتب الاخرى ، وقد اشار هو الى (Plinie) (120) ـ لكنه على كل تتضح فيه طريقته التحليلية ، فحين يتحدث عن الفيلة أو الزراف أو الجمال أو الخيول أو النعامة او الطيور الجارحة أو الحيوانات المائية كالتماسح أو الجراد الذي يهاجم المدن فيقضي على الزرع وينشر الخراب ـ يثير بعض المقارنات ، كما يشير لبعض الظاهرات الطريفة فيذكر مثلا بعض أنواع الجمال السريعة او التي تتميز بالقدرة على حمل الاثقال ، ويشير الى أن العرب الذين يملكون عددا كبيرا من هذه الجمال يعيشون (كاللوردات) فى حرية كاملة فى التجول فى الصحراء مع توفر الثروة (121) .

اما ما ذيلت به طبعة مؤسسة (Hakluyt) التي أشرنا اليها فهي اضافات عن ثلاثة امبراطوريات أو ممالك ، هي امبراطورية برت جون او بريسترجون (Prete Janni) ، والمونوموتابا ، ومملكة المغرب وسوس والفزان (122) ، ثم عن مناطق الاستعمار الاسباني والبرتغالي والقلاع التي أسسوها على الجزر والموانيء الافريقية (123) ، ثم محاولة لدراسة المعتقدات الدينية المنتشرة بين الافارقة (الوثنية ، اليهودية ، المسيحية ، الاسلام) (124) ، وفى هذا المجال اشارة للمسيحية فى النوبة ، ومملكة الكنغو ، وانجولا (125) ـ ومحاولة البرتغال والبابوية تحويل تبعية الكنيسة الاثيوبية الى كنيسة روما الكاثوليكية لانها كانت تابعة لكنيسة الاسكندرية ـ لكن رفض الامبراطور الاثيوبي ذلك (126) .. وعلى كل هذا الجزء قليل الاهمية .

لكن الخرائط التي زود بها الكتاب (8 خرائط) وهي من وضع (Mr. Ravenstein) ، وفهرس البلاد والقبائل الواردة فى الكتاب وهي من وضعه ايضا وتوضح مواقعها على الخرائط المذكورة بالنسبة لخطوط

الطول والعرض (127) ، وكذلك الفهرس الابجدي الاعلامـــي (128) ــ جهد طيب وقيـــم ومفيـــد .

تقييـــم كتـــاب (وصـــف افريقيـــا) :

لا شك فى أن التقييم السليم ، يستلزم ان ننظر اليه فى حـــدود العصر الذي كتب فيه (القرن السادس عشر) . وفى داخل هذه الحدود يظهر أن الكثير من معلوماته فريدة ــ وبخصوص المناطق التي زارهـــا الرحالة ورآها بعينيي راسه تتميز كتابته عن هذه المناطق بالاصالـــة والدقة ، وينطبق هذا القول على وصفه التفصيلي الدقيق لبلاد المغرب بأقاليمها المتعددة ومدنها المختلفة ، كما ينطبـــق على بلاد الســـودان الغربي . وفيما يتعلق بهذه المناطق الاخيرة ، فان الابحاث المتأخرة ــ كما اشـــار (Schefer) الذي يرجع اليه الفضل فى ترجمة الكتاب الى الفرنسيه اثبتت صدق اقواله حتى فى المواضع التي اثارت فى الماضي بعض الشكوك حولها (129) .

ويذكر هذا العالم « انه على مدى ثلاثة قرون لم يستطع كاتب او عالم تحدث عن افريقيا ــ أن يتجاهل هذا المؤلف النفيس (130) » .

وقد أشرنا من قبل الى عشرات الكتاب الذين استفادوا من كتابه .

وان كان الكتاب يضم الى جانب مشاهدات (ليو) الشخصيـــة ــ معلومات مستقاة من مصادر اخرى لكن هذا لا يقلل من قيمة الكتـــاب ، ويشير المؤلف بصراحة الى ذلك فى خاتمة كتابه فيذكر : « هذا على وجه العموم ما ابصرته من الاشياء الغريبة التي علقت بذهني انا ــ جيوفانـــي ليوني ، عن جميع افريقيا التي عبرتها من اقصاها الى اقصاها ــ وقـــد دونت بجد واجتهاد ، ومن يوم لآخر تلك الاشياء التي رايتها بعيني راسي وبدالي انها تستحق الذكر ، وما لم اره بنفسي بسبب ضيق الوقت او صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم ــ ثم بذلت جهدي فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل

كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودي بروما ـ وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة 1526 من ميلاد المسيح » .

وقد اشار ماسينون (Massignon) بالذات الى أن الانتاج الفكري للرحالة ليو الافريقي كان له تأثير قوي على العالم الاوربي (131) .

ويكفي ان نتأمل فى عدد اللغات التي ترجم اليها الكتاب ، وعدد الطبعات التي طبعت منها لنعرف مدى الادراك العالمي لاهميته ـ والى وقت ليس ببعيد كانت اسماء الاماكن التي تظهر على الخرائط تعتمد على وصفه رغم أن احتمالات التغيير نتيجة العوامل الطبيعية والبشرية ثبت انها ظاهرة واضحة فى هذه البلاد اكثر من غيرها .

وحتى الجغرافيين ، والرحالة والكتاب المتأخرين فى القرن التاسع عشر لم يستطيعوا ان يتجاهلوا فضله (132) .

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا انه حتى يومنا هذا ـ فان المسافر الذي يتنقل فى المغرب او فى غيره من المناطق التي زارها (ليو) وقدم وصفا لها ، لا يستطيع الا ابداء دهشته من التوافق العجيب بين بعض ما يشاهده من مظاهر الحياة وبين ما سجله (ليو) رغم مضي هذه السنوات الطويلة ـ وهذا يدل على ما اتصف به هذا الرحالة من دقة الملاحظة حتى للاحداث البسيطة التي قد يمر بها المشاهد العادي مر الكرام ـ ولعل ممارسته لوظيفة كاتب عام دربته على ان يسجل الملاحظات بدقة وان يتنبه لكل ما يقع تحت بصره . وهناك دلائل قوية حتى من واقع الحياة اليوم فى هذه الجهات تجعلنا نحترم ليو ونحكم بأنه جدير بالثقة وتلزمنا بتقدير ما قدمه من وصف لكثير من المدن ، ولحياة الناس بها . اما تفسيره للظاهرات التي تقع تحت بصره فهو يدعو للاحترام ايضا ، فمثلا نجده يبرز بعض الظاهرات الاجتماعية والعادات الغريبة فى المغرب ، لكنه يعللها بميل الناس للمحافظة على عادات أجدادهم ، وحين يتحدث عن استخدام الحكام للجنود فى جمع الضرائب ينتقد ذلك ويشير الى أن الناس لا يعترفون بسلطة السلطان الا اذا كان قادرا على ان يكفل

لهم الحماية والامن ـ وبينما نراه يتحدث عن الجيوش وتسليحها نجده لا ينسى الحديث عن أسرى الحروب ومصيرهم التعس فى ذلك الوقت وهو لا يتحدث عن طبقة واحدة من المجتمع دون الاخـــرى ـ فبينمـــا يتحدث عن قصور الحكام وما يتبع فيها من نظام (بروتوكول) ـ نجـــده يتحدث عن عادات الناس العاديين وما يزاولونه من صناعات وما يؤثـــر على تصرفاتهم من تقاليـــد .

وقد اعتبره البعض انه يمثل قمة ونهاية عصر الحضارة العربيـــة الاسلامية الزاهية التي ازدهرت فى اسبانيا (133) .

هذا ولكتاب الوزان اهمية خاصة ، أرجو ان نؤكدها هنا لانه يبدو ان الذين يكتبون عن الاستعمار الاوربي فى افريقيا خاصة من العرب لم يعطوها حقها من الاهمية ، وهي انه من القلائل الذين عاصروا احـــداث الاستعمار البرتغالي لثغور الشمال الافريقي بل انه شارك فى هـــذه الاحداث ، فكتابه عنها من اهم ما كتب فى هذا المجال .

على أن الذين وجهوا اليه النقد ، واتهموه بالمبالغة وعدم تحـــري الدقة مثل (Morgan) و (Chenier) ـ لم يستطيعو ان ينكروا فضله فاعترفوا أنه يستحق الشهرة التي ظل يتمتع بها لقرون (134) .

هذا ولا بد من الاشارة الى أن المنهج الذي اتبعه ليو فى كتابه لا يمكن ان نرجعه لنمط (الرحلات) أو (الزيارات) ـ أي الرحلة بقصـــد الحج الذي اشتهر به غيره من الكتاب المغاربة بالذات ـ كما انه لا يمكن ان نرجعه لنمط (المسالك) أو لنمط (الخطط) الـــذي يتمثـــل فى المصنفات الضخمة التي اشتهر بها بعض الكتاب كالمؤرخ المصري تقي الدين احمد بن علي المقريزي (1364 ـ 1442) ، وهو ليس مؤلفا (نقليا) او جامعا لعدة علوم أي موسوعي (Encyclopaedist) ـ لكنـــه فى الحقيقة يجمع بين كل هذه الانماط ، كما يعكس صورة الثقافة المتعددة الجـــوانـــب .

مـؤلفـــات ليـــو الاخـــرى :

اشار ليو فى كتابه (وصف افريقيا) الى عدة مؤلفات اخرى له ، كما اشار الى مجالات أخرى يعتزم الكتابة فيها ، ومما يدعو للاسف حقا الا نعثر على هذه الكتب التي لا شك ــ قياسا على كتابه المنشور ــ لو عثر عليها لاضافت الكثير الى معلوماتنا خاصة وأن بعضهـــا يتعلـــق بمشاهداته اثناء زياراته لمناطق هامة وقد وعد بتخصيص كتاب خاص لهـــا .

ويذكر (Massignon) ان ليو الف باللاتينية كتابا تناول فيه سير ثلاثين من العرب الذين اشتهروا فى الفلسفة والطب ، وان (Hottinger) قام بنشر هذا الكتاب فى عام (1664) . وان أهمية هذا الكتاب ترجع الى انه يمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ تطور العلوم عند العرب (135) .

وقد أماط العلامة (Casiri) القناع عن كتاب آخر (لليو) وهو عبارة عن معجم عربي ــ عبري ــ لاتيني ــ طبي ، الفه من أجل طبيـــب يهودي صديق له وهو فى 117 صفحة ، ولا تزال مخطوطته محفوظة فى مكتبة الاسكوريال ــ وقد انتهى منه ــ كما يذكر فى خاتمته فى آخـــر يناير 1524 م . اي انه سابق للانتهاء من كتاب وصف افريقيا الـــذي يشير فى نهايته الى انه كتبه فى روما فى 10 مارس عام 1526 (136) .

وختم ليو قاموسه الطبي هذا بقوله :

« فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير الى مؤلفه يوحنى الاسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي ــ فى آخر يناير عام اربعة وعشرين لتاريخ المسيحيين ــ الموافق ثلاثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين ، وذلك بمدينة بولونيا من بلاد ايطاليا ــ برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب ابن شمنون الوفي الاسرائيلي (137) » .

وقد اشار الوزان فى كتابه وصف افريقيا الى انه سيسجل مشاهداته عن رحلاته فى آسيا واوربا فى كتاب آخر لانه يخصص كتابه هذا للقارة

الافريقية ، ولا ندري هل وضع هذا الكتاب ام لا ، اذ لم يعثـــر لـــه على اثـــــر (138) .

كذلك يستدل من اشاراته فى كثير من المواضع فى كتاب وصف افريقيا الى انه اعد مختصرا لتاريخ الاسلام (139) . وأشار الى كتاب له جمع فيه ما عثر عليه من الاشعار الوطنية على الاضرحة والقبور (140) .

كما اشار الى كتاب آخر له فى العقائد والفقه الاسلامي — وارجـــع هو القارىء الى هذا الكتاب الذي لم نعثر عليه بعد (141) .

وأشار الى كتاب له فى الاعياد الاسلامية (142) .

هذا بالاضافة الى اشارته الى أنه سيخصص كتابا آخر للمناطق التي زارها فى آسيا ، ورحلته من فاس الى القسطنطينية ومنهـــا الى مصـــــــر (143) .

والحقيقة اننا لا نملك الا أن نقول ان تأليف الرحالة فى فروع متعددة من العلوم المختلفة بالاضافة الى اتقانه عدة لغات يدل على سعة افقه وعلى علمه الواسع والمامه بكثير من ألوان المعرفة مما يصعب على فرد واحد من الافراد العاديين الالمام به .

* * *

هذه لمحة عن حياة هذا الرحالة العربي المغربي ، وعن مؤلفه الشهير (كتاب وصف افريقيا) وهو المنشور من بين العديد من الكتب التـــي اشار الى أنه ألفها . وقد ترجم كما ذكرنا الى معظم لغات العالم وطبع في كـــل منها عـــدة مرات .

ولا شك فى أن هذا العرض للرجل ولمؤلفه لا يغني عن الرجـــوع للكتاب ذاته — بل لعله يدفع الى ذلك ، فليس امتع من أن نسير مع الرحالة

فى رحلته ليقص علينا بطريقته الانطباعات التي تركتها الاحداث التي مرت به والمشاهدات التي وقعت تحت بصره وسمعه .

وبعد لعل فى هذا العرض ـ كما ذكرت ـ ما يدفع لان يتقدم أحد الدارسين المتخصصين الاكفاء أو مجموعة منهم لسد الفراغ الضخم فى المكتبة العربية بترجمة كتاب وصف افريقيا الى اللغة العربية ، اللغة الاصلية للمؤلف وابائه وأجداده .

والله ولي التوفيق .   **شوقى عطا الله الجمل**

مصـــادر البحـــث والتعاليـــق

(1) لعل ابن خلدون يعطي مثلا قويا لهذه الظاهرة وسنشير اليه فيما بعد .

(2) اقتصر ملك الامراء المسلمين فى اسبانيا بعد سقوط اشبيلية سنة (1048) على مملكة غرناطة حيث بقيت فترة فى أيدي (بني نصر) ، لكن سقطت غرناطة فى النهاية فى عام (897 هـ ـ 1492 م) فى يد (فرديناند الخامس) الذي ارتقى عرش مملكة ارجون فى عام (1467) بعد وفاة أبيه الملك يوحنا الثاني ، بينما كانت (ايزابيلا) قد ارتقت عرش مملكة قشتالة عام (1474) بعد وفاة أخيها (هنري الرابع) وبزواجهما اجتمعت لهما السلطة فى اسبانيا .

(3) ملاحظـة : لا توجد علاقة بين أسرة الوزان ـ كما يبدو ـ والاسرة التي تحمل نفس الاسم (الاسرة الوزانية) التي تنتمي لاحد مشايخ الطرق الصوفية وقد نشأت بين هذه الاسرة ودولة الحماية (فرنسا) علاقات .

(4) الطبعة الانجليزية التي نشرها ((John Pory) فى عام 1600 تحت اسم :
The history and Description of Africa and of the Notable things theren contalned Written by Al Hassan Ibn Mohammed al-Wazan Al Fasi. A moor, Baptised as Giovanni Leone, But Better Known as Leo Africanus.

وقد أعيد نشرها فيما بعد فى ثلاثة أجزاء أيضا مع مقدمة وتعليقات للدكتور روبرت بـــرون (Robert Brouwn) سنة (1896) وهي الطبعة التي سنشير لصفحاتها دائما هنا . وسنشير فيما بعد ـ للطبعات الاخرى الهامة التي ظهرت لهذا الكتاب بمختلـف اللغـــات .

(5) أسرة (مدتشي) من الاسر التي برزت فى عهد النهضة الايطالية ، وقد حكمـت فلورنسا فترة من الزمن ، وبرز منها أفراد منهم (البابا ليو) المشار اليه ، وقد لعب دورا هاما فى أثناء حركة مارتن لوثر (1483 ـ 1546) ، وقد عاصر الحركة فى مرحلـة هامـة مـن مراحلهـا . كمـا بـرز من هـذه الاسـرة كوزمـو دي مدتشـي (Cosmo de Medicci) الذي يقترن اسمه بتأسيس مكتبة البندقية خلال الفتـرة التي كان منفيا بها ، كما دعم مكتبة (سان ماركو) فى فلورنسا ، كما اشتهـرت كاتريـن مدتشـي (Catherine de Med cci) فى فرنسا (1519 ـ 1589) وكانت فى فترة من الفترات وصية على ابنها (شارل التاسع) ملك فرنسا .

(6) Atiya, Aziz, Suryal : The crusade in the latter Middle ages (London 1938) p. 477

(7) طبعــة (1896) الانجليزيــــة Vol. I. P. 187

(8) Rae : Country of the Moors P. 22

(9) Vol. II. P. 299

(10) Vol. II. P. 288

(11) المقري ، احمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصـــن الاندلس الرطيــب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ج 2 ص 617 (المطبعة الازهرية بمصر 1302 ﻫ)
— كذلك محمد داود : تاريخ تطوان ج 1 ص 232
— والزياني ، عبد العزيز بن الحسن المهدي : الجواهر المختارة فيما وقفـــت عليه من النوازل بجبال غمارة (مخطوط بالخزانة العامة ، الرباط) ورقة 125/ ب
— Roger, coindreau : les Corsaires de Salé (Paris 1948)

(12) Prescott : History of the Reign of Ferdinand and Isabella (1890) P. 467

(13) لم نعثر فى كتابه على اشارة تفيدنا فى تحديد تاريخ هجرته للمغرب بالضبط .

(14) يرجع بناء جامع القرويين الى عهد الامير (يحيى بن محمد بن ادريس) من ملــوك الادارسة وقد تولى الحكم فى عام (234 ﻫ ـ 849 م) وقد بنته الاميرة فاطمة الفهرية القيروانية (أم البنين) من مالها الخاص ، واصبح بعد ذلك موضع رعايـــة الملــوك فادخلوا عليه التحسينات وتطورت فيه الدراسة حتى أصبح بمثابة (جامعة) يؤمها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم ، وممن وفدوا عليه البابا (سلفستـــر الثانـــي) واليه يرجع الفضل فى تطوير التشريع الروماني بما اقتبسه من النظريـــات الفقهيـــة الاسلامية . وقد ذكر ليو أنه قرأ فى القرويين بعض كتب الادب والمنطق والعقائــد وحفظ كتـــب الغزالـــي .

(15) مقدمة الطبعة الانجليزية المشار اليها سابقا P. XIX

(16) الطبعة الانجليزية المشار اليها P. 273

(17) العدل هو موثق العقــود (Notary) ـ انظــر P. 426

(18) (سلطان فاس) هو السلطان محمد البرتغالي الوطاسي (910 ـ 931 ﻫ) ويشرح الوزان سبب تسميته بالبرتغالي ، اذ أن البرتغال أسروه فى (أصيلا) أيام أبيــه (محمد الشيخ بن أبي زكريا) فمكث عندهم سبع سنين ، ولما افتداه أبوه ورجع كان يتقن اللغة البرتغالية فلقب بالبرتغالي .

ـ أما الشريف محمد ـ فهو (أبو عبد الله القائم بأمر الله السعدي) ، وقد بايعه أهل جنوب المغرب فى عام (916 ﻫ) فاخذ يناوىء الوطاسيين ، وبعد حروب طاحنة تصالح الفريقان على اقتسام البلاد ، وظل السعديون سادة (مراكش) حتى غلبوا على فارس سنة (956 ﻫ) ، واستعاد الوطاسيون فاس بمعاونة الاتراك فى الجزائر ـ لكن

السعديين أعادوا عليهم الكرة ودخل (أبو عبد الله محمد الشيخ ـ المهدي) فاس ثانية وقبضوا على أبي حسون آخر الامراء الوطاسيين وقتلوه (957 هـ) وقضوا بذلك على حكم اسرة بني وطاس ، واتخذ السعديون (مراكش) عاصمة لهم .

(19) استولى البرتغال على الموانيء المغربية الواحدة تلو الاخرى . فقد استولوا على سبتة (818 هـ ـ 1415 م) وظلت تحت حكمهم الى آن سلموها للاسبان (1080 هـ ـ 1669 م) ، كما استولوا على القصر الصغير (826 هـ ـ 1457 م) وعلى طنجة (869 هـ ـ 1464 م) وتنازلوا عنها للانجليز (1072 هـ ـ 1661 م) كمهر قدمته (كاترين) شقيقة ملك البرتغال لزوجها (شارل الثاني) ملك انجلترا ، وقد استردها المولى اسماعيل من انجلترا (1095 هـ ـ 1684 م) واستولوا على أكادير (1505 م) وعلى الصويرة (1506 م) وآسفي (1508 م) وآزمور (1513 م) والجديدة (1514م) . وهكذا استولوا على الشاطيء المغربي كلـــه .

(20) Vasco de coravalho : La domination Portugaise au Maroc 1415-1769 (Lisbonne 1936) P. 15

(21) مقدمة الطبعة الانجليزية المشار اليها P. XXIX

(22) آثار (شاله) المقصودة هنا هي مدافن الخلفاء المرينيين بشالة .
انظر : أبو عبد الله محمد بن مصطفى بوجندار الرباطي (1345 هـ ـ 1926 م) : شاله وآثارها (الربـــاط 1922) .
— وكذلك البحث المفصـل والقيـم :
Hesperis (1922 - Vol. II) ; Chella une nécropole Mérinide P.P. 1-92, P.P. 255 - 316, P.P. 385 - 425

(23) P. 886 et P. 904 (فى الكتاب الثامن) .

(24) مقدمــة الطبعــة المشــار اليهـا

(25) كانت القرصنة ظاهرة مميزة لهذا العصر وقد ارتبطت فيما يتعلق بمسلمي شمـال افريقيـــا بالجهاد ضد المستعمرين الاوربيين .
وعن القرصنـة انظـر : Adventures of Thomas Pellow (1890)

(26) مقدمة الطبعة الانجليزية التي أشرنا اليها P. LII

(27) للدراسة التوسعية للدافع الديني وراء الاستعمار الاسباني والبرتغالي فى افريقيا فى ذلـك الوقـت انظـــر :
— عودة عبد الملك : السياسة والحكـم فى افريقيا (القاهــرة 1959) ص 60 ومـــا بعـدهـــا .
— شوقـــي الجمـــل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارهـا (القاهــرة 1971) ص (121 ـ 155) .

(28) انظـر : Vol. III P. 972 من الطبعة الانجليزية المشار اليها .

(29) ذكر الرحالة فى كتابه انه قرأ فى القرويين بعض كتب الادب والمنطـق والعقائـد وحفظ بعض كتب الغزالي ...

(30) محمد المنوني : التيارات الفكرية فى المغرب المريني (مجلة الثقافة المغربية عدد 5).

(31) ابن السكاك ـ هو محمد بن غالب بن احمد المكناسي (+ 818 هـ ـ 1415 م) .

(32) المقري ـ هو محمد بن محمد المقري ـ قاضي الجماعة بفاس (759 هـ ـ 1357 م)

(33) نلاحظ أن ابن خلدون تناول نفس هذه الافكار بالتحليل فى مقدمته :
(فصل فى أن كثرة التآليف فى العلوم عائقة عن التحصيل ، وفصل فى ان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم) .

(34) نسخة من الرسالة موجودة بالخزانة العامة بالرباط برقم 178 ج ، واخرى بنفس الخزانة برقم 11138 د .

(35) انظر صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد مجلد 6 ص 228 .

(36) الرسالة موجودة ضمن مجموعة رسائل لابن عباد بالمكتبة الملكية بالرباط برقم 255.

(37) البكري : أبو عبيد الله (+ 487 هـ ـ 1094 م) ـ وضع كتابا من عدة مجلدات باسم (المسالك والممالك) معتمدا على وثائق الارشيف الرسمي فى قرطبة .
وقد أمدنا بمعلومات قيمة عن بلاد المغرب والسودان الذي خصص له جزء باسم (تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان) ـ وله (معجم جغرافي) لاسماء البلاد حسب حروف الهجاء ـ ويعتبروه دوزي أكبر جغرافي اخرجته الاندلس .
انظـر :

Dozy R : Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen-âge (Leyde 1849) P. 297.

(38) الادريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ، ولد فى سبتة (493 هـ ـ 1100 م) وضع كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) بتشجيع (روجر الثاني) ملك صقلية .
انظر : كراتشوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم) ـ القسم الاول ص 279 وما بعدها.
ـ هذا ويشير بعض الكتاب الى الشبه الكبير بين سيرة حياة كل من الادريسي والحسن الوزان .
انظـر :

Massignon L. : Le Maroc dans les premières années du XVIè siècle (Alger 1906) P.P. 32-37

(39) ابن جبير : محمد بن أحمد بن جبير الكناني (+ 614 هـ ـ 1217 م) وهو من اسرة عربية استوطنت بلنسية (Valencia) فى الاندلس . وكان كاتبا لحاكم غرناطة الموحدي ، وقد قضى فترة طويلة من حياته متنقلا بين مكة وبيت المقدس ومصر ، وتوفي فى الاسكندرية .
انظر : نصار ، حسين نصار : رحلة ابن جبير (1885) Wright : Ibn Jubayri

(40) ابن سعيد : أبو الحسن علي الغرناطي ـ ولد حوالي (610 هـ ـ 1214 م) بغرناطة، زار شمال افريقيا ومصر والعراق . وله الفضل فى اتمام عدة مؤلفات تعالج تاريخ العرب والبلاد العربية منذ الجاهلية الى عصره ، كان قد بداها جده وابوه .

(41) ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي . ولد بطنجة (703 هـ ـ 1304 م) وخرج من طنجة فى عام 725 هـ لحج بيت الله الحرام ، لكنه ظل متنقلا ولم يعد الى وطنه الا بعد أكثر من ربع قرن ، وقد وصل الى فاس فى عصر حكم السلطان المريني أبي عنان (751 ـ 759 هـ) وقد كلفه هذا السلطان برحلة الى (تمبكتو) زار فيها سجلماسة ، ومملكة مالي . وقام (محمد بن جزي الكلبي) ـ الذي كان يشغل منصب كاتب فى سلطنة بني نصر حكام غرناطة ثم عمل فى بلاط السلطان أبي عنان ـ بتدوين أخبار رحلة ابن بطوطة بتكليف من هذا السلطان ـ فرحلة ابن بطوطة التي نشرت باسم « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » تمثل الرحلة بأسلوب ابن جزي وليس بأسلوب الرحالة نفسه .
— انظر : مقدمة ابن جزي لرحلة ابن بطوطة (نشر دار التراث ببيروت 1968) ص 8 ـ ويوجد بالمكتبة الاهلية بباريس جزء من مخطوط ابن جزي بخط يده .

(42) ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، ولد فى عام (732 هـ ـ 1332 م) . عاش أيضا فى رعاية السلطان أبي عنان ، وتنقل فى بلاد شمال افريقيا واستقر فى منطقة منعزلة ضمن أعمال (وهران) حيث كتب مقدمته . وسافر الى مصر فى عهد السلطان المملوكي (برقوق) . وكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » يقدم لنا مادة وفيرة عن تاريخ البربر ، وتاريخ الدويلات المسيحية فى اسبانيا .
انظر : طبعة بولاق ـ مصر (1284 هـ) ـ فى سبعة أجزاء .

(43) كان هذا النمط من الكتابة قد أخذ يتقهقر فى المشرق العربي ، ولعل المسعودي (+ 956 هـ م) فى كتابيه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) و (أخبار الزمان) ، وابن حوقل (القرن العاشر) فى كتابه (المسالك والممالك) ـ (صورة الارض) يمثلان قمة هذه الظاهرة فى المشرق .

ونحن نجد هذا المد الثقافي ينتقل الى المغرب العربي فيقدم لنا دفعات قوية فى هذا المجال ...

(44) لمن يريد التوسع فى تتبع حركات الكشف الجغرافي للقارة ـ انظر : شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة 1971) .

— وقائمة المراجع عن تاريخ القارة فى ص (719 ـ 724) من الكتاب المذكور .
ملاحظة : المقدمة التي قدم بها (Pory) لترجمة الكتاب عام 1600 هي نفسها تدل دلالة واضحة على مدى الجهل فى ذلك الوقت بداخل القارة الافريقية .

(45) Massignon, Le Maroc : OP. Cit. P.P. 36 et 40.

(46) نشرت هذه الطبعة فى حياة (الوزان) نفسه ومنها نعرف انه (أي الوزان) انتهى من كتابه بالايطالية فى (10 مارس 1526 م) .

(47) الغريب أن بعض الكتاب بعد ذلك بمدة طويلة أشاروا الى وجود النسخة الخطية ـ انظر :
— Mr. S. Cock : Narrative of Robert Adams (1816) p. 188
— Mr. Berbriegger : Revue Afr caine (1858) p. 362
لكن لم يشر أحدهما الى مكان هذه النسخة الخطية مما يثير الشك فى كليهما .

(48) مقدمـــة Dr. Robert Broum – الطبعة السالفة الذكر P. XIV

(49) لـذا نشر الكتـاب تحت عنوان :
" A Geographical Historie of africa, written in Arabicke and Italian by John Leo, a More, borne in Granada and brought up in Barbarie (Londini 1600)

(50) Schefer, Description de l'Afrique, I. P. XVI

(51) Massignon, Maroc P. 23
ويلاحظ أن هذا لا ينفي وجود مسودة عربية للرحلات ، فالكاتب هنا – اثناء كتابـــة كتابه بالايطالية يشير الى أن المراجع الاجنبية فى متناول يده بعكس المراجع العربية التي افتقدها فى اوربا بينما كانت تحت يده فى وطنه الاصلي .

(52)
Historiale Description de l'Afrique... Ecrite par Jean Leon African premièrement en langue arabesque, puis en Toscane, mise en français par Jean Temporal (Lyon 1556).

(53)
Joannis Leonis Africani, de Totius Africae descriptione... recens in Latinam Linguam conuersi Joan Floriono interprete.

(54) كـــان (John Pory) طالبا بجامعة كامبردج (Cambridge) فى عام 1587 ، لكن يبدو انه لم يستمر حتى يحصل على درجته الجامعية التي كان يريد التخصص فيها ، وقد اهدى الكتاب (الترجمة) الى السيد روبرت سيسل Sir Robert Cecil سكرتير الدولة وعضو المجلس الخصوصي .

(55) نشر هذه الطبعة الاسبانية معهد فرانكو (Institute General Franco) مع تحقيقات باللغة العربية والاسبانية – ونسخة من هذه الطبعة موجودة بالخزانـة العامة بالربـاط تحت رقم C/4869 ، وقد ظهرت ترجمـة اسبانيـة اخـــرى فى عـــام 1952 .

(56)
Description de l'Afrique truce Partie du Monde écrite par Jean Leon Africain, premièrement en langue arabesque puis en Toscane et à présent mise en français. Nouvelle Edition, annotée par Ch. Schefer I - III (Paris 1896-1998).

(57)
The History and Description of Africa and of the Notable Things There in contained — written by al — Hassan Ibn Mohammed al Wezaz al Fasi, A moor Babtised as Giovanni Leone, Better known as Leo Africanus, Done Into English in the year (1600), by John Pory (wih an introduction and notes by Dr. Robert Brown).
وسيكون تحليلنا للكتاب على اساس هذه الطبعة .

(58) انظر مقدمة (Brown) للترجمة الانجليزية والمشار اليها سابقا (P. LXXI) ومـا بعـدهـا .

(59)

— Langres de Tassy : Histoire du Royaume d'Alger (1725)

— Joseph Morgan : History of Alger.e, to which :s prefexed an epitome of the General History of Barbary from the earliest times (1728)

(60)

Massignon, Louis : Maroc dans les premières années du XVIè siè- - cle. Tableau Géographique d'après Léon l'Africain (Alger 1906) Hartmann, J.M. : Idrisi Africa (1796) P. XX

(61)

(62) نشـر (Barth) مشاهداته في خمس مجلدات :

Barth, H. : Travels and discover:es :n North and Central Africa (1849-1855) 5 vols. (London 1857-1858)

وللدراسة المستفيضة لجهود بارث انظر :

شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة 1971) ص 100 ، 494 ، 498 ، 565 .

(63) يشير الرحالة (Shaw) الى ان المدينة البربرية بالذات تتسم بعدم الاستقرار نتيجة الظروف الطبيعية والبشرية ، انظـر :

Shaw : Travels and Observations relating to Several Parts of Barbary and Levant (1757) P. 136

(64) اعتمدنا في ذلك على الطبعة الانجليزية التي ظهرت في (1896) اعتمادا على طبعة (Pory) الصادرة في لندن 1600 مع تعليقات (Dr. Brown) ونسخة هذه الطبعة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 80 A (8881).

(65) استند الجزء الاول في هذه الاضافة على ما كتبه الرحالة والكتاب الآخرون الذين كتبـوا عن هـذه المناطـق .

(66) انتشرت في اوربا ـ خاصة في اوائل الكشوف الجغرافية ـ فكرة وجود امبراطورية مسيحية على راسها امبراطور عرف باسم (القديس يوحنا) ، وكان من اهداف الكشوف الجغرافية الاولى الوصول لهذه المملكة المسيحية للاتفاق على تطويق العالم العربي الاسلامـي .

(67) امبراطورية المونوموتابا ـ كونتها قبائل البانتو في شرق افريقيا في المنطقة التي تدخل فيها على الخصوص اراضي روديسيا (الجنوبية) حاليا ـ وكانت في القرن الخامس عشر تسكنها قبائل (الميتابلي) و (الماشونا) وظلت هذه الامبراطوريـة قائمة حتى قضى عليها المستعمرون الاوربيون .

(68) يقصد بها المناطق الواقعة في جنوب افريقيا الى راس الرجاء ثم ارض (ناتال) ولفظ كافر (Kaffir) ـ كما يذكر جونسون اطلقه العرب على المستوطنين في جنوب افريقيا من الزنوج (لعدم ايمانهم بالله) وان الهولنديين (البوير) عند استيطانهم جنوب افريقيا اخذوا من العرب هذا اللفظ واطلقوه على قبائل البانتو بينما اطلقه غيرهم من الكتاب الاوربيين على الافريقيين عموما .
انظر :
Johnston, H.H. : A History of the Colonisation of Africa (Cambridge 1913) P. 130.

(69) كانت بالكنغو قبل الاستعمار الاوربي مملكة يمتد سلطانها على مساحة كبيرة من الارض وكان الحاكم يعرف باسم (المانيكونجو (Mani Congo)
انظر :
Duffi, James : Portuguese Africa(London 1929) P. 11

(70) افريقيا بالنسبة له ـ هي المناطق الواقعة شمال خط الاستواء فهو لم يتعرض لما هو جنوب ذلك .

(71) البعض شبه هذا التقسيم بما ورد في مقدمة ابن خلدون وبمنهجه في المعالجة ايضا .
ـــ انظر محمد المهدي الحجوي : حياة الوزان الفاسي واثاره ـ بحث قدم لمؤتمر المستشرقين بفاس (1933) ـ نسخة بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم (C / 2162)

(72) 151 - 161 .P.P.

(73) 164 .P لا ندري هل كتب كتابا خاصا بهذا الموضوع ام لا ؟

(74) 166 .P

(75) 167 .P

(76) 175 .P

(77) 179 .P (ويلاحظ ان الاحصاءات الحديثة تؤيد صحة ما ذكره مثلا عن طول اعمار سكان الجبال) .

(78) 180 .P

(79) 182 .P

(80) 185 .P

(81)
J. Morgan : A Complete History of Algiers (1731) Préface P. VII
وكذلك
Chenier : Recherches Historiques sur les Maures vol. III (1787) P. 65

(82) 187 Vol. I.P.

(83) Vol. II P. 264

— منار الكتبية الذي يشير اليه يبلغ ارتفاعه 50 67 مترا * وقد شيده (الامير يعقوب المنصور) من خلفاء الموحدين الذي توفي (580 هـ — 1184 م) أما مسجد اشبيلية فقد حوله الاسبان بعد استيلائهم على اشبيلية (1248 م) الى كنيسة وحولت منارته العظيمة الى برج للناقوس وهي لا تزال قائمة الى الان مثالا رائعا للفن ويعرف ببرج (الجيرالدا) .

أما مسجد حسان بالرباط فرغم ما اصابه نتيجة حريق تعرض له ، وهزة أرضية في القرن الثامن عشر فلازالت أطلاله ومنارته العظيمة التي تبلغ 66 مترا ناطقة بعظمته .

(84) P. 288 - 294

(85) P. 306

(86) P. 323

(88) يشغل الكتاب الثالث الصفحات (393 - 560)

(89) P. 437

(90) P. 438

(91) P. 438

(92) P. 448

(93) P. 470

(94) P. 454

(95) P. 475

(96) P. 401

(97) P. 407

(98) P. 421

(99) P. 496

ملاحظة : لعبت هذه المدينة دورا هاما في تاريخ المغرب وذاعت شهرتها حين حدثت في السهل المجاور لها (وادي المخازن) في عام (1578) - معركة وادي المخازن أو (معركة الملوك الثلاثة) التي قتل فيها الملك سبستيان ملك البرتغال .

— للدراسة التفصيلية للمعركة انظر : محمد الفاسي : موقعة وادي المخازن الحاسمة (مجلة البحث العلمي المغربية العدد التاسع - سبتمبر ، ديسمبر 1966) ص 213 وما بعدها .

(100) P. 502

— وقد ورد ذكرها مرارا في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» - للادريسي باسم(أصيلا).

P.P. 504 ، 506 (101)
وقد وصل البرتغالي للعرش سنة (1508 م) .

(102) يشغل الصفحات من 659 الى 689 .

(103) بدأت سلطة الدولة الزيانية فى تلمسان بحكم أبو يحيى (يغمر اسن بن زيان)
(633 هـ — 1236 م) وقد مر حكم هذه الاسرة بمرحلتين ، انتهت المرحلة الاولى
بحكم (أبو تاشفين ، عبد الرحمن الاول بن موسى) لكن نجح المرينيون فى القضاء
على هذه الدولة 737 هـ — 1337 م . وانبثقت هذه الدولة من جديد على يد أحمد
ابن موسى الثاني 760 هـ — 1359 م ونجح (عروج) اخيرا فى أن يحتل تلمسان
عام 1517 .
انظر : ابن خلدون جـ 7 ص 161 .

Bargués : Complément de l'histoire des Beni Zeiyan (1887)

P. 683 (104)

(105) أشار الى آن تشييد قسنطينة يرجع للنفوذ الفينيقي على الشمال الافريقي .
كما شهدت صورا من الكفاح بين القرطاجنيين والرومان P. 704

(106) يشير الى الاختلاف فى الآراء حول تشييد قرطاج P. 715

(107) تحدث بالتفصيل عن تاريخ تونس وقيام الدولة الحفصية ، وأبو زكريا يحيى الاول
(627 هـ — 1229 م) ويتحدث عن المجتمع التونسي ، والتقاليد المتبعة فى قصر
حكام تونس وحاشية الحاكم ونظام وراثة العرش .

(108) يشير الى بناء (عبد الله المهدي) الخليفة الشيعي مؤسس الدولة العبيدية
لمدينة المهدية فى موضع بين (سوسة) و (صفاقس) وانتقل اليها واتخذها مركزا
لحكمه فى عام (308 هـ) وحصنها ، وبنى بها الجامع ، ودارا للصناعة .

(109) أشار الى بناء (عقبة ابن نافع الفهري) فى سنة 50 هـ لمدينة القيروان فى قلب
البلاد التونسية ، وكانت هذه هي الخطوة الاولى نحو ظهور ولاية اسلامية بهذه البلاد ،
وأحاطها عقبة بسور بسيط ، وجعل فى وسطها الجامع الذي نسب اليه ، وابتنى
بها دارا للامارة ، وقد عاد عقبة بن نافع الفهري لامارة افريقية فى خلافة
(يزيد بن معاوية) فتدارك أمر القيروان بعد أن كان قد أصابها الاهمال
(P. 716 — 722)

ملاحظة : عن بناء القيروان انظر : النويري . وانظر :
— Rae : The country of the Moors P.P. 215-313
— Broadley : Tunis Past and Present vol. II. P. 127 : وانظر

P. 734 — 735 (110)

P. 822 (111)

— يذكر (بارث) انها بنيت (435 هـ — 1033 م) وانتشر الاسلام بين اهلها فى
القرن 13 الميلادي .

— انظـر :
Barth, H. : Travels and Discoveries in North and central Africa (1845-1855) vol. IV P. 582

— وكذلـك :
Park : Travels in the interior districts of Afr:ca (1799) P. 191-200

(112) وصلت مالي الى درجة عظيمة ايام منسى موسى الذي اعتلى العرش سنة (706 هـ 1307 م) وقد كانت رحلته للحج سنة (725 هـ ـ 1324 م) مثار حديث الناس في القاهـرة لمـدة طويلـة .
فقـد ذكـر ابـن فضـل اللـه العمـري (+ 724 هـ ـ 1341 م) : مسالك الابصار في الممالك والامصار (القاهرة 1924) ... والذي زار القارة بعـد زيارة منسى موسى لها باثنتي عشرة سنة « ان ما طرح من ذهب في أسواق القاهرة ادى الى هبوط قيمته هبوطا شديدا وذلك لسنوات » .

(113) P. 824 – 825
يذكـر (Barth) ان تمبكتو بنيت في نهايـة القرن الخامس الهجـري ، وان الطوارق هم الذين بنوها وأن جامعها العظيم والقصر يرجعان الى (منسى موسى) الذي كلف احد المهندسين من الاندلس واسمه (الساحلي) بهذا العمل ، وانهـا اضحت مركزا رئيسيا للتجارة يفد اليها التجار من درعة ، وسوس ، وسجلماسة ، وفاس ، ومن غدامس وفزان بل ومن مصر .
— انظـر : Barth, H. : OP. Cit. IV P. 403-480 and P. 584

(114) P. 826
— وقد بلغت صنغاي القصى درجة من الشهرة ايام حكم (اسيكا) .

(115) P. 828
— يلاحظ ان جوبير هي وطن الامام عثمان بن فوديو ـ الزعيم الفولاني المشهور .

(116) اشار الى (كانو) الرحالة
(Oudnev), (Denham), (Clapperton) : D. Denham. H. Clapperton and W. Oudney : Travels and dicoveries in Northem and Central Afr:-ca in 1822 - 4 (1826)
— كذلـك Barth : OP. cit. vol. II P. 110

(117) P. 834
(118) نلاحظ هنا انه يطلق لفظ (النوبة) كتعبير جغرافي على منطقة واسعة رغم وجود ممالك مستقلة او على الاقل ادارات مستقلة في ذلك الوقت في كردفان ، ودارفور ، ودنقلـة .

— من يريد التوسع والحصول على حقائق من شاهد عيـان عن بـلاد النوبـة ، انظـر : Burckhardt : Travels in Nubia (1822)
وهناك ترجمة له باشراف (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) .

(119) P.P. 895 – 905

(120) 937 P.

(121) 939 P.

(122) 972 - 996 P.P.

(123) 997 - 999 P.P.

(124) 1001 - 1030 P.P.

(125) 1052 - 1053 P.P.

(126) 1048 P.

(127) 1074 - 1105 P.

(128) 1106 - 1119 P.

(129) Schefer : Description de l'Afrique, I : P. XXV

(130) Ibid P. XXV

(131) Massignon : Maroc P. 65

(132)
Walckenaer : Recherches Géographiques sur l'intérieur de l'Afrique septentrionale (1821)

(133) كر. شكوفكسي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (الترجمة بالعربية) قسم 1 ص 454 عن 71 (1908
Kramers, J.H. : Enzklopaedie des Islam (Lepzig 1908) P. 71

(134) جمال زكريا قاسم : الحسن بن محمد الوزان مجلة العربي - يونيو 1972 ص 94 .
— Morgan : A complete History of Algiers (1731) P. VII
— Chenier : Recherches historiques sur les Maures (1787) V. III P. 65

(135) Massignon : Leo Africanus P. 24

(136) فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم 598 - لما (كاسيرى) فهو علامة لبناني وضع فهرسا جامعا باللاتينية لمجموعة المخطوطات العربية الموجودة بقصر الاسكوريال فى مجلدين عام (1760) ، (1770)
Casiri : Bibliotheca Arabico. Hispana Escurialensis
— (1760 - 1770)

(137) انظر : محمد المهدي الحجوي : حياة الوزان الفاسي - بحث مقدم لمؤتمر المستشرقين بفاس 1953 .

(138) 412 P.

(139) 164 Vol. I. P.

(140) 172 Vol. II. P.

(141) 886 Vol. III. P.

(142) 127 Vol. II. P.

(143) 904 - 905 P.P.

براء

عمر بهاء الدين الأميري

لصفاء عينيك العذاب
يحلو العذاب فلا عذاب

ولثغرك الزاهى الرقيق
وقد تفتح عن حباب

تتهنأ النفس العنا
ويلذها خوض الصعاب
يا بسمة بفم الزمان

ودرة من غير عاب

يـــا زهرة قدسيـــة التكـــوين

عـــابـــقـــة المـــــــلاب

مـــا أنـــت الا نـــعـــمـــة

وافـــت على غيـــر ارتـــقـــاب

الأهـــل أنـــت أنيـــســـهـــم

لـــك فى قـــلـــوبـــهـــم رحـــاب

مهمـــا أتـــيـــت فـــلا جنـــاح

ولا مـــلام ولا عـــتـــاب

كـــم ذا بلـــلـــت ثيـــابـــهـــم

بـــل كـــم تخطيـــت الثـــيـــاب

فتضـــاحـــكوا .. وتـــلاثمـــوك

كـــأن فعـــلـــتـــك الـــصـــواب

* * *

ان تبـــتسم .. شـــاع السرور

.. وان بكيـــت .. البشر غـــاب

واذا ثـــغـــوت بحضـــن أمـــك

زغـــدت فـــيـــهـــا الـــرغـــاب

فـــاذا رنــوت الـــى الــشــدى

تــدفــق الــروح المــــــذاب

* * *

أبـــراء يـــا بـــردا لـــروحـــى

لاح فى لـــفـــحــــات « آب »

يـــا مـــن أراه خـــلال طيـــف

الغيب . . يرفـــل فى الشبـــاب

وأراه ــ بالآمـــال ــ خلـــقـــا

نــــيـــرا . . غـــض الاهـــاب

وأراه خـــاض الـــى العـــلـــى

والمـــجـــد . . أغـــوار العبـــاب

وأراه بالايمـــان والعـــرفـــان

. . مـــرفـــوع الـــجـــنـــاب

يـــتـــقـــدم الـــصـــف الابـــى

. . ولا يحـــيـــد ولا يـــهـــاب

هـــذا ســـؤال محـــبـــتـــى

لك ، فلتكـــن أنـــت الجـــواب

أبـــراء ، هـــذا الـــدهـــر مـــن
صفـــو ومـــن كـــدر يـــشـــاب

فاصبـــر اذا شـــد الزمـــان
علـــيـــك فى ظـــفـــر ونـــاب

واشكـــر اذا بـــســـمـــت لـــك
الايام ، وانقـــشـــع السحاب

جانـــب بحاليـــك الـــتـــغـــالى
والتـــمـــس حســـن المـــآب

بين الفضـــيـــلـــة والـــرذيـــلة
فى صـــراع الـــعـــزم قـــاب

فاثـــبـــت لاغـــراء الحـــيـــاة
وكـــن قـــويـــا فى المـــصـــاب

واحرس على التقـــوى تـــفـــز
فمـــآل دنيـــانـــا .. تـــراب

أبـــراء مـــا فى الخلـــق لـــى
من حيـــلة فـــذر الـــعـــتـــاب

اللــه قــــدر أن تـــكـــــون

وحكــمــه أمـــر عـــجـاب

لــك أن أمــدك يـــا بـنــى

وأن أعــــدك للـــغـــــلاب

وأظــل أمحضــك الــهـــدى

والحـــق والـــرأى اللـبـــاب

فعـــسى تمـــيــز الصـــدق فى

سبل الحيـــاة . . عن الســـراب

وعـــسى تـــكــون مـــوكـــلا

بالخـــيــر فى أم الكــتـــاب

❋ ❋ ❋

أدعــــو لـــك الرحـــمـــن مـــن

قلـــب يكـــن لـــك الحــبـــاب

لكـــن فى عـــزمـــات روحـــك

والنهى . . . فصـــل الخطـــاب

الرباط عمر بهاء الدين الاميرى

حول انتحار العلماء المختصين في الانتحار

د. رشدي فكار

ظاهـــرة الانتحار من الظاهرات التـــى عرفتها المجتمعات البشريـــة فى مراحلهـــا المختلفة وبدرجات متفاوتة حسب حركيـــة العوامل المساعدة أو المهيـــئة لها عند الافراد واثر البيـــئة الاجتماعية وطبيعة التـــنشئـــة ومـــدى الالتزام باطار قيم محدد وفاعليته فى ردع المجازفـــة بالحيـــاة فـــى مرحلة التأزم واليأس .

ولقد لعبت الاديـــان السماوية دورا اصيلا فى الحـــد من انتـــشار هـــذه الظاهرة حينما صنفتها بين الظاهرات المحرمة والممنوعـــة ، وربطت منح الحياة وعطائها بخالق هو المسير لها لما فيه خيرها وهو قابضها واليه مآلها . وهكذا كانت احكام الاديان صارمة بالنسبة لقداسة حياة الانسان ، وان من تسول له نفسه ان يتخـــذ طريق الانتحـــار مسلكا يفقـــد بعـــد دنياه آخرتـــه ، وتطبق عليه احكام خاصة حيـــن هلاكـــه ، نلاحظ هـــذا بوضوح فـــى تعاليم ديننا الاسلامـــى الحنيف وشعائره .

ولقد كان موقف الاخلاق والمثل المعنوية والانسانية السامية فى العصور الماضية نفس موقف الاديان من الانتحار « اللهم الا ما ندر لدى بعض الفلاسفة ساعة تازم الحياة او أزمة الضمير » ، **وصنف المنتحر تصنيفا سلبيا** على اى حال الا عند قلة من ذوى المشارب الفكرية الخاصة بل والشاذة فى بعض الاحيان .

ومع العصر الحديث وتطور البحث العلمى فى ميدان **العلوم الاجتماعية** والنفسية خضع الانتحار كبقية الظاهرات للدراسة تحليلا وشرحا وتفسيرا فى محاولة لمعرفة جذوره ونشأته والعوامل المشكلة لسببيته اجتماعية او اقتصادية او نفسية عاطفية .. الخ ، وتصنيفها بين عوامل رئيسية وثانوية بين عوامل مانعة او دافعة ، وساعدت الدراسات الاحصائية خصوصا منذ مطلع القرن التاسع عشر على توضيح معطيات **ظاهرة الانتحار ومقارنتها** بهدف الوصول الى بعض النتائج « كمثال دراسة دوركايم عن الانتحار » ، ثم تعددت بعد ذلك البحوث وتنوعت اوجه البحث ميدانيا ونظريا وشكلت هذه الظاهرة مادة من المواد الهامة فى حقل السوسيولوجيا والسيكولوجيا على حد سواء بعد ان زاد انتشارها اتساعا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة خصوصا فى الوحدات الحضرية الكبرى « المدن الكبرى » ، بل واخذها طابعا وبائيا الى حد ما لدى بعض الفئات كمجرد مثال فنانى السينما ، وكذا ارتباطها ببعض الظاهرات الاخرى وتداخلها معها كظاهرات الادمان على **تعاطى المخدرات** والجنس والخمر والميسر .. الخ ، وحتى ارتقائها لدى بعض فئات النخبة المفكرة المستلبة فى المجتمعات الاستهلاكية الى نوع من **فلسفة الخلاص** ودعوة بعض المتشائمين من مسيرة الحضارة المعاصرة وتأزمها وافلاس بعض مناحيها الى ما يشبه الانتحار الجماعى بابرازهم للجوانب السلبية « ماركوز » واصرارهم مع ذلك على السير فى نفس المسيرة الاستلابية ، كما لاحظنا ذلك بوضوح فى بعض اللقاءات الدولية والمؤتمرات العالمية « اللقاء الدولى فى جنيف تحت شعار **الى اين تسير الحضارة ؟** والمؤتمر الدولى منذ عام تحت اشراف اليونسكو فى باريس عن **الهيستيريا ونقل الظاهرات النفسية المرضية** » . ومن ثم تكاثفت العوامل وتكاملت لتجعل من هذه الظاهرة **ظاهرة العصر** وهى التى كان ينظر اليها كمجرد ظاهرة عرضية منعزلة فى العصور الماضية .

غير انه مما يدعو الى مزيد من الملاحظة والتأمل فى هذه الظاهرة ان العدوى والوباء لم يقفا عند حد المرضى بها ، بل تجاوزهم الى

المعالجين لها ايضا ، بمعنى **انتحار العلماء المختصين فى دراسة الانتحار** واحدث مثال يذكر انتحار أحد كبار عمداء الدراسات الاجتماعية والنفسية فى الولايات المتحدة الامريكية ونعنى به العالم الكبير « جاكوب مورينو » مؤسس المدرسة **السوسيومترية** اى القياس الاجتماعى ، وهو العالم الذى لا تخلو دراسة جدية فى حقل البحث الاجتماعى والنفسى دون الاشارة اليه عبر مؤلفاته وابحاثه المتعددة عن الظاهرات بما فى ذلك الانتحار والعلاج النفسى الاجتماعى لها ولغيرها من الظاهرات .

انتحر مورينو فى مايو الماضى .. بعد ان قرر الامتناع عن لقاء الاتباع والاصدقاء وعن الطعام حتى الموت ، ومات مورينو منتحرا ، واصبح لغزا جديدا بالدراسة حتى فى اطار نظريته السوسيومترية نفسها . لقد قطع مورينو طريقا طويلا من البحث بعد ان ترك موطنه الاصلى رومانيا ، واصبح طبيبا معالجا فى المستشفيات العقلية والعصبية بالنمسا ، ثم هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية سنة 1927 ، وتجنس بجنسيتها سنة 1935 وانشأ المدرسة السوسيومترية وتابع دراساته وابحاثه الهامة المتشعبة حتى وفاته ، وساهم فى علاج كثير من الظاهرات وتعرض لظاهرة الانتحار بالدرس والتمحيص فى اطار هذه الدراسات الواسعة .

وكنا جميعا نقدره فى المؤتمرات واللقاءات الدولية لاتساع افقه ، وعمق تحليلية وشمولية نظرته العلمية. ومنذ اعوام جمعتنا به ندوة حول الظاهرات المهتزة وكيفية قياسها على مستوى العلاقات ، وكنا ننظر اليه وهو يتحدث ونتأمل ملامحه فى شيخوخته وكان يبدو لنا ان قلقا دفينا يهز اعماق هذا الشيخ ، وان معرفته العلمية رغم عمقها وفيضانها لم تعطه الثقة فى الحياة بقدر ما عمقت لديه عوامل الشك فيها وفى قيمتها . ونذكر ، ان وعت الذاكرة الان ، مادار فى حديث ودى معه على هامش الندوة عن حقيقة النفس وواقعها وعن الاهتزاز النفسى ، وعن العصاب والذهان وقدرات القياس والملاحظة ... ان اجاباته كانت دائما اجابات رزينة ومختصرة ولكنها تعطى للنسبية مكانا بارزا .

وحينما وصل الى سمعنا نبأ انتحاره كان التساؤل : أما دار بخلد مورينو ايضا ان الحياة بمنطوقها الاجوف حينما تحلل من خلال مجرد أقيسة عادية عارية عن كل مضمون روحى هى نسبية فى بقائها أو عدمه ؟ وان هذا العراء عن المضمون الروحى جعلها عارية أساسا عن علة استمرارها وباتت مجرد تكرار ممل فى مرحلة الشيخوخة وتفتت الخلايا وتآكلها .

لقد راح مورينو ضحية لاقيسته فى تقييم القيم ، وفى تقرير اللانسبية

فى النسبية ، ولرؤيته فى العلاقات كمجرد فعل ورد فعل لـــه ، كما راح غيـــره ضحية لذلك من قبل من الذين اعطوه للاهلية الفكرية « مع اعترافهم بنسبيتها على مستوى الجوهـــر » قدرة الغائية فى الاحكام ، وما نلاحظـــه بالنسبة لمورينو نلاحظه على مستوى حضارة العصر وتأزمه ، كقضية تطرح الآن باصرار وقـــد تعرضنا لبعض جذورها فى المجلد الخامس من نظرية **المراهنة الصناعية** تحـــت عنوان : الصناعة وازمة الحضارة ـــ مطبوعات كلية فرنسا « كولج دى فرانس » ، كما اشرنا أيضا فى لقاء أخيـــر عـــن **التربية واسسها فى هذا العصر** الذى انعقد بجنيف فى سبتمبر الماضى ، وكان منطلقنا دائما فى تفسير الازمة أزمة الانسان ، أزمة المجتمع ، ازمة العصر ، ان الانسان ليس فقط فم يأكل ، ومعدة تهضم ، جسد مادي يتلذذ ويتذوق حسيا ، وانما استمرار لرسالة سامية تتوارثها الاجيال وقيم اصيلة خالدة يتدافع البشر من اجل بقائها لا من أجل تدميرها واستهلاكها .

ان الانسان الذى اتخذ من ارضاء رغباته ، واشباع غرائزه المادية هدفا ، لا شك سينتهى بانتهائه ، اما الانسان الذى يرى أنه يعيش لما هو اسمى وان معرفته مهما تعمقت وفاضت فهى قطرة من محيط المعرفة الغائية والتسليم بهذه الغائية الـــى جانب التسليم بنسبية معرفتنا هـــو الانســـان المتعادل المتوازن الذى استطاع ان يوازن بين رغباته وقيمه ، ويمادل بيـــن غرائزه ومثله . ان التسليم بنسبية المعرفة لا يعنى التسليم بهـــا فى اطار دون اطار آخر ، نسلم بنسبية المعرفة العلمية ولكن نمنع تطبيقها بالنسبة للروحانيات ، ان نسبية المعرفة كل لا يتجزأ ، اما اننا على معرفة غائية بسببية الظاهرات وعلية الكون ، وهنا يحقق لنا ان من ذاتنا المادية نبـــدأ وبها ننتهـــى ، واما ان المعرفة نسبية على كل مستوياتها « وهـــو الراى الذى سلم بـــه الجميع مظهريا على الاقـــل بما فى ذلك اصحاب النظرية التداورية العضوية انطلاقا من سبنسر » وعليه فعلة وجود الانسان ومآله وخالقه وروحانياته لاتحدد الا علـــى مستوى غائية المعرفة التى لـــم تدرك بعد ، والتى هى رمز لعلم الله وكماله العارف بكل شىء لانه هو الخالق لكل شىء ، كما اشرنا الى ذلك فى خاتمة مؤلفنا : **تاملات فى الاسلام** وصدق العلى العظيم حيـــن قال « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » بهذا يستريح الانســـان ويريح ، ولا يجهد روحه فى اخراجها عن جسده قبل حلول الاوان .

ان انتحار علماء الانتحار ، كوفاة علماء طب القلب بالقلب «العلامة البروفسور لونيجرا اخيرا» يقيم لنا دليلا جديدا على ان الانسان لم يؤت من العلم الا القليل ، وان اصالته الحقة فى تواضعه مهما اعطى من المعرفـــة ومهما حاز من الالقاب والتشريف العلمى ، وانه ان كان سيدا لمعركة على

مستوى الجزئيات فى فهم بعض معطيات الوجـــود من خلال الاكتشافات والاختراعات والخلق العلمى قد تدفعه الى الكفر بخالقـــه واحـــلال نفسه محله ، فهو على اية حال اراد أم لم يرد مازال مسودا ومســـيرا بقوانين الكون الخالدة التى تلهم ذوى العقول الواعية الشاكرة ، عظمة المحرك والمسير لها ، وصدق العلى العظيم حين قال : « انا خلقنـــا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هدينا السبيل اما شاكـــرا واما كفورا » .

الرباط **رشدي فكار**

ولادة بنت المستكفي

« وكانت من نساء أهل زمانها واحدة أقرانها ، حضور شاهد وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار العصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو اهل الادب الى ضياء غرتها ، ويتمالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولـــة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصـــاب ، وكرم انساب ، وطهارة أثواب » .

الذخيرة ـ لابن بسام

المجلد 1 ص : 379

فدريكو كرثيا لوركا

1936 - 1898

شاعر . مؤلف مسرحى . ناقد . موسيقى . رسام . محاضر . ولد بقرية فوينطى فكيرو ، بضواحى غرناطة ، وفيها شهد مصرعه الدامى . من عائلة فقيــرة . احــرز شهادة الحقوق . ادار مسرحه المعروف باسم (الكــوخ) الذى كان يجول به فى مختلف الاقاليم الاسبانية .

يعتبر لوركا من اكبر شعراء اسبانيا قاطبة ، لقــى مسرحه حظوة كبيــرة فى العــالم ، فترجم ، وشخص فى اكبر المسارح العالمية . وفى آخر حياته تحول الى شاعــر سوريالى ، بعد سفره الى نيويورك ، لالقــاء محاضرات هناك . صودرت جميــع اعماله الادبيــة من التــداول فى اسبانيا ، ولم يفسح لها المجال الا فى اوائل الخمسينات .

وفى ما يلى ترجمة لثلاث قصائده بتصرف :

أنشودة

قرطبـــــــة

بعيـــدة ووحيـــدة .

يا ألما أسود ، وقمرا مكتملا ،

وحزنـــا كمينـــا فى قلبى .

على معرفتى بالطريق ،

فلن أصل قط اليك ، ياقرطبة .

يا للعويل ، يا للرياح

يا ألما أسود ، وقمرا أحمر .

الموت يرنو الى

من صوامعك ، يـــا قرطبة .

آه ! ما أطول الطريق !

ما أشد لوعتى .

آه ! والموت ينتظرنى ،

قبل أن أصل اليك يا قرطبة .

قرطـــبـــــــة

بعيدة ووحيدة .



كم من عناء بذلت

لأحبك ، كما أحبك !

لحبك يوجعنى الهواء

والقـــلـــب

والقـــبـــعـــة .

ألا ، من يشترى منى

شريطتى السوداء

وهذا الحـــزن

المذتـــول خيطـــا

أبيض ، لأنسج منه المناديل ؟

كم من عناء بذلت

لأحبك ، كما أحبك !

أغنيّة للأطفال

ــ أمـــــاه

أريد أن أتحول الى فضة .

ــ سيصيـــبك بـــرد

شديد ، يا بنى .

ـــ أمـــــاه

أريد أن أتحول الى ماء

ـــ سيصيـــبك بـــرد

شديد يا بنى .

ـــ أمـــــاه

ارقمينى فى وسادتك

أجـــــل !

فى الحـــال

ترجمة المناهل

أبو حيان

ناقد تخريجات قراءات الزمخشري

د. الراجي التهامي الهاشمي

ملخـــص ما سبـــق ان نشـــر فى الحلقـــة الاولـــى :

تعرضت فى الحلقة الاولى التي نشـــرت بالعـــدد الثامن من مجلة الثقافة المغربية (38 / 51) الى نقـــد تخريجتين ؛ التخريجة الاولى انصبت على قوله ((آانذرتهم)) فى الآية 6 / 2 ، تلك التخريجة التي لحن فيها الزمخشري الامام ورش الذي قرا هذه اللفظة مبدلا الهمزة الثانية الفا . وانصبت التخريجة الثانية على قراءة يزيـــد بن قطيـــب للفظة ((اظلم)) فى الأية 20 / 2 الذي جعل هذا الفصـــل فى قراءته هذه ، متعديا منقولا من ظلم ؛ وهو أمر اعتبـــره الزمخشري ، ورفضه أبو حيان الذي رأى انه يتعـــدى بحرف جر لا بالنقل ؛ واليوم أتابع نقد هذه التخريجـــات القـــرآنيـــة .

3 ـ اما التخريج الثالث الذي لم يقبله ابو حيـــان من الامـــام الزمخشري ، فرده وبين وجهة نظره فيه ، لكن بلطف وادب ، فيتعلـــق بقراءة « والذين من قبلكم (1) » فى الآية الكريمة : « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (2) » . قال **الزمخشري** « وهي قراءة مشكلة ، ووجهها على اشكالها ان يقال اقحـــم الموصـــول الثاني بين الاول وصلته تأكيدا كما اقحم جرير فى قوله (3) .

يا تيم تيم عدي لا ابالكم (4)

تيما الثاني بين الاول وما اضيف اليه ، وكاقحامهم لام الاضافة بين المضاف والمضاف اليه (5) لا اباك (6) » .

قال ابو حيان مصوبا هذا الكلام : « وهذا التخريج الـــذي خـــرج الزمخشري قراءة زيد عليه هو مذهب لبعض النحويين .. زعم انك اذا اتيت بعد الموصول بموصول آخر فى معناه مؤكد له لم يحتج الموصـــول الثاني الى صلة نحو قوله :

من النفر اللائي الذين اذا هم   يهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا

فاذا جوابها صلة اللائي ولا صلة للذين ، لانه انما أتى به للتأكيد . قال اصحابنا وهذا الذي ذهب اليه باطل لان القياس اذا اكدت الموصول ان تكرره مع صلته لانها من كماله . واذا كانوا اكدوا حرف الجـــر أعادوه مع ما يدخل عليه لافتقاره اليه ، ولا يعيدونه وحده الا فى ضـــرورة . فالاحرى ان يفعل مثل ذلك بالموصول الذي ؛ الصلة جزء منه (7) » .

وقضية تعدد الموصول بنوعيه ، الاسمي والحرفي مطروقة فى كتب النحو (8) . وما اعتقد ان الزمخشري تخفى عليه منها خافية وهو الذي طرقها بتفصيل فى « المفصل (9) » .

4 ـ يتساءل الامام الزمخشري فى بعض الاحيان عن السبب الذي جعل النطق بلفظة ما على شكل معين دون غيره ، فينبـــه معتمـــدا على

معلوماته الواسعة فى النحو واللغة ؛ فاذا أجاد سكت عنه العلامة ابو حيان او اثنى عليه ، ولكن اذا اهمل شيئا أو ذهل عن امر مهم تصدى لـه رادا تأويلات ، ناقدا تخريجاته .

واحسن مثال يمكن ان أعزز به ما أقول ما ذكره الزمخشـري آن تفسيره لكلمة « نزلنا » فى قوله تعالى « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكـم من دون الله ان كنتـم صادقيـن (10) » .

وقبل أن نذكر ما قاله فى شأن هذه اللفظة يحسن أن نشير الى أن الزمخشرى لم يتعرض ، وهو بصدد شرحها ، الى قراءتها متعدية بالهمزة ، وهي القراءة التي قرأ بها يزيد بن قطيب (11) ، فهل لم يطلع جـار الله عليها ؟ او اطلع عليها وشق ع'يه ذكرها لانها تخرجه عن الصيغة التي اعطاها لهذه المفردة فى تفسيره . ذلك ما لا يمكن الجواب عنه بشكل قطعـي ، وقد طواه التاريخ الى غير رجعة .

اقول تعرض الزمخشري لقراءة هذه المفردة فقال : « فان قلت : لم قيل « مما نزلنا » على لفظ التنزيل دون الانزال ؟ ـ قلت لان المـراد النزول على سنبيل التدريج والتنجيم ، وهو من مجازه لمكان التحدي . وذلك لانهم كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله مخالفا لما يكون مـن عند الناس ، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة وآيات عقب آيـات على حسب النوازل وكفاء الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر ، من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا وشيئا فشيئا حسب ما يعن لهم من الاحوال المتجددة والحاجات السانحة ، لا يلقي الناظـم ديوان شعره دفعة ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة ، فلو انزله الله لانزله خلاف هذه العادة جملة واحدة (12) ... »

فلم يرض ابو حيان بهذا التأويل ورد على صاحبه قائلا : « ونزلنا التضعيف فيه هنا للنقل وهو المرادف لهمزة النقل ويدل على مرادفتهما فى هذه الآية قراءة يزيد بن قطيب مما انزلنا بالهمزة وليس التضعيف هنا دالا على نزوله منجما فى أوقات مختلفة خلافا للزمخشري » .

وبعد ان يورد كلمته يعقب عليه فيقول : « وهذا الذي ذهب اليه الزمخشري فى تضعيف عين الكلمة هنا هو الذي يعبر عنه بالتكثير اي يفعل ذلك مرة بعد مرة فيدل على هذا المعنى بالتضعيف ويعبر عنه بالكثرة وذهل الزمخشري على ان ذلك انما يكون غالبا فى الافعال التي تكون قبل التضعيف متعدية (13) » .

وحتى تلك الفوائد التي اتى بها الزمخشري وهو يخرج قراءة هذه اللفظة لم ترق ابا حيان الذي قال عنها : « وقد تعرض الزمخشري هنا لذكر فائدة تفصيله وتقطيعه سورا ، وليس ذلك من علم التفسير ، وانما هو من فوائد التفصيل والتسوير (14) » .

5 — اما التخريج الخامس فقد انصب على الآية الكريمة : « واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين (15) » .

تناول الامام الزمخشري هذه الآية او بالاحرى كلمة « حطة » فقال عنها : «حطة فعلة من الحط كالجلسة والركبة، وهي خبر مبتدا محذوف، اي مسألتنا حطة ، وامرك حطة . والاصل النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة (16) .. »

تأمل ابو حيان هذا التخريج فأعجبه وقال بعد ان أورده برمته ، « انتهى كلامه وهو حسن ، ويؤكد هذا التخريج قراءة ابراهيم بن ابي عبلة ... (17) »

لا شك أن هذه الشهادة التي يقدمها ابو حيان لصالح الزمخشري لها ابعادها العظيمة التي لا تخفى على كل ملاحظ . ذلك ان ابا حيان الذي ينقد عادة جار الله نقدا لاذعا كلما حاد عن خطته فى تخريج قراءة ما يشيد بذكره هنا وينقل عنه قراءة يعتمدها ويستشهد بها .

ولكنه وقد اتى على تخريجة لكلمة حطة واعتمد قراءة قارىء روى قراءته الزمخشري ، عاد مرة ثانية لكلمة « حطة » مقروءة بالنصب — وهي

قراءة ابراهيم بن أبي عبلة التي رواها الزمخشري ونقلها عنه أبو حيان ليرد كلمه .

قال الزمخشري : « فان قلت : هل يجوز ان تنصب حطة فى قراءة من نصبها بـ « قولوا » على معنى قولوا هذه الكلمة ؟ قلت لا يبعد ، والاجود ان تنصب باضمار فعلها ، وينتصب محل ذلك المضمر بقولوا (18) » .

فيرد عليه أبو حيان قائلا : « وما جوزه ليس بجائز لان القول لا يعمل فى المفردات انما يدل على الجمل للحكاية فيكون فى موضع المفعول به الا ان كان المفرد مصدرا نحو قلت قولا او صفة لمصدر نحو قلت حقا أو معبرا به عن جملة نحو قلت شعرا وقلت خطبة (19) » .

ولكن هذا الكلام ، الذي يظهر وكأنه كله صواب لم يكن فى حقيقة عار من خطأ . لذلك تكفل القنوي الرد عليه فى حاشيته التي وضعها على البيضاوي (20) .

ذكر هذه اللفظة البحاثة جلال الدين السيوطي فقال : (21) « حطة قال الراغب : فقيل معناه قولوا صوابا . قلت وينبغي أن يكون معربا . ثم رأيته مصرحا به فى تفسير الاصبهاني ما نصه وقيل ان هذه اللفظة من الفاظ أهل الكتاب لا يعرف معناها فى اللغة العربية والله اعلم (22) » .

6 ـ اما التخريج السادس فقد دار حول قراءة « لا ذلول » فى قوله تعالى : « قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث ، مسلمة لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون (23) » .

احب قبل أن اتعرض لنظرية الزمخشري فى تخريجه لقراءة ذلول وقبل أن اورد رد أبي حيان عليه أن أؤكد ـ مرة أخرى ـ انني ، رغم ما

يمكن ان يظهر لبعض الناس من خلال قراءتهم لهذا البحث من الميل الى التعقيد فى القواعد اللغوية والرغبة فى الغوص الى عمقها والتتبع لتأويلات جافة متضاربة ، لست من انصار المطالبين باحياء هذه الدراسات وتعميمها بين سائر الناس بل ارى انه يجب ان تبقى وقفا على ذوي الاختصاص الذين عليهم ان يستغلوا اختصاصاتهم فيها ومعرفتهم بخفايا ها لتيسيرها تيسرا يسهل ما عسر منها ويوضح ما غمض فيها لاغين كل ما يحول دون تبسيط هذه اللغة العربية ويوقف فى وجه الراغبين فى التحدث بها .

ورغم ايماني بضرورة الابتعاد عن مثل هذه الدراسات التي تثبط العزائم ولا تقويها وتؤخر لغتنا ولا تقدمها ، فانني مضطر مع ذلك أن أوردها رغم تعقيدها ، والا ما اتضح لنا تخريج الامام الزمخشرى وما استفدنا من رد ابي حيان عليه . وساحاول جهدي تبسيط ذلك اعتمادا على ما صرحت به اعلاه .

قال الزمخشري دارسا هذه اللفظة : « لا ذلول صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول ، يعني لم تذلل للكراب واثارة الارض ولا هي من النواضح لتي يسني عليها لسقي الحروث ، و « لا » الاولى للنفي ، والثانية مزيدة لتوكيد الاولى . لان المعنى : لا ذلول تثير وتسقى ، على ان الفعلين صفتان لذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية . وقرا ابو عبد الرحمن السلمي . لا ذلول بمعنى لا ذلول هناك : اي حيث هي ، وهو نفي لذلها ؛ ولان توصف به فيقال : هي ذلول ونحوه قولك : مررت بقوم لا بخيل ولا جبان ، اي فيهم ، او حيث هم (24) » .

يفهم من هذا التخريج امور كثيرة منها ان :

— « لا » الثانية مزيدة .

وعلى هذه النقطة رد ابو حيان فقال : (25) « ووافقه على جعل لا الثانية مزيدة صاحب المنتخب ، وما ذهبا اليه ليس بشيء لان قوله لا ذلول صفة منفية بلا . واذا كان الوصف قد نفي بلا لزم تكرار لا النافية لما دخلت عليه تقول مررت برجل لا كريم ولا شجاع ، وقال تعالى « ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب (26) » وظل من يحموم لا بارد

ولا كريم (27) » ، « لا فارض ولا بكر (28) » . ولا يجوز ان تأتي بغير تكرار لان المستفاد منها النفي .

ثم بعد ذلك يتصدى ابو حيان للقراءة التي رواها الزمخشري وهي قراءة ابي عبد الرحمن السلمي فيقول : « فعلي ما قدره يكون الخبر محذوفا ويكون قوله « تثير الارض » صفة لاسم لا وهي منفية من حيث المعنى ولذلك عطف عليها جملة منفية وهو قوله « ولا تسقي الحرث » . واذا تقرر هذا فلا يجوز ان تكون تثير الارض ولا تسقي الحرث خبرا لانه كان يتنافر هذا التركيب مع ما قبله . لان قوله :« **قال انها بقرة يبقى كلاما** منفلتا مما بعده اذ لا تحصل به الفائدة الا على تقدير ان تكون هذه الجملة معترضة بين الصفة والموصوف ويكون محط الخبر هو قوله « مسلمة لا شية فيها (29) » .

وبعد ان يرد كلام الزمخشري كما رايت يعطي نظره حول تخريج قراءة لا ذلول بالفتح وهي القراءة التي يرجع الفضل فى نشرها بين الناس الى الامام جار الله . يقول ابو حيان مخرجا هذه القراءة

« لا ذلول فى قراءة السلمي تخرج على وجهين احدهما أن تكون معترضة وذلك على حذف خبر والثاني ان تكون معترضة وذلك على تقدير ان يكون خبر لا تثير الارض ولا تسقى الحرث (30) » .

الراجي التهامي الهاشمي | **الدار البيضاء**

مصادر البحث

(1) بفتح ميم « من » جاعلا منه موصولا ثان .
(2) السورة الثانية ، البقرة ، الآية 201 .
(3) اتم هذا البيت الشيخ محمد عليان أسفل صفحة الكشاف المشار اليها أسفله ثم شرحه شرحا مسهبا .
(4) اورد هذا البيت القاضي بهاء الدين عبد الله بن عقيل فى شرحه على الفية ابن مالك آن شرحه للبيت .
فى نحو « سعد سعد الاوس » ينتصب * ثان ، وضم وافتح أولا تصب
وهو فى احكام تابع المنادى ـ انظر شرح ابن عقيل ، الجزء الثاني ، صفحة 211 من الطبعة الحادية عشرة ـ القاهرة سنة 1380 الموافق ليونيو 1960 ، الشاهد رقم 311 ، السطر الخامس .

(5) لاحظت أن النص الذي نقل عنه أبو حيان فى أوائل القرن الثامن الهجري يزيد عن النص الحالي المعروف فى طبعات الكشاف ـ قارن النص الذي استشهدت به اعلاه مـع نــص البحـر .

(6) الكشاف ، الجزء الاول ، صفحة 66 ، السطر 11 .

(7) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 95 ، السطر الخامس .

(8) انظر على سبيل المثال ملخصا لهذه القضية عند عباس حسن ، النحـو الوافـي ، الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ، ابتداء من بداية الصفحة 303 .

(9) المفصل ، الطبعة الاولى بالقاهرة سنة 1323 هجرية ، صفحة 141 ، السطر الخامس عشـــر .

(10) السورة الثانية ، البقرة ، الآية 23 .

(11) يزيد بن قطيب السكوني له اختيار فى القراءة . انظر ترجمتــه فى غايـة النهايـة لابن الجذري ، الجزء الثاني ، صفحة 383 .

(12) الكشـاف ، الجزء الاول ، صفحة 73 ، السطر السابع .

(13) البحـر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 103 ، السطر العاشر .

(14) البحر المحيط الجزء الاول ، صفحة 104 ، السطر 16 ، انظر أيضا السطر 26 .

(15) الســورة الثانية ، البقرة ، الآية 58 .

(16) الكشاف ، الجزء الاول ، صفحة 106 ، ابتداء من السطر السابع عشر .

(17) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 222 السطر 20 .

(18) الكشاف ، الجزء الاول ، صفحة 107 ، السطر الثالث .

(19) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 222 ، السطر 27 .

(20) انظر ذلك فى الجزء الاول ، صفحة 92 ، السطر 20 .

(21) المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب ، مخطوط بالاسكوريال رقم 1928 اللوحة 44 ابتداء من السطر 21 . ومما تجدر الاشارة اليه أن مخطوط الرباط الذي يحمل رقم ك 1032 والموجود فى مجموع خال من هذه اللفظة ، وهو بتر غريب ، ذلك ان الصفحات وان كانت متتابعة فى ترقيمها ، فقد سقطت نصوص تعلقت بالحاء برمتها وباكثر الجيم .

(22) أعاد السيوطي ذكرها فى الاتقاف ، الجزء الاول 139 ، السطر 11 .

(23) الســورة الثانية ، البقــرة ، الآيــة 71 .

(24) الكشــاف ، الجزء الاول ، صفحة 113 ، السطر 13 .

(25) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 255 ، السطر الخامس عشر .

(26) السورة 88 ، المرســلات ، الآيــة 30 .

(27) الســورة 56 ، الواقعــة ، الآيــة 44 .

(28) الســورة الثانية ، البقرة ، الآيــة 68 .

(29) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 236 ، السطر 6 .

(30) المصــدر السابــق ، صفحة 286 ، السطر 33 .



أحمد عبد السلام البقالي

سمعتهـــــا

سمعت تلــك الكلمة ،

الملهمـــــــة

سمعتهـــــا ،

من نظراتك الطــوال ،

بـــلا انفعـــال ،

ومن رموشك الثقال بالجمال

سمعتهـــا
من بسماتك العـــذاب ،
بـــلا حســـاب
سمعت تلك الكلمة ،
الحالمة ،
العذبة المنسجمـــة

لكنها ، واحسرتاه !
ما نطقت بها الشفاه
فهى غير ملزمـــــــة !
فهل أسأت الانتباه ؟
أم هل أسأت الترجمـــــــة ؟

سمعتهـــا
من حركات يدك الرشيقة ،
والأنمل المترفة الأنيقـــة ،
هـــل قلتهـــا ؟
هل قلتها حقيقـــــة ؟ !

يا ليتنى سمعتها من شفتيك
فــمـــــا علـــيـــك

لو قلتهـــا ؟
لو قلت تلك الكلمـــة !
الحاسمـــة !
بشفة مبتسمـــه
ونظرة مستسلمة

فهل امد يا حبيبتى يـــدى ؟
الى اقتطاف موعـــد ،
أم حبنا بلا غـــد ؟

تكلمى — لن تندمى
ان حروف الكلمـــــة ،
الناعمـــــــة
مرسومة على فمـــى
بقطرات من دمـــى
تكلمـــــــى . . .

الرباط : **احمد عبد السلام البقالى**

النظام الضريبي المغربي
بين الماضي والحاضر

د. ابراهيم دسوقي أباظة

ان البحث فى النظام الضريبي المغربي يستلزم دراسة تحليلية تمكن من تحديد اصوله والاحاطة بتطوره . ومن هذه الزاوية يمكننا تقسيم البحث الى ثلاثة مراحل رئيسية :

1 ـ مرحلة ما قبل الحماية .

2 ـ مرحلة الحماية

3 ـ مرحلة الاستقلال

1 ـ تميزت مرحلة ما قبل الحماية بسيادة التشريع الضريبي الاسلامي بصورة رئيسية ، اذ كانت الزكاة تعتبر اقدم ما عرفه المغرب

من فرائض مالية ، ويسجل التاريخ أن المرابطين والموحدين كانوا يطبقون الزكاة فعلا فى العمل .

والى جانب الزكاة فرضت العشور التي تناولت دخل الارض ، فقد استخدمت حصيلتها شيئا فشيئا لتمويل خزينة الدولة بالاموال الضرورية ، فى الوقت الذي أخذت الزكاة تفقد مكانتها الى أن اصبح اداؤها يتوقف على الوازع الديني للمسلم دون اكراه أو قسر من جانب ولي الامر وفى القرن السادس الهجري عرفت بالمغرب ضريبة الخراج فى عهد عبد المؤمن بن علي من دولة الموحدين ، لكنها اختفت بسبب صعوبات الجباية لتحل محلها ضريبة عقارية وهي النايبة (LA NAIBA) التي تعود الى عهد السعديين (1) .

أما الجزية فقد كانت سارية المفعول بالمغرب على حد قول بعض المؤرخين منذ القرن الثاني للهجرة ، حيث اجاز السلطان ادريس بن ادريس لليهود الاستقرار فى مدينة فاس ، شريطة أداء الجزية . وقد ظلت الجزية معمولا بها حتى نهاية القرن التاسع عشر ، حيث تدل الشواهد التاريخية على أن يهود حي الملاح بمدينة فاس ، كانوا يؤدونها حتى هذا التاريخ .

غير أن الجزية لم تلبث أن اختفت لتفسح المجال لضريبة جديدة ذات طابع سيادي وديني فى آن واحد وهي « الهدية » (LA HEDYA) وهي عبارة عن عطاء يمنح للسلطان في الاعياد الدينية من جانب المدن والقبائل دليلا على الولاء الديني والدنيوي .

والى جانب هذه الانواع من الضرائب ، عرف المغرب ضرائب أخرى ذات طابع مباشر أو شبه مباشر وهي :

(أ) المؤنه (LA MOUNNA) والسخرة (LA SOKHRA) ، والاولى عبارة عن امدادات عينية تؤديها القبيلة لموظفي الحكومة (المخزن) الذين يقيمون على اراضيها . اما الثانية فهي عبارة عن عمولات نقدية او مقابل

نقدي تؤديه القبيلة لصغار مكلفي الحكومة نظير الخدمات التي يؤدونهـا كعون القاضي وعون الباشا وعون المحتسب ٠ وقد الغى السلطان عبـد العزيز فى عام 1901 هذه الضريبة بعد أن تقررت مرتبات ثابتة لموظفي الـدولـــــة ٠

(ب) الحركة (LA HARKA) وهي تمثل اسهام القبائــل فى تمويل الحملات العسكرية ، وكانت فى البداية تأخذ شكل اسهام عيني ، ولكنها انتهت الى اسهام نقـــدي ٠

(ج) الغرامة (LA GHORAMA) وهي تؤدى على اساس المسؤولية الجماعية للقبيلة ، فى حالة ما اذا قامت اضطرابات أو ارتكبت جرائـــم على أراضيهـــا ٠

(د) الذعيرة (LA DHEIRA) وهي تؤدى من المذنب الــذي ارتكب جنحة لا تدخل فى اختصاص القاضي ٠ وتحصل لمصلحة المجنى عليـــــه ٠

وقد عرف المغرب ما قبل الحماية الى جانب الضرائب السالفة ، أنواعا أخرى من الضرائب ، وهي الضرائب التجارية ، وتنقسم الى نوعين: المكوس والضرائب الجمركية ٠

(أ) والمكوس تعتبر أيضا من أقدم الضرائب التي عرفها المغرب ، اذ كانت مطبقة فعلا فى القرن السابع الهجري ، ثم توقف العمل بهـــا خلال بعض العهود التي توالت على المغرب ، الى أن ظهرت من جديد فى القرن الثامن عشر ٠ وفى عهد السلطان مولاي الحسن الاول ، حددت ضرائب المكوس على الوجه التالي :

— ضريبة تؤدى عنـــد أبـــواب المـــدن ٠

— ضريبة السوق التي تقتضي بمناسبة تبادل السلع المحلية ٠

وهذا النوع الاخير من الضرائب ما زال ساري المفعول في العمل حتى اليوم ، وتذهب حصيلته لفائدة الجماعات المحلية .

وقد خضع الهيكل الضريبي المغربي لتدهور كبير في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، وبدات الضرائب المباشرة تختفي تدريجيا في الوقت الذي تضاعفت فيه الضرائب غير المباشرة . ويلاحظ هنا ان الضرائب فقدت طابعها الديني واصبحت تستمد شرعيتها من السلطات الدنيوية التي يمارسها ولي الامر .

غير ان هذه السلطات كانت تحدها من الخارج المعاهدات الدولية . فقد كان الاوربيون مثلا معفون اعفاء كاملا من الخضوع لاي ضرائب مغربية ، وقد نصت المعاهدات المبرمة بين المغرب وكل من انجلترا واسبانيا وفرنسا صراحة على هذا الاعفاء بالنسبة لرعاياها .

وقد عملت الحكومة المغربية منذ عام 1881 بالاتفاق مع الممثلين الدبلوماسيين على اخضاع الاوربيين للضرائب المغربية مقابل اعترافها بملكياتهم ، ومن هنا ولدت أول محاولة لفرض الضريبة المسماة بالترتيب .

(ب) اما الضرائب الجمركية ، فيعود تقريرها لاول مرة في في المعاهدات التي ابرمتها المغرب مع الدول الاجنبية خلال القرن التاسع عشر ، وهي على التوالي :

- المعاهدة المغربية البريطانية 1856 .
- المعاهدة المغربية الاسبانية 1861 .
- المعاهدة المغربية الالمانية 1890 .
- المعاهدة المغربية الفرنسية 1892 .

فقد تقرر في جميع هذه المعاهدات ضرائب جمركية بنسبة 10 ٪ على الواردات ، اما الضرائب على الصادرات ، فتتغير تبعا للظروف .

وقد لاحظ عدد من الخبراء أن تطبيق الضريبة الجمركية خلال تلك الفترة اتسم بالقصور والاضطرابات ، اذ كان الموظفون المكلفون بالتنفيذ يستخدمون طرقا بدائية فى احصاء الصادرات والواردات ، بالاضافة الى انهم لم يعرفوا الطرق المحاسبية وكان التقدير يتم دون أدنى خبرة مما سبب تفاوتا فادحا فى تحمل عبىء الضريبة بين مختلف التجار والمستوردين . ولم يكن الموظفون المكلفون بالتنفيذ يخضعون فى الواقع لاي نظام ، ولم تكن تشملهم ادنى رقابة (2) .

وتعتبر اتفاقية الجزيرة المبرمة فى 7 ابريل عام 1906 نقطة تحول هام فى عناصر الهيكل الضريبي المغربي ، اذ نصت فى فصلها الرابع على الاعلان عن تحسين حصيلة الضرائب ، وخلق دخول جديدة . كما نصت على تطبيق ضريبة الترتيب على المغاربة وعلى الاجانب فى جهات معينة من المغرب وبالشروط والظروف التي تحددها الهيئة الدبلوماسية بطنجة .

وقد قررت الاتفاقية ضريبة على البناء فى المدن للانفاق من حصيلتها على تحسين وصيانة المدن . وضريبة التنبر على تصرفات العدول ، وضريبة على انتقال الملكية العقارية بالبيع بسعر اقصى مقداره 2 ٪ . وضريبة بسعر اقصى مقداره 1 ٪ تفرض على السلع المنقولة بالسفن الساحلية ، وضريبة على المرور .

وفيما يتعلق بالجمارك ، فقد فرضت الاتفاقية ضريبة خاصة بسعر 2ر5 ٪ على السلع الاجنبية الواردة من الخارج ، تضاف الى الضريبة الجمركية المفروضة بسعر موحد 10 ٪ على جميع السلع ، وذلك بهدف تمويل الاشغال العامة .

وقد مكنت الاتفاقية لاحتكارات الدولة بالنسبة للأفيون والكيف ، كما قررت احتكارا جديدا وهو احتكار الدخان .

وقد تميز الهيكهل الضريبي المغربي خلال فترة ما قبل الحمايـــة بسيادة ضريبتين مباشرتين هما الترتيب التي احتلت مكان ضريبتـــي النايبة والخراج والضريبة الحضرية .

اما الضرائب غير المباشرة ، فقد تشكلت اساسا من الضرائـب الجمركية والمكوس وبعض الضرائب المتعلقة بالتسجيل والتنبر .

2 ـ مرحلـــة الحمايـــة :

استند النظام الضريبي المغربي منذ بدء الحماية والى نهاية الحرب العالمية الثانية الى النظام الضريبي الفرنسي ، الذي كان سائدا فى القرن التاسع عشر ، غير انه لم يلبث ان تناولته يد الاصلاح منـــذ الحـــرب العالمية الثانيـــة .

والواقع ان معاهدة الحماية لم تات بتنظيم ضريبي جديد ، ولكن كل ما فعلته هو انها جددت اتفاقية الجزيرة ولاءمتها مع مصالـــح فرنســـا وحـدهـــــا .

وقد اتسم الهيكل الضريبي المغربي خلال الفترة مـــا بين فرض الحماية عام 1912 وعام 1945 بالصفات العامة التالية :

1 ـ سيادة الضرائب غير المباشرة ، ويمكننا ان نذكر منها :

- الضرائب الجمركية (10 ٪ بالاضافة للضريبة الخاصة 2ر5 ٪)
- ضرائب على المشروبـــات الكحوليـــة
- ضرائـــب على السكـــــر
- ضرائب على السلع الواردة من المستعمرات
- ضرائـــب على الشمـــــع
- ضرائـــب على الجعـــــة

— ضرائب على البترول
— ضرائب على الكبريت
— ضرائب على الزيت
— ضرائب على الشحومات
— ضرائب على المساحيق
— ضرائب على الاسطوانات
— ضرائب على الراديو
— ضرائب على القداحات

والى جانب ذلك :

— ضرائب للفقراء
— ضرائب التسجيل والتنبر
— ضرائب المراقبة وتكرير السكر

2 ـ استمرار العمل بالضرائب المباشرة :

ويمكن تعداد ثلاثة ضرائب مباشرة رئيسية استمر العمل بها خلال تلك المرحلة :

(ا) ضريبة الترتيب
(ب) الضريبة الحضرية
(جـ) ضريبة المهنة (Patentes)

وعلى الرغم من العمل بهذه الضرائب المباشرة ، فقد ظلت السيادة والتفوق للضرائب غير المباشرة ، حتى انه يمكن التاكيد بان النظام الضريبي المغربي الذي كان معمولا به ابان تلك المرحلة ، يقترب كثيرا من النظام الضريبي الفرنسي ، الذي كان ساريا خلال القرن التاسع عشر ،

وان كان يتصف بنوع من الاستقرار النسبي بسبب طريقـة تركيبـه والظروف الهيكلية المحيطة به .

وقد شهدت فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها تطـورات جذرية في النظام الضريبي ، فقد فرضت ضرائب مؤقتة ابان الحـرب العالمية الثانية ولكنها لم تلبث ان استقرت من بعد في النظام الضريبي بصفة نهائية . وهكذا فرضت الضرائب في شكـل استقطاعـات على المرتبات والاجور عام 1939 كما فرضت الضريبـة الاضافيـة على المهنـة (Patentes) عام 1 941 . وهذه الضريبة الاخيرة تعتبر خطوة هامة لانها تمس ارباح المشروعات ، ولكنها لم تعترف بمبدا شخصيـة الضريبة ، وظلت تطبق بنسبة 15 ٪ على شرائح الارباح بغض النظر عن كل اعتبار يتعلق بشخصية المكلف ، وكان لهذه الضرائـب الجديـدة نتائج هامة على الهيكل الضريبي في مجموعه ، فقد غيرت النسب بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة، اذ ارتفعت نسبة الضرائب المباشرة بدرجة ملحوظة ، فوصلت حصيلتها في عام 1948 الى 3997 مليون فرنكا بالقياس للضرائب غير المباشرة التي وصلت حصيلتها الى 7308 مليون فرنكـا ومعنى ذلك ان الضرائب المباشرة اصبحت تشكل اكثر من نصف الضرائب غير المباشرة ، بينما لم تكن تتعدى قبل اجراء هذا الاصلاح الضريبـي اكثر من ثلثهـا .

هـذا وقـد انتهى الاصـلاح الضريبـي بابـدال ضرائـب ((الابواب)) Des Portes بضرائب على المبادلات عام 1948 .

وهكذا يمكن القول بان النظام الضريبي لما قبل الاستقلال مباشرة، كان يقوم في جانب كبير منه على اساس قيمي ، اي فـرض الضريبـة تاسيسا على قيمة السلعة او الشيء الخاضع لها ، بغض النظر عن اي اعتبـار آخـر

3 ـ مـرحلـــة الاستقـــلال :

تمتد هذه المرحلة حتى يومنا هذا ، وتنقسم بدورها الى فترتين :

الاولى : فترة التلاؤم والمران مع الوضع الجديد، الـــذي نشـــا بالاستقـــلال .

الثانية : فترة الاصلاح الشامل للنظام الضريبي .

(ا) الفتـــرة الاولـــى :

واجهت المغرب عشية الاستقلال ، مسؤوليات جســـام ، اذ كان عليه أن يعيد تنظيم شؤونه الاقتصادية والمالية بالصورة التي تسمح له بتدارك التخلف العظيم الذي سببته عوامل كثيرة ، على راسها عناصـــر القهـــر الاستعماري .

وقد اتجهت الجهود اول ما اتجهت الى اصلاح النظام الضريبـــي اصلاحا شاملا ، فرفعت اسعار الضرائب القائمة من ناحية ، وفرضت ضرائب جديدة من ناحية اخرى .

فقد نص ظهير 24 مايو 1957 على فرض تعريفة جمركية متفاوتة تستهدف حماية الصناعة الوطنية ، وذلك بعد ان كانت التعريفة الجمركية موحدة بسعر 12ر5 ٪ من قيمة جميع السلع المستوردة ، كما فرضت ضريبة على تصدير المعادن الخام والحوامض وضريبة احصائية على جميع المنتوجات المصدرة تعتبر مكملة للضرائب الجمركية .

يضاف الى ذلك ضرائب على الاستهلاك (النبيد ـ الكحول ـ البترول ... الخ) تاتي بحصيلة وفيرة .

وبالاضافة الى ما تقدم فرضت ضرائب جديدة ذات اوعية ضيقة ،

وهي ضريبة « DEDILITE » التي فرضت بمقتضى ظهير 24 يوليـــه عام 1956 ، حيث استبدل بها الضريبة البلدية على الصيانة والكنس ، ورفع النفايات ، وخصص حصيلتها لصالح ميزانيات البلديات . يضاف الى ذلك ضريبة السيارات التي تقررت بمقتضى ظهير 13 يوليه عام 1957 والتي تتناول ملكية السيارات التي لا يزيد وزنها عن ثلاثة أطنان ، وتتغير تعريفة هذه الضريبة تبعا لقوة السيارة وتبعا لعمرها .

(ب) الفتـــرة الثانيـــة :

وتتميز هذه الفترة التي تمتد الى اليوم ، بالاصلاحات الجذرية التي تمت فى 30 دجنبر عام 1961 والتي تحتويها ثمانية ظهائر . فقد قررت هذه الاصلاحات ضرائب جديدة ، اذ استبدلت الضرائب على المبادلات بضرائب على المنتجات والخدمات كما ألغيت ضريبة الترتيب وحلـــت مكانها الضريبة الفلاحية ، التي لا تنصب على عائد الارض الحقيقي ولكن على عائدها التقديري .

وقد استهدف هذا الاصلاح الضريبي ، تحقيق المرامي التالية :

1 ـ استخدام الضريبة كأداة للتنمية الاقتصادية

2 ـ تشجيع الاستثمارات الخاصـــة

3 ـ توزيع الاعباء الضريبية بصورة أفضل

4 ـ تبسيط اجراءات الربط والجباية بصورة تواكب ضرورات التنميـــة الاقتصاديـــة .

ولعل الضريبة التكميلية على الدخل الاجمالي للاشخاص الطبيعيين، التي تقررت فى نهاية عام 1971 كانت تستهدف ادراك بعض الاهـــداف السالفة فقد ظلت فروع الدخل خاضعة لضرائب متعددة ، بينما بقـــي

الدخل الاجمالي للممول بعيدا عن الضريبة ، وقد اراد المشرع الضريبي تطبيق ضريبة تصاعدية على الدخل الاجمالي لفئات المولين ، الذيـــن تزيد دخولهم عن 20.000 درهم بنسبة 3 ٪ تتصاعد تدريجيا حتـــى 100.000 درهم ، ثم يتزايد التصاعد بعد ذلك ليصل الى 30 ٪ بالنسبة للدخول التي تتجاوز مليون درهم . والامل معقود أن يؤدي تطبيق هذه الضريبة الى توزيع افضل للاعباء الضريبية وتوازن افضل لمالية الدولة.

الربــاط : ابراهيم دسـوقي اباظة

---

(1) راجــع في شان الجانب التاريخي للضريبة المغربية ، مؤلــف البروفســور :
Marchal : Législation Financière, Maroc 1948. P. 71.

(2) راجــع في هــذا الشــان :
M. MARIANI : « Le Builetin de l'Economie et des Finances », Janvier-Mars, 1970 BARDINET : « Le Régime Douanier du Maroc. CATTENO : La Fiscalité Marocaine.

وراجع ايضا :
M. LOZE « Les Finances de l'Etat », Ed. Laporte. Rabat, 1971.

ابن سيده المرسي

(2)

بقلم: المستشرق الاسباني
الدكتور داريو كابانيلاس رودريكس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

ينبغي ان ننبه منذ الان ، الى حياة ابن سيدة التي خلت مما يبهر ويباغت ، انسابت غالبا ، يحوطها شيء غير قليل من الاتزان ، ويكتنفها حظ غير يسير من الهدوء ؛ ولعل هذا هو السر الى جانب ما قلناه في اول الفصل السابق — في ضآلة التفاصيل الدقيقة عن سيرته فيما كتبه مترجموه وفي هذا الفصل سنستعرض الشطر الاول من الحياة ابن سيدة معتنين بدراسة جوانب ثلاثة منها ، وهي :

1) النسب والوطن :

عرف مؤلفنا بين معاصريه ، كما عرف بين اللغويين والادباء والمؤرخين الذين جاءوا بعده بكنيته « ابن سيدة » فنسي الناس بسبب ذلك اسم ابيه وتضاربت اقوال مترجميه حين نصوا على هذا الاسم ؛ وهكذا نجد

ياقوت — وعنه سينقل الصفدى — يتحدث عن نسب ابن سيدة فيقول : هكذا قال الحميدى « على بن احمد » وفى كتاب ابن بشكوال « على ابن اسماعيل » وفى كتاب القاضى صاعد الجيانى « على بن محمد » فى نسخة ؛ وفى نسخة « على بن اسماعيل » فاعتمدنا على ماذكره الحميدى لان كتابه اشهر . (1) ، على أننا لا نعدم من بين مترجميه من حاول رفع هذا الالتباس كما فعل ، مثلا ، الضبى (2) حيث نص على ان اسم والد ابن سيدة احمد ، وان اسم جده اسماعيل . وتمشيا مع الراى الارجع فان اسم ابن سيدة الكامل هو : ابو الحسن على بن اسماعيل المرسى « او الاندلسى » المعروف بابن سيدة الاعمى .

وكل مترجمى ابن سيدة يشيرون الى اصله الاندلسى ، لكن بعضهم يكتفى بالتمليح الى ذلك ، على حين يستعمل بعضهم الآخر هذه العبارة : « من اهل الاندلس » وينفرد ابن بشكوال — وعنه سينقل ابن خلكان والصفدى — بالتصريح بمسقط راسه اذ يقول : « من أهل مرسية » (3)

وعلى عكس ذلك لا نلقى عند مترجميه جميعا تحديدا لسنة ميلاده لكن جلهم ينص على تاريخ وفاته ويحدده بسنة 458 هـ / 1066 م ، وهم يعقبون على ذلك بانه عاش ستين سنة او نحوها ؛ واعتمادا على هذا نستطيع القول بأن ولادته كانت ، على وجه التقريب ، سنة 1006 م ، أو ربما قبل ذلك بقليل (4) .

ومن نحو آخر ، نجد مترجميه جميعهم ، بلا استثناء يشيرون الى عماه ، ويذكرون بانه كان ضريرا كما كان أبوه ضريرا ، غير اننا لا نجد عند احدهم ايضاحا بما اذا كان ابن سيدة قد ولد بآفة العمى أو انه اصيب بها بعد ذلك .

ومهما يكن من الامر فان طفولة ابن سيده ، بناء على تاريخ ميلاده التقريبى ، تقترن بالاعوام الاخيرة من الخلافة « الشكلية » لهشام الثانى والحكم الفعلى فى الاندلس لثانى العامريين سيف الدولة ابى مروان عبد الملك المظفر الذي كان تولى مقاليد الامور فى الاندلس على اثر وفاة والده المنصور بن ابي عامر (منصور الاخبار والقصائد المسيحية) . وقد ظل عبد الملك فى الحكم حتى عاجلته المنية سنة 399 هـ / 1008 م.

وقـد خلفه اخوه ابو المطرف عبد الرحمن بن ابي عامر الملقـب بشنجول Sanchuelo وهو تصغير اسم جده لامه ملـك « بنبلونـة » شانجة بن غرسيه الثانى المعروف بـ اباركا Abarca على ان اندفاع عبد الرحمن شنجول وتهوره ساقاه حثيثا الى نهاية محزنة ، اذ قتل بعد توليـه منصب الحجابة بأشهـر معدودة (5) (مـارس 1009 م) ، وبمقتلـه بدات ازمـة سياسية بالغـة الخطورة ، شاهدت فيهـا الاندلس ثورات متتابعة ـــ تسميها المصادر العربية بالفتنة ـــ ادت بعد عشرين سنـة ونيف الـى سقوط الخلافة الاموية بالغرب الاسلامى نهائيا وظهور ممالك الطوائف علـى مسرح التاريخ .

على انه اذا كان قيام هذه الممالك يعنى تفككا وانقساما منيت بهمـا السياسية الاسلامية فى اسبانيا فانه ، من نحو آخر ، سيدفـع بالعلـوم والاداب فى طريق الرقى والازدهار نتيجة لتعـدد حماتهما واجزالهم العطـاء للعلماء والادباء ؛ وكان بين أولئك الحماة من تنافس فى ذلك وفى غير دلك من ضروب اخرى للنشاط ؛ وهذه الظاهرة شبيهة الى حد ما بما عـرف فى ظل ملوك الطوائف بالشرق .

وعلى اية حال فان ابن سيدة امضى طفولته وشبابه المبكر فى ظـل هذه الفترة العاصفة ، فترة الفتنة باضطراباتها وفواجعها ، تلك التى لم يعرف تاريخ اسبانيا الاسلامية نظيرا لها .

ب) اشهر الشيوخ

يبدو ان أول من تلمذ عليه ابن سيده من شيوخه كان هو والده بالذات وهـذا امـر غير قابل للنقاش والجدال ، فقد نص عليـه ابـن بشكوال والقفطـى وابن خلكان والصفدى والسيوطى وينفرد ابن خلكان من بيـن هؤلاء جميعا بتفصيل الخبر علـى هذا النحو : « وكان ابوه قيما بعلم اللغة وعليه اشتغل ولده فى أول الامر (6) .

ثم بعد ذلك قصد ابن سيده الى قرطبة ليتابع هناك دروس اللغـوى المشرقـي الشهير ابي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي الـذي كـان وفد على الاندلس عام 380هـ/990 م بحثا عن الجاه والثراء ؛ ثم لم يلبث ان اصبح احـد الشعراء المرموقين فى بلاط المنصور العامـري ، ويشيـر ابـن بشكوال الـى رواية ابن سيده عـن صاعد البغدادى ، وعـن ابـن

بشكوال نقل فيما بعد ياقوت والقفطي ؛ ونص ابن خلكان والسيوطي بدورهما على تلمذ ابن سيده على صاعد ؛ على أنه تجدر الاشارة الى ان المدة التي قضاها ابن سيده يسمع عن صاعد لم تكن كثيرا ، فلقد لفظ هذا العالم المشرقي انفاسه الاخيرة فى جزيرة صقلية سنة 1026 م وسن ابن سيده لم تتجاوز يومئذ العشرين ربيعا ؛ ومع ذلك فان تبحر صاعد فى علوم اللغة وتمكنه منها خلف اثرا عميقا فى ميولات الفتى الاندلسى وتوجيهه فى دراسة اللغة ؛ بل ان هذا الاثر امتد فيما بعد الى الاراء التى سيتصدى ابن سيده للدفاع عنها على انها آراؤه (7) .

وكان لصاعد البغدادى ، الى ذلك ، تأثير فى جانب آخر من شخصية ابن سيده ، ليس دون الجانب الاول أهمية ، ونعني به جانب تكوينه الادبي ، فبفضل صاعد أتيح لابن سيده الاطلاع على الحركات الثقافية الهامة فى الشرق والتى كانت — باستثناء حالات قليلة — فى الآن عينه موضع اعجاب ومصدر الهام لمثقفى الاندلس ، ولعله من المناسب أن نذكر ، هنا بأن صاعدا كان استمع فى بغداد الى استاذين متمكنين فيمن استمع اليهم ، هناك من الاساتذة والشيوخ ، وهما : أبو علي الحسن بن احمد الفارسي (8) الذي يذكره ابن سيده ضمن مصادر رئيسية فى « المحكم » و « المخصص »وابو سعيد الحسن بن عبد الله المرزباني السيرافى الذى امدنا بأخبار قيمة عن نحويى البصرة ولغوييها فى كتابه « أخبار النحويين البصريين » (9) .

وتلمذ ابن سيده ، بعد ذلك ، على أبى عمر بن محمد الطلمنكى (10) المولود بطلمنكة عام 340 هـ / 951 م ، وقد روى عن ابى بكر الزبيدى والعباس بن أصبغ (12) ، ثم رحل الى الشرق ، فلما عاد من رحلته تصدر للاقراء والتدريس فى قرطبة — حيث سمع عنه ابن حزم الحديث — كما كانت له حلقات دروس فى المرية ومرسية وسرقسطة ، وكان معروفا بورعه وشدته على البدع .

وكانت وفاة أبى عمر الطلمنكى بمسقط راسه عام 428 هـ/1036 م (13)
وينص ابن بشكوال على تلمذ ابن سيده للطلمنكى فى هذه الحكاية ، وعنه تناقلها فيما بعد ابن خلكان والصفدى وياقوت ، كما اوردها مترجمون متاخرون مثل المقري : (وذكر الوقشهي عن أبي عمر الطلمنكي ، قال : « دخلت مرسية فتشبت بي اهلها يسمعوا علي الغريب المصنف فقلت لهم : انظروا من يقرأ لكم وامسك انا كتابي ، فأتوني برجل اعمى يعرف

ابـــن سيده ، فقراه علي من اوله الـــى آخـــره ، فعجبت مـــن حفظـــه ، وكان اعمى بن اعمى) (14) .

وسأعود للحديث عن « الغريب المصنف » للغوي المشرقي ابي عبيد الهروي وهـــو الكتاب الذى درسه ابن سيـــده على صاعـــد البغدادي ، وتصدر فيما بعد كتب مصادر ابن سيده الرئيسية التى افاد منها فى تأليف معجميه المحكم والمخصص وان اتصال ابن سيده بكتاب «الغريب المصنف» خلال سنوات الدرس والتحصيل ليزيح لنا الستار عن احد الروافد ـــ التى ظلت باستمرار تمد ابن سيده فيما يؤلف ويصنف ـــ ، غير ان هذا لم يمنعه ـــ رغم ذلك ـــ مـــن انتقاد لا يخلو من قساوة احيانا ، للأراء التى يقول بها ابو عبيد الهروي على نحو ما سنرى فيما بعد .

اما الصفدي فيجعل مـــن بين شيوخ ابن سيده صالح بـــن الحســـن البغدادى ، واغلب الظن ان هذا خطأ وقع فيه الصفدى نفسه أو وقع فيه ناسخ كتابه ؛ ذلك انه بالاضافة الى خلو معاجم الرجال والتصانيف من اسم « صالح بن الحسن البغدادي » فان التشابه الجزئي بين اسمـــي صـــالح وصاعد فى الكتابة العربية ، وكلاهما ابن الحسن البغدادى ، ليؤكد أن الصفدي انما يعنى صاعدا بن الحسن البغدادي ؛ وهـــو الذي ذكره جـــل مترجمي ابن سيده باعتباره أحد شيوخه الرئيسيين ؛ ولكن ابـــن سيـــده لا يذكره ضمن شيوخه فى ارجوزته ، يضاف الى ذلك ان الصفدى ينقـــل فى ترجمته لابن سيده عن ابن بشكوال وياقوت ، وهما ـــومعهما ابن خلكان والسيوطي ـــ اللذان يذكران فى جملة شيوخ ابن سيده اللغـــوى الكبيـــر صاعد ابن الحسن البغدادى (15) .

وفي ابيات من ارجوزة ابـــن سيده ـــ وسنوردها فـــي آخـــر هـــذا الفصل ـــ يطالعنا شيخ آخـــر من شيوخ ابن سيده ، يبدو أنه تلمذ عليـــه وقد تقدمت به السن ، وهو ابـــو عمرو عثمان بن سعيد الدانى ، وقـــد كانت ولادته فى قرطبة عام 371 هـ / 981 م ، وقام برحلة الى الشرق سنة 347 هـ / 1006 م استغرقت عامين ، سمع خلالهما بالقيروان والقاهـــرة لاشهر الشيوخ والمقرئين يومئذ فى الحاضرتين ، حتى اذا فرغ من اداء فريضة الحج عاد الى الاندلس وجلس للتدريس فى المرية اولا ثم فى دانية ، وبها سمع عنـــه ابن سيده ، واشتهر أبو عمرو الداني ببراعته فـــي التفسيـــر واجادته لعلم القراءات ، وقـــد شمله الامير مجاهد العامرى برعايتـــه وتقديره ، وكـــان مجاهد شديد التعلق بالقراءات القرآنية ، وتوفي ابـــو عمرو الداني عام 444 هـ / 1053 م ، وتذكر الاخبـــار أن الاميـــر اقبـــال الدولة ابن مجاهد وخلفه سار فى تشييع جنازته (16)

ج) التصانيف المدروسة .

فى حرف الزاي من ارجوزة ابن سيده التي اسلفنا الحديث عنها ، نقع علــى ابيات فى غاية الاهمية ، يتحدث فيها ابن سيــده عــن اول عهــده بالدرس والطلب ، ويسمى الشيوخ الذين اغترف من علمهم ، ثم يعقب بذكر التآليف والمصنفات التى درسها والعلوم التى تمكن من تحصيلها .

شرع ابن سيده ، وعمره اربع سنوات فقط ، فى قراءة القرآن الكريم ــ علــى ما كانت العادة جارية به على عهده ــ وقبل ان يبلــغ السادسة من عمره كان قد حفظ القــرآن عن ظهر قلب ، فتــوج بذلــك المرحلة الاولــى مما يصح تسميته بالتعليم الاولي .

بيــد انه لم يلبث ، بعد ان شعر بعدم الاطئنان الــى هــذا اللون من التعلم الذى يعتمد ، اساسا ، على الحفظ ، ان قرر دراســة اصــول التفسيــر المعتمدة ، فأكب يقرأ ما كتبــه حول ذلك أمثال ابن عباس وابي عبيد بن سلام الهروى وابى عبد الله محمد الحميدى (17) .

واذ يحس ابن سيده بأن قدراته الفكرية قد نضجت واستوت ، يشرع فى قراءة مصنفات كبار العلماء والشيوخ الذين كانت شهرتهم قد طبقت الآفاق عهدئذ ، فيبدأ بمؤلفات ابــي يوسف يعقوب ابن اسحاق بن السكيت وقد اعانته على فهــم مشكل القرآن ، واكــب ، من ناحيــة اخــرى ، على تلك الثروة الكبيرة من الحديث الشريف الذي سمعه من احد اساتذته وهو ابو عمر الطلمنكى ، وقرأ فى شيء من التؤدة والتأنى موطأ الامام مالك بن انس المتضمن للمذاهب الفقهية ، وتوج قراءته للحديث بدرسه البخارى وروايته ، وكان ابن سيده يخص كتب أبى عبــيد الهروى بايثــاره فكان يصحبها معه دائما .

ثــم يستهــل ابن سيده بعد ذلك مرحلة ثالثــة من مراحل الطلب والتحصيل بدراسة كتاب سيبويه الذى يعد اشهر ما الف فى النحو العربى والذى يصفه ابن سيده نفسه بأنه « لب الفؤاد فهما عليه » وكان أبو عثمان بن سعيد الداني المعروف بتمكنه العلمي ووفرة انتاجه ، هــو الــذي اقرأ ابن سيده كتاب سيبويه .

ويأتــى بعــد هذا دور اشهر شيوخ ابن سيده وهــو صاعد ابــن الحسن البغدادي ، وقــد روى عنه اول الامر كتــب الصفات والاسمــاء

ثم تلقى عنه شرحه الذى تميز بدقة ووضوح بالغين على كتاب الغريب المصنف لابي عبيد وكتاب اصلاح المنطق لابن السكيت ، وفى هذه الفترة أستظهر ابن سيده الكتابين المذكورين ووعاهما ، ثم قرأ عليه كتاب تهذيب الالفاظ لابن السكيت ايضا ، كما قرا عليه مصنفات فى الاستعارة والمجاز ، وكان سبق له سماعها عن العالم النابغة احمد الطلمنكي .

ثم بعد ذلك عنى ابن سيده عناية خاصة بدراسة مؤلفات ابى الحسن علي بن اسماعيل الرماني ومؤلفات ابي علي بن احمد الفارسي ومؤلفات ابى الفتح عثمان المعرف بابن جنى ، ومن المعلوم أن ابا على الفارسى كان تبناه فأنشأه وعلمه على نحو ما ينشىء الاباء الابناء ويعلمونهم .

ويعقب ابن سيده على كل ما تقدم بأن يذكر فى رضى واطمئنان استظهاره كل كتب اللغة وحفظه كل الاشعار التى تضمنتها ، وكان المنطق وحدوده هو ما ختم به ابن سيده حياته فى الدرس والطلب — كما يبدو من الارجوزة — وهو يعد المنطق اداة ضرورية للوصول الى معرفة الحقيقة .

وفيما يلى نقدم للقارىء الابيات (18) التى امدتنا بكل تلك المعلومات :

قرات بالوحى وسنى أربع	وقبل ست تم عندى اجمع
حتى اذا حليت بالتنزيل	نظرت فى حقائق التأويل
ولم ادع لعالم تحبيرا	الا وقد ظلت بها خبيرا
فلا ابن عباس اضعت وضعه	ولا ابن سلام تركت جمعه
ولا كتاب ابن حميد عبد	الا ادخرت كل ذاك عندى
حتى اذا استضلعت بالحجاج	قرات كتب كل خبر ناج
كتب أبى اسحق ذى المعانى	اوضح به لمشكل القرآن
وكل ما احمله من سند	عن الفقيه الطلمنكى احمد
ثم قرات كتب الموطأ	عليه دون كسل مستبطأ
ثمت اشبعت من البخاري	رواية ، فتم لى فخارى

ولـــم اضع كتـــب ابـــى عبيـــد ... جميعهـــا فى ربقتـــى وقيـــدى

ثـــم قـــرات عـــلم سيـــبويـــه ... لـــب الـــفـــؤاد فهمـــا عليـــه

على ابى عثمان شيخى نافـــــع ... وكان فيه جـــد حبـــر بـــارع

ثمـــت فاوهـــت ابـــا العـــلاء ... فى كتب الصفـــات والاسمـــاء

روانـــى الغريـــب والاصلاحـــا ... حتى انـــار فجرهـــا ولاحـــا

ثمـــت رقـــانى الى الالفـــــاظ ... روايـــة ، فعـــدت فى الحفـــاظ

وقـــد قـــرات كتـــب المـــجـــاز ... عليه ، من قرموطة الشيـــرازى

بعد سمـــاعه عـــن الفقـــيـــه ... احمـــد ذى التفهيـــم والتفـــقيه

ثـــم قـــرات كـــتـــب الرمـــانى ... والفـــارســى وابـــنـــه عثمـــان

اعنى ابـــن جنـــى فانـــه بـــن ... لـــه وان كان ابـــاه الحســـن

فـــانـــه خـــرجـــه وادبـــــــه ... وقد تقول للشقيق : يـــا ابـــه

وغـــر قومـــا هـــذه البـــنـــوه ... فمنـــحـــوا الهـــنـــا الابـــــوه

سبحان ذاك الواحد العدل الصمد ... لم يتـــخـــذ صاحبـــة ولا ولـــد

كل كتـــاب لـــغـــة وعـــيـــت ... وكـــل شـــعـــر لهـــم رويـــت

ثـــم تأملـــت حـــدود المنطـــق ... ومن يـــرم حقيقـــة فليـــنطـــق

تطـــوان ... **حسن الوراكلي**

مصادر البحث

(1) انظر ، الضبي . بغية الملتمس ، طبعة كوديرا وريبيرا . رقم 1205 . ص 405 .

(2) انظر ، الضبي . بغية الملتمس ، طبعة كوديرا وريبيرا . رقم 1205. ص 405 .

(3) انظر ، ابن بشكوال : كتاب الصلة ، طبعة كوديرا وريبيرا ، رقم 889 ، ص 410 .
ومع ذلك فليس من الميسور الجزم بولادته فى هذه المدينة ؛ ذلك أن ما لدينا من اخبار عنه لا تذكر صراحة ـ كما يقول الاستاذ البير مطلق ـ البلد الذي ولد فيه ، كما ان ما انتهى الينا من اخبار عن والده لا يتضمن النص على أنه من مرسية ؛ غير اننا برغم هذا لا نستطيع القول بولادته فى غير مرسية لانعدام الدلائل على ذلك .
ـ المترجـم ـ

(4) يحدد بروكلمان (الملحق 1 ، ص 542) تاريخ ميلاده بعام 398 هـ / 1007 م ، وكذلك فعل أ. هايود (انظر ،

Actas del Primer Congreso de Estudios Arabes e Islámicos de Córdoba (P. 410)

أما محققا المحكم (ج 1 ، ص 5) فلم يحددا التاريخ الميلادي لمولده أكان في سنة 1007 م ، أم في 1008 م ؛ لأن عام 398 هـ يوافق التاريخين معا .

(5) لم ينعم عبد الرحمن بحكم الاندلس الا قرابة شهرين ، ذلك أن اندفاعه وتهوره حملاه فعلا ، وهو لم يرس بعد أسس دولته ، على أن يطلب من هشام اسناد ولاية العهد اليه فاستجاب له هشام ؛ فاغضب ذلك الامويين اذ راوا ، وهم قرشيون مضريون ، ان الخلافة ستنتقل منهم (شرعيا) الى بني عامر (اليمنيين) ، كما حمله اندفاعه وتهوره على الخروج غازيا ممالك النصارى في الشمال على نحو ما كان يفعل قبلا ، أبوه واخوه ، فاغتنم محمد بن هشام بن عبد الجبار الاموي غيابه عن قرطبة فاعلن الثورة ونادى بنفسه خليفة (جمادى الاولى سنة 399 هـ / فبراير 1009 م) .
ـ المترجم ـ

(6) انظر ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج 1 ، ص 431 ؛ الترجمة الفرنسية لدى سلان ج الثاني ، ص 272 .

(7) انظر ، عن حياة هذا اللغوي المشرقي الذي كان له تاثير ملموس في التطور الثقافي بالاندلس

R. Blachère, « Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au Xe siècle, Said de Bagdad, en « Hespéris », X » (1.930), 13-36.

(8) انظر ، عن حياة وآثار أبي علي الفارسي المتوفى عام 377 هـ / 987 م ، بروكلما ، ج 1 ، ص 116 ، والملحق ج 1 ، ص 175 ـ 176 ؛ ودائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الجديد ـ 2 ص 821 (مادة الفارسي) .

(9) طبعة ف ـ كرنكو ، الجزائر (1936) ؛ انظر عن حياة وآثار السيرافي المتوفي عام 368 هـ / 978 م ، بروكلمان ، ج 1 ، ص 115 ، والملحق 1 ص 174 ـ 175 ، ودائرة المعارف الاسلامية ج 4 ، ص 463 ـ 464 (مادة السيرافي) .

(10) الواقع ان ابن سيده ـ على تصريحه في أرجوزته بالرواية عن الطلمنكي ـ لم يختلف الى دروس الطلمنكي اختلاف المبتدئين والشداة ؛ ذلك أنه حين سمع ((الغريب المصنف)) بمرسية كان على حظ من النضوج العلمي لافت للنظر ؛ والحكاية التي تناقلها المترجمون ـ وسيوردها المؤلف ، على لسان أبي عمر الطلمنكي نفسه تدلنا على ذيوع صيت ابن سيده يومئذ باعتباره عالم مرسية وحافظها الذي تفاخر به العلماء الذين يفدون عليها (انظر ، البير مطلق : الحركة اللغوية في الاندلس ص 353)
ـ المترجم ـ

(11) انظر عنه P. Boigues المصدر السابق ، رقم البحث 50 ، ص 90 ـ 93؛ وبروكلمان الملحق الاول ، ص 203 .

(12) انظر عنه P. Boigues رقم 55 ، ص 95 .

(13) ابان فترة الازدهار العلمي الذي عرفته طلمنكة خلال القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين انتعشت الدراسات الفقهية بها على نحو ما انتعشت بقرطبة وطليطلة ؛

فاصبحت بذلك تحتضن مدرسة فقهية تذكر بجانب المدرسة القرطبية والمدرسة الطليطلية . انظر ، Miguel Asín Palacios, « Abenházam de Córdoba, 1 » (Madrid, 1.927), p. 100 وعن دور طلمنكة الهام فى فترة حروب الاسترداد ، انظر ، Torres Balbás, « Talaman » ca y la ruta del Jarama, en « Boletjn de la Real Academia de la Historia » CXLVL (1.960), 235-266.

(14) انظر ابن بشكوال : الصلة رقم 889 ، ص 410 ، وانظر المقري : النفح الثاني ، ص 258 . وانظر عن ابي الوليد هشام بن احمد الوقشي المولود ببوشقة بافليم طليطلة والمتوفى بدانية عام 489 هـ / 1095 م ، وقد روى عن الطلمنكي فيمن روى عنهم من شيوخ .
Pons Boigues R.M. Pidal, « Sobre alaucaxi y la ELEGIA arabe de Valencia », en el Homenaje a D.F. Codera » Saragoza, 1.904). 393-409.

(15) انظر ، الصفدي : نكت الهميان ، ص 204 .

(16) انظر ، Pons Boigues رقم 91 ، ص120 – 121 . بروكلمان 1 ص 516–517 . والملحق 1 ، ص 719 – 720 . ودائرة المعارف الاسلامية – الطبعة الجديدة الثانية ص 112 ، (مادة الداني) .

(17) تجنبا من ملء هذا القسم بكثرة التعليقات والاحالات على المؤلفين المذكورين فيه ، ونظرا الى ان ذكرهم سيرد من جديد عن الحديث عن مصادر « المخصص » و « المحكم » فقد خصصت لهم الملحق الثاني عشر الذي يجده القارىء فى آخر الكتاب ، على أنه يجب أن نستثني من اولئك المؤلفين عبد الله ابن عباس ؛ (رضي الله عنهما) لان اسمه لن يرد مرة اخرى ، وهو عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعتبر اول مفسر للقرآن (بعد الرسول بطبيعة الحال) وقد دعا له (ص) ربه بأن يعلمه التاويل ، توفي عبد الله بن عباس حوالي (سنة 68 هـ / 88 – 687 م) انظر ، R. Blachère Introd. au Coran, 38 ودائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديد ج 1 ص 41 – 42 – (مادة عبد الله بن عباس) .

(18) مجلة المشرق ، العدد 36 ، ص ، 190 – 191 .

ذيل وتعليق
حول
قضية "المعتمد بن عباد
القسم الثاني

عبد الرحمن الفاسي

جنحت فى هذه الفصول الى الاسهاب عرضا وتحليلا لاحداث ما قبل عهد قضية المعتمد بن عباد ، تطبيقا لمفهوم « الذيل والتعليق » حتى تتكون عند القارىء نظرة شاملة على جذور المؤثرات ونشاة العوامل التي وجهت الاحداث وتصرفات الناس كما وعدت ؛ وبذلك فان النقاط التي اختلف فيها مع الاستاذ عباس الجراري نظرا ونظرة ترد فى غضون ذلك ومركزة على الخلاصة التي ستنتهي اليها هذه الفصول .

وهذه الخلافة فى الاندلس ، انما كان سقوطها لضعف الجيش ، وانعدام الاستعداد للحرب ، كما سجل الظاهرة ابن حوقل ؛ ومن آثار ذلك

في توهين العاطفة القومية ثم الانحراف تبعا لذلك بسموم الاوطان ، قبل داعي التفرقة والانقسام ، أن هشاما المؤيد بن الحكم (وهو سلالة الائمة ، وبقية الدين والحشمة ، والبعيد المرمى من الدنية) سلم للعدو مائتي موضع بالتثنية (البيان المغرب جـ 3 ص 103) فى مقابل نصرته على فتنة ابن عبد الجبار ، وحاز العدو وما وفى ، ! وجاء بها بعده سليمان المستعين حمراء نكراء كما قدمنا ؛ وعن عهد هشام هذا يقول ابن الخطيب في اعمال الاعلام : (والخلافة قد بلغت المشتهى ، وادركت الجنى ، ... ورسم الخلاف قد امحى ، والدولة المروانية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى ، والمصر قد خرج فى العمارة عن المعتاد) .

وحالت الحال ، ووقع ما كان وبان ، ونشا عن ذلك الضعف الحربي الذى عرضت بعض مظاهره فى فصل سابق ، ضعف نفسي ، اخذ يتسرب رويدا رويدا ومع تصرم الايام الى الاعماق ، وجرى من بني الاندلس مجرى الدم ، فقد كان سيل الفتنة الكبرى فى مطلع القرن الخامس مبيرا ، يجرف المفاهيم ، ويقلب القيم ، ويعطل الطاقات، ويهدر المقدرات ، فعادت العصبيات جذعة الى الساحة ، وثارت الاحقاد ، واستحرت الاحن ، وذر قرن الطمع فى الاحتواء والانتزاء والامتلاك ، واذا مجتمعات ملوك الطوائف ، ينخر فيها الضعفان ، وينكسف فيها الازهران : المنعة والعزة بالتوالي والانتظام ، وكأنهما — واأسفاه — لم يشرقا على ظهرها فى يوم من الايام ، واصبحوا فى ظلام هذه العماية العمياء يخبطون خبط عشواء ، ويستظهرون فى تطاول بعضهم على بعض بملوك وأمراء النصارى فى الشمال ، ويتبارون فى ابتياع المناصرة من هؤلاء الاعداء الذين ظلوا حربا على الاسلام فى السر والعلن ، وفى بحبوحة الرغد والحياة الكريمة التي افاءها على تلك الارجاء ، فكانت للعدو الظهير سانحة لاستغلال الضعف ، فخطط واحكم التقدير والحساب ، واتخذ منها موردا ثرا لجباية الاموال ، واحتجان الذخائر والاعلاق ، وقد باع احد هؤلاء الاعلاج مساندته فى اشتباك واحد لخصمين اثنين من ملوك المسلمين ، فظاهر هذا فى جولة اليوم ، وظاهر خصمه فى الجولة الانتقامية التالية (1) .

وهكذا تجلى النصير المعين شيئا فشيئا خصيما عنيدا ، ينـــاور بارسال الفرقاء بعضهم على بعض ، ويـــداور للزج بهـــم فى مضايـــق ومنعرجات ، تضطرهم الى الاستنجاد ، وتريفهم قنائص فى شباك ممالك وامارات الشمـــال •

وتصرمت السنون ، وتطاولت عليهم بهذا المقدور ، وهم فى اتون هذه الحاقة ، يدفعون المال ، ويتزلفون بالهدايا ، ويلاطفون بالاحتيال ، وتلح عليهم المطالب القاهرة التي اصبحت جـــزى مفروضـــة ، ومغـــارم مسنونة ، فاذعنوا لروادفها ومختلف احجامها ، واحيانا تتجاذب احدهم المطالبة بها من غيـــر مـــا واحـــد من الامـــراء المتطاحنيـــن على استحقاقها ، حتى اذا تكسر على ظهورهم نصل على نصل ، وكبس خبايا نفوسهم الوهن والضعف ، اخذ العدو يكيدهم بشن الغارات على اراضيهم، وبسائط بقاعهم ، ويمكر بالعيث والفساد فى حرثهم وضرعهم •

وتوالت الغارات اثر الغارات ، فما تنقطع الا لقاء جزية ، وتعهـــد بالولاء والتبعية ، وتوالت معها عمليات حصار الحواضر وبنياتها على نفس المنوال ، الهادف الى توهين المنة ، واستئصال الهمة ، واستنزاف ما في الخـــزينـــة •

ولعل هذا الذي قصصته مقتطفا من افاذات الرواية التاريخية عن هذه الفترة ما يفتح العيون على ضعف ، يبـــدو انه نشـــا فى نفـــوس الاندلسيين رويدا رويدا ، ثم استغلظ فاستوى مطبقا على العقول ، تبعا لتصاعد أوجه القهر ، ومع فورة الاستعلاء واستشرائه على الوجه الذي تـــــــراه •

ويبدو أن مشهدا واحدا لهذه الافادات ، نسجله ماثلا فى اطـــار احداثه ، كفيل بان يزودنا بتلك الانطباعات التي توحى بهـــا الحركـــات والسكنات ، ويجلي لنا من زاوية اخرى ارتعاشات هذا الضعف النفسي فى حال تطوره من علقة ، الى مضغة ، الى ان استوى خلقا سويا متحركـــا بالتاثير فى نفوس وعقول واجسام الناس ، وفى معايشهم ثم فى مصايرهـــم بوجـــه عـــــام •

وتعترضنا المشاهد الكثيرة المتشابهة بواقعة حصار اشبيلية عام 455 على يد فرناندو الكبير ، وعلى عهد المعتضد عباد ، وهما كبيـــرا قومهما فى ذلك الحين .

وقد جاء حصارها حسب تخطيط هذا الطاغية رابع عملية فى نطاق تحركه لاحكام القبضة على الاربعة الكبار اصحاب بطليوس ، وسرقسطة ، وطليطلة ، واشبيلية ؛ فبعدما انتزع من المظفر ابن الافطس صاحب مملكة بطليوس وصاحب كتاب المظفرى) عام 449 ـ 1057 مدينتـــى (بازو) و (لمقية) على نهر التاجو فى قاصية بلاد المسلمين آخر الثغر الجوفى ، شمال غرب الجزيرة ، وشمال بلاد البرتغال الحالية ؛ وبعد ما اتجه شرقا عام 452 لغزو الحدود الجنوبية الغربية لسرقسطة واستولى على المعاقل والحصون ، وفرض الجزية على صاحبها المقتدر ابن هود ؛ وبعد ما كر مرة اخرى ملحا على الغرب ، بعد اربعة اشهر فقط ، وحاصر فى نفـس مملكة ابن الافطس مدينة شنترين على نهر التاجو شمال لشبونة ، حيث اكتفى بفرض الجزية ، كما سمعت خبره فى الفصل الماضي كشاهد على الضعف فى الحرب الذى صورنا ، ثم بعدما ولى وجهه عام 454 ـ 1062 للعيث والفساد والسبي فى البسائط والمدائن الواقعة فى الشمال الشرقى لمملكة طليطلة ، من مدينة سالم الى قلعة النهر مما اطار صواب صاحبهـا المامون ابن ذى النون ، واثار جزعه وهلعه ، فما تمالك ان خرج عن مكنوز الذهب وفاخر الاعلاق ، واهطع ـ كما قالوا ـ الى معسكر الطاغية ليعلن الطاعـــة والـــولاء .

وبهذه السوابق ، وبهذه الصولات والجولات من الثغر الجوفي ، الى الثغر الادنى ثم الى الاقصى ، وبظاهرة احتلال التراب ، كما سمعت عن مدينتي بازو ولميقة ، وبملاحظة اهتمامه باجتياح القـــلاع والحصـــون شرقا وغربا وفى النهاب والجيئة ... (والقلعة غيـر الحصـن فـى الاصطلاحات الاندلسية) استطاع بهذه السلسلـة مـــن الضغـــوط ان يغزو من بعيد نفسية قاعدة بني عباد ، تلك التي ظلت متابيـــة على الرضوخ والانقياد ، ممتنعة بالعدة والعتاد ، مشتطة فى الصولة والسطوة، والاعتداد بالامتداد .

ونزل اليها الطاغية عام 455 مخربا قراها ورساتيقها ، ومحرقا بسائطها وحقولها ، ثم اجلب بخيله ورجله معسكرا بظاهرها ، محكما حصاره عليها، وهمه قص جناح الباشق ((الجبار)) المعتضد عباد ، والد المعتمد صاحب قضية الباب ، وهمك به من (أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الاوتار) كما يقول عنه ابن بسام ، ومن كانت جيوشه كما يعبر مطمح ابن خاقان (تفتك فتكات بالآساد ، وتنتزع الارواح من الاجساد ، وتثمر بالجماجم ذوابله ، وتقتنص العرب والعجم حبائله (2)) وهو زعيم جماعة امراء الاندلس كما اخبر ابن حيان ، والمتحفز للاحتواء عليها بالتمام والكمال .

وكان شرك فرناندو على مستوى فراهة الفنيصة ، صاح عليه بمطالب ماكرة تجاوزت ما في اليد والجيب من جزيه يتحيف حجمها المتمول والمال ، الى شهوة قاهرة تدوس السيادة الترابية ، وتجرح الشمم والكبرياء ؛ والقارىء على علم بقصة طلبه فسح المجال في تراب المملكة للقسيسين والرهبان ليرودوا في غياباتها بحثا عن رفات القديسة خوست العذراء ، ونقلها الى ثرى القديسين والاملاك في الشمال .

وفي هذه القصة ما يكفي لاستجلاء عناصر الصيال ، ومقاصد اظهار التحكم والإستعلاء ، وغرض الاجهاز على الضمائر ، وتطويق العقول ، قبل حصار المدائن والحصون .

وداري المعتضد القارعة في نفسه ، وتجاه رعاياه ، وتلقاء زعامة العاصمة ، وامام من يسمع ويرقب من الملوك والامراء ، فما قدم ولا اخر حتى رجع الى استشارة الفقهاء ، وكان هؤلاء عند السمع والطاعة ، مقدودين على حال اهل الزمان ، كما سنسمع عنهم في قولة تالية لشيخ المؤرخين ابن حيان ، فصدرت الفتوى طبق التوجيهات المعتضدية المفهومة سلفا من المقام ، فقد كان انطق ما يكون حين لا ينطق في مثلها عند كل ما ينزل من اقضية ، وما ينبغ من احداث .

وتحمل الاسد الجريح على نفسه ، وجر خطاه متوكئا على فتوى الفقهاء ؛ وسالت البطائح بمطي احمال الفضة والذهب ، ونفائس ذخائر قصور بني عباد ، ومن ورائها المعتضد يحدو لها بانفاس زافرات ،

ويحدوها الى ساحة معسكر ذلك الرابض فى انتظار ما سيسفر عنـــه الاختيـــار .

وقد كان المعتضد عندها لا يتجاوز الثامنة والاربعين وكان قبلهـــا موسوما بما (أوتي من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ، ما فاق به على نظرائه (3)) ولكنه بدا فى عهده هذا وفى لحظات وقوفـه بين يدى غريمه فرناندو ، كسيرا ، متهدما فانيا ، واهيا ، جلل الشيب هامته ، والجم الهم خاطره ، وناءت النازلة على حواسه ، حتى تقـول الرواية ان فرناندو قد خامرته الشفقة فرثى لحاله ، وحركته الانسانية ، فرضي بمجرد التعاقد على الاتاوة ، وعلى نقل رفات القديسة ؛ ثم فك عن المدينة الحصار ، واستدبرها للجلاء ، وقد اسر حسوا فى ارتغاء .

ونفذ الطلب الماكر ، وحملت رفات القديس ((اسيدور)) الى كنيسة ليون ، حيث لم يعثر على رفات العذراء ، وكانت لوادع المحمل قصـــة اخرى ذات شؤون وشجون ، فى باب الاستخذاء والخنوع حسبما يتضـح مما تخيلوه وسطروه .

وخضع لها المعتضد جزية سنوية ، خفيفة فى اللسان ، ثقيلة فى الميزان ، هوجاء نكراء ، على كواهل مـــن ستتحيفهم فـــى المعايش والارزاق .

وهذه الصورة المشجية بما فيها من وفادة المعتضد بنفسه على الطاغية ، وحالة الانهيار (الجسماني) ، و (النفساني) التي كان عليها ، حتى رثى له فرناندو واشفق ، انما هي تسجيل لمضمون ما دونته الروايـــة القشتالية التي نقلها الاستاذ محمد عبد الله عنـــان فى كتابـــه ((دول الطوائف)) وذلك كدابه فى تقريب الروايات الاجنبية الى الباحثين الذين يعنون بمقابلة الروايات ، تقصيا لاطراف الموضوع ، وتطلعا الى الاحاطة والشمول ؛ مثلما نجدها عند المستشرق (دوزي (4)) مكتنفة بوضـــر التقول ، ماثلة فى صيغ تنضح بحقد أصيل ، وتحامل مكشوف .

اما الرواية العربية فقد تجافت التعريج على هذه الصورة المشجية ، فشيخ المؤرخين ابن حيان ، على ما عرف عنه من نشر معاصريـــه فى

مباذلهم وسوءاتهم ، الاحياء منهم والاموات ، وهو هو الذى لا يحد شفرة ولا يريح ذبيحة بحال ، نراه قد اقوى واحجم تجاه صولة ذلك الجبار ، ولو بعد الفوت والادبار ، فلم يدر فى حسبانه أن يتسرب الضعف فى يوم ما الى الشخصية المهيبة التي كانت ملء الاسماع والابصار ، فى الحقيقة والخيال ، والحضور والغياب ؛ على أنه لم يتهيب أن يقول عنه بملء اللسان : (حمل عن المعتضد على مر الايام فى باب فرط القسوة وتجاوز الحدود والابلاغ في المثلة ، والاخذ بالظنة ، والاخفار للذمة ، حكايات شنيعة ؛ (5) ثم داخله الاحتراس فعاد يقول : (انه لم يقم دليل على اكثر هذا عند من يصدقه ، وان القول ينساغ فى ذكرها ؛) لم يخرج عن احتراسه ليقول : (ومهما برىء من مغبتها ، فلم يبرأ من فظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة ، سجايا من جبلته ، لم يحاش فيهن ذوى رحم ، ولاغلبهن بحيلة) ، ويعود الى احتراسه بصيغة اخرى حسبما ينقل عنه ابن بسام (6) فيقول فى معرض اشارته الى تقيل المعتضد سيرة احمد بن ابى احمد ابن المتوكل (وطالع بفضل نظره اخباره السياسية ، التي اضحت عند أهل النظر امثلة هادية ، اذ الاحتواء على مد الرياسة فى صلابة العصي ، وصناعة الشظى ، فجاء منها بمهولات تذعر من سمع بها ، فضلا عمن عاينها ، نسبوا الى هذا الامير الشهم امتثالها ، من غير دلالة ، وقد انطوى علم الله عليها) .

وهناك سطور اخرى له من هذا القبيل الذي يرد فيه ذكر ما اشتهر عن المعتضد من شب الحروب ، وكياد الملوك ، وفظاظة السلوك ، والاستهانة بالدماء ، قد وردت عند ابن الابار (7) ، وينقلها ابن الخطيب من غير أن ينسبها الى (8) ابن حيان .

ومن مجموع هذه النصوص العربية غرف المستشرق دوزي غرفاته المفعمات ، التي صاغها فى فصوله عن المعتضد غمزات ماكرات .

وعلى اى حال فقد ارسل الامام ابن حزم فى رسالة «التلخيص لوجوه التخليص (9) شواظا من نار لسانه على ملوك عصره ، فندد باستخذائهم وتزلفهم الى النصارى حتى ببيع الدين والدنيا وماء الوجه فقال : (والله لو علموا ان فى عبادة الصلبان ، تمشية امورهم لبادروا اليها ، فنحن نراهم

يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وابنائهم ورجالهم ، يحملونهم اسارى الى بلادهم وربما يحمونهـــم عـــن حريـــم الارض ، وحشروهم معهم ءامنين ، وربما اعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فاخلوها من الاسلام ، وعمروها بالنواقيص ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهـــم سيفـــا من سيوفه) .

ويبدو ان هذه الافادات تقربنا الى الاخذ بالقصة ، ولو فى مضمونها لا فى تفاصيلها . كما سنرى بعد لحظات ، فهناك من جهة أخرى دلالات موحية تقع عليها فى النصوص التي ينقلها ابن الابار (10) وابن عذارى عن ابن حيان وابن بسام ، وذلك كعادة ادمان معاقرة الكاس ، التي لا يعدم الباحث صورة عنها فى اشعار المعتضد عباد ؛ ومثل كلفه بالنساء (11) ، والتوسع فى اتخاذهن والتخليط فى اجناسهن ، ثم ظاهرة التطير التي لازمته فى اخريات عمره (12) ، ومسحة الكمد والنكد التي خيمت على طلعته ، وتلك الجهامة (13) التي كانت ترهب غاشيته ومساعديه ، منذ قتل ولده الاكبر ولى عهده اسماعيل صبرا بيد نفسه (14) ، وقـــد كان ذلك منه منذ سنة تسع واربعين او خمسين ، مما يلفت النظر الى ان الحالة النفسية العصبية اخذت تهيمن على اعصابه منذ وقت بعيد .

وتلك كلها افادات تعطي للرواية الاسبانية وجها تحمل عليه قصـــة الرجل الهيكل الذي حميت مرته ، واستفلظت شجونه ، وأظلم خاطره ، ودهمته الشيخوخة ، وفح ارذل العمر فى طلعته الشابة .

على ان الباحث اذا قبل ـ على هذا ـ ملامح الصورة ومضمـــون القصة ، لا سيما والمغرم مفروض ، ورفات القديس قد حملت بالالتماس، او بموجب النصر المشهود ، فان اطار الصورة المشينة المهينه فى حضرة فرناندو كما لم تسجله الرواية الاسلامية ولم يتندر به ذلك الامام المعاصر ، الذى لم يكن يخشى لومة لائم ، او يرهب سطوة ظالم ، فان ذلك لا يثبت على محك النظر الفاحص .

فوفادة المعتضد عباد بنفسه على معسكر فرناندو حتى ولو كانت لها سابقة بالنسبة الى ابن ذي النون ، الذي كان لملكته وضع جغرافي خاص ، ومقومات ، واستعدادات دون مستوى عباد .

والصيغة الغمازة التي صنع بها المستشرق دوزى اطار الصورة مطمعا بالتحامل على المعتضد،فقرفه بالدعارة (15) واللؤوم ، ثم تقول عليه زاعما انه (توسل الى فرناندو ان يبقيه على ملكه (16) ، وان هذا (رحمه واثرت شيخوخته فى نفسه) استجابة لصوت انسانيته !!

كل هذا يحدو الباحث الى استبعاد هذه الوفادة الشخصيــة (17) وذلك الاسترحام ، والى ان يضع نصب العين معطيات شخصية ذلــك الملك العربي ومقوماته الحضارية والسلالية والفكرية وزعامته الدينية ، فكلها مفردة او مجتمعة ترجح كفة رفض هذا البهتان ، لا سيما وهنــاك نصوص من رسائل واشعار هذا العصر (القسم 2 من ذخيرة ابن بسام) تستقطبه ، وتندبه للجهاد ، وتصطفيه لحركة الانقاذ .

وبتلك الروح يقول ايضا دوزى : (18) (انما احال لونه واضفى على معارف وجهه معالم الشيوخة ، همومه ، واحزانه لفرط الظلم وتانيــب الضميـــــر .)

وعن نفس تلك المعطيات والمقومات العبادية نصدر فنقول : ان هذا ان صح فى التوجيه صحة ما اسلفته عن الادمان ، والكلف بالحسان ، فان عامل اباء النفس ــ وهو جماع تلك المقومات والمعطيات ــ التــي فجاها فرناندو بنذر الاستعلاء ، وبخطوات الاحتواء والامتلاك فى الشرق والغرب على السواء ، قد ارث ثورة المعتضد النفسانية ، وهوى باعصابه الى الانهيار ، ثم تلح عليه الفاجعة حين يرقب انحدار الموجة النصرانية سيلا عارما من قواصي الثغور ، لتكبس على الاسد عرينــه ، وتقــض مضجعه فى العريسة ، وانها لفجيعة لن تفصم بوطاتها عن الاذهــان ، ولا تنثني تثير التوقعات ، والتخوفات ، التي يشتعل لها الراس ، وينحني معها الظهر ، وتصطك الركب ، وتتعطل آلات الاذهان ، فضلا عن تغيير معالم الوجوه واحالة الالوان .

وبعض هذا ، او قريب منه مما لم يسلم منه ملوك طليطلة والشرق والغرب ، الذين فرضت عليهم الجزية والطاعة فى نطاق تحرك هذا الطاغية، فكانت من قاصمات الظهور ، ودامغات العقول ، مما اورث بعضهم خبالا، ولفت انتباه الناس الى ما نزل بهم ثم بغيرهم فيما بعد مــن ادواء ملازمــة

وما ظهر على تصرفاتهم من حدة عارمة ، وقد سجل المؤرخون ذلـــك كعواقب لما جروا على انفسهم واوطانهم من فواجع ، وكامثلة لما قدره الله عليهم من سوء الخواتم (19) .

فاذا كان المستشرق دوزي قد غفل عن هذا العامل فى احالة الالوان واضفاء معالم الشيخوخة على معالم الوجوه ، فالمؤرخ العربي لم يفته ما يخلفه ضرب المغرم والجزية فى النفوس ، ولكن دوزي قد غفل عن هذا لعنايته بتوجيه ذهن القارىء الى ظلم عباد وقسوته ، وتانيب ضميره ، كعوامل لشيخوخته المبكرة ، وتغير معالم وجهه ، وبذلك يسدل فيمـــا يخيل له الستار على دموية فرناندو وقسوته المتوحشة ، التي لم يسترها حجاب الايام ، مثلما نراه عمد الى تركيز ذهن القارىء على صورة عباد وهو فى مباذل اللذات (20) والشهوات ، ليجلي لنا فرناندو فى نفس المقام وهو فى مسوح الرهبان ، والقوام على روح الدين والعدل والصـــلاح ، الباسط يديه بالهبات .

وعلى اي حال ، فسواء صحت الصورة المشجية كما تعرضها الرواية القشتالية او لم تصح فهى فى الحالتين تعرض مظهرا من تطور الضعف النفسى امام العيان ، او من خلال الاستضعاف كما يمارســه او يامله الاعـــداء .

وهكذا اصبح المعتضد فى قلب عاصمته وعلى دست عريستـــه كسيرا حزينا ؛ فلندعه لهواجسه ، ريثما نلقاه مرة اخرى فى اخريـــات ايامه ، مشوش الخاطر مهدم الاعصاب ، وهو يدلف الى نهايته المحتومة والقـــدر المتـــاح .

وانقلب فرناندو عن اشبيلية مرفوع الهامة ، مهلل الطلعة ، ممتطيا مكسبه المطهم نحو خطوة فارعة فى مخطط التوسع والانسياح ؛ وبروح الواثق من الانهيار النفسي والسابر لاغواره فى هذه التحركات ، انطلق عام 456 تجاه خط حدود الثغر الغربي ليستولي على أهم مدنه البالغـــة الحصانة والامتناع ؛ ويوطىء ابن عذارى لهذه الانطلاقة فيقول (21) : (ولم يزل عدو الله فرذلند يقوى ، والمسلمون يضعفون بغرم الجزية للنصارى

الى ان نزل اللعين على مدينة (22) قلمرية) ((كويمبرا)) وهي المرة الثالثة التي يزحف فيها نحو مملكة بطليوس ، بعد نفوذه اليها عام 449 ، وبعد حصار شنترين ((سنتارم)) فى نفس المنطقة عام 452 كما عرفنا فى معرض سابق منذ قريب ؛ وقد اضفى فرناندو على وجهته نحو قلمرية صبغة دينية ، فقام بطقوس خاصة قبل ان يزحف بنفسه لحصارها ، وواكبته الملكة الى ساحة هذه المعمعة ، ويبدو انه جاء بها للتفرج على منظر بقر البطون ، واسترقاق الذرية والصبايا ، وذبح الاسارى ، وتقتيل السكان ، واجلاء من نجا عن الاوطان ، وكان هذا على مشهد ايضا من القسيسين والرهبان ، الوالغين فى دم هذه المجزرة التي لم يتحرج بعدها دوزي من أن يسبغ على فرناندو الرحمة والاشفاق ، ويضفي عليه الانسانية والحنان .

وما قدر كان !! ولم يستطع المظفر ابن الافطس (437 هـ — 461) ان يبدي حراكا ، لا فى الاولى ولا فى الثانية ، ولا عند هذه الداهية ، وبقي أمر الدفاع ، ومعاناة شدائد الحصار مدى ستة اشهر كاملة لشهامة سكان المدينة ، فطحنتهم الرحى ، واغرقوا فى حمامات من الدماء .

وباستيلائه على هذا الحصن ، تامنت له حرية النزول الى عمق التراب الاسلامي ، والضرب فيه يمنة ويسرة ، فلم ينشب ان انطلق عام 457 اي فى العام الموالي نحو بلنسية (23) ، كما سبق القول فيه فى صفحة ماضية ؛ وفى طريقه اليها انقض على اراضي سرقسطة مخربا كدابه ومحرقا ، وقالوا انه ادب بها المقتدر ابن‌هود (438 هـ — 478 هـ) لما ظهر من مراوغته فى اداء واجبات الجزية ؛ وقد كانت بلنسية مطمح تحركه لما يعلم من ضعف صاحبها آخر بني عامر عبد الملك بن عبد العزيز (452 هـ — 457) ولما كان عليه سكان هذه المنطقة من الفسولة ، وليونة الترف والنعومة ، حتى قال فيهم الشاعر (24) :

لبسو الحديد الى الوغى ولبستم
حلل الحرير عليكم الوانا

ما كان اقبحهم واحسنكم بها
لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ولكن سرعان ما فتح عينيه على حصانة اسوار المدينة ، وطالت عليه بمناعتها ، فارتد عنها الى حينها ، واكتفى بنصب الكمين الذي عبرت عنه فى فصل مضى بنصب الاحبولة ، وذلك عند ذكر هذه الحادثة التي عرفت بموقعة ((بطرنة)) كما اسلفنا .

وتحت اسوار هذه المدينة احس بعوارض المرض تتهجم عليه ، ولم يفصم عنه الداء ، حتى أودى به عام 458 هـ ـ 27 / 12 / 1065 .

ويبدو من تحركات فرناندو هذه التي استعرضناها (25) أنه سار وفق مخطط محكم ، وبخطوات موزونة وموقوته ، مستهدفا الحصول على مكاسبه بأقل ما يمكن من الجهد ، ومن الكلفه ، وبتفادي التضحية بالرجال ما وسعته الاحوال ، فلم يكن يزج بجيشه فى مواجهه يعلم انها سابقة لاوانها ، أو أنها لا تعود على مخططه بعائدة ؛ وهو المخطط الذي تبناه ولده وخلفه فى تزعم حركة الاسترداد بعده ، الفونسو السادس ، فسار على دربه في الاقوال والافعال ؛ وقد ندت فيما بعد هذا التاريخ على لسان الكنت ششنندو (مستشار الملك الفونسو السادس ومولي اسرة بني عباد من قبل) كلمة في أثناء حديث له مع ملك غرناطة عبد الله بن بلقين فقال له (26) : (وانما كانت الاندلس للروم فى أول الامر ، حتى غلب عليهم العرب والحقوهم بأبخس البقاع جليقية ، فهم ألان عند التمكن (طامعين ـ كذا) بأخذ ظلاماتهم فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال اخذناها بلا تكلف) .

وما بعد هذا البيان والتبيين زيادة لمستزيد ؛ فقد كان التركيز فى الخطة على مراقبة مستويات ضعف الحال ، وعليها الاعتماد فى الحركات والسكنات ، ولنتذكر ـ على سبيل المثال ـ ما قدمناه عند نزوله على اشبيلية ، فما تحرك اليها الا بعد تصفيته قضية تامين الجزية المفروضة على الكبار الثلاثة على الوجه المذكور آنفا ، وذلك استغلالا منه لضعف الاذعان الذى يخنى على الهمم ، ويخنق نوازع النفوس ، فانحدر بعدها الى اشبيلية وهو متاكد من ان خطوطه الخلفية آمنة محصنة بهذا الخط من ضعف النفوس الذي لا يترقب من ورائه باسا بوجه من الوجوه .

ومما يلاحظ عن الضعف المشار اليه فى افادة الكونـــت ، يقال فى بقية المعتمدات ونجده مطبقا تطبيقا فى جميع خطـــوات فرنانـــدو ، على نفس المنوال .

فعندما انتزع من ابن الافطس عام 449 بازو ولميقة فى منطقـــة « لشدانية (27) » خرب المنطقة واجلى عنها السكان المسلمين وعمرها بالنصارى تلافيا لمغبات مجابهات يومية مع السكان .

ثم انه وافى هذه المنطقة بالذات علما منه انها منطقة منعزلة او كما عبروا فى قاصية تراب الاسلام ، فلا كثافة السكان هناك ، ولا وسائل الحماية موفورة وانما كانت تعتمد على نفسها فى الدفاع ، (دول الطوائف : محمد عبد الله عنان) وهذا هدف خطته القائمة علــى تفــادى التكلــف والتضحية فيما ينهد اليه من احتلال وامتلاك .

وكذلك كانت فعلته بعد ذلك عند فتح قلمرية (كويمبرا) فقد طرد المسلمين المقيمين فى المنطقة الممتدة من جنوب نهر « دويرة » الى نهر « منديجـــو » .

وهذا ولا ريب مصداق ما اشير اليه من انه كان يتفادى التضحيـــة بالرجال والمعاناة المتواصلة التي يفرضها الاستقرار فى منطقة قريبـــة العهد بالاحتلال ، او فى مدينة كثيفة السكان وذلك لما ينبغ فيهـــا من ثورات ، وانتقاضات ، تفسد عليه جنده ، وتعنته بالكلفة .

ومن باب هذا ، ان فاجعة قلمرية الدامية فى غرب الجزيرة ، قـــد حلت فى نفس السنة التي نزلت فيها فاقـــرة احتـــلال الرونمانـــون النورمانديين) واهل غاليش (الفرنسيين) لمدينة « بربشتر (28) فى شرقها ، وهي الحادثة الاليمة التي ما زالت تنكأ جراحها فينا همزية ابـــن العسال ، والصفحة الباكية من تاريخ ابن حيان ؛ وما من شـــك فى ان الواقعة كانت من تدبير وتاليب ومساعدة فرناندو بالذات ، فمن تـــراب مملكته تسرب المهاجمون الى شرق الجزيرة ، وايضا فالمدينة من حصون

الثغر الاعلى المعروفة بالامتناع ، فهي في عداد مخططه لضرب الحصون واجتياح انعدع والصليبية بصبغتها المعلنة ، وطبيعتها الدموية ، كانت شعار المعركتين ، وملحظ التوقيت لهما مما يتوخى فرناندو تكأته التي يعتمد عليها في تحركه لحصار أو احتلال ، وهي استغلال ذلك الضعف الذي يتوقع أن يلم بجانب المسلمين اثر هذه المعركة أو تلك ، فيسهل عليه الايقاع بهم الثانية ، والمكسب للصليبية ان في الاولى او من الثانية التي تعقبها على اي حال .

وقد انتبه الملك عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة على عهد الفونسو السادس الى هذه الظاهرة في مخطط حركة الاسترداد فقال (29) : (وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد اذ كان منهبه ألا ينازل معقلا ولا يفسد اجناده على مدينة ، لبعد مراميها ، ومن فيها من مخالفي ملته وانما كان ياخذ منها الجزية عاما بعد عام ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدى الى أن تضعف وتلقي بيدها) .

وبهذا نستطيع أيضا ان نفسر ارتداد فرناندو عن أسوار مدينة بلنسية مع علمه بضعف صاحبها عبد الملك بن عبد العزيز العامري ، فقد تفادى المواجهة علما منه انها ليست قلعة من القلاع مثل قلمرية في الغرب ، فتقتضي الخطة منازلتها وانما هي مدينة كثيفة السكان فلا ارب له في الوقت الحاضر فيها ، وقد اتجه اليها فيما يظهر ، ليؤكد وجوده كطرف يعنيه امرها ، وذلك أن المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة كان يتحفز للانتزاء عليها ، وهذا ما يعطى وجها للرواية الاجنبية التي نقلها الينا الاستاذ محمد عبد الله عنان حول واقعة بلنسية هذه المعروفة بواقعة « بطرنة » اذ يفهم من الرواية بطريقيها المرويين في كتاب الاستاذ انه كان هناك اتصال بين فرناندو والمامون في تبييت هذا الحصار (30) وهذا مع العلم بان الرواية العربية تضع نهوض المامون الى بلنسية (31) عام 458 اى بعد سنة موالية لموقعة بطرنة ، كما لا تشير الرواية العربية الى تدخل ملك قشتالة وليون في نهوض المامون ابن ذى النون .

وهكذا انتهى الى القول بان الضعف بشقيه الحربي الذي عرضت مظاهره في الفصل السابق ، والنفسي الذي حللته هنا في مراحل نشوئه

وارتقائه ، قد كان له اكبر الاثر في اتاحة الفرص لتطور حركة الاسترداد ، وانطلاقها من مرحلة فرض المغارم الى التوسع والانسياح في تـــراب ممالك الاسلام فما ادبر فرناندو عن دنياه ، حتى اجتاح شرقا وغربا اكثر المعاقل والحصون ، واحتل المدائن التي اعدها المسلمون قلاعا وحصونا او خطوطا حربية في حدود الثغور ، وان اطلالة سريعة على ما سنعرفه في فصل تال عن خطوات خلفه الفونسو في هذا المجال ، لتفتح أعيننا على أن المخطط قد قام على عملية تطويق التراب الاسلامي تطويقا محكما من جميع الجهات ؛ ومن طبيعة المخطط هذه التي اكتنههـــا المؤرخـــون المعاصرون وغير المعاصرين ، تتجلى لنا أن أسسه اعتمدت على التغيير الآني للطاقات والمقدرات ، وعلى تحسس النفسيات ، وسبر اغوارها على امتداد الصراع مع الايام .

اما الاكتفاء بالنظر الى الانقسام والفوضى ــ وأمرهما ما سمعته في فصل ماض من انهما مشهودان ، مذكوران حتى في رسائل الاستنجاد ، معروفان في سير الاحداث ، سواء في الجنوب او في الشمال ، ــ فلا ينفذ بالباحث الى العوامل الاساسية والمباشرة التي عادت على حركة الاسترداد بهذه العائدات ، واثرت كما سنرى بعد ــ في السير والاخلاق ؛ وعنها برزت الظروف التي احاطت بقضية المعتمد بن عباد .

واحســـب ان الفوضى والانقسام اللذين ظهرا بوضوح وجلاء بعـــد معركة الزلاقة وعند محاولة محاصرة حصن ((لييط)) بالذات ، وكان لهما اكبر الاثر في توجيه الاحداث ، وفي تغيير نظرة أمير المسلمين الى أولئك الاقيال ، قد استغرقا نظر القارئين وبعض المؤرخين كما استبدا بنظرتهم، فاعتدوا بهما كعاملين اساسيين حتى فيما نزل بمسلمـــي الجزيرة منـــذ البدايـــة .

وقـــد كان امير المسلمين يوسف بن تاشفين ــ نضر الله وجهه ــ اعرف العارفين بتلك الاحوال ، وبما ظهر منها وما بطن ، فنراه في كتابه المسهب (32) الذي وجهه باثر معركة الزلاقة الى تميم بن المعز بن باديس وقد وصف فيه المعركة ، واصل جوازه الى الاندلس ودواعيه ، وفيه اكثر

من بساط ومقام للذكر أو للتلميح الى افتراق الكلمة والانقسام ، ولكن كل ذلك لم يكن ، وانما انصبت نظرته وتركزت على عوامل الضعف بشقيه ، فقال فى طوالع ذلك الكتاب (ان النصارى استحوذوا على بلاد الاندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائها ، واستئصال اقاليمها ، وايطائهم البلاد دارا فدارا ، لا يتخوفون عسكرا يخرج اليهم فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم) .

وهذه اشارة واضحة الى الضعف العسكري

ثم بعد ما اشار الى جوازه ووصوله الى بطليوس فى انتظار وصول الرؤساء قال (وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، وقد تغلبوا على حصونهم ، واذلوهم فى بلادهم ، واضعفوهم وقد ينتجعونهم على مرادهم) .

وهذه اشارة او تحليل الى الضعف النفسي بكامل اليقين .

وما بعد نظرة امير المسلمين زيادة لمستزيد .

وقد كان حقيقا بصديقنا الدكتور عباس الجراري ان يشير الى هذا ؛ واذا لم ير ان يعده اساسيا فى المقام فقد فاته كما ترى قصده الى اظهار (اهم الظروف التاريخية التى احاطت بقضية المعتمد بن عباد) لا سيما وقد كان للضعف بشقيه اكبر التاثير فى اخلاق الناس ملوكا ورعايا ، كما سمعت وكما سنرى فى فصل ءات ، وعنه نشا وانبثق ذلك الاستعداد عند جيل المعتمد بن عباد لاختيار اليد العليا النصرانية على اليد العليا الاسلامية ، سواء فى الضراء أو فى السراء ، وذلك فيما ارى يتصل بموضوع الدكتور وهو موضوع قضية وحكم يتطلبان النظر فى الظروف الراهنة الظاهرة والخفية والتي على وفقها يجنح الى التشديد او التخفيف فى الاحكام .

فالى عدد تال بحول الله .

الربـــاط — عبد الرحمن الفاسي

المصـــــادر والتعـاليـــق

(*) تصحف اسم « تطيلة » الى طليطلة في القسم الاول من هذا البحث في العدد الماضي بالصحيفة 231 فمعـــذرة .

(1) البيان المغرب لابن عذارى ج 3 ، ص 277 – 283 – أعمال الاعلام القسم الخاص بالاندلـــس ، ص 178 .

(2) انظر ايضا المعجب للمراكشي ، ط – ســـلا ، ص 55 .

(3) من كلمات ابن حيان بواسطة البيان المغرب ج 3 ، ص 207 – الذخيرة لابن بسام ج 2 ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط 7753 . – الحلة السيراء ج 2 ، ص 42 – أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، ص 155 .

(4) ملوك الطوائف ، الطبعة الاولى ، ترجمة كيلاني ، ص 170 ، وما بعدها .

(5) الحلة السيراء ، ج 2 ، ص 41 – المعجب للمراكشي ، ط سلا ، ص 56 – 57 .

(6) هذا النص وكذا جل النصوص الواردة عن المعتضد في هذا المقام نقلا عن ابن حيان كلها بواسطة ابن بسام في القسم الثاني من الذخيرة ، انظـر مخطـوط الخزانـة الملكيـــة بالربـاط رقم : 7753 .

(7) الحلـــة السيـــراء ج 2 ، ص 40 – 41 .

(8) اعمال الاعـــلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، ص 156 .

(9) انظر النص الكامل لرسالة ابن حزم ابتداء من الصحيفة 177 من مجموعة رسائلـه التي نشرها الاستاذ احسان عباس ، مصدرة برسالته الشهيرة (الـرد على ابـن النغرلـــة اليهـــودي) .

(10) الحلـــة السيـــراء ج 2 ، ص 53 .

(11) الحلـــة السيـــراء ج 2 ، ص 43 .

(12) الحلـــة السيـــراء ج 2 ، ص 42 – 43 – 53 .

(13) الذخيرة لابن بسام بواسطة البيان المغرب ج 3 ، ص 153 .

(14) البيان المغرب ص 244 – 248 – 249 – المعجب للمراكشي 54 – 55 .

(15) ملوك الطوائف ترجمة كيلاني ص 95 ، والاحظ ان الدعارة لم تـرد لا منطوقـة ولا مفهومة في دلالات النصوص العربية التي اعتمدها دوزي .

(16) ملوك الطوائف ، ص 170 .

(17) والعجب ان الاستاذ الكبير محمد عبد الله عنان بالرغـم من انه سجـل الروايـة النصرانية من غير توهين او تصحيح كعادته في احتراسه المستجاد ، وفي تـرك الحرية لقارئه ، فقد عاد مرة اخرى في نفس كتابه (دول الطوائف) واشار الى هذه الوفادة وكانها من المسلمات – انظر دول الطوائف ص 48 .

(18) ملوك الطوائف ، ترجمة كيلاني ص 171 .

(19) يقول ابن عذارى فى البيان المغرب ج 3 ، ص 229 : (ولم يزل المقتدر بالله ابن هود يضعف والروم يتقوون عليه الى ان رماه الله بعلة فى جسده ، اذهبت حسه وعقله ، فيقال انه ما مات حتى كان ينبح كما تنبح الكلاب) وانظر الذخيرة لابن بسام القسم الرابع ، مجلد 1 ، ص 117 ـ وانظر اعمال الاعلام ، جزء الاندلس ، ص 198.

(20) كرر دوزي فى فصل واحد معاقرة المعتضد للخمر فقال فى الصحيفة 95 (كان مدمنا للخمر) ، وفى الصحيفة 100 (كان مولعا بالخمر) ، وفى الصحيفة 103 قال (وكان يتعاطى الخمر بطريقة غير معتدلة) ، وفى الصحيفة 104 قال (مع ادمانه للشراب) وهذا أوضح ما يكون عليه الاسلوب المغرض ، ثم تهافت دوزي فوصف المعتضد تارة باللؤم فى الصحيفة 95 ، وتارة بالجود فى الصحيفة 98 . بل انه تطاول حتى الى الحكم على ادبياته ولغة شعره .

(21) البيـــان المغـــرب ج 3 ، ص 238 ـ 253 .

(22) الروض المعطار (صفة جزيرة الاندلس) طبع بروفنسال ، ص 164 ـ الادريسي، صحيفة 183 ـ أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، الصحيفة 184 .

(23) البيـــان المغـــرب 252 .

(24) نفـــح الطيـــب ج 2 ، ص 449 ، ط اوربـــا .

(25) لا تذكر الرواية العربية زائدا على هذه الانتصارات التي حققها فرناندو ابتداءا من عبوره الى مملكة بطليوس عند فتحه بازو ولميقة عام 449 ، ولكن المستشرق يوسف اشباخ يقول فى كتابه (تاريخ الاندلس على عهد المرابطين والموحدين) ج 1 ، ص 15 ، (أن فرناندو اخذ من يد المسلمين مدينة (سمورة) فى طريقه الى هذه المملكة ، وقد تابعه المرحوم الطود فى كتابه (بنو عباد فى اشبيلية) وكما أشار رحمه الله فى الهامش الى أشباخ أشار أيضا الى الصحيفة 170 من كتاب دوزي عن ملوك الطوائف ، وهذا وهم منه فان دوزي لم يذكر مطلقا سمورة من بين ما استولى عليه فرناندو ، وانما سجل فى تلك الصحيفة أنه (اخذ للمظفر ابن الافطس مدينتين) ويعني بهما طبعا بازو ولميقة .

والمعروف أن سمورة وهي على نهر دويره قد كانت منطقتها بين مد وجزر فتوح المسلمين واستردادات النصارى (ليون ونبرة) منذ عهد عبد الرحمن الداخل (لا منذ عبد الرحمن الناصر كما عند الدكتور حسين مؤنس فى تعليقه على الحلة السيراء) وحتى بعد تمصيرها عام 288 ، وآخر من غزا المنطقة عبد الملك ابن المنصور عام 395 ؛ ومنذ استفلاظ الفتنة وتفرق الجماعة لم يرد لها ذكر فى المصادر العربية مما يوحي بأنها دخلت مرة اخرى فى حوزة ملوك الشمال ، وظلت كذلك فيما يبدو حيث نجدها فى الرواية النصرانية على عهد الفونسو السادس من بين ممتلكات اخته أوركا التي انجزت لها بالارث من القسمة التي وضعها فرناندو بين أبنائه وبنتيه قبل وفاته . وتقع الان سمورة (ثاميرا) على ستة وستين كيلومترا من الحدود البرتغالية ، انظر صفة جزيرة الاندلس ، ص 98 ـ 99 ـ تاريخ ابن خلدون ج 4 ، ص 80 ـ 81 .

وأيضا ـ ورد فى تاريخ ابن خلدون ج 4 ، ص 182 ، أن فرناندو هذا (احتوى على شنت برية وعلى كثير من عمل ابن الافطس) وشنت برية تقع الى شمال شرق طليطلة ، ومن واديها منابع نهر التاجو ، وقد كانت عاصمة كورة تمتد من حدود كورة

سرقسطة الجنوبية الغربية الى كورة وادي الحجارة وطليطلة ؛ وتذكر سهلة بني رذين من أكبر معاقلها ، ويظهر انها اصبحت في وضعية ثانوية على عهد الطوائف ، وقد كانت مستقر بني ذي النون على عهد المنصور ، ومنها نودي على ابن ذي النون لتولي حكم طليطلة فارسل ولده اسماعيل اليها ، وكانت من ثم بداية ممتلكتهم فيها ، كما كانت مسكن هوارة ومديونة من البربر ؛ وكان ابن خلدون اراد ان ينص على غزو فرناندو لمملكتين ، وفي جهتين ، لكنه انفرد بالتنصيص على شنت برية ، ويمكن توجيه هذا بان شنت برية متصلة بحوز مدينة سالم كما عند ياقوت ، ومن هذه ابتدأ فرناندو غارته على الناحية الشمالية الشرقية من مملكة طليطلة كما في صلب هذا البحث ، واذا تذكرنا انه استهدف في زحوفه اجتياح المعاقل والحصون وان ياقوت يذكر أن « بلاط عوسجة » حصن من اعمال شنت برية ، فسنقنع بهذا على ان ابن خلدون اعتبر فيما يبدو اجتياح هذا الحصن في شنت برية استيلاء على المدينة او الكورة ـ انظر معجم البلدان لياقوت في مادة شنت ، ثم في مادة بلاط ـ وانظر الجمهرة لابن حزم ، ص 498 ، المسالك والممالك للاصطخري ص 36 ، ط وزارة الثقافة بمصر .

(26) كتاب التبيان ص 75 .

(27) كذا هي في النطق العربي بضم اللام ، وعند لسان الدين ابن الخطيب « لجدانيا » بالجيم ، واكثر الباحثين بما فيهم العرب يسجلونها بالنطق الروماني « لوزيتانيا ».

(28) صفة جزيرة الاندلس (الروض المعطار) ص 39 ـ البيان المغرب ص 53 ، ابن حيان بواسطة ذخيرة ابن بسام ونفح الطيب ج 2 ، ص 752 ، طبع أوربا .

(29) كتاب التبيان ص 101 .

(30) كتاب دول الطوائف محمد عبد الله عنان ص 100 ـ 214 .

(31) البيان المغرب ج 3 ، ص 266 ـ 267 ـ 303 .

(32) نشر الاستاذ ليفي بروفانسال ، رسالة امير المسلمين ، هذه في مجلة الاندلس الغرناطية بعدد سنة 1950 ، وادرجها الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه دول الطوائف ، في القسم الاخير منه المتعلق بالوثائق والملحقات ص 424 وهو ينقلها عن المخطوط 488 من مكتبة الاسكوريال .

وصف ابن زيدون لولادة من خلال شعره

كانت بيضاء الوجه ، صفراء الشعر ، ممشوقة القوام ، طويلة العنق ، بارزة الصدر ، دقيقة الخصر ، رابية الردف ، حوراء العينين ، وطفاء الهدبين ، رقيقة البشرة ، بيضاء الاسنان ، بخدها خال اسود.

في مكتبة المناهل

الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية

هذا كتاب صدر في المغرب عن دار الثقافة خلال الصيف الماضي ؛ وهو يقع في عشر وثلاثمائة صفحة ، منها أربع عشرة ومائتان للدراسة ، وخمسون لدليل يعرف بالشعراء ، والباقي لملحق شعري والفهارس .

ومؤلفه هو الزميل الدكتور ابراهيم السولامي الاستاذ المحاضر بكلية آداب فاس ؛ وكان قد تقدم به بحثا لنيل درجة دكتوراه الحلقة الثالثة من جامعة الجزائر في نوفمبر 1973 .

وقد قسم الدراسة الى ثلاثة ابواب :

اولها : عن الظروف العامة لعصر الحماية ، تناول في فصوله الثلاثة الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية والادبية .

وثانيها عن اقسام الشعر الوطني ، وقد جعله اربعة فصول : الاول عن شعر الاصلاح وفيه تحدث عن الدعوة للوحدة الوطنية وللتعليم والعلم والرجوع الى الدين . والثانى عن شعر المقاومة ، وفيه تعرض للدعوة للجهاد ، وشعر الحركات السياسية والاحداث والمنافي والسجون ، ورثاء الشهداء والتغنى بالوطن ، وشعر الرومانسية الوطنية ، وموضوعات أخرى وتناول فى الفصل الثالث الاناشيد ، وفى الفصل الرابع تعرض لدعوات مضادة .

اما الباب الثالث فوضع فيه الشعر الوطنى فى الميزان ، حيث عرض خصائص عامة ، وتحدث عن الموضوعات واللغة والاشكال ، ثم طرح قيمة هذا الشعر .

ولست ادرى اذا كان جائزا لى ان اتحدث مرة اخرى عن هذا الكتاب بعد ان شاركت فى عضوية لجنة مناقشته وسجلت عليه عدة انتقادات ، وبعد ان كتبت له مقدمة تناولت فيها الاطار التاريخي والادبي الذي يمكن ان تطرح داخله هذه الدراسة او غيرها من الدراسات المرتبطة بالفترة الحديثة والمعاصرة من تاريخ ادبنا .

وقد تعمدت فى هذه المقدمة الا اتعرض بأى نقد للكتاب ، طالما انى سبق أن فعلت اثناء المناقشة ، وطالما ان الصديق السولامى وعد بمراجعة بحثه على ضوء الملاحظات التي قدمت . ولكن تبين بعد صدور الكتاب انه لم يفعل الا بالنسبة لبعض تلك الملاحظات ؛ ولعله كان قد ضاق بالنظر فى بحثه بعد ان عانى منه فترة غير قصيرة ولعله كذلك كان مستعجلا على اخراجه ونشره .

لذا فاني استسمح الاخ ابراهيم فى ابداء بعض الانتقادات التى لا اخالها الا مكملة لعناصر القيمة والجودة التي تبرز لقارىء هذا البحث الذي لاشك فى انه يغنى مكتبة الدراسات المغربية .

وتتصل اولى هذه الملاحظات بالمنهاج ، حيث يبدو الخلل واضحا فى التصميم الذي خطط البحث على اساسه ولي هنا جملة انتقادات :
اولا : ماكان ينبغى ان يخصص للظروف العامة للحماية — وهى مجرد مقدمات تمهيدية للموضوع — بابا مستقلا ، والرسالة كلها ثلاثة أبواب ، بل كان يكفيه أن يجعله مدخلا .

ثانيا : خصص للنشيد فصلا كبيرا داخل بـــاب الموضوعات ، وكـــان اولى ان يكون فصلا خاصا فى باب الاشكال ، وقد تحدث عنه فعلا فى هـــذا الباب ، بل انه شعر بذلك فقال فى ص 149 متحدثا عـــن موضوعاتها :
« بيد ان الاناشيد كانت تقتصر احيانا على أحداث معينة مثل حرب الريف وقضية الظهير البربرى ، بينما تخوض اناشيد اخرى فى التغنى بالوطـــن وتحبيبه للقلوب . ومن الاناشيد ما يلهج بحب الملك وتمجيده ، وقد يلف مديحـــه بذكر آمال الوطن وترقبه ليوم النصر بقيادة الملك رمز الوحدة ، فالاناشيد يمكن معالجتها فى اطار شعر الاحداث والعرشيات والتغنـــى بالوطن وفى اطار الشعر الاصلاحى لانها تنادى احيانا بالحث على العلـــم وتدعو الى الوحدة وتمجد الماضى » ومع ذلك اقحمها فى هذا الباب ، وكأنها موضوع مستقل بذاتـــه .

ثالثا : فى الجزء الخاص بالحركات السياسية (105) تناول الاحداث وعمد الـــى تقسيم بجعل منها نوعين :

1 ــ الاحداث الشعبية

2 ــ الاحداث الرسمية او العرشيات .

ويبدو لي أن القسم الاول من هذا الجزء مقحم على شعر الحركـــات السياسية لارتباطه بالمقاومة المسلحة التى سبق للدراس ان تحدث عنها فى فصل سابق . فاذا كان فى الفصل الخاص بهذه المقاومة قد تناول ثورة الريف فانه هنا ــ وفى هذا الفصل الجديد ــ يكرر عنها الحديث ، كمـــا يكرر الحديث عن الظهير البربرى . ويضيف الى ذلك احداثا داميـــة كحادث بوفكـــران والدار البيضاء ، ارى ان يتناولهمـــا فى فصل المقاومـــة المسلحة لانهما يشكلان حلقات فى سلسلة واحدة . أما حديثـــه فى ص 111 عـــن الغاء الرقابة الصحافية فلا اراه الا مقحما على فصل الاحداث . كذلك ارى ان الحديث عن الثورة التى قام بها الفدائيون على اثر نفي محمد الخامس فى غشـــت 53 ليس مكانـــه العرشيـــات (ص 112) بل فصل المقاومـــة المسلحة والدعوة للجهاد .

رابعا : ما سماه الباحث « شعر الرومانسية الوطنية » (ص 133) هو فى صميم الفصل السابق عليه والذى يحمل عنوان : « شعر التغنـــى بالوطن » فلست ادرى لماذا فصله عنه وجعله مستقلا ؟ فعبد القادر حسن (ص 134) يتغنى بأمجاد الوطن ، وعبد الكريم بـــن ثابـــت (ص 135)

وعلال بن الهاشمي الفيلالـي (ص 136) وادريس العلمـى (ص 138) يستوحون طبيعة بلادهم فى تعبيرهم الوطني .

خامسا : فصل « موضوعات اخرى » (ص 140) يمكن تسميته : « هجاء المستعمر واعوانه » لان كل الشعر الذي تناول الدارس فيه يدخل فى اطار موضوع واحد هو الهجاء .

سادسا : عقد السيد السولامي فصلا للشعر المالئـي للاستعمـار بعنوان « دعوات مضادة » (ص 161) وهو فى رايي خارج عن الموضوع الذي تدور حوله الرسالة . وما كان منه صادرا عن ردود فعل أو عـن تجاوب مع بعض الموضوعات التى تناولها الوطنيون كالدعوة للتعليم ومدح السلطان يشار له فى الفصول المخصصة لهذا الموضوع او ذاك ، ولكن دون ان يخصه بفصل فى باب المفروض فيه انه باب لموضوعات الشعر الوطنى .

سابعا : كنت انتظر — بدلا من فصل عن الشعر المالىء للاستعمار — ان يعقد الباحث فصلا للشعر القومى بالمفهوم الاصطلاحى للقومية ، اى الشعر الذى قاله المغاربة فى احداث عربية واسلامية ، ولكن ليس كل هذا الشعر ، وانما فقط ما ادمج فيه اصحابه قضايا المغرب الوطنية مستغلين مناسبة تلك الاحداث لطرحها والتوعية بها . ومثل هذه الظاهرة نلاحظها فى بعض القصائد التى قيلت فى التجاوب مع القضية الفلسطينية او الثورة الجزائرية . ونذكر مثالا عليها قصيدة لعلال الفاسي قالهـا اثر المظاهـرات التي قامت بهـا النساء الفلسطينيات سنـة 1932 ، فهـو فيهـا يقـول متحدثا عن بلاده ، رابطا بين النضال فى المشرق والمغرب :

ان البـلاد يعيـث فيهـا المستبدون الشـداد

يتمتعـون بخيرها ونظـل نحرم مـن سـداد

يأبـون ان نسعـى لعلـم أو لفكـر فى اتحـاد

والآن قـد خطت فلسطين لنا سبـل السـداد

حيـا الالاه فتاتهـا وحمـى مواقفهـا الجيـاد

كونـى فتاة العـرب رائـدة لنا يوم الجـلاد

ضمى الصفوف ووحدى لا تختشي اهـل العنـاد

لاتتركيـهـا فرقـة ترمـي بنـا فى كـل واد

ثامنا : الباب الثالث الذي جعله الدارس للشعر الوطنـي فى الميزان بداه بفصل عن « خصائص عامة » . وكنت اود ان يسبق هذا الباب باب عن اشكال هـذا الشعـر واساليبه يدرج فيه فصلى اللغة والاشكال . والفت نظر الاخ السولامي الى الفصل الذي خصصه للغة فقد تحدث فيـه عـن الاسلوب وكان يجب الفصل . وفى رايى ان باب النقـد يأتى بعد ذلك ، وفيه يضع الشعر للميزان . وحينئذ يغير عنوان « خصائص عامة » بعنوان آخـر وليكن : « الشعر الوطنى بين الاصالة والتقليـد او « بيـن الابداع والتأثر » واشهد انه فصل جيد . يضاف اليه فصل يتناول فيه الشعـر الوطنى بين الفردية والجماعيـة يدمـج فيه فصـل « الموضوعـات » (ص 195) مع بعض ما سبـق له ان عـرض فى فصـل « الرومانسية الوطنية » . ثم يختم هذا الباب بفصل عن قيمة الشعر الوطني .

الملاحظـة الثانية منصبة على المصادر حيث ينقل احيانا بالواسطـة فى وقت يمكن الرجوع الى المصدر الاصلي ، ولي هنا مثالان :

الاول فى ص 24 : قصيدة ابن ادريس الدالية التي مطلعها :

يا ساكنى الغرب الجهاد الجهاد   فالكفر قد شارككم فى البلاد

ينقلها من كتاب شبه مدرسى ويشير الى اخرى فى كتاب تاريخى ، وكان من الممكـن الرجوع الى ديوان الشاعر والاستفادة منه فى هذا الباب حيـث ان له قصيدتين غير الدالية ، مطلع الاولى :

فرض على كل مسكين وسلطان   حمل السلاح على عباد أوثان

ومطلع الثانيـة :

ياأهل مغربنا حق النفير لكم   الى الجهاد فما فى الحق من غلط

والديوان مخطوط بخزانة الرباط العامة ورقمه ج 845

الثانى فى صفحة 27 : لجأ السيد السولامى فى نقل بعض بنود عقد الحماية الى نص وارد فى محاضرة موزعة على طلاب قسم التاريخ بكليـة الآداب ، وكان عليه أن يلجأ الى النص الرسمـي كمـا هـو وارد فـي كتـب التاريخ .

النوع الثالث من الملاحظات يتمثل فى تكميلات اذكر منها ما يلي :

فى ص 22 يقول عن احتلال الجزائر وما أعقبه من احداث : « هذه الاوضاع المضطربة شجعت الدول الاروبية الطامعة على فتح اسواق جديدة والبحث عن المواد الاولية وتوسيع مناطق النفوذ » . والحق ان هدف الدول الاوروبية — وفرنسا خاصة — لم يكن فتح اسواق جديدة لها والبحث عن المواد الاولية فقط ، بل كان هدفها كذلك تحطيم القوة البحرية للمغرب العربى الذى كان يسيطر يومئذ على حوض المتوسط ، وكانت فرنسا وغيرها من الدول الاروبية تضطر الى عقد معاهدات لكي تمر سفنها فيه ، تدفع بموجبها مبالغ وهدايا لولاة وحكام المغرب العربي وليس هذا فحسب ، بل كان الهدف ايضا تكسير شوكة هذه البلاد بصفة عامة ولعلى فى غير حاجة الى ان اذكر بأن السبب المباشر فى الاحتلال ، وهو قضية المروحة — مرتبط بقضية الدين الذى تأخرت فرنسا فى رده للجزائر التى كانت أقرضتها اياه . وهذا دليل على تفوق مالى واقتصادى لا يحق تجاهله . ومثل هذا السبب لا يمكن ان نمر عليه دون اعتباره وتسجيله ونحن نحيى التراث ونبعثه وندرسه لنستكشف جوانب القوة فيناوالضعف .

والتكميلات بعد هذا متعلقة بالنصوص :

1 — حين تحدث الدارس عن تجاوب الشعراء مع الاحداث التى عرف المغرب قبيل الحماية (ص 24 — 25) اقتصر على نصين احدهما لابن ادريس والثانى لافيلال ، واطال فى ذكر نصوص المشارقة فى التجاوب مع تلك الاحداث ، وكان من الممكن ان يضيف اسماء شعراء مثل محمد غريط الذي قال قصيدة على اثر احتلال الجزائر مطلعها :

مالى أرى جفن أهل الغرب وسنانا   من بعد ما اخذ الرومى تلمسانا

وهى موجودة بذيل رسالة الكردودى المعنونة « كشف الغمة » المطبوعة على الحجر وفى مصادر اخرى . وفى حرب تطوان كان عليه ان يضيف اسماء بعض الشعراء مثل محمد القيسي ومحمد السلاسي والمكي بن ريسون واحمد الجندى ومحمد اسنوس ومن اليهم من الشعراء الذين أورد شعرهم صاحب « تاريخ تطوان » فى المجلد الخامس .

2 — فى الدعوة للوحدة (ص 71) ولاسيما على اثر الظهير البربري الفت نظر الصديق السولامى الى قصيدة للشاعر السوسى محمد بن عبد الله العثماني اولها :

سائلوا القوم أين ذاك اللواء   اكذا العهد بيننا والوفاء ؟

وهو يشير هنا الى مظهر من مظاهر السياسة الاستعمارية التى اقتضت في التفريق بين العرب والبربر وعزل هؤلاء عن اولئك وتجريدهم من مقوماتهم الوطنية — ان تزيل العلم المغربى من مختلف البنايات الرسمية فى اقليم سوس وتضع مكانه العلم الفرنسى . كما الفت نظره الى قصيدة الوكيلي التي مطلعها :

اى ذكرى للفكر فى جولانه   تستفز الشعور من جذلانه

وقد قالها سنة 1937 فى ذكرى الظهير .

3 — فى الدعوة الى التعليم كان على الباحث ان يشير الى نصين : احدهما لمحمد المهدى الحجوى يقول فى مطلعه :

الى متى نترك التعليم مهجورا   ونحسب العلم فى الافرنج محصورا

والثاني لعبد الكريم سكيرج يقول فى اوله :

مابال قومي لم ينهض بهم عمل   والناس كلهم بالعلم قد عملوا

وكذلك فى التعليم والدعوة للعلم تذكر القصيدة التي قدمها المرحوم محمد المدنى بن الحسنى الى تلاميذ مدرسة « والزهراء » وهى اول مدرسة حرة بالرباط ، ومطلع هذه القصيدة :

أبناء قومي اليكم ترسل الخطب   ونحوتهذيبكم تسلسل الكتب

كما تذكر قصيدته الى تلاميذ المدرسة الكتانية بالرباط ، وأولها :

بنى قومى أفيقوا من منام   وجدوا فى المعالى باهتمام

ومثلها قصيدة المكي الناصري بمناسبة اختتام الشيخ ابن الحسني جامع البخارى ، ومطلعها :

كم أنادي مستنهضا لبلادي   وارى الكل سابحا فى رقاد

وهي كلها قصائد طويلة ومليئة بالنصائح والتوجيهات .

4 — فى ص 103 عند الحديث عن ثورة الريف وتجاوب الشعراء معها قال الاخ السولامى انه لم يبق الا شىء قليل هو الذى أورده . واود هنا ان اضيف قصيدة لمحمد بن اليمنى الناصرى قالها فى حرب الريف بمناسبة عيد المولد ، مطلعها :

شهر النبي محمد قد وافى يفشى السلام ويحمل الالطافا

وعن ابن عبد الكريم يقول :

انظر لما تلقى فرنسا منه اذ قصدت بشامخ مجده استخفافا

ثم ياخذ فى استعراض المواقع التى الحق فيها هزائم بالجيوش الفرنسية والاسبانية —

5 — فى العرشيات (ص 112) اتى الدارس بنماذج قليلة ومحدودة بالنسبة لهذا النوع من الشعر الذى يعد ولا شك محور الشعر الوطني بعد 1934 ،وهي السنة التي تقرر فيها الاحتفال الرسمي بعيد العرش .والسبب ان هذا العيد كان مناسبة يتاح فيها للشعراء والكتاب ان يعربوا عن عواطفهم وافكارهم فى كثير من الحرية . ولم تكن تدور هذه الافكار وتلك العواطف الا فى نطاق النضال الوطني من اجل الحرية والاستقلال واذا كان غير ممكن ان يستعرض الباحث جميع او معظم القصائد التي قيلت فى هذه المناسبة ، فلا اقل من ذكر نماذج متعددة من اسماء اهم الشعراء الذين كانوا يبرزون فيها من امثال محمد العثمانى والحسن البونعمانى ومحمد بن المهدى العلوى وعبد السلام العلوى ومحمد المدنى الحمراوى ، يضيفهم الى من ذكر .

اما الملاحظة الرابعة فتصويب لبعض التحريفات التي اذكر منها هذه النماذج :

1 — فى ص 21 قال الزميل ابراهيم ان الجيش الذى ارسله المغرب لمساعدة الامير عبد القادر انهزم فى ايسلي سنة 1844 . والحقيقة ان انهزام الجيش المغربى فى ايسلي جاء متأخرا وكرد فعل للمساعدة التي قدم المغرب للجزائر ، حيث قامت فرنسا بحملة تأديبية للمغرب فى اسلي ثم فى طنجة والصويرة اللتين ضربتا بمدافع البحرية الفرنسية . والتاريخ يثبت ان المولى عبد الرحمن بعث فى اول سنة للاحتلال جيشا من العبيد والودايا سار فى ركاب ابن عمه علي بن سليمان الذى عقد له على اهل

تلمسان ، وكانوا قد جاءوا يقدمون البيعة ، كما بعث المغرب ، على اثر ايفاد الشريف ابى محمد عبد السلام البوعنانى الى زعماء الجزائر ، جيشا آخر مع كميات هائلة من المال والعتاد . والتاريخ يثبت كذلك ان حملة الجيش الفرنسى على ايسلى كانت مباغتة ، وكانت بعد أن تم استيلاءه على جميع بلاد الجزائر ، وبعد ان ضيق الخناق على الامير عبد القادر الذى لم يعد يستطيع التحرك الا متنقلا بين الصحراء وبنى يزناسن ووجدة والريف وما اليها من اقاليم المغرب الاقصى ، فأراد أن يحد من تحركه فلم يجد غير ضرب المغرب الذى يتيح له هذا التحرك .

2 — فى ص 177 قال انه « لا يمكن ان نغفل عن بذور للشعر الوطني ، طلعت فى الاندلس ، اثر انهيار الفردوس المفقود وهجوم النصارى ، اذ تساقطت امارات الطوائف وهلك من هلك من المسلمين ، وفر منهم الى المغرب وغير المغرب » ولى هنا اعتراضان :

الاول : ان تساقط امارات الطوائف لم يتم مع انهيار الاندلس ولم يكن سببا من اسباب هذا الانهيار ولا مظهرا له — كما يفهم من عبارة الكاتب — لان الوجود العربى الاسلامى قد تجدد فى الاندلس وتقوى بعد زوال امارات الطوائف على يد المرابطين الذين اطالوا عمر هذا الوجود بحوالي اربعة قرون .

الثاني : ان هذا الشعر الذي صدر عن الاندلسيين هو الى شعر النكبة والرثاء اقرب منه الى الشعر الوطنى لطغيان روح التحسر والانهزام والاستسلام عليه .

3 — قصيدة محمد الجزولى (ص 205) ليست من الموشح ، كما أورد صاحب اليمن الوافر الذى نقل عنه السيد السولامى بل هي من المربع ، وتسير فى كتابتها على هذا النمط :

اهلا بمولد الكريم المنتظر — اهلا بشمس الكون اهلا بالقمر

اهلا بعصر نجمك فيه قد ظهر — اهلا بليل عنك فجره قد سفر

اهلا بمولد الذى منه ابتدا — تاريخ ارشاد العوالم للهدى

من بعد ماقاد الضلال الى الردى — اما نشا التدجيل فيها وانتشر

بعد هذا ، وبعد الاشارة الى ان فى البحث اخطاء لغوية ونحوية واخرى فى كتابه الشعر لا شك انها مطبعية ، انظر فى الدليل والملاحق فتبدو لى عليه ملاحظات هذه اهمها :

1 — ارى ضرورة ادماج دليل الشعراء فى الملاحق ، اذ هو ليس فى صميم تخطيط البحث وبذلك تصبح الملاحق قسمين :
احدهما خاص بدليل الشعراء
والثاني بالنماذج الشعرية

2 — من الاخطاء الواردة فى الملاحق ما وقع فيه الزميل ابراهيم من خلط بين الاخوين محمد العربى الناصرى ومحمد (فتحا) الناصرى حين ترجم لهذا الاخير (ص 262) فنسب له تآليف صغيرة فى تأسيس وزارة العدل وفى تاريخ الفقه الاسلامي ومذهب مالك . وهي ليست له بل لاخيه محمدالعربي المتوفي سنة 1362 (1943 م) .

3 — وفى آخر المطاف الفت انتباه الصديق السولامى الى انه فى الدليل الخاص بالشعراء ، وعند ذكر المؤلفات ، لا يشير دائما ان كانت مطبوعة او مخطوطة او ضائعة . وكان ضروريا ان يفعل حتى يحتفظ للدليل بأهميته فيفيد منه الدارسون .

وبعد ، فهذه ملاحظات لم اقصد من ابدائها غير تكميل بعض جوانب النقص التي بدت لي فى بحث الاستاذ الاخ السولامي والتي لا يخلو منها اي عمل مهما كان ، لا سيما اذا كان يدور فىموضوعات مغربية ، وهي موضوعات لا يدرك صعوبة تناولها الا من جرب وكابد . ولعل فى هذا ما يشفع للصديق ابراهيم مروره على كثير من القضايا دون تعميق البحث والتحليل . ثم انه لا ينبغي ان ننسى وضع هذه الدراسة فى اطارها الحقيقي حتى لا نبالغ فى النظر السلبي اليها ، فقد قدمها صاحبها للحصول على دكتوراة الحلقة الثالثة ، وهى مجرد مرحلة للوصول الى انجاز دكتوراه الدولة . وربما كان على الزميل السولامي ان يشير الى ذلك حين ذكر فى واجهة كتابه انه « رسالة دكتوراه » ، ولو فعل لانصف نفسه ولاسكت كثيرا من الذين نصبوا نفسهم للهدم والتحطيم .

الرباط **عباس الجرارى**

من أدب الدّعوة الإسلاميّة

من ادب الدعوة الاسلامية لمؤلفه : الدكتــــور
عبـــاس الجـــراري 23 × ســـم ـ 123 صفحـــة
مطبعـــة دار الثقافـــة الـــدار البيضـــــاء 1974

يضم هذا الكتاب محاضرات ألقيت على طلاب السنة الاولى بقسم الآداب العربية فى كلية الآداب المغربية خلال العام الدراســـي 66 ـ 67 وفق المنهج المقرر للادب الاسلامي .

ومقدمة الكتاب دراسة تمهيدية تعتمد السرد التاريخي لاحوال أهل الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده ، وتحلل ظروف الدعوة الاسلاميـــة وشخصية صاحب الدعوة عليه السلام ، وتحدد بعض الجوانب النفسية والبيئية ، التي ساعدته صلى الله عليه وسلم على النجاح ، وتتعرض الى المبادىء التي ترتكز عليها تلك الدعوة .

وعند الحديث عن وضعية الشعر فى هذا العصر ، وعن موقف الاسلام منه ، ذكر المؤلف ان الرسول صلى الله عليه وسلم ذم شعر الكذب واللهو والمجون والمفاخرة العصبية ، وكرم وشجع الشعر كسلاح لنشر الدعوة ، ثم ابرز تطور بعض الفاظ الشعر ومعانيه ، دون اي تأثير عميق على الصورة القديمة للشعر العربي .

وظهور شعراء وشواعر فى المعسكرين الاسلامي والجاهلي ، اسلمه الى مقارنة بين الصور القديمة والجديدة ، محللا الاهداف الجديدة للشعر الاسلامي مستدلا بنصوص من شعر حسان بن ثابت وكعب بن زهير رضي الله عنهما .

ثم عقد فصلا خاصا بشعر الفتوح الاسلامية وصنف شعراءه الى اصناف ثلاثة :

— القدماء ويمتاز شعرهم بطول النفس ، والفخر بجماعة المسلمين ، كشعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وابي محجن الثقفي ، وأبى ذؤيب الهذلي واضرابهم .

— شعراء مغمورون اشتهروا فى الفتوح فكان ذلك مناسبة للتعريف بهم وبانتاجهم كالقعقاع بن عمرو ، والاعور العبدي وضرار بن الخطاب وغيرهم .

— شعراء لم يكن لهم حظ فى الشعر قبل الاسلام واغلبهم من رجال الجيش من الذين فاضت قرائهم ، وتحركت مشاعرهم لمواقف الحرب المهولة ، كبشر الثعلبي ، وبشر بن ربيعة ، وجندب بن عمار ، وفيهم القواد والامراء كالمثنى بن حارثة وطليحة بن خويلد ، والاحنف بن قيس ، واضرابهم .

ولشعر الفتوح فى راي المؤلف خصائص :

شكلية : وتتجلى فى شيوع بحر الرجز ، والمقطوعات القصيــرة بــدل الطويلة ، ووحدة الموضوع ـ وهو الفتــح ـ مع عزوف عــن المقدمات التقليديــة .

موضوعية : تتجلى فى أن الشعر (بطولي يمجد الشجاعة ويصور المعارك واحيانا يكون سبيلا الى الفخر بنفس الشاعر أو حبيبته او قائده او قبيلته ، اما بتصويره قوة الاعداء ومدى صمــوده لهذه القوة) أو باستخلاص حكمة من ممارسة الحروب وطول المعاناة . وتتجلى الخصائص الموضوعية فى ثلاث :

— الروح الاسلامية التي تتجلى فى (فكرة الجهــاد فى سبيــل الله والاستشهاد رغبة فى ثواب الله وفى الجنة التي وعد بها المجاهدون) وفى الايمان بأن نعيم الدنيا زائل . ويبدو هذا واضحا فى شعــر الرثاء ، ثم يستعرض المؤلف بعض النصوص ، محللا ما جد مــن الافكار والاستعمالات فى مراثي الفتوح .

— ظهور بعض المعاني الانسانيةالمبرزة للصراع بين الواجب والعاطفة.

— حنين الشاعر الى أهله وقبيلته وتضايقه من الغربة .

وفى فصل قصير يتحدث المؤلف عن النثر بين الجاهلية والاسلام مشيرا الى فقدان النصوص فى العصر الجاهلي ، لكون النثر أصعب فى الحفظ والرواية أ ولكون الكتابة لم تكن منتشره . ويعدد أنواع النثــر الجاهلي من قصص ، وأمثال ، وحكم ، ووصايا ، وسجع كهان ، ورسائل وعهود ، وخطابة . متعرضا لآراء الباحثين فيها من المحدثين كالمرحوم طه حسين والاستاذ شوقي ضيف .

ثم يذكر أن المسلمين وجدوا فى النثر متنفسا فازدهــرت بعــض الوانه ، واضمحل سجع الكهان أمام سحر بيان القرآن الكريــم ، وقوة حديث رسول الله ، كما ازدهرت الخطابة . وكيف لا وهي الاداة الفعالة لنشــر الدعــوة .

وعن فن الترسل ذكر المؤلف انه يعتمد التقسيم الزمني لأنيس المقدسي . الذاهب الى ما ذهب اليه المستشرق الالماني سبيربر SPERBER

— فترة الهجرة الى غزوة الخندق في السنة الخامسة ورسائل هذه الفترة سياسية تتسم بالايجاز .

— فترة ما بين السنة الخامسة وفتح مكة في السنة الثامنة ، فغزوة تبوك ، ورسائلها تدعو القبائل الى اعتناق الاسلام .

— ما بعد تلك الفترة . وأهم ما تمتاز به الرسائل في الفترتين الاخيرتين ، الايجاز والبساطة ، والخلو من التكلف والصنعة .

ثم ختم الكتاب بدارسة تحليلية للنثر الفني في القرآن معززة بآراء البحاث المحدثين من عرب ومستشرقين .

وفي الفصل الاخير عمد الى الحديث عن فن الخطابة في الجاهلية والاسلام مثبتا المميزات والخصائص لكل من العصرين .

ومجمل القول فان ادب الدعوة الاسلامية كتاب يمتاز بالدقة والتركيز والشمول ويثير كثيرا من التساؤلات الي يمكن أن تكون موضوعا لدراسات مستفيضة .

وقد اتبع مؤلفه طريقة قوامها المنهجية والتسلسل في العرض والتحليل . والرجوع اليه يفيد الدارسين وهم على درب ثقافتهم الادبية .

ويظهر أن الكتاب بداية لسلسلة من الكتب التي تستقطب محاضرات الدكتور عباس الجراري وقد طبعت اخيرا محاضراته في الشعر السياسي ولا اخالها الا جيدة مفيدة .

الرباط حبيبة البورقادية

الحياة الفكرية على عهد الدولة المرينية

للدكتور محمد ابن شقرون 650 ص ٠ 23 x 15 سم
مطبعة جامعة محمد الخامس ٠ فاس ٠ رمضان 1394
اكتوبر 1974 ، باللغـــة الفرنسيـــة ٠

الكتاب عبارة عن أطروحة تقدم بها المؤلف لجامعة السربون بفرنسا، فأحرز بها على دكتوراة الدولة بدرجة الشرف العليا . ويسرنا أن نقدم لقراء « المناهل » عرضا موجزا عن هذه الدراسة الجامعية لأخذ فكـــرة عامة عنها . على أن ننشر فى فرصة مقبلة بحول الله ، عرضا مفصـــلا وتحليليا ، اتماما للفائدة وتعميما لها .

تستغرق الفترة التاريخية التي اهتم المؤلف بابراز جوانبها الثقافية والفكرية ما يقرب من اربعة قرون (من السابع الهجري الى العاشر هـ) وهي حقبة طويلة تميزت بتطورات كثيرة ومتنوعة ، وعرفـــت تقلبـــات خطيرة من الناحية السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، كان لها أثر

كبير في حياة المغرب الفكرية ، التي انطبعت منذ ذلك العهد بطابع لا تخفى معالمه على كثير ممن درسوا تاريخ هذه البلاد ، وربطوا ماضيها بحاضرها . فالمغرب في عهد بني مرين وبني وطاس ، كان كما هو معلوم على صلة كبيرة بالاندلس والجزائر وتونس ، كما كانت له علاقات مع افريقيا السوداء ، واسبانيا المسيحية ، في هذا الاطار الواسع والمتنوع والمتقلب والمتناقض في آن واحد ، عملت الدولة المرينية والوطاسية ، وبذلت من الجهود ما هو معروف في تاريخها .

على ان المؤلف ، وهو مؤرخ الحركة الثقافية ، لم ينسق وراء هذه التيارات لعرضها وتحليلها ، فاكتفى طبقا للحدود التي رسمها لبحثه ، باقتناء وابراز اهم الاحداث التي كان لها أثر مباشر في تطوير الحركة الفكرية ، في ازدهارها أو في ضعفها ، فربط الاسباب بالمسببات وعلل الظواهر الثقافية بارجاعها الى مصادرها الاصلية ، وفسرها في كثير من الاحيان تفسيرا اجتماعيا ونفسيا .

استهل المؤلف بحثه بمقدمة طويلة ، قام فيها بدارسة تحليلية ونقدية لاهم المصادر التي اعتمدها (مخطوطة أو مطبوعة في المغرب وخارج المغرب) ، فأعطى فكرة كافية عن المنهج الذي اتبعه والمشاكل التي اعترضت سبيله ، والوسائل التي اتخذها كحل لهذه المشاكل ، وبذلك مهد الطريق لمن يريد المزيد من الاطلاع أو التوسع في مواضيع معينة مستقلة . ففي هذا الفصل يجد القارىء اشارات وتلميحات وتعليقات ، بالاضافة الى التحليل والنقد اللذين تتسم به هذه الدراسة المخصصة للمصادر .

بعد هذا المدخل ، ينتقل المؤلف الى باب يعد من ابواب الكتاب الرئيسية ، فيه تحليل للعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية والتربوية الخ ... التي كانت وراء الحركة الفكرية المغربية في هذا العصر ، والتي تضافرت وتكاملت أو تناقضت في بعض الاحيان ، لانشاء تيار فكري وثقافي من نوع خاص ، فتصدى لهذه العوامل بالدرس فابرز كل عامل على حدة من اطاره ، ليظهره على حقيقته وبقوته وبتأثيره .

فالظاهرة الاجتماعية قد تكون مبسطة ، وقد تكون مركـــزة ومعقـــدة ، تتضمن عناصر سلبية واخرى ايجابية ، تكون مصادر خير وشر فى نفس الوقت ، قد تضر بالسياسة ، مثلا من جانب معين ، كما قد تكون دافعة بالنسبة لجوانب اخرى تعليمية أو تربوية أو اجتماعية ، قد تستفيـــد الثقافة أو غيرها من ظروف تعتبر شاذة ، والعكس بالعكس .

المهم أن المؤلف حرص فى هذا الباب على أن يقدم لقرائه الجوانب الظاهرة والخفية ، البسيطة والمعقدة ، التي ساعدت على تنشيـــط الحركة العلمية والتربوية والثقافية بوجه عام . وهكذا على سبيل المثال بدأ بابراز اهمية بني مرين كعنصر سياسي ثم كعنصر ثقافـــي ، فدرس سلوكهم من هذه النواحي ، ليستخلص منها الآثار التي عادت على الثقافة المغربية بفوائد كثيرة ، كتحبيس الكتب ، وانشاء المدارس ، وتنظيـــم الدروس والندوات والمحاضرات ، والعناية بكراســـي الاساتـــذة ، واستقدام العلماء من دول المشرق والمغرب ، وتنظيمهم داخل البلاط الرسمي والبلاط المتنقل ، واقامة علاقة دبلوماسية مع دول مختلفة الخ . .

اهتم المؤلف بهذه العناصر وغيرها ، فجمع المعروف منها وغير المعروف ، فناقش وحلل ، وأتى بحجج مستمدة من وثائق نادرة فى حاجة الى النشر والتحقيق .

أما الباب الرئيسي ، الذي يشكل حجر الزاوية من الكتاب فهـــو الفصل الذي خصصه المؤلف لدراسة عدد كبير من الشخصيات الثقافية المغربية التي عاشت فى عصر بني مرين وبني وطاس ، حيث نجد فيـــه اثر تلك الشخصيات مبوبة ومرتبة ترتيبا خاصا ، حاول المؤلف استقصاء الدراسات التي انجزت حول هذه الشخصيات الثقافية ، فقدمها وناقشها قبل أن يدلي برايه فيها حسب المعلومات الجديدة التي توفرت لديه عنها، كما حاول استقصاء مؤلفاتها المخطوطة والمطبوعة والمفقودة ، فقدم عرضا عنها ، بين فيه قيمتها ملخصا محللا مقارنا مناقشا مبينا بالارقام والصور والدرس اهمية كل كتاب ، استحق فى نظره الوصف والتحليل والنشر ،

نظرا لقيمته او ندرته أو ضياعه ، فجمع من ذلك ثروة جديرة بالتعريف والتحقيق .

أما المنهج الذي سلكه الدكتور محمد ابن شقرون في هذه الدراسة الخاصة بأدبائنا وعلمائنا وشعرائنا في عصر بني مرين وبني وطاس ، فهو منهج تطوري تدريجي يبتدىء بابتداء الدولة المرينية ، وينتهي بانتهاء الدولة الوطاسية . والسبب في ذلك راجع الى الرغبة في اعطاء فكره تدريجية عن التطور الثقافي المغربي في هذا العصر . والدارس لهذه الظاهرة يستطيع التدرج بدون مفاجأة أو خلط أو تقصير مشوه للبحث .

نجد في هذا الباب الطويل على سبيل المثال : ابن المناصف ، وابن اصبغ ، وابو الحسن الصغير ، والقباب ، والشطيبي ، والهبطي ، والتجيني ، وابن الاحمر ، وابن رشيد السبتي ، وابن السكاك ، والخراز ، وابن جري ، وابن داود السلوي ، وابن الرفاء ، وابن الزهراء ، وأبو مفرع ، والفار ، وابن المرحل ، وابن ميمون ، والكراسي ، وابن الزيات ، والاصمعي ، وابن رضوان ، وابن الحكيم ، وابن طلحة الرجراجي ، وابن عاشر ، وابن خلدون ، وابن الخطيب ، وزروق ، وابن غازي ، وابن البناء، والونشريسي ، والغزواني ، واليصلوتي ، وابن عسكر ، وابن الدراج ، والسجلماسي ، والمجاصي ، وغيرهم . هذه أسماء وردت في الكتاب ، بدون ترتيب ، لأعطاء فكرة وجيزة عن اهميتها ، وللاشارة الى الانتاج العلمي والادبي والفني الذي تركته الشخصيات المدروسة .

ثم بعد هذا ، ننتقل الى باب آخر ، يعتبر تتويجا للبحث ، ونتيجة للتحليل الذي قام به المؤلف منذ البداية ، وهو خاص بالمميزات العامة التي طبعت الحياة العقلية المغربية في هذه الحقبة الطويلة في تاريخها .

فالى جانب العلاقات الثقافية بين المغرب والدول الاخرى ، التي كانت ترتبط به في ميادين مختلفة ، نجد العلوم ، والفنون ، من فقه ، وادب ، ونثر ، وشعر ، وتصوف ، وتاريخ ، ولغة ، ونحو ، وفلاحة ، وفلك ، ورحلة ، وترجمة ، وفهرسة ، وفلسفة ، وتربية الخ .. استقل كل منها بدراسة خاصة ، تستهدف ابراز المظاهر وبيان التطور ، وتعليل الازدهار أو الفتور ، كما تتعرض للآثار الناتجة عن هذا التطور ، بالنسبة لعصور أخرى أتت من بعد .



شكر وتقدير

يطيب لهيئة تحرير « المناهل » ويسعدها ، ان توجه عميق شكرها لكافة الشخصيات التي اعربت لها عن عواطفها الحارة المشفوعة بتقديرها وارتياحها لصدور هذه المجلة ، منوهة باخراجها ، ومضمون محتوياتها .

فمن مختلف المنظمات الثقافية ، ومن عديد حملة الاقلام داخل المغرب وخارجه ، سعت الينا رسائل اطراء بهذا العمل الثقافي الذي اضطلعت به وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في عهدها الجديد ، آملة لها الانتشار ، والمصير الطيب الزاخر ، وبعد الصدى .

وهذا الترحاب الذي لقيه العدد الاول من « المناهل » ، من جانب جمهرة القراء ، والصحافة الوطنية ، واجهزة الاعلام المغربية ، من شانه

ان يطوقنا بمسؤولية ادبية ، تدعونا بالحاح الى مضاعفة الجهد ، حتـــى نكون في مستوى تلك المشاعر الطيبة النبيلة .

وبصدور هذا العدد ، اكتشفنا ان ميداننا الثقافي ، كان في امس الحاجة الى تعزيزه بمجلة ، باستطاعتها ان تستقطب رجال الفكر حولها ، وتدفع بهم الى مواصلة العمل الفكري بثبات ، ونبل طموح ، وشهامـــة هدف ورسالة ، وتعبر في نفس الوقت ، عن الراي الفكري في بلادنا ، باجلى مظاهره . ونستطيع ان نسجل باعتزاز ، من خلال صدور «المناهل» ان ميداننا الفكري بخير ، لا يعوزه ـ في نظرنا ـ الا تشجيع كفاياته ، واستنهاضهـــا .

وكدليل على ما المعنا اليه ، نذكر ان ملف « المناهـــل » ، ضاق بالعديد الوافر من الانتاجات الجادة المرموقة ، التي توصلنا بها من صفوة كتابنا وشعرائنا ، وحتى من اولئك الذين احجموا عن العطاء مدة غيـــر يسيرة ، كما اننا لم نستطع تلبية جميع الطلبات التي انهالت علينا مـــن مختلف المكتبات المغربية ، وكلها ترغب في المزيد من نسخ « المناهل » بعد مدة وجيزة من صدورها ، مما دفعنا الى مضاعفة طبعة هذا العدد .

ونحن اذ نعتز بهذا الترحاب ، ونقدر تلك العواطف الكريمة ، نؤكد للجميع ـ كتابا وقراء ـ اننا سنعمل على مواصلة الجهد والبذل في سبيل هذه الرسالة الثقافية ، والدفع بها الى الاحسن والامثـــل بحول الله ، بمساعدة كتابها . والله الموفق .

المغرب يحتفل بالذكرى الألفية لولادة الشاعر القرطبي أبو الوليد ابن زيدون 394-1394

قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تنظيم مهرجـــان ادبي كبير ، في عاصمة المملكة المغربية ، خلال هذه السنة ـ تخليـــدا

للذكرى الالفية لولادة هذا الشاعر العظيم ـ ستشارك فيه نخبة ممتازة من الباحثين المهتمين بالدراسات الاندلسية من جميع البلدان العربية ، بمعية عدد من المستشرقين المختصين فى هذا الموضوع ، كما ستشارك فيه صفوة من الشعراء والصحفيين العرب الذين يمثلون الوطن العربي .

وفى هذا الموضوع ، وجه السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، الاديب الكبير المبدع ، الاستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيني، رسالتين : الاولى لاعلام الباحثين والدارسين العرب ، والمستشرقين ، والثانية خاصة بصفوة من بحاثنا المغاربة المختصين فى الدراسات الاندلسية ، يدعوهم فيها للمشاركة فى هذا الاحتفال .

ولطرافة الرسالتين ، وروعتهما الادبية الشعرية ، واستيعابهما لعناصر هذا الحدث الادبي ، ابداعا ، واشراقا ، وندرة ترسل ، احببنا نشرهما فيما يلي :

الرسالة الأولى

ينصرم بانصرام السنة الحالية ، الف عام على ازدياد الشاعر القرطبي الكبير ابي الوليد احمد ابن زيدون . وسيادتكم من اوسع الناس علما بان هذا الشاعر يتبوأ من ادبنا العربي مكانا لامعا مشرقا ، ويتسنم بشعر اوحته العواطف الانسانية التي لا تخلق ولا تبلى ، وان تطاول عليها الامد ، وبنثر باق ما بقي للآداب العربية اثر ماثور ، ذروة البيان وقمة المجد ، بين من اسلست لهم الكلمة الحافلة الرائعة قيادها ، وادرت لهم اخلاف الفكر والاحساس اساكيبها وعهادها .

وقد رأت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، ان تعير هذا الحدث ما هو خليق به من اهتمام ، وتحتفل بهذه الذكرى في عاصمة

المملكة المغربية ، التي تصلها بالفردوس المفقود صلات قرب وقرابـــة وثيقة ، وتوشج بينها وبين تلك المغاني ـ التي تالقت في عرصاتها ، حضارة طبعها سلطان المسلمين بأرض الاندلس بطابع التفرد والامتياز ـ اواصر اخذ وعطاء محكمة ، وروابط تداخل وامتزاج محصدة متينة .

وان من ادعى الاسباب الى المسرة والابتهاج ، ان تلاقت في صعيد واحد الارادات والرغائب العربية في مشارق بلاد العروبة،ومغاربهـــا ، وتآزرت جهود ابنائها المتصلة ، باحثة منقبة ، ودارسة محققة ناشرة ، وساعية دائبة حريصة على استجلاء ما اجنه الحدثان من ملامح تلـــك الحضارة ، وتقاسيم محياها الوسيم .

فوافى الحظ مسعفا بالكثير من الدراسات الادبية التي توخـــت التعريف ، وقصدت الى التنويه بما كان لبناة الحضارة الاندلسية مـــن فضل ، وما كان لمثقفيها ـ علمائها وكتابها وشعرائها من باع طويـــل ، وقدر جليـــل .

بيد ان العرب ، لم يختصوا بمزية هذا العمل الرامي الى الكشـــف والوصف ، وابراز المعالم والقاء الاضواء على ما اختبا وانطوى ، ولـــم ينفردوا بتقريب الشقة وتيسير طرق المعرفة ، فقد سبقهم الى التصنيف او واكبهم في الاشادة والتعريف ، طائفة من المستشرقين آثروا العلم بالاخلاص ، والحقيقة بالولاء والتفضيل . وما اكثر ما استعانت الدراسة العربية على اختلاف ما اتجهـــت نحوه من قصـــد ، بما فتحـــه هؤلاء المستشرقون من ابواب ، واشرعوه من آفاق .

ومن اجل هذا كله ، يجيش في نفسي الامـــل ان يشتـــرك ـ في الاحتفال بذكرى تجرم الف عام على ازدياد شاعر الاندلس الاخاذ ـ اعلام الباحثين والدارسين من مختلف الاقطار العربية ، والمستشرقون الذين وقفوا ردحا من حياتهم ، وحظا جزيلا من عنايتهم ، سعيا وراء رفع جانب من الاستار والسجوف المنسدلة على ذخائر من الفكر واعلاق من الشعور.

وقد عرفتكم دارسا باحثا نقابا ، واتصلت بما خرجتم به على الناس من مصنفات ومؤلفات ، كشفت النقاب عن سر مكنون ، من اسرار التراث الاندلسي ، واسدت الى الحضارة الاسلامية اليد والصنيع ، فاستقر في نفسي اليقين ، بانكم سترحبون بالتماس المشاركة والاسهام ، وتسارعون الى تلبية هذا النداء ، الذي اوجهه اليكم مطمئنا الى مصيره ، مستريحا الى الماثور عنكم من كلف وولوع بتكريم الاعلام النبهاء ، وتخليد مجد العباقرة من الكتاب والشعراء .

مد الله في توفيقكم ، ولا حرمنا من طلعتكم وابداعكم .

الرسالة الثانية

كتب الله لشاعر الاندلس العظيم ، ابي الوليد احمد ابن زيدون ، ان يساير عصورا مديدة تلاحقت عقودها ، ويعايش اجيالا عديدة تداركت عهودها ، ويظل ادبه وقد جاب المسالك والممالك ، وجاس خلال الامصار والاقطار ، مدى احقاب واحقاب ، طري العود ، غض الشباب ، بهي الطلعة ، وسيما قسيما ثريا زكيا ، وان تباعدت فصول التاريخ وتباينت اصناف الناس ، وتفارقت الميول والاهواء ، وتطارحت الملكات والاذواق.

عبر علم قرطبة واديبها الفذ الذي ملأ بشعره ونثره الاكوان ، وعمر الازمان ، كل هاتيك الاحقاب فوافانا منذ ايام على ميعاد ألف عام ، حفل مسرى الشاعر في اثنائها من الهائمين بأدبه ببليغ الاهتمام ، وجليل الاقبال ، ووثيق الاتصال ، وكريم العشرة والمصاحبة ، وجميل الود والاكبار ومكين الصبابة ، التي يستهويها سبر الاغوار ، ويغريها الاستشفاف بالمجهول ، من الاخبار والدخائل والاسرار .

فرحبت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بهذه الوفادة خير ترحيب ، ورأت ان تقابل الركب الميمون ، والمقدم السعيد ، بما يليق بعظمة الوافد ، من سنى التكريم ، وفاخر التمجيد .

وهكذا ، عقدت النية على تخليد الذكرى الالفيـــة لازديـــاد ذي الوزارتين ، الشاعر المدنف العميد ، فى عاصمة المملكة المغربية ، حيث يتأرج عبير الفردوس المفقود ، وتتألق معالم حضارة ، ترافد المغرب والاندلس على ابداعها ، وتآزرا بغية ازهارها واشعاعها ، فخاطبت طائفة من العلماء والباحثين المشارقة والمستشرقين ، واهابت بهم أن يشاركوا فى الاحتفال ، ويسهموا بمناسبة حلول الذكرى ، وتخليد المغرب لجلالها وجمالها ، بما افاء الله عليهم من علم ، وامدهم به من بيان ، واضفاه على عقولهم من حصافة ، ويسر لبصائرهم من أسباب النفاذ الى المستطرف من اطوار حياة الشاعر العبقري .

وما كان لادباء المغرب وعلمائه ، وباحثيه أن يتخلفوا عن اخوانهم المشارقة ، وعن الاجانب من المستشرقين ، ويتركوا لهؤلاء وحدهم مجال الدرس والتنقيب ، والاستكشاف والاستجلاء ، وهم لهم نظراء واكفاء ، وللشاعر القرطبي الكبير أنسباء وأقرباء .

ولذا ، فان الامل الواسع معقود بعلمكم ، ومنوط بما أوتيتـــم من موهبة البحث الدقيق ، ومزية الدرس العميق .

ولي ثابت اليقين ومكينه ، بأنكم ستهبون للمشاركة فى الاحتفـــال بالذكرى الألفية ، لشاعر الانفة والشمم ، واللوعة والالم ، والرصـــف والوصف ، بما يؤمن لكتاب المغرب ومفكريه ، الصيت الذائع ، والذكر الجميل ، ويدر عليهم فى محفل هذا اللقاء ، وفى غيره من المحافل ، بالغ التقدير ، وصادق الاعجاب .

مد الله فى توفيقكم ، وعصب النجاح بجهودكم ، وابقاكم علما من أعلام التصنيف والتثقيف .

بلاغات في الموضوع

وقد أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافة ، بلاغات واعلانات فى هذا الموضوع ، نثبت أهمها :

يسر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، ان تزف الى الجمهور المغربي الكريم أنه من ضمن المشاريع التي تعتزم الوزارة تحقيقها فى بحر السنة المقبلة اقامة مهرجان للشاعر الاندلسي الذائع الصيت ابن زيدون القرطبي المولود سنة 394 هـ .

وسيشارك فى المهرجان جمهرة من المختصين فى الدراسات الاندلسيه من عرب ومستشرقين .

والمهرجان مناسبة لكشف جوانب حية من حياة الشاعر ، خصوصا الجوانب النفسية غير المدروسة فى ادبه .

فانتاج ابن زيدون ، يتوفر على جوانب انسانية خالدة ، اثرت الادب العربي ، وشهد له فيها القدماء والمحدثون بالجدة والطراوة .

فقد جمع الشاعر المذكور ، بين امارة السيف والقلم ، وكان فى مقدمة الشعراء بما حفظ من فنون اللغة ، وما وعى من اخبار الادباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة والعلم .

ولابن زيدون صلة بالمغرب ، فقد كان له ابن يكنى أبا بكر تقلد الوزارة بعد أبيه أيام المعتمد بن عباد ، وتولى سفارة الاستنجاد ، بيوسف ابن تاشفين حينما تنمر (الاذفونش) الاسباني لملوك الطوائف وخاصة بني عباد .

وسيكون المهرجان فرصة للاشادة بابن زيدون ، من طرف الشعراء المغاربة وغيرهم من خيرة شعراء الوطن العربي .

بلاغ عن اللجنة الوطنية للاحتفال بابن زيدون

فى نطاق الاعداد لمهرجان ابن زيدون اجتمعت اللجنة الوطنية الموسعة بمقر الوزارة تحت رئاسة السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية .

وقد تدارست اللجنة جميع التدابير المزمع اتخاذها ، والتي من شأنها ان تضفي على المهرجان ما تتطلبه شخصية ادبية ظلت ملء السمع والبصر ، وشهد لها القدماء والمحدثون بالاصالة والتجديد ، واثرت الآداب الانسانية على مر الزمن .

ومن جملة القرارات المصادق عليها من طرف اللجنة المذكورة :

— تحديد قائمة للشخصيات التي ستستدعى لحضور المهرجان من عرب ومستشرقين مختصين .
— اصدار طابع بريدي للشاعر .
— اصدار عدد من مجلة « المناهل » خاص بالمهرجان .
— تنظيم معرض لآثار ابن زيدون وللدراسات والابحاث المؤلفة فيه .
— رصد جوائز للفائزين فى المباريات .
— عرض مسرحي « من انتاج مغربي » عن حياة ابن زيدون .
— تكوين لجنة لمباشرة تحقيق جديد لديوانه .

إعلان عن مباراة

في نطاق الاستعداد لاحياء الذكرى الالفية للشاعر ابن زيـــدون ، وتبعا لما سبق أن اعلنت عنه وزارة الثقافة ، يهيب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية للفنانين التشكيليين ، مغاربة وغيرهم من ابناء الوطن العربي ، أن يتخيلوا صورا تعبر عن شخصية الشاعر ابن زيـــدون وولادة بنت المستكفي ، وملامحهما او تترجم جانبا لحياتهما النفسيـــة والعاطفية ، بعد دراسة عميقة لحياة الشاعرين واوصافهما من خلال الكتب والمرويـــات .

وقد رصدت الوزارة لذلك ثلاث جوائز قيمة ، قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهم ، فعلى الراغبين في المساهمة الالتزام بما يلي :

— ان لا يكون طول اللوحة بالنسبة للرسامين بين خمسين الى خمسة وستين سنتيما (50 الى 65 سم) .

— ان لا يكون الانتاج موقعا ، رسما كان او نحتا او نقشا .

— ان يرفق برسالة بها بيانات توضيحية عن الانتاج ، ومذيلة باســـم المنتج وعنوانه .

وآخر اجل للقبول ، نهاية مارس المقبل بحول الله . ويبعث الانتاج أو يسلم الى مصلحة التنشيط الثقافي بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية : شارع غاندي . الرباط .

معرض الكتاب العربي

امتدادا للمسيرة التاريخية التي تربط الامة العربية ، وتمتينـــا لاواصر القربى النابعة من التلاحم الروحي المتجلى فى كل مناسبـــة ، وتطلعا للآفاق المشرقة التي تصبو اليها الشعوب العربية ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بتعاون مع سفارات الدول العربيـــة الشقيقة معرضا للكتاب العربي ، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة العربـــي السابع فى عاصمة المملكة المغربية .

ضم المعرض حصيلة قيمة فى شتى مجالات المعرفة الانسانية التي نبغ فيها عباقرة عرب ، القدماء منهم والمحدثون .

وهكذا نظم هذا المعرض على شكل اروقة ، كل رواق خاص ببلاد عربية ، اشتمل على أحدث منتوجاتها الفكرية . قام بتدشينه السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، فى حفل ثقافي حافل ، حضره بعض سفراء الدول العربية ، الى جانب جمهرة من المؤلفيـــن والمثقفيـــن والصحفييـــن .

نتيجة "جائزة المغرب" لسنة 1974

نص البلاغ الذي اصدرته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بعد انتهاء اعمال لجنة التحكيم لهذه الجائزة :

فى الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة 28 ذي القعدة 1394 الموافق 16 دجنبر 1974 ، استقبل السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون

الثقافة بمكتبه اعضاء اللجنة العامة لجائـــزة المغـــرب لسنـــة 1974 المؤلفة من خمسة وعشرين عضوا من كبار الاساتذة المختصين الذين درسوا الكتب المرشحة لنيل الجائزة ، دراسة انعام واستيعـــاب ، فى نطاق النصوص التشريعية الصادرة فى هذا الصدد ، وبعد ان رحـــب السيد الوزير بهم ، ونوه بكفاياتهم ، وشكر تفضلهم بالاضطلاع بمهمـــة الفحص والتقويم ، اعرب عن يقينه بان جائزة المغرب باصنافها الثلاثة ستمنح ـ لا محالة ـ لمستحقيها لما يتوفر لاعضاء اللجنة من مزايا المعرفة الواسعة ، والاضطلاع الكبير ، والتجرد ، والاخلاص .

وعقب هذا الاستقبال ، تفرعت لجنة التحكيم العامة الى ثلاث لجن :

1) لجنة العلوم الانسانية والاجتماعية .

2) لجنة العلـــوم والرياضيـــات .

3) لجنـــة الآداب والفنـــون .

واختلت كل لجنة من هذه اللجن في قاعة خاصة . وبعد مناقشات ومداولات دامت حتى منتصف الليل ، استقر الرأي على منح :

جائزة العلوم الانسانية والاجتماعية :

للسيد عبد الوهاب ابن منصور ، تقديرا لكتابه « الحسن الثاني ـ حياته ، وجهاده ، ومنجزاته » .

جائزة الآداب والفنـــون :

للسيد عبد الكريم غلاب ، تقديرا لروايته « المعلم علي » .

وعلى الاحتفاظ بجائزة الفيزياء ، والكيمياء ، والعلوم الرياضية .

وتامل الوزارة ، ان يقدم اليها فى العام المقبل ، انتاج فى مستوى الجائزة ، ويسعدها من جهة اخرى ، ان تشيد بالجو العلمي الرفيع الذي

ساد المداولات ، والمناقشات ، مجددة شكرها لاعضاء اللجنة العامـــة المحترمين . والسلام .

الأسبوع الثقافي المغربي بالاتحاد السوفييتي

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، اسبوعا ثقافيا وطنيا بالاتحاد السوفياتي ، في الفترة ما بين 14 و 26 نونبر الماضي .

وقد تضمن هذا الاسبوع عدة حفلات ومهرجانات نذكر منها على الخصوص :

1) معروضات للمخطوطات القيمة والازياء الوطنية ونماذج مـــن قطاع الصناعة التقليدية .

2) عرض ثلاثة أفلام وثائقية عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلادنــــا .

3) احياء حفلات موسيقية في مدن : موسكـــو ، وبالطـــا ، وسنفربول ، وسبستبول ، وكييـــف .

4) القاء محاضرة عن تقدم الفن المسرحي في المغرب .

وكانت برامج الاسبوع ومتنوعاته الحافلة فرصة للتعرف على ما يزخر به ماضي المغرب وحاضره من تراث تليد ، وما تتميز بـــه الحضارة في بلادنا من أصالة وعراقة ، استمدت عمقها من عبقرية الامة المغربيـــة ، التي ساهمت عبر القرون والحقب في اغناء الفكر البشـــري وتطويـــر انتاجـــه .

وقد ألقيت في هذه المناسبة عروض ، وكلمات ، ومحاضرات ، وعقدت ندوات في سبيل التعريف بمظاهر حياتنا الفكرية والحضارية والتاريخية ماضيا وحاضرا .

سجل هذا الاسبوع نجاحا منقطع النظير ، ونوهت به أجهزة الاعلام السوفييتية تنويها كبيرا ، وترك صدى طيبا في نفوس جميع الذين عاشوه .

الأسبوع الثقافي المغربي بالسينغال

كما نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافة ، اسبوعا ثقافيا مغربيا آخر في السينغال ، من 5 دجنبر 1974 الى 11 منه .

وقد هدفت الوزارة من تنظيم هذا المهرجان الثقافي ، الى اعطاء صورة عن بعض مظاهر الحضارة المغربية ، ومدى تطورها في بلادنا في مختلف المجالات الثقافية ، والفنية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وسواها ، عن طريق المحاضرات ، والمعارض المختلفة ، والعروض السينمائية ، والفولكلورية ، والموسيقية .

كما تميز هذا الاسبوع بتقديم نماذج وصور عن مبانينا التاريخية ، وقطع من متاحفنا الاثرية ، وصناعتنا التقليدية ، وبعض وثائقنا ، ومخطوطاتنا ، كلها تركت صدى ترحاب واستحسان في نفوس السينغاليين .

افتتح هذا الاسبوع ، فخامة الرئيس السينغالي سنغور ، ومعالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية السيد الحاج امحمد ابا حنيني .

وبالمناسبة ، وشح الرئيس السينغالي ، صدر وزيرنا فى الثقافة ، بالحمالة الوطنية الكبرى للأسد ، معبرا عن اغتباطه وسروره ، ذاكـــرا بانها منحت عن جدارة واستحقاق لـ « رجل الفكر والثقافة » ، مشيدا فى نفس الوقت بالعلاقات المتينة التي تربط المغـــرب بالسينغـــال ، والعلاقات الاخوية التي تجمع بينه ، وبين صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني ، ومرحبا باقامة هذا المهرجان الحافل فى بلاده .

إجتماع حول تخطيط العمل الثقافي

عقدت لجنة تخطيط العمل الثقافي وتنظيم أجهزته فى الوطـــن العربي اجتماعاتها ، بدعوة من المنظمة العربية للثقافة والعلوم فى مقر المنظمة بالقاهرة من 11 الى 14 نونبر 1974 ، وضمت اللجنة خبراء فى الثقافة من مختلف البلاد العربية ، كما ضمت وفودا من معظم الوزارات المعنية بالثقافة . وقد أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، الاستاذة السيدة حبيبة البورقادية ، رئيسة قسم التنشيط الثقافـــي بالوزارة المذكورة ، لحضور هذا الاجتماع ، الذي تركزت أعماله فى كل ما له مساس بالثقافة داخل الوطن العربي وخارجه . واصـــدر عـــدة توصيات قيمة ، فى صالح الثقافة العربية .

جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات لسنة 1974

فى اطار التعريف بالترات التاريخي والحضاري بالمغرب ، وجريا على العادة المالوفة التي سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى تنظيم جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق ، يسرها ان تعلـــن

للجمهور المغربي الكريم فى هذه السنة عن الجائزة السابعة للمخطوطات والوثائق التي خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب اهمية المخطوط او الوثيقة التي توجد فى الملكية الخاصة .

ومن المعلوم ان جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة ، كان مكتوبا على الورق ، أو الرق ، او الالواح . ولهذا ، فان الجوائز ستخصص لما يلي :

اولا : للأهم من الكتب المخطوطة : مؤلفات ، وتقاييد ، وكناشات علمية ، ومذكرات شخصية ، ومجموعات موسيقية ، وكل ما هو مخطوط، ولو على ورقة او ورقات معدودة .

ثانيا : للوثائق ايا كان عصرها وموضوعها ، ظهائر ، ورسائل رسمية أو شخصية ، ورسوم عدلية ، ومحاسبات ، واجازات علمية ، وشهادات الانساب وغير ذلك .

هذا ، وستشرف لجنة برئاسة معالي السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حول نتائج الجائزة .

وتؤكد الوزارة انها اتخذت كل الاحتياطات لضمان ارجاع المخطوطات الى اصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تأخير ، فور انتهاء المعرض واشغال اللجنة المختصة .

والجدير بالذكر ، ان قيمة المخطوط أو الوثيقة ، انما تتجلى فى مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وان ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات ، تعد خسارة فى ثروتها الفكرية . لهذه الاعتبارات كلها ، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ فى المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعتريها من ضياع ، كما أن تصويرها لا يمكن ان يصيب المخطوط او الوثيقة باي ضرر ، ولا يفقد ايا منهما ما له من قيمة ، كمستند خطي .

ورغبة من الوزارة فى الحصول على مخطوطات ووثائق جديدة ، تؤكد للسادة المساهمين فى هذه الجائزة ، ان المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقديمها لن تقبل فى المسابقة الحالية .

فعلى من يتوفر على شيء من هذه الذخائر ، ان يتقدم بها من الان وحتى عشرين فبراير 1975 الى المراكز المعلن عنها .

جائزة للدراسات والابحاث الخاصة بأقاليمنا الصحراوية والشمالية والجزر المحتلة من بلادنا

تعلن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، انها قررت احداث جائزة للدراسات والأبحاث الخاصة بأقاليمنا الصحراوية والشمالية والجزر المحتلة من بلادنا . والمطلوب منها ان تبرز شخصية هذه المناطق واصالتها المغربية : تاريخيا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، وسلاليا فى الماضي والحاضر .

ووزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، اذ تعلن عن هذه الجائزة الوطنية ، تهيب بجميع المواطنين ، ان يتقدموا بهذه الدراسات والأبحاث الى المراكز المعلن عنها ، اسهاما منهم فى هذا العمل القومي النبيل .

وسيقفل باب الترشيح فى مساء يوم 28 فبراير الحالى

معرض التطريز المغربي

توالي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، اقامة معارض موسمية ، ببهو الوزارة ، تهدف الى ابراز الآثار الفنية المغربية البديعة

التي تزخر بها بلادنا عبر التاريخ ، والتعريف بها عن طريق عرض نمادج منها . فبعد المعرضين اللذين اقامتهما عن « الخـــزف المغربـــي » و « الآلات الموسيقية المغربية » ، نظمت مؤخرا معرضا رائعا أخـــاذا ، عرضت فيه نماذج من التطريز المغربي قديما وحديثا .

المؤتمر السابع للآثار ب"أبوظبي"

اسهاما من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى المهرجانات الفكرية والعلمية العربية ، وجهت هذه الوزارة وفدا برئاسة الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، وعضوية الدكتور عبد الهادي التازي ، ومصطفـــى اعشى ، والمهندس المعماري سعيد الفاسي ، والمهـــدي الدليـــرو ، لحضور المؤتمر السابع للآثار العربية المنعقد ب « أبو ظبي » ما بين 7 و 16 دجنبر 74 ، وقد درس المؤتمر مظاهر المعالم الاثرية فى البلاد العربية شرقا وغربا ، والقى رؤساء الوفود عروضا حول معطيات الفن العربي فى كل قطر ، وتبودلت الآراء بين الوفود العربية ، والجهد الذي يبذله كل بلدعربي فى هذا السبيل . وقد قام الوفد المغربي بنشـــاط ملمـــوس للتعريف بمظاهر هذا الحقل الحيوي ، كما القى رئيس وفده ، محاضرة قيمة حول معطيات الفن الاسلامي فى المغرب العربي من عهد المرابطين الى العصر الحاضر ، مع ابراز خواص الفنون المعمارية والاثرية بالنسبة لكـــل عصـــر .

معرض فلسطين

رحبت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، باقامة « معرض فلسطين » فى عاصمة المملكة المغربية ، فى النصف الثاني من شهر مارس

المقبل ، بناء على الاقتراح الذي تقدم به فى هذا الموضوع ، الامين العام للاتحاد العام للفنانين التشكيليين الى السيد وزير الدولة فى الثقافة .

سيضم هذا المعرض خمسين عملا فنيا لفنانين تشكيليين عرب ، تتناول قضية فلسطين ، وسينقل بعد اقامته بالرباط (باب الرواح) ، الى كل من الجزائر ، وتونس .

المهرجان العالمي الثاني للفنون الزنجية

سيعقد باللاغوس ، من 22 نونبر الى 20 دجنبر من هذه السنة ، المهرجان العالمي الثاني ، للفنون الزنجية .

وسيشارك فى هذا المهرجان ، اكثر من سبعين دولة من دول افريقيا ، وآسيا ، ويشتمل على برنامج حافل بالمعارض الفنية ، والتمثيليات ، والحفلات الموسيقية ، والفولكلورية ، والمحاضرات والندوات حول موضوع : « الحضارة الزنجية والتربوية » .

وقد قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، مشاركة المغرب فى هذا المهرجان العالمي ، بمختلف المشاهد ، والمظاهر الثقافية والفنية المغربية ، نتيجة للمحادثات التي اجراها فى هذا الصدد، السيد وزير الدولة النيجيري ، المكلف بالثقافة ، مع السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية فى شهر شتنبر الماضي .

معرض السنتين للفنانين التشكيليين

تحت اشراف وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، يقيم الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب ، الذي يضم فنانين من : المغرب ،

والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، ومصر ، واليمن ، وفلسطين ، ولبنان ، وسوريا ، والكويت ، والعراق ، « معرض السنتين » فى شهر ابريل من سنة 1976 بالرباط . وقد سبق لهذا الاتحاد ، ان اقام معرضه الاول فى بغداد ، شاركت فيه كل تجمعاته .

تأسست هذه الجمعية فى أواخر عام 1971 فى دمشق ، برعاية السيد رئيس مجلس الوزراء السوري ، وعقد مؤتمره الاول فى بغداد فى شهر ابريل 1973 ، برعاية رئيس الجمهورية العراقي ، وقد أصدر الاتحاد مجلة تعني بابراز نشاطه الفني .

ميخائيل نعيمه - و" المناهل"

بعد صدور العدد الاول من « المناهل » ، بعث السيد محمد الصباغ ، برسالة الى صديقه الكبير ميخائيل نعيمه ، يود فيها منه ، أن يشارك بانتاجه فى هذه المجلة ، فاعتذر « ناسك الشخروب » ، عن الاستجابة لهذه الرغبة ، لكونه لم يعد فى مستطاعه ان يكتب ، بعد ان جاوز الخامسة والثمانين .

والملاحظ فى جواب نعيمه ، انه مكتوب بمشقة وعناء ، فتبين حروفه مهزوزة غير مستقيمة ولا منتظمة .

احببنا نشر صورة من فقرات هذه الرسالة ، لانها تؤرخ لمرحلة من حياة شيخ الادباء العرب الكبير ــ التي سخرها جادا ، صبورا ، مخلصا لقلمه بغير شريكة حياة ، ولا نعمة اولاد ، ولا قطع وقت فى ما لا ينفع . وانما كان ذلك الاديب الملتزم لفكره ونبضات قلبه ، يقتات مما يدر عليه انتاجه ، دون ان يلتجيء فى حياته كلها الى وظيف ، من شانه ان يبعدم

عن رسالته الانسانية . وكثيرة هي الوظائف السامية التي عرضت عليه ، فرفضها ، معتزا بوظيفة القلم ، التي يراها أسمى الوظائف وابقاهـــا على الدهر ، حتى أثرى المكتبة العربية بروائعه ونفائسه ، فكتب فى جميع الميادين القلمية ، من شعر ، وقصة ، ورواية ، ومسرحية ، ومقالة ، ونقد ، وسيرة ، وترجمت جل اعماله الادبية الى اللغات الحية ، كما كتب بعض مؤلفاته باللغة الانجليزية ، ككتابه ((مرداد)) ، الذي يعد حصيلـــة تفكيره وفلسفته فى الحياة ، والكون ، والناس . ورشح لجائزة نوبـــل عـــدة مـــرات .

يعد نعيمه انطلاقة لمدرسة جديدة فى الادب العربي الحديث ، منذ اوائـــل العشرينـــات اي منذ تاسيـــس ((الرابطـــة القلميـــة)) فى نيويورك ، تلك التى اشتهرت بالمدرسة المهجرية الشمالية ، التي لم يبق من افرادها على قيد الحياة ، الا نعيمه ، بعد وفاة : جبران ، وأبى ما ضي، ووليام كاستفليس ، وندرة حداد ، وعبد المسيح حـــداد ، ونسيـــب عـــريضـــة .

وها هو ميخائيل نعيمه ، فى الخامسة والثمانين ، يجيب صديقه ، بانه ليس فى مستطاعه ان يكتب ! فتزدحم فى هذه الجملة تلك السنون الكثيرة الطويلة ، وما فيها من صراع ، وذكريات ، وطمـــوح ، وجهـــد ومجد ، يتف عندها اليوم قلم نعيمه ، ليسجل فى آخر صفحتها (نقطة) .

انها نقطة بداية ، وليست نقطة نهاية .

ميخائيل نعيمه
بسكنتا - لبنان
١٢ ك١ ١٩٧٤

أخي محمد

سرّني جداً أن أتلقى رسالتك بعد انقطاع أخبارك عني مدة طويلة.

لم يصلني بعد العدد الأول من مجلة «المناضل» التي تشرف أنت على تحريرها. وبالطبع كان في مستطاعي أن ألبي طلبك فأوافيك بمقال للعدد الثاني منها. إلا أن ذلك بات فوق طاقتي وقد جاوزت الخمسة والثمانين.

المخلص
ميخائيل نعيمه

الأستاذ محمد ابن تاويت "الطنجي" في ذمة الله

نعت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية آسفة ، أحد الاعــلام المغاربة الافذاد ، البحاثة الذائع الصيت ، الاستاذ محمد ابن تاويــت (الطنجــي) .

والمرحوم الكبير ، شخصية علم ، ومعرفة ، وبحث ، وتأليف ، ادى لعالم الابحاث جهودا مرموقة مشكورة ، حتى باتت هذه الابحــاث مصدرا أمينا حصيفا ، يرجع اليه الباحثون العرب ، وغير العرب ، من مختلف المستشرقيــن .

هو صاحب مدرسة في البحث ، اتسمت بشموليــة المصادر ، واستيعاب المراجع وتمحيصها بعلم ، ودراية ، مع ذوق ، وصبــر ، ومعاناة ، وكانت أعماله دائما مطبوعة بطابع التفرد والتميز .

درس بجامعة القرويين . ثم بكلية الآداب بالقاهرة . اشتغل استاذا بجامعة انقرة ، ثم رئيسا للقسم الثقافي بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية سنة 1962 .

وعلى سبيل المثال ، نذكر من الكتب التي حققها وعلق عليها :

— التعريف لابن خلــدون .
— جذوة المقتبس للامام الحميدي .
— شفاء السائل لابن خلدون .
— اخلاق الوزيرين (الصاحب ابن عباد ، وابن العميد) لابي حيــان التوحيــدي .

كما كان يتوفر على نصوص غير معروفة لمقدمة ابن خلــدون ، وجملة فصول غير مطبوعة من كتاب فهرسة لابن النديم .

نسأل الله تعالى أن يتغمد برحمته فقيدنا الغالي ، فقيـــد العلـــم والبحث والتحصيل ، وان يسكنه فسيح جنانه . وانا لله وانا اليـــه راجعـــــون .

عيسى الناعوري في المغرب

زار المغرب مؤخرا الكاتب الاردني المعروف ، الاستاذ عيســـى الناعوري ، زيارة استطلاعية للتعرف على الحركة الفكرية فى المغرب ، والوقوف على مظاهرها الثقافية والاجتماعية . وخلال اقامته فى المغرب ، نظمت له وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، عدة زيارات لمختلف المكتبات المغربية ، وعقدت له اتصالات مع رجال الفكر فيها .

وختم الاستاذ الناعوري ، زيارته لبلادنا ، بالقـــاء محاضـــرة فى مسرح محمد الخامس ، تحت اشراف وزارة الثقافة ، فى موضوع : « الآثار العربية فى الاندلس ــ كنوز حضارة ومجد » .

كتبٌ مغربية صَدرت مؤخراً

— **« الحياة الفكرية على عهد الدولة المرينية والوطاسية » (باللغـــة الفرنسية) للدكتور محمد ابن شقرون : مطبعة محمد الخامس ــ فاس.**

— **« ملامح من شخصية علال الفاسي » لعبد الكريم غلاب : مطبعـــة الرسالـــة ــ الربـــاط .**

— **« مع الادب والادباء » لعبد الكريم غـــلاب : دار الكتـــاب . الدار**

البيضـــاء ، المغـــرب .

— « مجموعات قصص بسمة للأطفال » (تسع حلقات) :

1) نشيـــد مـــدرســـي .
2) العـــــش .
3) على مائدة الطعام .
4) مونـــا ليـــزا .
5) السمكة المسحورة .
6) اصـــــــوات .
7) الصيـــــاد .
8) عنكبـــوتـــة .
9) مخلوق . لمؤلفها محمد الصباغ : دار الكتاب اللبناني — بيروت.

— « الأشياء المنكسرة » ، شعر لعبد الكريم الطبال : دار النشـــر المغربيـــة — الـــدار البيضـــاء .

— « من أدب الدعوة الاسلامية » ، للدكتور عباس الجـــراري : دار الثقافـــة — الـــدار البيضـــاء المغـــرب .

ندوة ثقافية بوزارة الثقافة

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بقاعة محاضراتها ، ندوة عن المجامع والجامعات العربية ، شارك فيها أعضاء من اللجنـــة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربي وهم :

الدكتور ناصر الدين الاسد : المدير المساعد لمنظمة التربية والثقافة والعلوم .

الدكتور شكري فيصل : الاستاذ بجامعة دمشق وامين سر المجمع العلمي بدمشق .

الدكتور محي الدين عبد الرزاق : رئيس مجمع العلمي العراقي .

الدكتور عبد الحليم منتصر : عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وادار الندوة الدكتور عبد الهادي التازي .

حضر هذا الحفل الثقافي ، السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، وبعض الوزراء وسفراء البلاد العربية ، وجمهور غفير من المثقفين والادباء والاساتذة والطلبة . طرحت فى هذه الندوة عدة قضايا : كتكوين المجامع العربية ، ووحدتها ، وانتاجها ، ودور الجامعات فى البلاد العربية ، ومهمة البحث العلمي ، والمصطلحات العلمية والحضارية .

وكانت الندوة مفيدة وناجحة تدخل فى مناقشاتها كثير من الحاضرين .

حفلة تكريمية لأعضاء اللجنة الاستشارية للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي

اقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيني ، مادبة عشاء ، تكريما لأعضاء اللجنة الاستشارية للمكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي، حضرهبعض الوزراء ، وبعض رجال السلك الديلو ماسى العربى ، بالاضافة الى مجموعة كبيرة من رجال الادب والفكر .

وبهذه المناسبة القى السيد وزير الثقافة خطابا بليغا ، اثبتنا نصه افتتاحة لهــذا الصــدد .

وقد شارك الجوق الاندلسي بنغماته فى هذا الحفــل الثقافــي التكريمــي .

مشاركة وزارة الدولة في الثقافة في تأبين السيدة أم كلثوم

اسهاما من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى تابيــن سيدة الغناء العربي ، المرحومة الكبيرة السيــدة ام كلثــوم ، خصص التليفزيون المغربي للوزارة برنامجا عبرت فيه عن عواطفها نحو الراحلة الكريمة . املى هذه العاطفة وبثها السيد محمد الصباغ ، عضو ديــوان السيد وزير الثقافــة :

اترثين ؟ ! ! انت انت ترثين بعبارات الكفن والتابوت ؟ !

وجميع الواح الدوح عيدان ومزامير ، لم تبق فيها فسحــة لاي تابوت لك ، يا من سبكت رثاء الناس فى ضمة تهنئة ، وقطرت الوجع ذوب انخاب فى كؤوس ، وترجمت الدمعة الى بسمة ندى فى صباح الوردة ، وعشية الياسمينــة .

الحزن ، انت خطفته من اناته أيام السواد .

الحداد ، انت وشيت اصابعه بلون المهرجان .

الفاجعة ، انت نفيتها من الكوخ ، وسرير المريض ، ودجنة التائــه المــدلهــم .

تحضرين ، فيطرب خاطر ، ويخفق هاجس ، ويسمر عيد فى الف ليلة وليلة ، فيسكت عن الكلام المباح ،) فى حضرتك ((الهرونية)) الغيناء .

وفى غفلتك ، تذبل وردة المجلس ، ويكتهل السام حتى يشيب تثاؤبا .

ويا ايها الصوت المارد ، وقد حطمت نواته ، فانفلق لعبة سحر ـ ذبذبات فى لهاتك ، تبتدعينها : زئيرا وحفيفا ، نفيرا ونسيما ، قعقعة وهينمة ، عويلا ورخاء نجوى ، وابتهال صلاة .

فالحرب انت ، والسلم انت ، والنار انت بردا وسلاما ، والخمرة والهوى ، يـ انت ، وترفعين صوتك ، فتنحني الهامات وتنضني فى قبضتك.

اترثين ؟ ! ! انت انت ترثين بعبارات الكفن والتراب ؟ ! يا ام الحياة المكلثمة فى سمقة وبهاء الحياة ، من حياتك التي تقبلين عليها ، وانت نداوة فى عروق من تركتهم من الملايين على قمة الهرم العربي الشاسع ، يشهدون بزوغ مولدك وانطلاقه كلما ان رباب ، ورن وتر ، وعندل ايك ، وهش وجه بفرحة ، وبشرى .

ففى كل بيت بيت لك مهد مولدك ، وفى كل ناد ناد لك هواتف بحياتك وبقائك ، ما بقيت السماء تفرخ الزقزقات ، وما دامت الارض تنفث الزقزقات .

والسلام عليك يوم جرت لهوتك بالخارقة ، ويوم صدعت باسرار كلثومك الام ، واوان نحتفل بمولدك ، فنستقبلك اليوم فى جمع اغانيك .

ففيابك عنا دقيقة (وصلة) ، تحفة حضور ، موصول ، محفور ، فى اسطوانة حياة ، تديرها ملايين الاصابع .

المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته بتونس

افتتح بتونس ، فى الاسبوع الاخير من شهر دجنبر الماضي ، المؤتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته ، حضر أشغاله ثمانون عالما فى التاريخ من مختلف بلدان المغرب العربي ، وافريقيا ، واوربا ، قدموا فيه

ما يقرب من ستين بحثا ، فى التاريخ القديم ، والوسيط ، والعصر الحديث .

الاحتفال بالذكرى الاربعينية لوفاة الشابى

اقامت تونس مهرجانا ادبيا كبيرا بمناسبة مرور اربعين سنة على وفاة شاعرها المبدع ابو القاسم الشابي ، استدعي للمشاركة فيه مجموعة من الادباء والشعراء من مختلف البلدان العربية المهتمين بأدب الشابي ، وقد القيت فى هذا المهرجان عدة كلمات ودراسات اتسمت بالجدة ، والكشف عن بعض الجوانب فى حياة الشابي وأدبه لم تدرس من قبل .

إكتشاف مخطوطات عربية

توجد مجموعة من المخطوطات العربية القيمة يعود تاريخها الى ما قبل 200 1 عام ، موجودة حاليا فى سرداب أحد البنوك بمقاطعة ليكتنشتاين الواقعة بين النمسا وسويسرة . وقيل انها تساوي مليون دولار .

واشارت الصحيفة الى راي احد الخبراء ، فى ان هذه المجموعة ، هي أكبر مجموعة لمخطوطات كتبت على ورق البردي تكتشف حتى الان ، ستزود التاريخ الاسلامي بتفاصيل تتعلق بالفترة التي تلت وفاة الرسول « ص » .

وتحتوي المجموعة على الفي مخطوطة ، منها 400 باللغة العربية ، والباقية كتبت باللغات : اليونانية ، والقبطية ، والهيرية ، والديموطية .

وقد جرت العادة على ان يزيد حجم مخطوطات ورق البردي على

حجم بطاقة البريد لاسباب اقتصادية ، اما هذه المجموعـــة ، فتضـــم مخطوطات كبيرة الحجم ، فهناك مخطوطة تحمل قرار احد الخلفـــاء ، بنصب عامل على احدى الولايات فى القرن الثامن الميلادي ، يبلغ طولها (24) عقدة ، وعرضها (14) عقدة .

هذا ، وقد حاولت اسرائيل منع هذه الوثائق القيمة التي كانـــت موجودة فى القدس المحتلة ، من التسرب الى ليكتنشتاين ، الا انهـــا فشلت فى ذلك .

ويقول احد اساتذة التاريخ الاسلامي ، ان هـــذه المخطوطـــات ، ستساعد على توفير معلومات قيمة ، تتعلق بادارة الشؤون المالية ، اثناء الحكم ودراسة الاسعار ، وكيفية فرض الضرائب ومعاملة الاقليات ، ويرى هذا الاستاذ ان الامبراطورية الاسلامية ، قد ضعفت بسبـــب اخطـــاء اقتصاديـــة ارتكبتهـــا .

كما يقول استاذ آخر ، انه من المؤسـف ، ان تبقى هذه المخطوطات مخزونة ، ويجب اخراجها فورا ، والاستفادة منهـــا ، اذ ان قيمتهـــا التاريخية لا تقـــدر .

كتب التراث العربي

من كتب التراث التي صدرت حديثا :

1) شرح القصائد التسع المشهورات ، صنعة ابي جعفر احمـــد بن محمد النحاسي المتوفى 338 هـ ، تحقيق الاستاذ احمد الخطاب ، صدر الكتاب فى جزئين ، بلغ عدد صفحاته ، 894 صفحة نشـــر مديرية الثقافة العامة بوزارة الاعلام العراقية ، والكتاب رقم 23 من سلسلة كتب التراث .

2) كتاب الاصول فى النحو ، لابي بكر بن السراج النحوي البغدادي ، المتوفى 316 هـ ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ، وقد ساعد على طبعه المجمع العلمي العراقي ، وطبع بمطبعة النعمان بالنجف الاشرف سنة 1973 الجزء الاول فى 544 صفحة .

3) الانصاف فى التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم ، لابن السيد البطليوسي ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية الاستاذ المساعد بجامعة دمشق ، طبع دار الفكر — دمشق 1974 .

4) الرصف لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من الفعل والوصف ، تاليف محمد بن محمد بن عبد الله العاقولي المتوفى سنة 797 هـ ، تحقيق لجنة من العلماء الافاضل ، طبع فى دمشق سنة 1973 ، وصدر الجزء الاول فى 632 صفحة .

5) فهرس المخطوطات العربية ، فى مكتبة الاوقاف العامة ببغداد ، الجزء الثاني ويضم كتب علم اصول الفقه والميراث والتصوف والعقائد والحكمة والفرق الاسلامية ، ويقع فى 655 صفحة ، منشورات رئاسة ديوان الاوقاف ، طبع مطبعة الارشاد ببغداد سنة 1974 .

6) التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزي الكلبي الغرناطي ، تحقيق الاستاذين محمد عبد المنعم اليونسي ، وابراهيم عطوة عوض ، صدر فى اربعة اجزاء عن دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

من الكتب التي تحت الطبع :

1) كتاب التقفية للبندنيجي ، وهو معجم من اقدم المعاجم اللغوية ، تحقيق الدكتور خليل ابراهيم العطية الاستاذ المساعد فى كلية الآداب بجامعة البصرة .

2) عقيدة عدي بن مسافر ، تحقيق الاستاذين : ابراهيم النعمـــة ، ومحمد علي الياس العدواني .

3) ربيع الابرار ، للزمخشري ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي .
وقد تقرر طبع هذه الكتب الثلاثة فى سلسلة احياء التراث الاسلامي التي تصدرها رئاسة ديوان الاوقاف ببغداد .

4) شرح مشكلة ديوان المتنبي ، لابن سيده الاندلسي .

5) ديوان ابن الجياب الغرناطي الاندلسي ، ويقوم بتحقيقهما الدكتور محمد رضوان الداية استاذ الادب المساعد بكلية الآداب بجامعـــة دمشـــق

الاحتفال بالذكرى الألفية للفرابي

يعتبر الفارابي صاحب « المدينة الفاضلة » من عمالقة الفكر الاسلامي الذين استقطبوا اهتمام عدد كبير من الباحثين العرب وغير العرب ، فقد الفت عن منهجيته الفكرية كتب كثيرة بالعربية ، واهتم المستشرقون به اهتماما متزايدا ، حتى اطلق عليه لقب « المعلم الثاني » .

الف الفارابي مبادىء « المدينة الفاضلة » ، طبع لاول مرة سنـــة 1895 ، وتسعة كتب فى الرياضيات ، والنجوم ، والكيميا ء ، والموسيقى، وتسعة مؤلفات اخرى فى موضوعات مختلفة ، بالاضافة الى مؤلفاته فى احصاء العلوم ، والسياسة المدنية . وقد توفي عام 331 هـ .

وبمناسبة مرور الف سنة على وفاته ، يقيم العراق مهرجانا أدبيـــا حـافـــلا .

وقد تكلفت لجنة تضم فريقا من أهل الفكر والادب العراقيبـــن ، بالاعداد لهذا الاحتفال الذي سيقام في بغداد ، في شهر أكتوبر 1975 ، سيدعى اليه علماء ومفكرون من البلاد العربية ، وغيرهـــا مـــن الاقطار .

الذكرى المائوية لولادة أمين الريحاني

بمناسبة مرور مائة عام على ولادة فيلسوف الفريكة ـ أمين الريحاني، ينظم في بيروت خلال سنة 1976 ، مهرجان ادبي تحضره شخصيات من رجال القلم في البلاد العربية ، وستجمع جميع اعماله الفكرية ، وتطبع في مجلـــد واحـــد .

المناهل

الفهرس